الجزء الثاني — المجلد الرابع والثلاثون





جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسان ١٩٨٣ م

مجلة المجمع العلمي العراقي





جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسان ١٩٨٣ م

نقل كتب العلوم الى العربية

الدكتور صالح أحمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

مكانة اللغة العربية :

كانت للغة العربية مكانة متميزة في الدولة منذ أول تأسيسها ، فهي لغة القرآن الكريم والفرائض الإسلامية ، وهي لغة الرسول (ص) والمسلمين الأولين الذين آمنوا بالإسلام وتشبعوا بتعاليمه ، ودافعوا عنه ، وكوّنوا دولته ووسعوّها . وهي لغة الخلفاء والولاة والقواد والمقاتلة الذين قاموا بالفتوح وكانوا الموجهين لسياسة الدولة. وقد تمسك كلهم باللغة العربية ، فهي لغتهم ، ولغة القرآن الكريم ، ولغة الفرائض الإسلامية ؛ ولذلك كانوا يستعملونها دون غيرها في حياتهم اليومية وفي مكالماتهم والمخاطبات التي تجري بينهم ، وعملوا بعد تعريب الدواوين (في حوالي سنة ٧٥ هـ) على تعميم استعمالها في دواوين المالية والجباية والميادين الادارية الاخرى ، وبذلك اصبحت اللغة العامة في الادارة ، واحدى وسائل توحيد الدولة ؛ وما لبثت ان انتشرت بين الاعاجم المتصلين بالعرب ، فكانت لغة الأعمال والتجارة العامة .

ومما ساعد على انتشار استعمال اللغة العربية غناها في المفردات ، وخاصة في ما يتصل بالإنسان وبنائه وسلوكه ، وحيوانات الجزيرة ونباتاتها ، وما يتصل بالتربة والمناخ ، هذا فضلاً عن مرونتها وقابليتها للاشتقاق والنحت .

والواقع ان تكوين اللغة العربية وخصائصها وغناها كانت مادة لدراسات غنية في المعاجم والنحو والصرف والبلاغة والبيان والادب .

كان العرب يعتزون بلغتهم . وقد تمسكوا بها ، واصروا على ابقائها لغة القرآن الكريم والفرائض الإسلامية ، فلم يقرّوا ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الاعجمية ، او اداء الفرائض الإسلامية بغير العربية ؛ وفيما عدا ذلك لم يحاولوا اجبار الناس على استعمالها ، فظلت اللغات الاخرى مستعملة عند من كان يتكلم فيها قبل الفتح ، وكانت هذه اللغات محدودة في مجتمعات متعددة ، فكل منها لغة محلية مهما كان عدد المتكلمين بها .

ان انتشار اللغة العربية في كافة ارجاء الدولة الاسلامية الواسعة كان دافعاً لانمائها وجعلها لغة عالمية ، فمن يتقنها يستطيع ان يسمع عدداً كبيراً من العلماء ، ويقرأ مقداراً كبيراً من الكتب يفوق ما يسمعه او يقرؤه من لايعرف الا لغة محلية محدودة الاستعمال ، كما ان الكتاب المؤلف بالعربية يلقى رواجاً في كافة ارجاء الدولة ، بينما الكتب المؤلفة باللغات المحلية يقتصر استعمالها على نطاق ضيق لا يتجاوز منطقة استعمال تلك اللغة . والواقع ان نمو الانتاج الفكري بمستوى عالمي عالي يزيد من اقبال المثقفين على تعلم العربية واستعمالها فيما بينهم دون ان يحتاجوا الى استخدام اللغات المحلية التي تضاءل استعمالها واقتصر على الاوساط الشعبية غير المثقفة ، وخاصة من الفلاحين .

وكانت في الشرق الاوسط لغات متعددة ولهجات محلية متنوعة ، غير ان اللغات الرئيسة السائدة هي الفارسية ، والسريانية ، والاغريقية ، ويمكن ان نضيف اليها الهندية بالرغم من البعد المكاني للهند .

عنى العرب بالأمور الفكرية منذ أزمنة قديمة ، وهذا يتجلى في ما وصلنا عنهم من شعر وامثال وأخبار ، فلما جاء الاسلام قدم دافعاً اساسياً قوياً ازيادة العناية بالفكر ، ووجهه توجيهات جديدة ، كما اظهر استيعاب اللغة العربية لما تتطلبه المستويات العالية في التفكير المجرد من تعابير دقيقة ومتنوعة . وعمل

القرآن الكريم وما كان للعرب من اهتمامات ثقافية على وضع اسس البناء الفكري الذي شارك في حفظه وتوسيعه العدد الكبير من محبي العلم ومن مختلف الاوساط والجهات ، وبدأت تتوضح معالم الصرح الثقافي وتتكامل في ميادينها الرئيسة وهي القرآن الكريم وما يتصل به من رسم كتابة ، وضبط قراءة ، وتحديد معنى ، وفهم مقصد ، وبيان سبب النزول وتاريخه ، ثم تتبع المعلومات الاضافية لمـــا ذكره او اشار اليه من اخبار وافكار .

وبالاضافة الى الاهتمام بدراسة القرآن الكريم وما يتصل به ، فقد عني العرب بالتفكير في القضايا والمشاكل التي يواجهها الفرد في المجتمع الاسلامي ، سواء في سلوكه الفردي ، او في علاقته باسرته او بالمجتمع او الدولة ، وبمختلف الجوانب المتصلة باقامة الفرائض الاسلامية ، والعــلاقات الاجتماعيــة ، والنشاطات الاقتصادية ، فظهرت عناية في رصدها وتتبعها والبحث في «الأمثل» المقبول منها ، فكان ذلك ميداناً بدأت تتضح معالمه فيما نسميه الفقه .

ورافق ذلك اهتمام بدراسة حياة الرسول وسيرته واعماله واقواله ، باعتباره المثل الاعلى في الاسلام ، والمدرك الاول لمتطلبات الاسلام والمعيار الذي يحكم به على الأعمال والتصرفات واستمر الاهتمام بالشعر وتقدير الكلام المعبّر عن الملاحظة الفطنة والفكرة الطريفة والتعبير السليم ، واتصل بعضه بالدراسات الدينية ، وظل معظمه يسير بين الناس عموماً . فكان شعبياً ودنيوياً .

إنسياب وتسلل بعض الأفكار :

انهذا الهيكل الفكري اعتمد في تشييده على العرب واستقر علي ما يهتمون به وتبــلور باللغــة العربية . غير انه لم يقم في ارض معزولة ليس فيهــا الا العرب وانما امتد ازدهاره الى مناطق كان يعيش فيها عدد كبير من غير العرب ، وفيها معارف وافكار لم يبدعها العرب ، كما اسهم فيه اناس تعلموا العربية « على كبر » فكانت لهم لغة ثانية جاءت بعد لغة الام التي تعلموها منذ الطفولة . ولا بد

في مثل هذه الأحوال ان تتسلل بعض الافكار الاجنبية الى افراد وجماعات من العرب ، وقد يصل بعض هذه الافكار الى المفكرين والعلماء والمبدعين فيأخذونها او تثير فيهم التفكير في جوانب ومشاكل جديدة ، فتوسّع آفاقهم وتؤثر في تطوير هيكل ونطاق معرفتهم .

ان هذا الانسياب والتسلل واسع في مداه ، فهو يمتد من ما يأخذه الطفل من مربيه او امه اذا كانت اعجمية ، الى رجل الاعمال في السوق والتجارة من والى ما يسمعه محب المعرفة من اسئلة او تعليقات او آراء ممن يتصل بهم من الطلبة او غيرهم ، وهي تشمل جوانب متعددة ، منها اللغة ومفرداتها ، والقصص الشعبية وما فيها من اساطير او افكار دينية وتوجيهات خلقية ، واخبار العالم والتاريخ الشعبي ، ومعلومات عن البلدان واوصافها وخصائصها ، والعلاجات والادوية ، والافكار المتعلقة بمكانة الانسان وعلاقاته بالمجتمع وبالكون وما الى ذلك من مواضيع تدخل في باب الفلسفة والاخلاق ، وبالنظر لسعة ميدان هذا الانسياب وتشعبه وكونه يتم شفاها او بهدوء ومن غير تدوين ، فانه لا يمكن تحديد نوع الافكار التي جاءت عن طريقه او مقدارها او سبل انسيابها ، ومما يزيد في صعوبة هذا التحديد ان التدوين لم يصبح واسعاً الا بعد انتشار استعمال الرق في اواخر القرن الثاني الهجري ؛ غير ان المؤلفات التي كتبت بعد ذلك فيها اشارات الى بعض ما انساب عن هذا الطريق ؛ كما ان الكلمات الاعجمية التي انتشر استعمالها عند العرب تقدم دليلاً اخر ، وكلاهما يظهر ان ما اخذه العرب عن هذا السبيل لم يكن واسعاً ، ولا بالمستوى العالي ، وبذلك لا تتأيد صحة بعض من استغل وجود هذا التسلل فبالغ في دوره وآثاره في الميدان الذي اختاره هذا البعض ، كالذي فعل طه حسين في بعض آرائه في آثار الثقافة الإغريقية ، او أحمد امين في كلامه عن الآثار الفارسية .

نقل المعلومات المدوّنة :

غير ان التطور الحضاري والفكري تطلب بعد توسعه معلومات لترسيع وتحسين المعرفة التي كونت الهيكل الثقافي ، عن علوم ومعارف لم تشغل حيزاً واسعاً في ذلك البناء ، ولكن ارتأى بعض الافراد من ذوي النفوذ وجوب الاطلاع عليها بتكمل البناء الثقافي وتوسع هيكله . وارتأوا ان تكون المعلومات الجديدة مدوّنة كيما يسهل نسخها ونشرها وقد تم ذلك عن طريق ما نسميه « النقل » أو « الترجمة » الى العربية ؛ ونقصد بذلك نقل المعارف والمعلومات من مدوّنات بلغات اعجمية الى مدونات باللغة العربية ؛ وبهذا التعريف يقصر بحثنا على نقل معلومات الكتب دون بحث الافكار والمعلومات الاعجمية التي تسربت الى العرب عن طريق السماع والمشافهة الذي اشرنا الى وجودها وصعوبة تحديدها وتتبعها بدقة .

ويتميز « النقل » بالمفهوم الذي حدّدناه ، ان بحثها يقوم على مادة معينة ملموسة ، هي « الكتب » ، ولذلك يمكن تتبعها كلياً او ببعض ما فيها ، ودراسة آثارها ومكانتها بين الكتب والمؤلفات الاخرى ومتابعة انتقالها او بعض معلوماتها في الكتب الاخرى المعاصرة أو التالية لها ؛ فهي تقدم اساساً لدراسات محددة معتمدة ؛ ولكنها في كثير من الاحيان لا تكفي لتقدير دورها وآثارها في البناء الفكري تقديراً دقيقاً .

عوامل ازدهار الفكر عند الأمم :

ولما كان الانتاج الفكري منوعاً في مادته مختلفاً في عرضه ، واسعاً في نطاقه ، فان تيسير دراسته يقتضي تجزئته وتصنيفه الى مجموعات لها رابط عام مشترك ، وهو اما ان يكون جنس المؤلف وعرقه ، او الاقليم الذي نشأ فيه ، او اللغة التي كتب فيها ، او الموضوع الذي بحثه . ولا ريب في وجود علاقة بين بعض الروابط العامة ، كالتي بين جنس المؤلف والاقليم الذي نشأ فيه واللغة التي كتب فيها ؛

غير ان هذه العلاقة لا تصل الى حد التطابق ، فليس من الضروري ان يكون كل من كتب بالفارسية فارسياً ، او كل من كتب باليونانية اغريقياً . وهذه العلاقة تكون اضعف عند سيادة استعمال لغة معينة في التآليف وخاصة ابان حكم الدول المعنية في الثقافة ، كالذي حدث في اللغة الاغريقية خلال حكم الساوقيين والبطالسة ، او اللغة العربية ابان سيادة الدولة العربية . فالعلاقة بين واحد أو أكثر من هذه الروابط لا تعني بأية حال التطابق بينها .

وقد ظهرت بعض النظريات التي تؤمن بحتمية التطابق بين الحركة الفكرية وواحد من هذه الروابط العامة ؛ ولعل ابرزها النظريات التي ربطت بين التطور الفكري والجنسي ، والتي ربطت بين التطور الفكري والاقليم ، وكلتا النظريتين تفترضان استقرار المجتمعات القديمة وقلة اختلاطها وصلتها باللغة ، اي ان الجنس العربي لا يتكلم الا العربية ، والفارسي لا يتكلم الا الفارسية ، والاغريقي لا يتكلم الا الاغريقية ؛ والعكس ايضاً صحيح فانه لا يتكلم العربية الا العرب وهكذا . وهذا ينطبق على الاقليم الذي تفترض النظريات ثبات سكانه واستمرار اثره ، وهي افكار غير صحيحة إلا الى حد محدود . فالعرب هم اغلب المتكلمين بالعربية ، ولكن بعض الاعاجم تكلموا العربية ، كما ان بعض العرب استعمل لغات اخرى في تآليفه والتعبير عن افكاره .

ان الاحاطة بكافة جوانب المعرفة والعناية بدراسة جملتها وتفصيلها هي مطلب مثالي لم يحققه اي مجتمع في القديم ؛ وان استعراض الحركة الفكرية يظهر ان كل مجتمع أولي في كل فترة من فترات تاريخه جانباً أو أكثر من الفكر ، فدرسه وأنماه ، ولكنه لم يستوعب كل جوانب الفكر ، كما ان كل مجتمع كان يتبع طرقاً معينة في البحث ، وقد يؤكد على طريقة أو طرق محدودة يرتئي انها وسيلة موصلة الى المعرفة الحقيقية ، بصرف النظر عن تقييمنا الحاضر لهذه الطرق . وقد اعتقد البعض بالتطابق بين مواضيع الثقافة

واساليب البحث والتفكير وبين الاجناس ، وهي اعتقادات كثر المدافعون عنها وانصارها في القرن التاسع عشر خاصة ، ووصلت اوجها في المانيا على عهد هتلر ، ولكنها تركت اليوم بعد ان بان زيفها ، فلم يعد يعتقد بها الا القلة المعزولة .

واعتقد فريق من المفكرين بالتطابق بين مواضيع البحث واساليبه وازدهاره، وبين البيئة الجغرافية ، وهو اعتقاد كثر المدافعون عنه من بعض المختصين بالجغرافية ، وربطه بعضهم بتمايز الاجناس التي ارجعوها الى اختلاف بيئاتهم الجغرافية ، ان هذه المعتقدات وردت في عدد من المؤلفات العربية عن الاقاليم الجغرافية حيث قسم اكثرها العالم الى سبعة اقاليم مرتبة تبعاً لبعدها من خط الاستواء ، وذكروا خصائص سكان كل اقليم ، وصاغوا كلامهم بما يوحي بان تلك الخصائص ناجمة عن الاحوال المناخية لذلك الاقليم . ووردت هذه الآراء ايضاً عند عدد من المحدثين في الغرب ، وتأثر بها بعض الباحثين في تاريخ الفكر العربي ممن ركزوا ابحاثهم على الدراسات الاقليمية .

واوضح من عبّر عن هذه الافكار عند العرب هو صاعد بن احمد حيث ذكر في كتابه « طبقات الامم » ان الامم من حيث عنايتها بالعلوم طبقتان « طبقة عنيت بالعلم فظهرت فيها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف ، وطبقة لم تعن بالعلم عناية تستحق بها اسمه بعد من امتثله ، فلم ينقل عنها فائدة حكمة، ولا رويت بها نتيجة فكرة . فاما الطبقة التي عنيت بالعلوم فثمانية امم : الهند ، والفرس ، والكلدانيون ، والعبرانيون ، واليونان ، والروم ، واهل مصر ، والعرب .

واما الطبقة التي لم تعن بالعلوم فبقية الامم بعد من ذكرنا من الصين ، ويأجوج ومأجوج ، والترك ، وبرطاس ، والسرير ، والخزر ، وجرران ، وكشل ، واللان ، والصقالبة ، والبرغر (والبلغر) والروس والبرجان ، والبرابر ، واصناف السودان من الحبشة ، والنوبة ، والزنج ، وغانة ، وغيرهم » .

ويذكر صاعد بعد ذلك عناية اهل الصين « بالصنائع العملية ، واحكام المهن التصورية » وتميز التـرك « بمعاناة الحروب ومعالجة آلاتها » ثم يقول « واما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم ، فهم اشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال ما بين آخر الاقاليم السبعة التي هي نهاية المعمور في الشمال ، فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم بردّ هواءهم وكثّف جوّهم ، فصارت لذلك امزجتهم باردة واخلاطهم فجّة ، فعظمت ابدانهم ، وابيضت الوانهم ، وانسدلت شعورهم فعدموا بهذا دقة الافهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة ، كالصقالبة والبرغر ومن اتصل بهم .

ومن كان منهم ساكناً قريباً من خط معدّل النهار وخلفه الى نهاية المعمور في الجنوب ، فطول مقاربة الشمس لسمت رؤوسهم اسخن هواءهم وسخف جوّهم ، فصارت لذلك امزجتهم حارة واخلاطهم محرقة ، فاسودت الوانهم ، وتفلفلت شعورهم ، فعدموا بهذا رجاحة الاحلام وثبوت البصائر ، وغلب عليهم الطيش ، وفشا فيهم النوك والجهل ، مثل من كان من السودان ساكناً باقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغيرها .

واما الجلالقة والبرابرة وسائر سكان اكناف المغرب من هذه الطبقة فأمم خصها الله تعالى بالطغيان والجهل ، وعمّها بالعدوان والظلم ، على انهم لم يوغلوا في الشمال فتلحقهم آفة البلد ، ولا تمكنوا من الجنوب فتقصر بهم طبيعة الموضع ، بل مساكنهم قريبة من البلاد المعتدلة الهواء .

فاما الجلالقة فمساكنهم في مغارب بعض الاقليم الخامس وما يتصل به من بعض الاقليم السادس ، واما البرابر فمساكنهم في مغارب بعض الاقليم الثاني وما يتصل به من الاقليم الثالث وبعض الاقليم الرابع ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ، ويعدل بنعمته عمن يشاء .

واما سائر من لم اذكره بشيء من هذه الطبقة ، فهم اسوة هؤلاء في الجهل وان اختلفت مراتبهم فيه ، وتباينت قسمهم منه ، لأنهم اجمعين مشتركون فيما ذكرنا منهم من انهم لم يستعملوا افكارهم في الحكمة ، ولا راضوا انفسهم بتعلم الفلسفة » (١) .

ومن الواضح في كلام صاعد ان الامم التي اشتهرت بالعلوم والعناية بالفكر ، هي التي تسكن الاقاليم الوسطى ؛ وان السبب الرئيسي لنشاط العلوم او جمودها هو المناخ الذي هو العامل الحتمي الاكبر ؛ غير ان الاستعراض التاريخي لتطور مراكز ازدهار العلم يظهر زيف هذه الحتمية المناخية ؛ حيث ان الامم التي قرّر جمودها الفكري تشهد في العصور الحديثة ازدهاراً فكرياً يؤهلها لان تكون في الصفوف المتقدمة من العناية بالعلوم ؛ كما ان اهل الاقاليم الوسطى مرت بكثير منهم فترات ازدهار ،وفترات اخرى من الركود وأوضح مثل على ذلك هو اليونان التي شهدت فترة من الازدهارالفكري العظيم ، وتلاها فترات طويلة من الركود ، ومثل هذا يصح على بعض اقاليم البلاد العربية التي مرت بها فترات من الازدهار والركود ، علماً بان بعض سكان الاقاليم الوسطى لم يعرف عنهم مساهمة كبيرة في العلوم ؛ بالاضافة الى ان العلم كان في المناطق الوسطى مثار اهتمام بعض وليس كل سكان اية منطقة .

ان نشاط أو خمود الحركة الفكرية في اي مجتمع هو نتيجة عوامل متفاعلة تجري مفعولها ضمن زمان ومكان محدد ، فهي ليست حتمية ، ولا تجمد على موضوع واحد او اسلوب معين ، وليس لها اساس واحد جامد ، وانما قد تتأثر بعدة اسس ، فأي اساس يتخذ يمكن ان يثير بعض الاعتراضات ، ولكن بالنظر لوجود صلة قوية بين اللغات والمجتمعات والاقاليم ، فاننا سنتخذ اللغة اساساً للتصنيف العام ، مع الاشارة الى مدى علاقتها بالعوامل الاخرى .

---

(١) طبقات الامم ص ٧–٩

النقل من الفارسية

يقول حمزة الاصبهاني ان طبقات ملوك الفرس القدماء اربعة هم الفيشدادية ، والكيانية ، والاشغانية ، والساسانية ، ثم يضيف « وتواريخهم كلها مدخولة غير صحيحة ، لانها نقلت بعد مائة وخمسين سنة من لسان الى لسان ، ومن خط متشابه رقوم الاعداد الى خط متشابه رقوم العقود ، وينقل عن ابي معشر قوله « التواريخ اكثرها مدخول فاسد . . وكذلك سنو ملوك الفرس وتواريخهم مع اتصال ايام ملكهم من اول الدهر الى ان زال ملكهم ، وقد بان فيها تخليط كثير وفساد بين ذلك . . انهم يزعمون ان الارض مكثت سنين كثيرة مرة بعد مرة ، وليس لها ملك منهم ولا من غيرهم [٢]

ويرجع حمزة اسباب قلة ما بقي من الانتاج الفكري الفارسي الى الاسكندر ، فهو يقول ان الاسكندر « لما استولى على ارض بابل وقهر اهاها حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التي لم تجتمع قط لامة من الامم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما نالته يده ، ثم قصد الى قتل الموابذة والهرابذة والعلماء والحكماء ومن يحفظ عليهم في اثناء علومهم تواريخهم حتى على عامهم هذا بعد ان نقل ما احتاج اليه من علومهم الى لسان اليونانيين » [٣] ولا ريب في ان الشق الاول من النص يتعلق ببابل ، اما الشق الثاني فالراجح انه يتعلق بالفرس لما فيه من ذكر الموابذة والهرابذة .

ويقول ايضاً ان الاسكندر « نقل عن بلدانهم علم النجوم والطب والفلسفة والحراثة الى بلدان المغرب بعد ان حولها الى اليونانية والقبطية ، وان ملوك الطوائف في ايامهم وضعت الكتب التي هي في ايدي الناس مثل كتاب مزدك ، وكتاب سندباد وكتاب سرسفاس وكتاب شيماس وما اشبهها من الكتب التي يبلغ عددها قريباً من سبعين كتاباً[٤] .

(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض . ص ١٣-١٤
(٣) كذلك ص ٢٤
(٤) كذلك ص ٤٠

والواقع ان الانتاج الفكري الذي وصل الينا بالفارسية يرجع اقدمه الى زمن الدولة الساسانية التي جعلت الفارسية لغـــة رسمية في الدين والادارة ، وبذلك حلـــت محل الاغريقية ، اما السبعون كتاباً التي اشار اليها حمزة فليست لدينا عنها معلومات

للفرس مناصرون في العهد الإسلامي وفي الأزمنة الحاضرة :

قضى العرب على الدولة الساسانية خلال مدة قصيرة انتصروا فيها بعـــد معارك حامية ، فأزالوها من الوجود ، وهيمنوا على كافة الاقاليم والبلاد التي كانت تحت حكمها . وبذلك اصبحت الدولة العربية الجديدة تضم كافة مراكز الحضارة والثقافة الساسانية ودخل في دولتهم كافة من كان خاضعاً للساسانيين من قبل بما فيهم اتباعهم وانصارهم والمتعصبون لهم ، ولم يترك الاقامة في الدولة الجديدة الاعدد قليل جداً هرب الى بلاد اواسط اسيا او الى الهند حيث يذكر البيروني « وبقي المجوس الى الآن بارض الهند ويسمون بهاملت »[٥] ، ولا تزال جالياتهم البارسية قائمة خاصة في بومباي ، وتقتضي هذه السيطرة السريعة الشاملة الى بقاء التنظيمات الادارية القديمة ، والمراكز الفكرية القديمة ؛ والواقع ان معظم بيوت النار الكبيرة ظلت في العصور الاسلامية كما سنذكر فيما بعد .

أمَّن العرب لمن ظل مقيماً في دولتهم الجديدة حرية العمل والتنقل والتفكير ، واعتبروا ذميين ، وعوملوا معاملة اهل الكتاب . واستخدمت الدولة الجديدة عدداً غير قليل منهم في ادارة كثير من المراكز الحضرية غير العربية ، وفي دواوين الخراج والجباية ، واباحوا لهم متابعة السير على اساليبهم القديمة ما دامت لا تهدد الأمن والاستقرار ولا تتحدى المثل العليا التي يعتز بها العرب المسلمون وقد ظـــل الكتاب يستعملون في اقاليم المشرق اللغة الفارسية حتى سنة ٧٥ هـ حيث الزموا باستعمال العربية في مكاتباتهم ومعاملاتهم ، ولكن الدولة ابقتهم في اعمالهم ، فلم تُقصهم عنها ، ولم تلزمهم باتباع اساليب تختلف عما

(٥) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ١٥

كانوا يعملون عليه .

وقد سار العرب في ادارتهم على مبادىء من الحرية والروح الانسانية ، فرضي الناس بالحكم الجديد، وقدَّروا مُثلَهُ ، واقبلوا على اعتناق الاسلام طوعاً ، واخذوا يتسمّون باسماء عربية ، وقد تم ذلك بصورة اختيارية ومن غير اجبار ، كما أقبل عدد غير قليل من الاعاجم على تعلم اللغة العربية ودراسة « علوم الاسلام » العربية وما يتصل بالقرآن الكريم والحديث النبوي ، واللغة العربية وآدابها ، وكلها معبرة عن ثقافة العرب ، ممكِّنة لمثالهم الفكرية .

ومن مظاهر وآثار الحرية التي رعاها العرب اتاحة المجال لكثير من الاعاجم اشغال مناصب منوعة ، وبعضها عالية ، في ادارة الدولة ، وخاصة بعد تولي العباسيين الخلافة ، مما دفع البعض الى وصم دولة العباسيين بانها « عجمية خراسانية ، ، ودولة بني مروان عربية اعرابية وفي اجناد شامية »[٦] .

ان الحرية التي وفرها العرب في دولتهم كان لها اثر كبير في ازدهار الفكر ونشاطه في عدد غير قليل من المراكز الحضرية ، بما في ذلك العراق واماكن متعددة من الهضبة الايرانية ، وليس من قبيل الصدف ان يتركَّز النشاط في المراكز التي استوطنها العرب ، وان تشهد بلاد الهضبة الايرانية بعد ان اصبحت ضمن الدولة الاسلامية الجديدة، اروع ازدهار فكري وحضاري، وان ينصَبَّ معظم هذا النشاط على المعارف المتصلة بالعرب والتي عنى بها العرب والتي تجسد تراث العرب الفكري ، وان ينمو هذا الازدهار ذاتياً وتلقائياً ، ومن دون فرض خارجي او اجبار قسري او تقيد في طبقة معينة .

قادت الحرية الى تنوع الافكار وتعدد الآراء ، والى ظهور تيارات فكرية بعضها متعارضة ، وشملت الكليات والجزئيات ، ويتجلى هذا بوضوح في

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ٣٦٨/٣

تعدد وتباين الآراء التي عرضتها الفرق الاسلامية عن ذات الله تعالى وصفاته وعلاقته بالانسان ؛ وبصورة خاصة آراء المجسِّمة[٧] .

يسرت هذه الحرية للمعجبين بالساسانيين والمتعصبين لتراثهم مجالاً واسعاً لابداء آرائهم والمجاهرة بالاشادة بالتراث الساساني حتى اذا كان ذلك على حساب الانتقاص من الثقافة العربية والاسلامية التي تتبناها الدولة والتي يسرت لهم البقاء والنمو . وقد اورد الجاحظ في الملخص الذي وصلنا من رسالته « في ذم اخلاق الكتاب» ما كان سائداً في اوساط الكتاب ، وهم موظفو الدواوين ، من تعصب للثقافة الساسانية فقال بعد وصف صلفهم وتعاليهم وتبجحهم .

« ثم ان الناشىء فيهم اذا وطىء مقعد الرئاسة،وتورَّك مشورة الخلافة ، وحجزت السلة دونه ، وصارت الدواة امامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم مليحه ، وروى لبزرجمهر امثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع ادبه ، وصيرّ كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنه كنز حكمته ، ظن انه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن ابي طالب في الجرأة علىالقضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاّف في الجزء والطفرة، وابراهيم بن سيّار النّظام في المكامنات والمجانسات، وحسين النجار في العبارات والقول بالاثبات ، والاصمعي وابو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالانساب ، فيكون اول بدوِّه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار وتهجين من نقل الآثار ، فان استرجح احد عنده اصحاب الرسول (ص) فتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وان ذكر عنده شريح جرَّحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وإن

(٧) انظر مثلا رأي المغيرية في كتاب البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٦ وانظر ايضاً : مقالات الاسلاميينللاشعري ٢٥٧/١ — ٨

وصف له الشعبي استحمقه ، وان قيل له ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخعي استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان ، وتدبير انوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان [٨] .

قدمت معظم الكتب التي تعني بتاريخ اقاليم الشرق الاوسط عن الدولة الساسانية صوراً تعطي انطباعاً بعظمة ملوكها ورقي الحضارة في عهدها وازدهار الفكر في زمنها ؛ وأدى كثرة ما قيل في ذلك ، وبعضه صادر من علماء متبحرين الى اعتقاد الكثيرين بصحة هذه الصورة . وليس هنا مجال الافاضة في ايراد ما جاء في ذلك ، وانما نقتصر على ايراد ثلاثة امثلة ، واحد من مؤرخ حضارة قديم هو المسعودي ، وثانيه من مستشرق بارز هو الاستاذ نالّلينو ،وثالثه من عالم عربي متبحر في تاريخ الفكر العربي وتطوره ، هو الاستاذ احمد امين .

فأما المسعودي فانه يقول ان الساسانيين « كانوا اهل العز الشامخ ، والشرف الباذخ ، والرئاسة والسياسة ، فرساناً في الوغى ، صبراً عند اللقاء ، أدت اليهم الامم الاتاوات ، وانقادت الى طاعاتهم خشية صولتهم وكثرة جنودهم » [٩] .

ويقول الاستاذ نالّينو « كلكم تعلمون ان الفرس ادركوا من مدارج التقدم في المعارف منزلة عالية جديرة بالذكر في ايام كسرى انوشروان (٥٣١–٥٧٨) اعظم ملوك بني ساسان ،سار ذكره بالقوافل والركبان ، فزها عندهم ماتوارثوه عن اسلافهم واهل بابل واليونان من العلوم العقلية ، او نقلوه من الامم المجاورين لهم من الروم والسريان والهند ، وفي مدينة جنديسابور من اعمال خوزستان انشأ ذلك الملك الكبير الخطير المدارس العليا لا سيما لتعليم الطب ، ذاع صيتها في كل النواحي والآفاق ، واحضر لها اشهر الاساتذة من السريان وغيرهم ، ثم أمر بنقل كتب علمية من اللغات السريانية واليونانية والسنسكريتية الى البهلوية التي كانت في ذلك العصر لغة

(٨) « من ذم اخلاق الكتاب » منشور في مجموعة رسائل الجاحظ لعبدالسلام هارون ٢/١٩١–٤
(٩) التنبيه والاشراف ٩٤

الفرس ، فلما جبل لهم من الذكاء والتعقل والميل الى اسباب التمدن ، أجادت الفرس في تلقي العلوم الدخيلة ، وظلوا كثيري العناية بها ، مبرزين فيها ، الى ان غزاهم العرب غزواً رهيباً ، وهزموا جنودهم هزماً مهيباً ، فانقرضت دولة الاكاسرة الكبار ، وفاض الاسلام على ما كان لهم من المدن والديار ، فاندرس شيئاً فشيئاً استعمال لغتهم البهلوية ، واخذت تبر ق في اقاليمهم انوار العربية . وبعدما فتحت ممالكهم وكثر الاحتكاك والمخالطة بين الامتين ، اصبحت العجم بين العرب في ديار الخلافة الشرقية مثل الخميرة في عجين الدقيق ، فعملوا في الرقي عملاً يذكر . واثّروا في احوال التمدن الإسلامي تأثيراً لا ينكر ، وعلّموا غالبيهم كثيراً من الفنون مما كانت العرب ابعد الناس عنه ، واظهروا العناية بصيانة العلوم والحرص على اتقانها ، وبرزوا في اصناف المعارف والصنائع ، حتى وضع الحديث النبوي « لئن تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من اهل فارس »[١٥] .

ويقول الاستاذ احمد امين « وقد كان للفرس من قديم علم وادب يتناسبان مع ضخامة ملكهم وعظم سلطانهم ، فلما جاءت الدولة العباسية ، وكثير من رعيتها فرس لهم نزعة وطنية وميول قومية ، أخذ المثقفون ينقلون الى العربية تراث آبائهم وما حفظت العصور الى عهدهم : كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية وكانت تتوالى عليهم نكبات تذهب بكثير من كتبهم ، ولكن كانت مدنيتهم في حياة وعظمة ، فكانت تسترد مجدها بتأليف كتب جديدة تساير عظمتهم ، وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح الاسكندر لبلادهم ، وقد تلف في هذا العهد كثير من خزائن كتبهم ، فلما جاءت الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٦٥٢ م) استعادوا ادبهم وعلمهم ، واظهر ماوكهم من الميل الى العلم وتشجيع الترجمة والتأليف اردشير بن بابك (٢٢٦ — ٢٤١ م) فقد بعث في طلب الكتب من الهند والروم والصين ؛ وكذلك الشأن في عهد ابنه سابور وعهد كسرى انوشروان .

(١٠) تاريخ علم الفلك عند العرب ص ١٨٠-١٨١ .

وقد دامت الدولة الساسانية نحو اربعة قرون خلّفت فيها علماً كثيراً وأدباً وفيراً ، واكثر ما نقل الينا في العصر العباسي من الأدب والعلم والاساطير والتاريخ انما يرجع الى هذه الأسرة . فلما نشطت الحركة العامية في العصر العباسي ، اخذ طائفة يجيدون اللسانين الفارسي والعربي ينقلون الكتب من الفارسية الى العربية »[11] .

خصائص الدولة الساسانية :

ان الدراسة الدقيقة للمعلومات التي وصلتنا عن الحكم الساساني واحواله تظهر عدم دقة هذه الاحكام وبعدها عن الصواب ، فان الملوك الساسانيين الاقوياء كانوا قليلي العدد ، وان الازدهار الفكري والحضاري في العهد الساساني مبالغ فيه .

لا ريب في ان الدولة الساسانية استطاعت طوال القرون الاربعة التي استمر فيها حكمها ان تصد الهجمات الخارجية التي وجهت اليها وان تبقي الحكم محصوراً بالأسرة الساسانية ، وانها طبقت نظاماً ادارياً أمن لها السيطرة ، ولكن يجدر ان نذكر انه من الخمسة والثلاثين ملكاً الذين تعاقبوا على العرش لم يزد عدد الملوك البارزين على الثمانية ، أما الباقون فكانوا من الضعف او سوء التصرف ما جعل المؤرخين الذين عنوا بتدوين التاريخ الساساني لا يخصون اياً منهم باكثر من اسطر قليلة . ثم ان الاسرة الساسانية لم تكن قوية التماسك ، فقد قام كثير من ملوكهم بقتل اخوتهم والتضييق على بقية افراد الاسرة تأميناً لاستقرار حكمهم وتخلصاً من منافسيهم ؛ كما ان عدداً غير قليل من ملوكهم عُزل وقُتل على اثر ثورة عارمة قادها رجال من الجيش او افراد من الاسرة ، وقلما تردد خلال حكم اي ملك ذكر لاحد من افراد اسرته غير الملك وولي عهده . فالحكم فردي محصور بالاسرة التي كان تماسكها ضعيفاً .

ثم ان وحدة الدولة الساسانية كانت ظاهرية فقط ، وان سلطان الملك لم يكن مطلقاً ، وانما كانت تحدده عدة قوى من اهمها سلطة الملوك الذين يبلغ عددهم

(١١) ضحى الاسلام ١ / ١٧٥-١٧٧ .

قرابة الخمسة والعشرين ، ولكل منهم سلطات واســعة على المنطقة التي يحكمها واظهر مثل على ذلك هم ملوك المناذرة في الحيرة الذين تتوفر عنهم معلومات واسعة تظهر انهم كانت لهم جيوش خاصة تأتمر بامرتهم ، ولهم بلاط وادارة ، وهم يقومون باعمال سياسية وحربية واسعة لمصالحهم الخاصة .

ثم انه كان في بلاد الدولة الساسانية اصحاب البيوتات السبعة ، ولكل من هذه البيوتات رئيس يحكم منطقة واسعة ، وله جيش خاص وسلطات ادارية واسعة ومكانة سياسية عالية . وبالاضافة الى ذلك فقد كان المجتمع طبقياً ، وكان للطبقات المقرّبة من الملك نفوذ كبير في الادارة والجيش ورجال الدين ، كما كان النظام يرعى الاساورة والاشراف والدهاقين [١٢] . ويقول المسعودي ان للفرس « كتاباً يقال له كهنامه فيه مراتب مملكة فارس ، ولها ستمائة مرتبة على حسب ترتيبهم » [١٣] .

ثم ان الدولة الساسانية تبنّت الزرادشتية وجعلتها الدين الرسمي للدولة . والزرادشتية دين دعا اليه زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد وتبناه الملوك الاخامينيون ، وعندما قضى الاسكندر المكدوني على الدولة الاخامينية اضطهد الزرادشتية ، فقُتل اتباعها وضعف رجالها وتشتّتتْ كتبها. فلما ولى الساسانيون الحكم تبنوها وعملوا على جمع كتبها ، ولكن نجاحهم كان محدوداً ، فظل كثير من فصول الافستا ، وهو كتابهم المقدس ، مفقودة .

والزرادشتية عقائدها معقدة ، وتعاليمها شديدة وقاسية ، ولذلك انحصرت في عدد محدود من المقربين للسلطة ، ولم يعم انتشارها ، وفي هذا يقول الجاحظ « لم نر قط ذا دين تحول الى المجوسية من دينه، ولم يكن ذلك المذهب الا في شقهم وصقعهم من فارس والجبال وخراسان ، وهذه كلها فارسية »[١٤] .

(١٢) انظر في ذلك كتاب التاج المنسوب للجاحظ ٢٥ ، البيروني تحقيق ما للهند ٧٦ مروج الذهب ١/٢١٢- ١٣ طبعة صادر .

(١٣) التنبيه والاشراف ٩١-٢

(١٤) الحيوان ٤/٣٢٦

تعدد اللغات والخطوط في الهضبة الايرانية :

اما اغلبية السكان فكانوا يعتنقون ادياناً اخرى كالمانوية ، واليهودية ، والمسيحية التي انتشرت بين اهل العراق والاهواز .

ثم ان لغات سكان الدولة الساسانية متعددة ، فيذكر ابن النديم نقلاً عن ابن المقفع « لغات الفارسية : الفهلوية ،والدرية ، والفارسية ، والخوزية ،والسريانية.

فاما الفهلوية فمنسوبة الى فهلة ، اسم يقع على خمسة بلدان ، وهي اصفهان والري ، وهمدان ، وماه نهاوند ، واذربيجان .

واما الدرية فلغة مدن المدائن ، وبها كان يتكلم من بباب الملك ، وهي منسوبة الى حاضرة الباب ، والغالب عليها من لغة اهل خراسان والمشرق لغة اهل بلخ .

واما الفارسية فيتكلم بها الموابذة والعلماء واشباههم ، وهي لغة اهل فارس .

واما الخوزية فبها كان يتكلم الملوك والاشراف في الخلوة ومواضع اللعب واللذة ومع الحاشية .

واما السريانية فكان يتكلم بها اهل السواد .

والمكاتبة في نوع من اللغة بالسرياني فارسي» [(١٥)] .

ولا ريب في ان اختلاف اللغات يعكس اختلافات ثقافية وعرقية ليس هنا مكان بحثها ، وانما نقتصر على الاشارة الى قول الجاحظ ان « اهل سوق الاهواز افصح الناس بالبهلوية » [(١٦)] .

ويقول الاصطخري ان أهل اقليم فارس « لهم ثلاثة السنة : الفارسية التي يتكلمون بها ، وجميع اهل فارس يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم عن بعض الا الفاظاً تختلف لا تستعجم على عامتهم . ولسانهم الذي به كتب العجم وايامهم

(١٥) الفهرست لابن النديم ١٥ وانظر حمزة الاصفهاني ، التنبيه على حدوث التصحيف ص ٦٧ فما بعد .

(١٦) البيان والتبيين ١٣/٣

ومكاتبات المجوس فيما بينهم هو الفهلويةالتي تحتاج الى تفسير حتى يعرفهاالفرس ، ولسان العربية التي بها مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس [١٧] .

ويقول المقدسي ان « كلام اهل هذه الاقاليم الثمانية (وخراسان) بالعجمية ، الا ان منها درية ومنها منغلقة وجميعها تسمى الفارسية ، واختلافها يبين ، وانعجامها مشكل ، وسنبين ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى ونقربه جهدنا ونذكر من كلام كل قوم حروفاً نستدل بها على مواضعها من سمعها في الافاق »[١٨].

لا يقتصر التنوع في دولة الساسانيين على اللغات ، وانما يمتد الى الخطوط ايضاً ، فينقل ابن النديم عن ابن المقفع قوله :

« للفرس سبعة انواع من الخطوط :

منها كتابة الدين ، وتسمى دين دفيريه ، يكتبون بها الابستاق .

وكتابة اخرى تسمى ويش دبيريه ، وهي ثلاثمائة وخمسة وستون حرفاً ، يكتبون بها الفراسة والزجر وما شاكل ذلك ، ولم تقع لأحد نعلمه ، ولا في ابناء الفرس من يكتب بها اليوم ، سألت اماد الموبذ عنها فقال نعم ، هي تجري مجرى الترجمة كما في كتابة العربية تراجم .

وكتابة اخرى ويقال لها الكشتج ، وهي ثمانية وعشرون حرفاً ، يكتب بها العهود ، والمرونة ؟ ، والقطائع .

وكتابة اخرى يقال لها نيم كشتج ، وهي ثمانية وعشرون حرفاً يكتب بها الطب والفلسفة .

وكتابة اخرى يقال لها الشاه دبيريه ، وكانت ملوك الاعاجم يتكاتبون بها فيما بينهم دون العوام ، ويمنع منها سائر اهل المملكة حذراً من ان يطلع على اسرار الملوك من ليس بملك ، ولم تقع الينا .

---

(١٧) المسالك ١٣٧

(١٨) احسن التقاسيم ٢٥٩

وكتابة الرسائل على ما يجري به اللسان ، وليس فيها نقط ، ويكتب بعضها بلغة السريانية الاولة التي يتكلم بها اهل بابل ، وتقرأ بالفارسية وعدد حروفها ثلاثة وثلاثون حرفاً ، يقال لها نامه دبيريه ، وهام دبيريه ، وهي لسائر اصناف المملكة خلا الملوك فقط .

وكتابة اخرى يقال لها رازمهرية كانت الملوك تكتب بها الاسرار مع من يريدون من سائر الامم ، وعدد حروفها واصواتها اربعون حرفاً ولكل واحد من الحروف والاصوات صورة معروفة ، وليس فيها شيء من اللغة النبطية .

ولهم كتابة اخرى يقال لها راس سهرية ، يكتب بها المنطق والفلسفة وهي اربعة وعشرون حرفاً ، وفيها نقط ، ولم تقع الينا .

ولهم هجاء يقال له زوارشن ، يكتبون بها الحروف موصولة ومفصولة يكتب كوشت ، وهو اللحم بالعربية ، كتب بسرا ، ويقرأه كوشت »[١٩] .

« وقد ذكر حمزة الاصبهاني الخطوط السبعة ومعناها فقال :

واما معنى رم دفيره فالكتابة العامية ، ومعنى كشته دفيره الكتابة المتغيرة .

ومعنى نيم كشته الكتابة المغير نصفها .

ومعنى فرورده دفيره كتابة الرسائل ، ومعنى رازدفيره كتابة السر . كاتب الترجمة .

ومعنى دين دفيره كتابة الدين ، وكان يكتب بها قرآنهم وكتب شرائع دينهم .

ومعنى وسف دفيره جامع الكتابات ، وكانت كتابة تشتمل على لغات الامم من الروم والقبط والبربر والهند والصين والترك والنبط والعرب .

فكانت كتابة العامة من بينها ترسم بثمانية وعشرين قلماً ، لكل قلم منها اسم

(١٩) الفهرست ١٥-١٧

على حدة ، نحو ما يقال في الخط العربي وخط التجاويد وخط التحرير وخط التعليق [٢٠]

ويذكر المسعودي ان الافستا كتبها زرادشت« بالفارسية الاولى ولا يعلم احد اليوم معنى تلك اللغة ، وانما نقل لهم الى هذه الفارسية شيء من السور فهي في ايديهم يقرأونها في صلواتهم » .

ويذكر المسعودي أيضاً ان دين دبيرة « عدد حروفه واصواته ستون حرفاً وصوتاً ، لكل حرف وصوت صورة مطردة ، منها حروف تتكرر وحروف تسقط » ، وان كشن دبيره « تفسيره كتابة الكل ، يكتب به سائر لغات الامم وصياح البهائم والطير وغير ذلك ، عدد حروفه واصواته ١٦٠ لكل حرف وصوت صورة مفردة وليس في سائر خطوط الامم اكثر حروفاً من هذين الخطين .

وللفرس غير هذين الخطين اللذين احدثهما زرادشت خمسة خطوط منها ما تدخله اللغة النبطية ، ومنها ما لا تدخله » [٢١] .

ولا ريب في ان تعدد اللغات والخطوط لـه اثر في اضعاف الحركة الفكرية

النقلة الفارسية :

ذكرنا من قبل ان العرب ضموا الى دولتهم كافة البلاد التي كان يحكمها الساسانيون وبذلك اصبح انصار الساسانيين والمتعصبون لهم يقيمون في الدولة الاسلامية الجديدة ويتمتعون بحرية واسعة تيسر لهم الحفاظ على افكارهم وعقائدهم واستعمال لغاتهم الخاصة ؛ وقال الخليفة عمر بن الخطاب في الزرادشتيين « سنّوا بهم سنة اهل الكتاب » اي انه امر ان يعاملوا كما يعامل اهل الكتاب ، وبذلك احتفظت الزرادشتية التي كانت من دعائم الحكم الساساني بتنظيماتها ومراكزها ، شأن الديانات الأخرى .

(٢٠) التنبيه على حدوث التصحيف ، نقلها عن زرادشت بن اذرخون المعروف بمحمد المتوكلي ص ٦٤–٦٨

(٢١) التنبيه والاشراف ٨٠–٨١

اشغل عدد من مؤيدي الساسانيين والمتعصبين لهم مناصب في الادارة والدواوين ، ولما سادت االغة العربية في الدواوين بعد تعريبها ، تيسر المجال لنقل افكارهم الى العربية ، وتوفرت الفرصة لترجمة الكتب الساسانية ، ولم يعرقل العرب عملية الترجمة التي اقيت تشجيعاً لا من المتعصبين للساسانيين فقط ، وانما حتى من بعض اصحاب السلطة من العرب .

استوعب ابن النديم في كتابه « الفهرست » اسماء الكتب التي الفت بالعربية او نقلت اليها حتى سنة ٣٧٧ ﻫ ، واورد أسماء المؤلفين والنقلة والمترجمين ، ولم يغفل من ذلك الا القليـــل ؛ لذلك فان الاعتماد عليه في دراسة التأليف والنقل كفيل بان يوصل الى نتائج صائبة .

عقد ابن النديم في كتابه فصلاً بعنوان « اسماء النقلة من الفارسي الى العربي : ابن المقفع ، وقد مضى خبره في موضعه .

آل نوبخت اكثرهم ، وقد مضى ذكرهم ، ويمضي فيما بعد ان شاء الله تعالى ، موسى ويوسف ابنا خالد وكانا يخدمان داوود بن عبدالله بن حميد بن قحطبة ؛ وينقلان له من الفارسية الى العربية ، التميمي واسمه عــلي بن زياد ، ويكنى ابا الحسن ، نقل من الفارسي الى العربي ، فمما نقل زيج الشهريار ، الحسن بن سهل ، ويمر ذكره في موضعه من اخبار المنجمين ، البلاذري احمد ابن يحيى بن جابر ، وقد مضى ذكره ، وكان ناقلاً من الفارسي الى العربي ، جبلة بن سالم كاتب هشام ، وقد مضى ذكره ، وكان ناقلاً الى العربي من الفارسي ، اسحاق بن يزيد ، نقل من الفارسي الى العربي ، فمما نقل كتاب سيرة الفرس المعروف بخداي نامة .

ومن نقلة الفرس : محمد بن الجهم البرمكي ، هشام بن القاسم ، موسى ابن عيسى الكروي ، زادويه بن شاهويه الاصفهاني ، محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني ، بهرام بن مردان شاه موبذ مدينة سابور من بلد فارس ، عمر بن

الفرخان ، ونحن نستقصي ذكره في المصنفين .[٢٢]

وذكر ابن النديم في اماكن متفرقة من كتابه معلومات عن بعض من ذكرهم في النص الذي اوردناه اعلاه ، فذكر عن البلاذري انه ترجم عهد اردشير بشعر ، وانه كان احد النقلة من الفارسي الى اللسان العربي ،[٢٣] وان جبلة بن سالم ترجم من الفارسية كتاب رستم واسفنديار وكتاب بهرام شوش[٢٤] ، وان ابا معشر كان « يحكى عن عبدالله بن يحيى ومحمد بن الجهم البرمكيين ويفضلهما في العلم .[٢٥]

وذكر ابن النديم ايضاً عمر بن الفرخان الطبري ،وقال انه ممن فسر المجسطي وانه فسر كتب ذوروثيوس[٢٦] كما فسر كتاب الاربعة لبطليموس « نقلها له البطريق ابو يحيى بن البطريق » وان له كتاب المحاسن وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب[٢٧] .

اما ابن المقفع فقد ذكر ابن النديم انه من بلغاء الناس العشرة[٢٨] ، وانه اخذ الفصاحة عن ابي الجاموس الاعرابي الذي كان يفد البصرة على آل سليمان بن علي[٢٩] وانه من الكتـــاب الشعراء[٣٠] ، ويقول ايضاً انه « كان احد النقلة من اللسان الفارسي الى العربي ، مضطلعاً باللغتين ، فصيح بهما ، وقد نقل عدة كتب من كتب الفرس : منها كتاب خداينامه في السير ، كتاب آيين نامه في الآيين ، كتاب كليلة ودمنة ، كتاب مزدك ، كتاب التاج في سيرة انوشروان ، كتاب الاداب الكبير يعرف بما قراجنس ، كتاب الادب الصغير ، كتاب اليتيمة في الرســائل ، كتاب رســائله ، كتاب جوامع كليلة ودمنة ، كتاب رسالته في الصحابة »[٣١] ويذكر في مكان آخر أن من الكتب المجمع على جودتها

(٢٢) الفهرست ٣٠٥
(٢٣) كذلك ١٢٥
(٢٤) كذلك ٣٦٤
(٢٥) كذلك ٣٧٦
(٢٦) كذلك ٣٢٧-٣٢٨
(٢٧) كذلك ٣٣٢
(٢٨) كذلك ١٤٠
(٢٩) كذلك ٥٠
(٣٠) كذلك ١٩١
(٣١) كذلك ١٣٢

عهد اردشير ، وكليلة ودمنـــة ، واليتيمة لابن المقفع [٣٢] ، وان ابن المقفع ممن كان يعمل الاسمار ، وان « كليلة ودمنة فسره عبدالله بن المقفع وغيره » « ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم ابن المقفع »[٣٣] .

ويذكر ابن النديم ايضاً « وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى العربي عبدالله بن المقفع ، وغيره[٣٤] (٣٠٣) وان لكتاب باري ارميناس مختصرات منها واحد لإبن المقفع [٣٥] .

ولم يذكر ابن النديم شيئاً اضافياً عن ثمانية ممن عدهم من النقلة من الفارسية وهم علي بن زياد التميمي ، وموسى بن خالد ، ويوسف بن خالد ، وبهرام بن مردانشاه، وزادويه بن شاهويه ، ومحمد بن بهرام بن مطيار ، وهشام بن القاسم . غير ان حمزة الاصفهاني يقول انه اتفق له ثماني نسخ من كتاب سير ملوك الفرس ، هي من نقل كل من ابن المقفع ، ومحمد بن الجهم ، وزادويه بن شاهويه الاصبهاني ، وهشام بن القاسم الاصبهاني ، وبهرام بن مردانشاه موبذ كورة شابور من بلاد فارس ، ومحمد بن بهرام بن مطيار الاصبهاني ، كما يذكر نسخة من تاريخ ملوك الفرس مستخرجة من خزانة المأمون [٣٦] .

ويذكر ابو علي محمد بن احمد البلخي الشاعر في الشاهنامه انه صحح اخباره من كتاب سير الملوك الذي لعبدالله بن المقفع ، والذي لمحمد بن الجهم البرمكي ، والذي لهشام بن القاسم ، والذي لبهرام بن مردانشاه موبذ مدينة سابور ، والذي لبهرام بن مهران الاصبهاني ، ثم قابل ذلك بما اورده بهرام الهروي المجوسي [٣٧] .

ويروي حمزة الاصبهاني « قال بهرام الموبذان جمعت نيفاً وعشرين نسخة

(٣٢) كذلك ٣٤٠

(٣٣) كذلك ٣٦٤

(٣٤) كذلك ٣٠٣

(٣٥) كذلك ٣٠٩

(٣٦) تاريخ سنى ملوك الأرض ١٤٣

(٣٧) الآثار الباقية في القرون الخالية ص ٩٩

من الكتاب المسمى خداي نامة حتى اصلحت منها تاريخ ملوك الفرس »[٣٨] . ومن الطبيعي ان النص لا يستلزم وجود نيف وعشرين ترجمة من خداينامه ، وانما يظهر تعدد نسخه واختلافاتها .

يبلغ عدد من ذكرهم ابن النديم من النقلة من الفارسية خمسة عشر، وهو عدد قليل اذا قورن باسماء من ذكرهم من النقلة من الاغريقية وعددهم خمسة واربعون[٣٩] علماً بان حركة النقل من الفارسية بدأت في زمن مبكر كما يتجلى من اسماء بعض المترجمين الذين توفوا في اوائل العصر العباسي ، ومنهم جبلة ابن سالم مولى هشام وعبدالله بن المقفع (ت ١٤٠) ، وعمر بن الفرخان ولم يضف حمزة الاصبهاني او ابو علي البلخي اسماء جديدة .

ذكر ابن النديم ان علي بن زياد التميمي ترجم زيج الشهريار ، وان البلاذري نقل عهد اردشير . ولم يذكر ما نقله موسى ويوسف ابن خالد .

ويلاحظ ان كلاً من اسحاق بن يزيد ، وجبلة بن سالم ، وابن المقفع وزادويه بن شاهويه ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، ومحمد بن بهرام بن مطيار ، وبهرام بن مردانشاه ، نقل كتاب خداينامه ، وان ترجماتهم متباينة ، علماً باننا لا نعلم فيما اذا كان التباين راجعاً الى اختلاف الاصول التي نقلوا عنها، ام الى اختلافهم في دقة النقل . ويتبين من كلام حمزة [٤٠] ان ثلاثة من هؤلاء النقلة منسوبون الى اصفهان ؛ وهم زادويه بن شاهويه ، وهشام بن القاسم ، ومحمد ابن بهرام بن مطيار ، ويضيف البلخي اليهم بهرام بن مهران، مما يدل على اهمية اصبهان في الحركة الفكرية . ولم يذكر الخطيب اياً من هؤلاء فيمن ذكرهم في تاريخ بغداد .

ان اقتصار عمل سبعة من مجموع الخمسة عشر على نقل كتاب خداينامه يظهر ان عدد النقلة لبقية العلوم كان قليلاً جداً .

(٣٨) تاريخ سنى ملوك الأرض ٢٦

(٣٩) الفهرست ٣٠٥

(٤٠) تاريخ سنى ملوك الأرض ١٤

ويتبين من كلام ابن النديم ان بعض النقلة كان يعمل لعدد من اصحاب السلطة فموسى ويوسف ابنا خالد كانا يخدمان داود بن عبدالله بن حميد بن قحطبة الذي لم يذكره الطبري ولا المسعودي .

الكتب المنقولة عن الفارسية :

لم يذكر ابن النديم لمعظم النقلة اكثر من كتاب واحد ، ويلاحظ ان سبعة من مجموع الخمسة عشر لم يذكر انهم نقلوا غير كتاب خداينامه، وهو المسمى بالعربية تاريخ ، أو سير ، ملوك الفرس ؛ وهو كتاب لم تصلنا منه نسخة كاملة ، ولكن وصلتنا منه نقول طويلة رواها عدد من المؤرخين العرب وخاصة الطبري في كتابه « تاريخ الامم والملوك » والثعالبي في « غرر سير ملوك الفرس والعجم » ، فضلاً عن نصوص قصيرة نقلها عنه عدد من المؤرخين كالمسعودي واليعقوبي وحمزة الاصفهاني . وكانت هذه النقول هي المعتمد الرئيسي لمن كتب عن الساسانيين وقد قام المستشرق الالماني ثيودور نولده كه بترجمة ما اورده الطبري الى الالمانية مع تعليقات وافية قارن فيها معلوماته بما ورد في كتب الامم الاخرى ككتب الروم والسريان والارمن ووجد ان معلومات خداي نامه صحيحة وخالية من الاساطير . غير ان هذا الكتاب يبحث في التاريخ السياسي ولا يتطرق الى الجوانب العلمية .

يذكر ابن النديم ان ابن المقفع « نقل عدة كتب من كتب الفرس ، منها كتاب خداينامه في السير ، كتاب آيين نامه في الآيين ، كتاب كليلة ودمنه ، كتاب مزدك ، كتاب التاج في سيرة انوشروان ، كتاب الاداب الكبير ويعرف بماقراجنس ، كتاب الادب الصغير ، كتاب اليتيمة في الرسائل ، كتاب رسائله ، كتاب جوامع كليله ودمنه ، كتاب رسالة في الصحابة »[٤١] وذكر في مكان آخر ان من الكتب المجمع على جودتها هي عهد اردشير ، كليلة ودمنه ، اليتيمة لابن المقفع[٤٢] وذكر في مكان آخر ان جبلة بن

(٤١) الفهرست ١٣٢ (٤٢) كذلك ١٤٠

سالم ترجم كتاب رستم واسفنديار ، وكتاب بهرام شوش [٤٣]

فاما كايلة ودمنه فهو كتاب هندي ترجم الى الفارسية في زمن انوشروان، ثم ترجمه ابن المقفع الى العربية مع بعض الاضافات .

اما الآيين فهي القواعد التعليمية في فن من الفنون، وقد ذكر ما الفه الفرس فيها كل من ابن النديم [٤٤] والمسعودي [٤٥] . واما كتاب التاج فيشبه الآيين في محتواه ومنه نقول في عيون الاخبار لابن قتيبة ،والسعادة والاسعاد للعامري وقد قام محمد محمدي في كتابه « الترجمة والنقل من الفارسية بدراسة مفصلة عن هذه الكتب ، وكتب العهود ، ونقلها الى العربية .

الطب :

اما عن ميدان العلوم الصرفة والطبيعية فقد وردت اشارات غير قليلة : فقد ذكر المسعودي « وجدت عند بعض اهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم واخبار ملوكهم وابنيتهم وسياساتهم لم اجدها في شيء من كتب الفرس كخداي نامه وآيين نامه وكهنامه،وكان تاريخ هذا الكتاب انه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣هـ ونقل لهشام بن عبدالملك بن مروان من الفارسية الى العربية » [٤٦] ان هذا النص يظهر قدم النقل من الفارسية ،ولكنه لم يذكر عنوان الكتاب او مؤلفه او ناقله او العلوم التي ذكرها . ولم نجد اشارات في الكتب الاخرى الى هذا الكتاب .

ويقول المسعودي ان عمر المعروف بالكسروي ممن اشتهر بعلم فارس واخبارها [٤٧] ، وان له كتاباً في اخبار الفرس يصف طبقات ملوكهم من

(٤٣) كذلك ٣٦٤

(٤٤) كذلك ٣٦٤ ، ٣٧٦ - ٣٧٧

(٤٥) التنبيه والاشراف ٩٢

(٤٦) التنبيه والاشراف ٩٢

(٤٧) مروج الذهب ٢٤٩/١

سلف وخلف واخبارهم [٤٨] ، ونقل المسعودي عن عمر الكسروي نصوصاً برواية ابي عبيدة ، وهي تتعلق بتنظيمات الفرس الاجتماعية والادارية ، ولم يتطرق الى اعمالهم من العلوم ، ويستدل من رواية ابي عبيدة عن عمر ان الاخير عاش في القرن الثاني الهجري .

ويقول ابن النديم « وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى العربي عبدالله بن المقفع وغيره [٤٩] وذكر ابن النديم في مكان آخر ما نقله ابن المقفع من الفارسية وليس فيها كتاب في المنطق او الطب [٥٠] غير انه ذكر ان ابن المقفع اختصر كتاب باري ارميناس [٥١] .

ويذكر ابن النديم « اسماء كتب الفرس في الطب المشهورين بالطب في ايام ملوك الاعاجم ممن وصل الينا تأليفه ونقل الى العربي ثيادورس وكان نصرانياً ، وبنى له سابور ذو الاكتاف البيع في بلده ، ونقل له الى العربي كناش ثيودورس » [٥٢] .

ويذكر الاصطخري ان برزويه ، وهو من اهل مرو ، كان « مقدماً على سائر اطباء العجم » [٥٣] ولكن لم يصلنا أي كتاب له .

ومن الطبيعي اننا لا ندخل في هذه الدراسة اطباء جند يسابور لانهم كانوا يكتبون بالسريانية .

التنجيم والمواليد:

يقول صاعد « ومن خواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب ، ومعرفة ثاقبة باحكام النجوم وتأثيرها في العالم السفلي ، وكانت لهم ارصاد للكواكب

---

(٤٨) كذلك ١/٢٥٨

(٤٩) الفهرست ٣٣

(٥٠) كذلك ١٣٢

(٥١) كذلك ١٣٢

(٥٢) كذلك ٣٦٠ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ٤١٣ ويلاحظ انه لم يذكر غيره من الاطباء الفرس القدامى .

(٥٣) المسالك ٢٦٢

قديمة ، ومذاهب في حركاتها مختلفة » (٥٤) ؛ والواقع ان الكتب عن تاريخ الملوك الساسانيين تذكر بصراحة عناية كثير من الملوك بالتنجيم [٥٥] .

ومما يتصل بذلك مانقله المسعودي عن محمد بن علي العبدي حيث ذكر ان المأمون «كان في بدء امره ،لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره ، يستعمل النظر في احكام النجوم وقضاياها وينقاد الى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأردشير بن بابك وغيره ،واجتهد في قراءة الكتب القديمة وامعن في درسها وواظب على قراءتها ، فافتتن في فهمها ، وبلغ درايتها، فلما كان من الفضل بن سهل ذي الرئاستين مااشتهر وقدم العراق انصرف عن ذلك كله» [٥٦]

والواقع ان الاعتقاد بالتنجيم قديم عند العرب [٥٧] ؛ غير ان المنصور « كان اول خليفة قرَّب المنجمين وعمل باحكام النجوم ، وكان معه نوبخت المجوسي المنجم ، واسلم على يديه ، وهو ابو هؤلاء النوبختية، وابراهيم الفزاري صاحب القصيدة في النجوم ، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، وعلى ابن عيسى الاسطرلابي ، وهو اول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية ، منها كتاب كليلة ودمنه ، وكتاب السند هند ، . . وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية واخرجت الى الناس .

وذكر ابن النديم من الكتب « زجر الفرس ، والفال لأهل فارس ، والاختلاج على ثلاثة اوجه لفارس [٥٨] « والمواعظ للفرس » [٥٩] ولكنه لم يذكر محتواها ومترجميها .

ذكر ابن النديم في القائمة التي اوردها عن النقلة من الفارسية، اسماء اشخاص

(٥٤) طبقات الامم ١٦
(٥٥) انظر كتاب : الترجمة والنقل من الفارسية لمحمدي ١٩٨–٢٠٨ ؛ رسل الملوك للفراء ١٢٣
(٥٦) مروج الذهب ٢٢٧/٤ ؛ وانظر ايضاً مشاكلة الناس لزمانهم : لليعقوبي ٢٧–٢٨
(٥٧) انظر : نالينو تاريخ علم الفلك .
(٥٨) الفهرست ٣٧٦
(٥٩) كذلك ٣٧٧

لهم علاقة بالتنجيم ، ومنهم عمر بن الفرُّخان ، وابو سهل الفضل بن نوبخت وعلي بن زياد التميمي .

فاما عمر بن الفرّخان الطبري ، فقد كان احد المنجمين الذين عيّنوا وقت بناء بغداد (البلدان لليعقوبي ؛ ويذكر ابن النديم انه فسّر كتاب الاربعة لبطليموس، وكان البطريق قد نقله له [٦٠]، والّف كتاب «المحاسن» و « اتفـــاق الفلاسفة واختـــلافهم في السنين » [٦١] (٣٣٢) وفسر كتـــاب المجسطي [٦٢] (٣٢٧) وكتب ذورشـــيوس [٦٣] (٣٢٨) ومن الواضح ان ابن النديم لم يذكر اسم الكتب التي ترجمها عن الفارسية ، وان كثيراً من عمله كان تفسيراً لكتب اغريقية ترجمت له . اما الكتابين اللذين الفهما فلم يصـــلا الينا ، ولا نعلم من نقل عنهما ، ولذا لايمكن الجزم بما ترجَم عن الفارسية .

ويذكر ابن النديم ان محمد بن عمر بن الفرُخان « أحد افاضل المنجمين وله من الكتب : كتاب المقياس ، كتاب المواليد ، كتاب العمل بالاصطرلاب ، كتاب المسائل ، كتاب المدخل ، كتاب الاختيارات ، كتاب المسائل الكبير ، كتاب تحويل سنى المواليد ، كتاب التسييرات ، كتاب الميالات ، كتاب تحويل سنى العالم ، كتاب التسييرات في المواليد » [٦٤] (٣٣٢– ٣) ويلاحظ ان اربعة من هذه الكتب متصلة في مادتها بالمواليد والتسييرات ، وان اثنين منها له عنوان « المسائل » واثنين بتحاويل السنين ويبقى كتاب « المقياس » و «العمل بالاصطرلاب » ، و « المدخل» ولا يذكر ابن النديم انها مما نقل عن الفارسية .

فاما كتاب المسائل فمنه نسخ في برلين ٥٨٧٨، ٥٨٧٩ وفي جستربتى ٤٠٨١ وفي الاسكوريال ٩٢٢ وباريس ٢٦٠٠ والقاهرة ٥–٣١٦ وقد ترجم الى اللاتينية .

واما كتاب المواليد فمنه نسخة مخطوطة في الاوقاف (الجبوري : المستدرك

(٦٠) الفهرست ٣٢٨
(٦١) كذلك ٣٣٢
(٦٢) كذلك ٣٢٧
(٦٣) كذلك ٣٢٨
(٦٤) كذلك ٣٣٢–٣

٣٨٦ وهو ثلاث مقالات نقل فيه عن بطليموس ، ودوروثيوس ، وماشاالله ، وهرمس ونقل منه القصراني (المسائل ٢٩٤) وابن الحاسب(المواليد ١٢٠) ٢٠-١٢٢-٢٢٧-٢٣٣-٢٣٧-٢٥٢-٢٥٣-٢٥٩-٢٦١ مخطوطة البودليان مارش ٦١٨ ، [٦٥] وانظر اولمان ٢٠٦-٧ .

اما ابو سهل الفضل بن نوبخت ، فان اباه كان من المنجمين الذين شاركوا في تعيين وقت بناء بغداد[٦٦] ؛ ويذكر ابن النديم « انه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وله نقل من الفارسي الى العربي ، معوّل في علمه على كتب الفرس ، له من الكتب كتاب النهطمان في المواليد ، والفال النجومي ، والمواليد ، وتحويل سني المواليد ، والمدخل ، والتشبيه والتمثيل ، والمنتحل من اقاويل المنجمين في الاخبار والمسائل والمواليد [٦٧] ، وقد نقل عن كتاب النهطمان نصاً عن خزن علوم الفرس في جيّ [٦٨] ، كما نقل عن هذا الكتاب ابن ابي الرجال في كتاب « البارع » (ص ٧٤-٨٠-٩٢-٩٧-١٠١-١٢١-٢٣٢-٢٣٩-٢٤٩ . غير انه لم يذكر اسم كتاب نقله الفضل عن الفارسية .

الازياج :

ذكرنا ان ابن النديم في الفصل الذي عنوانه « اسماء النقلة من الفارسي الى العربي ذكر « التميمي » ، واسمه علي بن زياد ، ويكنى ابا الحسن ، نقل من الفارسي الى العربي ، فمما نقل زيج الشهريار » [٦٩] ولم نجد في المصادر معلومات عن علي بن زياد التميمي اوذكر له ، ولكن توجد معلومات وافية عن زيج الشهريار الذي يسمى ايضاً ، « زيج الشاه » ، وهو الزيج الذي يقول ابو معشر المنجم انه « الذي يعمل عليه اصحاب الحساب ويقول ابن رسته انه

---

(٦٥) انظر : اولمان . تاريخ العلوم عند العرب (بالالمانية ٢٠٦-٧)
(٦٦) البلدان
(٦٧) الفهرست ٣٢٣
(٦٨) كذلك ٢٩٩-٣٠
(٦٩) الفهرست ٣٠٥

« الزيج الذي قد اعتمده اهل الارض عامة ، واهل ايرانشهر خاصة ، واولم يسلم ذلك في هذا الوضع من الطوفان بحيث اختير له واودع لطال على اصحاب الحساب ان يقوموا ، فليس كلّ يقدر على الرصد »[٧٠] وكان اصله محفوظاً في جيّ[٧١] ، وقد اعتمد عليه ابو معشر الفلكي[٧٢] واطلق عليه حبش زيج الشاه[٧٣] واشار اليه المسعودي[٧٤] . ويقول نالّينو ان هذا الزيج الف في زمن يزدجرد الثالث (٥١١) ، وانه مبني على قواعد واصول اغلبها هندية ، وقد فصّل نالّينو في هذا الزيج واهميته[٧٥] .

ذكرنا ان صاعد قال « ومن خواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب ، ومعرفة ثابتة باحكام النجوم وتأثيرها في العالم السفلي ، وكانت لهم ارصاد للكواكب قديمة ، ومذاهب في حركاتها مختلفة ، فمن ذلك المذهب الذي الف عليه ابو معشر جعفر بن محمد البلخي زيجه الكبير ، وذكر انه مذهب العلماء المتقدمين من اهل فارس وكثير من علماء سائر النواحي .. . وللفرس كتب جليلة في احكام النجوم منها كتاب في صور درجات الفلك ينسب الى زرادشت ، وكتاب جاماسب[٧٦].

فاما جاماسب فان طاشكبري زاده يسميه الحكيم ، ويعتبر ان كتابه في القرانات هو احد الكتابين المهمين في التنجيم[٧٧] ؛ وفي المكتبة الوطنية بباريس مخطوطة في القرانات تنسب اليه (رقم ٩٠٨ فارسي)، ويذكر اولمان ان معلوماته مستمدة من مصادر اغريقية وهندية[٧٨] (العلوم ١٨٣) ويقول نالّينو ان جاماسب من الاشخاص الوهميين الذين جرت فيهم الخرافات في كتب تاريخ الفرس

(٧٠) الاعلاق النفيسة ١٦٢ ؛ وانظر حمزة الاصبهاني ٥٠ .
(٧١) الاعلاق النفيسة ١٧٢ .
(٧٢) القفطي أخبار الحكماء ١٧٠
(٧٣) التنبيه والاشراف ١٨٩ .
(٧٤) البيروني تحقيق ماللهند ١٥٧ .
(٧٥) تاريخ علم الفلك ١٨٦ .
(٧٦) طبقات الامم ١٦
(٧٧) مفتاح السعادة ٣٢٣/١
(٧٨) تاريخ العلوم ١٨٣ .

القدماء ، فقيل انه كان وزير الملك كشتاسب من الدولة الكيانية التي تولت الملك قبل دارا ، ولكن اذا اطلعنا على تلك الكتب المنسوبة الى جاماسب وجدنا انها باسرها من اقبح المختلقات وضعها الكذابون من المنجمين بعد ظهور الاسلام باجيال عديدة [٧٩] والواقع ان المصادر لا تذكر اسم من ترجم كتاب جاماسب او زمن ترجمته وفي الامبروزيانا مخطوط بعنوان « طراز الدهر في اسرار الخلق والامر في احكام جاماسب على القرانات العلوية لمحمد بن بكر الفارسي .

يقول ابن النديم ان بزرجمهر له كتاب « البزيد ج » او « الابريدج » ومعناه « المختار » [٨٠] ولبزرجمهر مكانة في المؤلفات العربية ، وكان وزير انوشروان . وقد وردت اشارات لكتاب بزرجمهر في عدد من الكتب النجومية ، وممن ذكره ابن هبنتا في كتابه المغنى (ص ١٥ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ١٠٧ ، ١٢٢) ولمح اليه البيروني في كتابه تحقيق ما للهند (٧٥) ونقل عنه ابن ابي الرجال في كتابه البارع ، كما نقل عنه الصيمري في كتاب الاصل (١٧-٣١-٣٤ ٣٦ ٦٦) والبصري في السفينة ٦٦ وان العربي في جنس الابدار .

ان كتاب بزرجمهر « البزيدج » معناه المختار ، وقد ذكر ابن النديم ان أصله لفاليس ، وان بزرجمهر ترجمه الى البهلوية [٨١] وهذا واضح من مقارنة نصوص الكتاب المنسوب ابزرجمهر بكتاب فاليس . ولم تذكر المصادر زمن او تاريخ ترجمة الكتاب الى العربية ، ولا اسم مترجمه .

وممن ذكرت المصادر العربية مؤلفاتهم في المواليد هو الاندرزغر بن زادا نفروخ ، فقد نقل عن كتابه في المواليد كل من ابن الحاسب (ص ١٢٧ ، ١٨٣) وعمران بن احمد (١٧٦ — ١٧٨) والفاسي في كتابه المدخل الى صناعة النجوم.

---

(٧٩) تاريخ علم الفلك ٢١٣ .

(٨٠) الفهرست ٣٢٨ القفطي ٢٦١

(٨١) للفهرست ٣٢٨ .

والمعلومات المتوفرة عن المؤلف قليلة ، فان الطبري ذكر الاندرزغر من قواد الفرس الذين قاتلوا العرب عندما تقدموا لفتح العراق .

اما زادا نفروخ فالمشهور بهذا الاسم فارسي اشتهر في العراق ، وكان كاتباً لزياد ، ثم للحجاج بن يوسف [٨٢] ، غير انه يصعب الجزم بان الاندرزغر القائد هو ابن زادا نفروخ الكاتب ، او انه هو نفس مؤلف كتاب المواليد الذي لم يصلنا ولم تذكر المصادر مترجمه من الفارسية ، وان كان القبيصي يشير الى ان الاندرزغر اطرى في كتابه تصنيف فاليس الرومي [٨٣]

وفي علم النجوم نصوص في الكتب العربية تنسب الى زرادشت الذي ينسب له ايضاً كتاب في المواليد ، منه مخطوطة في الاسكوريال (٩٣٩ — ٤) وفي نور عثمانية ٢٨٠ ، وقد نقل منه ابن ابي الرجال في كتاب البارع (ص ١١٨ — ١١٩ ، ١٧٠) .

الطب في كتب الزرادشتية :

نقلت عدة مصادر نصوصاً منسوبة الى زرادشت ، وممن نقل ابو معشر في كتابه « صور درجات الفلك » ، والسجزي في « الجامع الشاهي » والبصري في « سفينة الاحكام » ، كما نقل عنه يحيى بن محمد الحلبي منجم قليج ارسلان في كتاب القرانات ص ٥٦ — ١٠٥ (مخطوطة باريس ٢٤٨٧) (انظر اولمان ٢٩٤ — ٥)

ظهر زرادشت في اواخر القرن السادس قبل الميلاد ، ودعا الى دين اعتنقه دارا ملك الاخامينيين ، فانتشر الدين في زمنهم وكان كتابهم المقدس يسمى الافستا ، وصفه المسعودي بقوله « وجاء زرادشت بالكتاب المعروف بالابستا . وعدد سوره احدى وعشرون سورة ، كل سورة في مائتين من الاوراق ،

(٨٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ٣٨ ، ٣٩ .
(٨٣) ناللينو تاريخ علم الفلك ٢١١-١١٣ .

وعدد حروفه واصواته ستون حرفاً وصوتاً ، لكل حرف وصوت صورة مفردة منها حروف تتكرر وحروف تسقط ، اذ ليست خاصة بلسان الابستا ، وزرادشت احدث هذا الخط ، والمجوس تسميه دين دبيره ، اي كتابة الدين ، وكُتب في اثنى عشر الف جلد ثور بقضبان الذهب حفراً باللغة الفارسية الالى ، ولا يعلم احد اليوم معنى تلك اللغة ، وانما نقل لهم الى هذه الفارسية شيء من السور فهي في ايديهم يقرأونها في صلواتهم كاشتاذ ، وجتة وجترشت ، وبانيست ، وهـا دوحت وغيرها من السور ، في جترشت الخبر عن مبدأ العالم ومنتهاه ، وفي ها دوحت مواعظ .

وعمل زرادشت للابستا شرحاً سماه الزند ، وهو عندهم كلام الرب المنزل على زرادشت، ثم ترجمه زرادشت من لغة الفهلوية الى الفارسية .

ثم عمل زرادشت للزند شرحاً سماه بازند ، وعملت العلماء من المرابذة والهرابذة لذلك الشرح شرحاً سموه بارده ، ومنهم من يسميه اكرده ، فاحرقه الاسكندر لما غلب على ملك فارس وقتل دارا بن دارا (٨٤).

ولما ولى الساسانيون الحكم تبنوا الزرادشتية ديناً رسمياً لهم ، فأمر اردشير الاول رئيس الهرابذة تنسر بجمع النصوص المبعثرة من الابستا . وتوحيدها بنص واحد ، ثم امر شابور الاول بن اردشير فادخلت في هذا النص معلومات في الطب والنجوم وما وراء الطبيعة اخذت من اصول اغريقية وهندية .

غير أن النصوص المضافة اثارت نقاشاً طويلاً ، فأمر سابور الثاني بعقد مجمع حدد نهائياً نص الافستا وقسمه الى واحد وعشرين كتاباً (نسك) ، وظل هذا الكتاب مستعملاً في العهد الساساني ، غير ان كثيراً من أقسامه ضاعت في العصر الإسلامي ، فلم يبق منها اليوم الا اقلها ، وهي مختصر في كتاب

---

(٨٤) التنبيه والاشراف ٨٠ .

الدينكرد غير متناسبة الاجزاء ، ففي بعض اجزائها ، وخاصة ما يتعلق بالفقه تفاصيل واسعة ، اما الاجزاء الاخرى ، وخاصة ما يتناول المبدأ والمعاد ، فهي ملخصة في بضع كلمات .

ويدل ما ورد في كتاب الدينكرد ان الافستا الساسانية لم تكن قاصرة على نصوص العبادة ، وانما كانت تشمل علوماً اخرى ، بما فيها علوم المبدأ والمعاد ، واساطير الاولين ، والنجوم ، وعلم التكوين ، والعلوم الطبيعية والتشريع والحكمة [٨٥] .

وفي الافستا فصول عن دورة الدنيا ، وعن السنة ، والتقاويم ، وفيها قوائم باسماء الملوك نقلها البيروني اعتماداً على كتاب حمزة الاصفهاني في كتابه « تواريخ كبار الامم ، من مضى منهم ومن غبر » والذي صحح القوائم على نسخة الموبذ »[٨٦]

مراكز الزرادشتية في زمن الاسلام :

لم تذكر المصادر مراكز الحركة الفكرية في العصر الساساني ، او مراكز الدراسات الزرادشتية في العهود الاسلامية .

غير ان المصادر ذكرت الاماكن التي يكثر فيها وجود الزرادشتيين ، او معابد النيران في العهود الاسلامية ، فاما الزرادشتيون ، وهم يسمون في المصادر العربية « المجوس فقد ذكر المقدسي ان منهم عدداً في العراق[٨٧] وأن اقليم الجبال « المجوس به كثير »[٨٨] وأن فارس « المجوس به اكثر من اليهود »[٨٩] .

(٨٥) انظر كرستنسن : ايران في عهد الساسانيين ١٣٠-١٣٢ والملحق الاول في الكتاب .
(٨٦) الآثار الباقية ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣١ .
(٨٧) احسن التقاسيم ١٢٦ .
(٨٨) كذلك ٣٩٤
(٨٩) كذلك ٤٣٩

وذكر الاصطخري ان في فارس « المجوس اكثر ملل اهل الكتاب بها»[٩٠] وان « قلعة الجص بناحية ارّجان فيها مجوس وبادكذارات الفرس وايامهم تتدارس فيها [٩١] ويقول أيضاً عن اقليم فارس ان « المجوس وهم الغالبون على سائر الملل في الكثرة ، ثم النصارى ، ثم اليهود اقلهم ، فاما كتب المجوس وبيوت نيرانهم واديانهم وما كانوا عليه ايام ملوكهم فانهم يتوارثونه ، وذلك في ايديهم ، ويتدينون به ، وليس المجوس ببلد اكثر منهم بفارس ، لان بها دار ملكهم واديانهم وكتبهم [٩٢] ؛ ويلاحظ ان الاصطخري يذكر ان اكثر الكتّاب البارزين في الاسلام من اقليم فارس ، وقد عدّد منهم عبدالحميد بن يحيى ، وابن المقفع وسيبويه ، ذكر انهم « شحنة دواوين الخلافة والعمال الذين بهم قوام السياسة ، فمن الوزراء وسائر عمال الدواوين ، فمنهم البرامكة ، والى ذي الرئاستين والى يومنا هذا من المادرئيين والفيريابيين ، وسائر شحنة الخلافة من اولاد الفرس انتقلوا الى السواد في ايام الاكاسرة فاقاموا في ارض النبط [٩٣] ، ثم ذكر البارزين في الكتابة في اقليم فارس . ولا ريب في ان اشارة الاصطخري مهمة في كون فارس احد مراكز الحركة الفكرية ، غير ان عدم ذكره غيرها لا يعنى انها كانت المركز الوحيد ، وانما تظهر تعصبه للاقليم .

ولعل اصفهان كانت من المراكز المهمة في الحركة الفكرية الفارسية ، فقد اشرنا من قبل الى المكتبة التي كشفت في جيّ ، والى ان ثلاثة من ناقلي كتاب خداي نامه كانوا منسوبين الى اصبهان .

ومما قد يعطى دلالة على مراكز الحركة الفكرية الفارسية ، هي بيوت النيران المعظمة عندهم ؛ وقد ذكر الاصطخري والمسعودي بعضها .

---

(٩٠) المسالك ١٠٠

(٩١) كذلك ١١٨

(٩٢) كذلك ١٣٩ .

(٩٣) كذلك ١٤٥–١٤٦ .

فاما الاصطخري فذكر تفاصيل عن وجودها في اقليم فارس ، حيث قال « واما بيوت نيرانها فانها لا تخلو ناحية ولا مدينة بفارس الا القليل من بيوت النيران [٩٣] (١٠٠) وقال « واما بيوت نيران فارس فتكثر عن احصائي وحفظي ليس من بلد ولا رستاق ولا ناحية الا وبها عدد كبير من بيوت النيران الا القليل غير ان المشاهير التي تفضل على غيرها في التنظيم منها :

بيت نار الكاريان ويعرف ببارنوا

وبيوت نار بخرّة ينسب الى دارا ابن دارا ، وبه يحلف المجوس في المبالغة بايمانهم ،وبيت نار عند بركة جور ، ويسمى بارين ، وحدثني من رأى به قد كتب عليه بالفهلوية انه انفق عليه ثلاثون الف درهم .

وبيت نار على باب سابور ، يعرف بشبر خشين .

وبيت نار بباب سابور ايضاً على باب سلسان يعرف بجنبد كاوسر .

وبكازرون بيت نار يعرف بجفته .

وبكازرون ايضاً بيت نار يعرف بكلازن .

وبشيراز ايضاً بيت نار يعرف بالعارنيان .

وبشيراز بيت نار آخر ويعرف بهرمز .

وعلى باب شيراز بقربه يعرف بالبركان بيت نار يعرف بالسويان(١١٨)[٩٥].

ويقول المسعودي عن النار ان اول من عظمها افريدون الملك « وان فريدون امر بحمل تلك النار الى خراسان فاتخذ لها بيتاً بطوس ، واتخذ بيتاً آخر بمدينة بخارا يقال له برد سوره .

وبيت آخر من بيوت النار بسجستان يقال له كراكركان اتخذه بهمن ابن اسفنديار بن بشتاسف .

وبيت آخر ببلاد الشيز والران ، وكان فيه اصنام فاخرجها انو شروان ،

---

(٩٤) المسالك ١٠٠

(٩٥) كذلك ١١٨

وقيل ان انو شروان صادف هذا البيت وفيه نار معظمة فنقلها الى الموضع المعروف بالبركة .

وبيت آخر للنار يقال له كوسجه بناه كيخسرو الملك .

وقد كان بقومس بيت للنار معظم لايدرى من بناه يقال له جريش . .

وبيت آخر يسمى كتخذه بناه سياوخش بن كاوس الجبار . . .

وبيت نار بمدينة ارّجان من ارض فارس اتخذ من ايام بهراسف . وهذه البيوت العشرة كانت قبل ظهور زرادشت بن اسبيحان نبي المجوس ثم اتخذ زرادشت بن اسبيحان بعد ذلك بيوت النيران ، وكان مما اتخذه بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان .

وبيت آخر بمدينة نسا والبيضاء من ارض فارس .

وكانت في خوارزم نار فنقلها يشتاسف الى مدينة دارابجرد من ارض فارس وكورها بهذا البيت ،وهذه النار تسمى في وقتنا هذا وهو سنة ٣٣٢ ﻫ اذرجوس . . . والمجوس تعظم هذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت . . ونقل انو شروان ناراً بخوارزم الى الكاريان ، ثم نقل المجوس بعضها الى نسا والبيضاء .

وللفرس بيت نار باصطخر خرب بعد دخول الاسلام .

وفي مدينة سـابور من ارض فارس بيت للنار معظم عندهم اتخذه دارا بن دارا وفي مدينة جور بيت نار بناه اردشير بن بابك وهو على ساعة منها

وقد كان اردشير بنى بيتاً آخر يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور بن اردشير . .

وبأرض العراق بيت للنار بالقرب من مدينة السلام بنته بوران بنت كسرى ابرويز الملكة في الموضع المعروف باستينيا .

وبيوت النار كثيرة مما بنته المجوس بالعراق وارض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال واذربيجان والران ، وفي الهند والسند والصين اعرضنا عن ذكرها ، وانما ذكرنا ماشتهر منها[٩٦] .

ويذكر ابن الفقيه ان في رستاق الفروهان قرب همدان « قرية يقال لها الفردجان ، وفيها بيت نار عتيق ، وهي احد النيران التي غلت فيها المجوس مثل نار اذرخرّه ونارجم الشيد ، وهي الاولى ، ونارماجشنسف ، وهي نار كيخسرو. وكان المجوس غلت في هذه النيران الثلاث غلواً لاتضبطه العقول . . واما نار جم الشيد فهي اذرخرة كانت بخوارزم فنقلها انو شروان الى الكاريان فلما ملكت العرب خافت المجوس ان تطفأ فصيروها جزءين ، جزء بالكاريان ، وجزء حمل الى فسا وقالوا ان طفئت واحدة بقيت الاخرى .

واما اذرجشنسف نار كيخسرو فانها كانت بأذربيجان فنقلها انو شروان الى الشيز .

واما نار زردهشت فهي بناحية نيسابور ، ولم تحوّل ، وهي احد الاصول من نيرانهم ... الىان كان في سنة ٢٨٢هـ فصار اليها برون التركي وكان يتولى قم ، فنصب عليها المجانيق والعرادات حتى افتتحها وأخرب سور القرية وقلع البيت وأطفأ النار وحمل الكانون الى مدينة قم وبطلت النار »[٩٧] .

ويقول ايضاً « وأرمية مدينة زردشت والشيز ، وبها بيت اذرجشنس ، وهو عظيم القدر عند المجوس[٩٨] (٢٨٦) ويقول المسعودي ان ملوك الفرس كانوا يذهبون الى هـــذه النار عنـــد التتويج[٩٩] ويذكر الطبرى ان بهرام الرابع « نحل بيت مال الشيز ماكان في اكليل خاقان من اليواقيت والجوهر وسيفاً كان لخاقان مفصصاً بدر وجوهر وحلية كثيرة »[١٠٠] .

(٩٦) مروج الذهب ٢/٤٢ ٢ - ٢٤٩ .
(٩٧) مختصر كتاب البلدان ٢٤٦ .
(٩٨) كذلك ٢٨٦
(٩٩) التنبيه والاشراف ٨٣
(١٠٠) الطبري ١/٨٦٦

ويقول الطبري عند كلامه عن مهرنرسي الذي صيّره بهرام جور هربذ هربذان ، انه بنى في « قرية ابروان من رستاق دشتبارين من كورة اردشير خره ، وفي جره من كورة سابور لاتصال ذلك ، ودستبارين ، ابنية رفيعة ، واتخذ فيها بيت نار هو باق فيما ذكر الى اليوم ، وناره توقد الى هذه الغاية يقال لها من نرسيان : واتخذ بالقرب من ايروان اربع قرى ، وجعل في كل واحدة منها بيت نار ، فجعل واحداً منها لنفسه وسماه فرازمرا اورخذايان ، وتفسير ذلك : أقبلي اليّ سيدتي ، على وجه التعظيم للنار ، وجعل الآخر لزراونداذ وسماه زرا وندادان ، والآخر لكارد وسماه كارداذان ، والآخر لماجشنس وسماه ماجشنسان ، واتخذ في هذه الناحية ثلاث باغات ، جعل في باغ منها ١٢ ألف نخلة ، وفي باغ ١٢ ألف اصل زيتون ، وفي باغ ٢ ألف سروة . ولم تزل هذه القرى والباغات وبيوت النيران في يد قوم من ولده معروفين الى اليوم ، وان ذلك فيما ذكر الى اليوم باق على احسن حالاته [١٠١] .

يتبين مما تقدم ان بيوت النيران كانت منتشرة في اماكن كثيرة من الهضبة الايرانية والمفروض ان يكون في بيوت النيران هرابذة لخدمة بيت النار . ولا يشترط ان يكون فيها موابذة او علماء ، ولا توجد اشارة الى ان بيوت النيران كانت مركزاً لحركة فكرية .

المانوية والعلم

وكانت المانوية من الاديان التي انتشرت في عهد الساسانيين رغم اضطهاد الملوك لها ؛ ذلك الاضطهاد الذي حمل معظم اتباعها على اللجوء الى الاطراف الشرقية من الدولة ، والى بلاد الصغد ، فلما ظهر الإسلام وتكونت دولته زال عنهم الاضطهاد ، فنشطوا ونقل فريق منهم مركزه الى بابل في زمن ولاية خالد بن عبدالله القسري ، وكان لهم في بابل رؤساء متتابعون [١٠٢] وكان معظم الزنادقة في

(١٠١) الطبري ٨٧٠/١

(١٠٢) انظر الفهرست لابن النديم ٣٩٧-٨

الإسلام ممن تأثروا بالمانوية او دعوا اليها .

واهم كتب المانوية هو « الشابورقان » وكان يحتوي على ثلاثة ابواب الخفاة [١٠٣] ، وهذا الكتاب « هو من بين كتب الفرس معول » وفيه فصول عن الاعياد ومواعيدها،وكان مكتوباً بالخطالسرياني ، وقد وجدت بعضاجزائه في تورخان [١٠٤] ونقل عنه ابن النديم صفحات طويلة ، غير ان المصادرلم تذكر من ترجمه الى العربية .

واذا كان في الافستا وشروحها فصول عن الطب وبعض العلوم ، فان كتب المانوية اقتصرت على العقائد ولم تتطرق الى العلوم .

يتبين مما تقدم ان المعلومات المتوفرة في المصادر تظهر ان الساسانيين لم يخلفوا كتباً مهمة في العلوم مكتوبة بالبهلوية وان العرب لم ينقلوا عن الساسانيين الا بعض المعلومات في التنجيم والمواليد والفلك والطب وان ما نقلوه اقل مما ادعى بعض الباحثين المحدثين عنه .



(١٠٣) كذلك ٣٩٩ .

(١٠٤) انظر كرستنسن ١٨٨ .

إِرْمِينِيَة

قَبلَ الفتحِ الإسلاميّ وَفي أيامِه

اللواء الركن محمود شيت خطّاب

(عضو المجمع)

استعادة فتح ارمينية

الموقف العام :

ابتدأت المشاكل والفوضى تعمّ أرجاء الدولة الاسلاميّة من سنة ثلاث وثلاثين الهجريّة (٦٥٣ م) في أواخر عهد عُثمان بن عَفّان رضي الله عنه ، وبدأت هذه المشاكل والفوضى في « الكوفة » و « البصرة » . وتكاتب نفر من المسلمين إلى بعضهم : « أن أقدِمُوا ، فانّ الجهاد عندنا » ، فأصبح الجهاد في المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة وعاصمتهم ، على رأى أولئك النفر ، لا في البلاد المفتوحة في خارج شبه الجزيرة العربية ، ولا في البلاد المجاورة التي تهدّد البلاد المفتوحة !

وفي سنة خمس وثلاثين الهجريّة (٦٥٥ م) قُتل عثمان بن عفّان رضي الله عنه في المدينة المنورّة بيد المسلمين لا بيد أعدائهم ، وبذلك أصبحت سيوف الفاتحين عليهم لا على مَن يعاديهم ويحاربهم .

وتولى الخلافة عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، والقلوب مختلفة والنفوس متفرّقة والبلاد مضطربة ، فسار قُسْطنطين بن هِرَقْل في ألف مركب سنة خمس وثلاثين الهجريّة(*)[180] (٦٥٥ م) يريد بلاد المسلمين، وهكذا

(*) ارقام الهامش تابعة الى القسم الاول من البحث .

(١٨٠) ابن الأثير (١٩٩/٣) .

أصبح الطالب مطلوباً ، والمنتصر مغلوباً .

وفي سنة ست وثلاثين الهجريّة (٦٥٦ م) نشب الخلاف في الأمصار والمدن الاسلامية داخل البلاد العربيّة ـ قاعدة الفتح والفاتحين ، وضعفت سيطرة القيادة المركزيّة .

وفي هذه السنة ، جرت معركة (الجَمَل) في البصرة (١٨١) ، اقتتل فيها الفاتحون ، وتساقط منهم في ساحة المعركة عشرات الألوف من قادة الفتح وجنوده .

وفي هذه السنة أيضاً ، سار الخوارج إلى (سِجِسْتان) (١٨٢) ، فامتدّ الاقتتال بين الفاتحين إلى البلاد المفتوحة في خارج البلاد العربيّة .

وفي سنة سبع وثلاثين الهجريّة (٦٥٧ م) ، تطوّر الاقتتال بين الفاتحين قادة وجنوداً في معركة (صِفّين) (١٨٣) تطوّراً خطيراً ، وسقط عشرات الألوف من القتلى والجرحى في ميدان الاقتتال ، فأصبح الصدع من الجانبين عرباً مسلمين لايقبل الالتئام .

وانطلق الشاعر العربي يعتصر قلبه شعراً فقال :

أصبحت الأمةُ في أمرٍ عَجَبْ والمُلْكُ مجموعٌ غداً لمن غَلَبْ
فقلت قولاً صادقاً غير كَذِبْ إنّ غداً تهلكُ أعلامُ العربْ (١٨٤)

وفي هذه السنة انتقضت (خُراسان) وامتنعت ، فحاصر أهلها عامل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حتى صالحهم بعد جُهدٍ جهيد (١٨٥) ، وبدأ قتال الخوارج ، فسقط آلاف القتلى والجرحى منهم رجالٌ عليّ بن أبي

(١٨١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣/٢٠٥-٢٦٤) .
(١٨٢) ابن الأثير (٣/٢٦٤) .
(١٨٣) انظر تفاصيل المعركة في : ابن الأثير (٢٧٦-٣١٦) .
(١٨٤) الشعر من قول الشاعر : كعب بن جميل التغلبي ، انظر الطبري (٥/١٤) .
(١٨٥) ابن الأثير (٣/٣٢٦) .

طالب رضي الله عنه [١٨٦] بعد اقتتال مرير .

وفي سنة ثمان وثلاثين الهجريّة (٦٥٨م) ملَك عمرو بن العاص[١٨٧] مصر وقتل محمد بن أبي بكر الصدّيق عامل عليّ بن أبي طالب على مصر [١٨٨] ، فأصبحت الدولة الاسلاميّة دولتين تعمها الفتن والاضطرابات والفوضى .

وفي سنة تسع وثلاثين الهجريّة (٦٥٩ م) ، طمع أهل (فارس) و (كَرْمان) في كسر الخراج ، فطمع أهل كلّ ناحية وأخرجوا عاملهم[١٨٩] واشتدّ القتال بين رجال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والخوارج وفرّق الاقتتال بين الدولتين الاسلاميتين ، وأصبحت غاراتها تنصب على بلاد المسلمين المفتوحة لا على بلاد الأعداء لفتح جديد .

وفي سنة أربعين الهجريّة قُتل أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بيد عربي في عاصمته الكوفة في المسجد وهو ينادي : الصّلاة . . . الصّلاة . . . ! [١٩٠]

لقد استشهد ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن الخطّاب قتله فارسيّ ، وعثمان بن عفّان قتله العرب ، وعليّ بن أبي طالب قتله عربيّ من مُراد .

وبويع معاوية بن أبي سفيان ، ولكن الدولة الاسلامية كانت تغلي كالمِرجَل ، وأصبح الفاتحون شِيَعاً وأحزاباً .

وفي سنة إحدى وأربعين الهجريّة (٦٦١ م) ، بدأ الاقتتال بين معاوية

---

(١٨٦) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٣٤-٣٤٨) .
(١٨٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (١٢٣-١٦٣) .
(١٨٨) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٩٤-١١٠) .
(١٨٩) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٨١-٣٨٢) .
(١٩٠) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣/٣٨٧-٣٩٦) .

والخوارج ، فنكثت (خُراسان) [191] .

وفي سنة اثنتين وأربعين الهجريّة (٦٦٢ م) ، بدأت تباشير الاستقرار في البلاد العربية ، فغزا المسلمون (الّلان) والرُّوم ، وهزموهم هزيمة منكرة [192] .

وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية (٦٦٣ م) غزا المسلمون (سِجِستان) بعد أن انتقضت ، فاستعادوا فتحها بلداً بلدا [193] ، كما استعادوا فتح (طخارستان) [194] .

ومن سنة أربع وأربعين الهجرية حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية (٦٦٤ م – ٦٧٩ م) ، عمّ الاستقرار أرجاء البلاد العربية ، فغزا المسلمون (السِّند) و (القُسْطَنْطِينِيّة) و (إفْرِيْقِيّة) والرُّوم ، وفتحوا جزيرة (أَرْواد) وفتوحات جديدة أخرى ، واستعادوا فتح المناطق التي سبق فتحها ثم انتقضت ، وذلك بفضل عودة الاستقرار والوحدة الى المسلمين .

وتولّى يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه سنة ستين الهجرية (٦٧٩ م) ، فبدأت الاضطرابات والفتن والثورات تنبعث ثانية في أرجاء البلاد الاسلاميّة وفي البلاد العربية قلب الدولة الاسلامية ، وفي سنة إحدى وستين الهجرية (٦٨٠ م) استشهد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في (كَرْبَلاء) [195] فغدر أهل (كابُل) ونكثوا وقتلوا المسلمين ، ووقعت العصبية القبلية بين الفاتحين في البلاد المفتوحة [196] ، مما أضعفهم وهوّن أمرهم بين الأعداء .

وفي سنة ثلاث وستين الهجرية (٦٨٢ م) كانت وقعة (الحَرَّة ،

(١٩١) ابن الأثير (٣/٤١٧) .
(١٩٢) ابن الأثير (٣/٤٣٠) .
(١٩٣) ابن الأثير (٣/٤٣٦–٤٣٧) .
(١٩٤) ابن الأثير (٣/٤٣٨) .
(١٩٥) انظر تفاصيل استشهاده في : ابن الأثير (٤/٤٦–٩٤) .
(١٩٦) انظر ابن الأثير (٤/٩٧–٩٨) .

في المدينة المنوّرة ، فأبيحت المدينة ثلاثة أيام يقتلون الناس ويأخذون الأموال والمتاع ، فتساقط القتلى والجرحى من سكانها بالآلاف (١٩٧) .

وفي سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣ م) مات يزيد بن معاوية ، وكان قد عهد بالأمر إلى ابنه معاوية بن يزيد ، فبقي في الخلافة شهرين أو أقلّ ، ثم مات ولم يستخلف أحداً (١٩٨) .

وفي هذه السنة بويع لعبدالله بن الزبير بمكة المكرمة ، وكان حصار الشّاميين قد اشتدّ علىابن الزبير ، فلما علموا بموت يزيد انسحبوا الى المدينة المنورة في طريقهم إلى دمشق (١٩٩) .

وغلبَ على الشّام الضحّاك بن قيس الفِهْرِي (٢٠٠) ، فدعا إلى ابن الزبير ثم إلى نفسه وانحاز عنه مروان بن الحكم في بني أُميّة إلى أرض (حَوْرَان) ، فوافاهم عبيدالله بن زياد (٢٠١) من الكوفة على البرّية منهزماً من أهلها ، فقوي عزم مروان على طلب الخلافة . وجرت أمور كثيرة الى أن التقى مروان والضّحاك بـ (مَرْج راهِط) بنواحي دمشق شرقي (الغُوطة) ، فقُتِل الضّحاك وقتل معه نحو ثلاثة آلاف ، وانتصر مروان في سنة أربع وستين الهجرية (٢٠٢) (٦٨٣ م) .

وبويع مروان بن الحكم في هذه السنة ، فانتقضت (الرّيّ) (٢٠٣) ، وبايعت (خُراسان) والياً اختارته (٢٠٤) ، وثارت فتنة المختار في (الكوفة) فأرعدت الفتنة وأبرقت (٢٠٥) .

---

(١٩٧) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٤/١١١-١٢٢) .
(١٩٨) العبر (١/٦٩) .
(١٩٩) ابن الأثير (٤/١٣٠) .
(٢٠٠) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٦/٧-١٢) .
(٢٠١) انظر سيرته المفصلة في كتاب : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٠٢) طبقات ابن سعد (٥/٢٢٦) .
(٢٠٣) ابن الأثير (٤/١٤٤) .
(٢٠٤) ابن الأثير (٤/١٥٤-١٥٨) .
(٢٠٥) ابن الأثير (٤/١٦٨-١٧٤) .

ومات مروان سنة خمس وستين الهجرية (٦٨٤ م) ، وتولى عبدالملك ابن مروان ، فكان على أرض الشّام ومصر ، وكان عبدالله بن الزبير [٢٠٦] على البلاد الاسلامية الأخرى .

وبدأ عبدالملك بن مروان يبذل قصارى جهده لاعادة الوحدة الشّاملة إلى بلاد المسلمين ، فكانت في سنة سبع وستين الهجرية (٦٩٥ م) وقعة (الخَازر) اندحر فيها أهل الشام ، وكانوا أربعين ألفاً ، وظفر بهم ابراهيم ابن الأشتر النّخَعِيّ ، وقتل أمراء الشّام ، وكان ابن الأشتر قائداً من قادة المختار [٢٠٧] .

وقضى مُصْعَب بن الزبيرعلى المختار ، وقضى عبدالملك على مُصْعَب ، وخرجت الخوارج بفارس والعراق وذلك سنة ثمان وستين الهجرية (٦٩٦م).

وفي هذه السنة ، وافى (عرَفات) في موسم الحجّ أربعة ألوية : لواء لمحمد بن الحَنَفيّة وأصحابه ، ولواء لابن الزبير وأصحابه ، ولواء لبني أميّة ، ولواء لنَجْدَة الحَرُورِيّ [٢٠٨] ، وهكذا تفرّق المسلمون حتى في أداء شعائر الحج !

وفي سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠ م) قضى عبدالملك بن مروان على مُصْعَب بن الزبير في العراق [٢٠٩] .

وفي سنة اثنتين وسبعين الهجرية (٦٩١ م) قضى عبدالملك على قسم من فتن الخوارج والخارجين عليه في الأمصار [٢١٠] .

وفي سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، قضى الحجّاج بن يُوسُف

---

(٢٠٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا ؛ قادة فتح المغرب العربي (٢/٣٦-٩١) .
(٢٠٧) ابن الأثير (٢٦١/٤-٢٦٧) . (٢٠٨) ابن الأثير (٢٩٦/٤) .
(٢٠٩) انظر الفاصيل في : ابن الأثير (٣٢٣/٤-٣٣٦) .
(٢١٠) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣٤٢/٤-٣٤٧) .

الثَّقَفِيّ على عبدالله بن الزبير في الحجاز [٢١١] .

وهكذا قضى عبدالملك بن مروان من سنة خمس وستين الهجرية إلى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٨٤ م – ٦٩٢ م) في صراع مرير لاستعادة الوحدة الشّاملة إلى الدولة الاسلاميّة ، سقط من جرائه مالا يعدّ ولا يحصى من القتلى ، وشغل العرب فيما بينهم بالاقتتال عن القتال في ساحات الجهاد ، فضعف شأن المسلمين في البلاد المفتوحة ، واجتاحتها الفتن والاضطرابات والفوضى .

لقد كانت سنة ثلاث وسبعين الهجرية سنة الوحدة الشّاملة للدولة الاسلامية.

والدرس الذي نتعلّمه ، أنّ من أسباب فتوح المسلمين وحدتهم بالاسلام ، وأنّ الفتوح تمتدّ شرقاً وغرباً في أيام الوحدة ، وتنحسر في كلّ مكان في أيام الفُرْقَة .

ولم تكن إرمينية أسعد حظّاً من البلاد المفتوحة الأخرى ، بل كانت مثلها في انتقاض أهلها واستقلالهم عن الدولة الاسلاميّة .

٢– جهاد محمد بن مروان :

لما كانت فتنة عبدالله بن الزبير ، انتقضت إرمينية [٢١٢] ، وفي سنة ثلاث وسبعين الهجريّة (٦٩٢ م) وهو عام الوحدة ، ولّى عبدالملك بن مروان أخاه محمد بن مروان على الجزيرة و إرمينية ، فغزا منها وأثخن في العدو [٢١٣] ، وقتل وسبى وغلب على البلاد [٢١٤] . وفي سنة أربع وسبعين غزا محمد بن مروان الصّائفة الرُّوم [٢١٥] ، كما غزا الروم سنة خمس وسبعين الهجرية (٦٩٤ م) الصّائفة أيضاً [٢١٦] .

وفي سنة ست وسبعين (٦٩٥ م) غزا محمد الروم من ناحية (مَلَطْيَة) [٢١٧]

---

(٢١١) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٣٤٨/٣–٣٥٩) .

(٢١٢) فتوح البلدان (٢٨٩) .

(٢١٣) ابن الأثير (٣٦١/٤) .

(٢١٤) فتوح البلدان (٢٨٩) .

(٢١٥) ابن الأثير (٣٧٣/٤) .

(٢١٦) ابن الأثير (٣٩١/٤) .

(٢١٧) ابن الأثير (٤١٨/٤) .

وفي سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠ م) غزا محمد إرمينية فهزمهم ، ولكنهم قتلوا وكيله عليها بعد أن صالحهم ، فغدروا به وقتلوه غدراً [٢١٨] .

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) غزا محمد إرمينية فصَافَ فيها وشتى [٢١٩] .

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) عزل الوليد بن عبدالملك عَمه محمد بن مروان عن إرمينية والجزيرة واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة بن عبدالملك [٢٢٠] .

لقد كان محمد بن مروان قائداً متميّزاً ، له شخصية قويّة نافذة ، وقد أعاد الهدوء والاستقرار إلى إرمينية ، وخافهُ أهلها [٢٢١] .

٣ـ جهاد مَسْلَمة بن عبدالملك [٢٢٢] :

أ ـ ولايته الأولى :

عزل الوليد بن عبدالملك عَمّهُ محمد بن مروان عن (الجزيرة) و(إرمينية) سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) واستعمل عليها أخاه مَسْلَمَة [٢٢٣] . ولما أراد الوليد عزل عَمه ، لم يقدم أحدُ عليه إلاّ مَسْلَمَة [٢٢٤] .

وفي هذه السنة غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) ، وفتح مدائن وحصوناً ، ونصب عليها المجانيق [٢٢٥] .

وأمضى مسلمة السنوات التالية في غزو بلاد الرُّوم ، وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها

---

(٢١٨) ابن الأثير (٤٧٦/٤) .
(٢١٩) ابن الأثير (٥١٤/٤) .
(٢٢٠) ابن الأثير (٥٥٥/٤) .
(٢٢١) فتوح البلدان (٢٨٩) .
(٢٢٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .
(٢٢٣) ابن الأثير (٥٥٥/٤) .
(٢٢٤) ابن الأثير (٧٠/٥) .
(٢٢٥) الطبري(٤٥٤/٦) وابن الأثير (٥٥٥/٤) وابن خلدون (١٤/٣) والنجوم الزاهرة (٢٢٢/١) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) .

وخرّبها ، ثم بناها بعد ذلك[٢٢٦] بعشر سنين[٢٢٧] أو تسع سنين[٢٢٨] ، وقد انتقضت هذه المدينة فأعادها للمسلمين مرة أخرى ، والظاهر أنها استعصت. وغزا مسلمة بلاد الروم سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) وسنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) .

وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م – ٧١٧ م) عزل سليمان بن عبدالملك أخاه مسلمة وولاه قائداً عاماً لقوات المسلمين المعتزمة فتح القُسْطَنْطِيْنِيَة[٢٢٩] ، فسار على رأس جيشه نحو هدفه .

ب – ولايته الثانية :

وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك أخاه مَسْلَمَة على إرمينية وأذْرَبِيْجان خلفاً للجرّاح بن عبدالله الحَكَمِي[٢٣٠] فاستعمل مسلمةُ الحارث بن عمرو الطائي[٢٣١] ، فافتتح رستاقاً وقرى كثيرة ، وأثّر فيها أثراً حسناً[٢٣٢] .

وفي سنة ثمان ومئة الهجريّة (٧٢٦ م) ، حاصر الترك مدينة (وَرْثان)[٢٣٣] ورموها بالمنجنيق ، فقصدهم الحارث بن عمرو بأمر مَسْلَمَة وعبر نهر (الرسّ) بالقرب من (وَرْثان) ، والتقى بالترك وانتصر عليهم بعد أن كبّدهم خسائر فادحة بالأرواح[٢٣٤] .

---

(٢٢٦) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .
(٢٢٧) البداية والنهاية (١١٧/٩) والمعارف (٣٦٥)
(٢٢٨) البداية والنهاية (٣٢٨/٩) .
(٢٢٩) أبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١).
(٢٣٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٣١) انظر سيرته في : تهذيب ابن عساكر (٤٥٦/٣) .
(٢٣٢) ابن الأثير (١٣٧/٥–١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب(١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٠/٢) .
(٢٣٣) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين وادي الرس فرسخان، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٣/٨) .
(٢٣٤) تهذيب ابن عساكر (٤٥٦/٣) .

وفي سنة تسع ومئة الهجريّة (٧٢٧ م) ، غزا مسلمةُ الترك من ناحية (أذْرَبِيْجان) ، فغنم وسبى وعاد سالماً [٢٣٥].

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨ م) ، غزا مَسْلَمةُ التركَ في باب (اللان) ، فلقى خاقان [٢٣٦] في جموعه ، ونشب القتال بين الجانبين قريباً من شهر واحد ، وأصابهم مطرٌ شديد ، فانهزم خاقان وعاد مسلمة منتصراً [٢٣٧].

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ على إرمينية وأذربيجان وعزل أخاه مسلمة [٢٣٨].

ومن الواضح أن مسلمة وطّد أكناف إرمينية وأذربيجان وأحرزَ انتصارات باهرة على الخَزَر والترك ، فأدىّ واجبه على أحسن وجه ، ولم يبق مايسوِّغ بقاءه في منصبه بعيداً عن عاصمة الخلافة (دِمَشْق) ، وبخاصة فان وجوده في دمشق يفيد جميع الأقطار الاسلامية ولايقتصر على قطرين إسلاميين حسب . ولعل عزل مسلمة كان لحرص هشام على أن يبقى مسلمة إلى جانبه ، مستشاراً ناصحاً وقائداً لامعاً وإدارياً حازماً ، فاستأثر به لنفسه من أجل مصلحة الدولة الاسلامية كلها ، إذ لا يمكن الاستغناء عن كفاية مسلمة الذي أصبح قائد الدولة البارز غير منازع في كفايته وإخلاصه إلاّ

---

(٢٣٥) ابن الأثير (١٤٥/٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الاسلام(٣٠٢/٤) وتاريخ خليفة ابن خياط (٣٥٢/٢) .

(٢٣٦) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

(٢٣٧) ابن الأثير (١٥٥/٥). وكانت هذه الغزوات من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة ، واشاعة الأمن والاستقرار في (أذربيجان) و (إرمينية)الجبليتين ذات البرد القارس والسكانالجبليين الماهرين في الحروب الجبلية والمتميزين بالشجاعة والاقدام.

(٢٣٨) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ الاسلام(٣٠٢/٤٣) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٣/٢) .

لتولي مهمة جديدة هي أكبر من مهمّته الكبيرة والياً على إرمينية وأذربيجان . ومن المحتمل أن عزلهُ كان لأسباب قاهرة كالمرض مثلاً ، لأن هشام بن عبدالملك لايمكن أن يعزل أخاه مسلمة بدون رغبته إلاّ لأسباب قاهرة ، سكت المؤرخون عن ذكرها .

ولم يغز مسلمة سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) خلافاً لعادته التي التزم بها في الغزو كلّ سنة مرّة أو مرتين . وفي تلك السنة سارت الترك إلى (اذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم [٢٣٩] ، مما يدلّ على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد ممن يعملون بامرته ، وهذا يدلّ على أنّ مسلمة كان في (دمشق) لاسباب غير عاديّة ، فأراد هشام أن يولّي غيره دون أن يعزله لريبة أو تقصير .

ج – ولايته الثالثة :

استُشهد الجرّاح بن عبدالله الحكميّ سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠ م) ، فاضطربت إرمينية وأذربيجان ناراً ، وأصبح الموقف العسكريّ حرجاً مما يهدّد البلاد المفتوحة بأفدح الأخطار .

وأعاد هشام مَسْلَمَة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية [٢٤٠] (٧٣٠ م) ، ليتدارك الموقف المتردي فيها ، بعد أن استفحل أمر الخَزَر والترك فأبادوا قائد المسلمين وجيشه [٢٤١] .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م)ضمّ هشام إلى مسلمة أذربيجان أيضاً [٢٤٢] ، وانطلق مسلمة إلى إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مسرعاً ، لاستعادة هيبة الدولة وإعادة الأمن ، فليس مسلمة من الذين يسكتون على استشهاد قائد من قادة المسلمين وإفناء جيشه دون أن يعيد المعتدين إلى صوابهم .

(٢٣٩) ابن الأثير (١٥٨/٥) .
(٢٤٠) فتوح البلدان (٢٩٠) .
(٢٤١) فتوح البلدان (٢٩٠) .
(٢٤٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٨/٢).

وكان على مقدمة مسلمة سعيد بن عمرو بن أسود الحَرَشِيّ (٢٤٣) ، فواقع سعيد الخزَر وقد حاصروا (وَرْثان) فكشفهم عنها وهزمهم ، وانسحب الخزر إلى (مِيمَذ) من عمل أَذْرَبِيجان ، فلما تهيأ لقتالهم أتاه كتاب مسلمة يلومه على قتاله الخزر قبل قدومه ، ويعلمه أنه قد عزاله وولى قيادة عسكره غيره . وسلّم سعيدٌ القيادَة ، فأخذه رسول مسلمة وحبسه وأخذه مقيداً إلى (بَرْذَعة) وحُبس في سجنها ، وانصرف الخزر ، فأتبعهم مسلمة وكتب بذلك إلى هشام ، فكتب هشام إلى مسلمة :

أَتَتْرُكهُمْ بِمِيمَذ قد تَراهُم وتَطْلُبُهم بمنقطع التراب !

وأمر هشام باطلاق سراح سعيد من السجن .

وقد كان الخزر بميمذ ، فلم يناجزهم مسلمة أولاً ، بل قصد مدينة (باب الأبواب) ثم عبرها ، فتبعه (٢٤٤) الخزر . وكان على مسلمة أن يبدأ بها ، حتى لايعرِّضَ خطوط مواصلات جيش المسلمين للخطر ، ولكن حصل العكس ، مما أدّى إلى الاختلاف بين مسلمة وسعيد من جهة وبين مسلمة وهشام من جهة أخرى ، وكان سعيد وهشام على حق ، وكان مسلمة على خطأ .

وصالح مسلمة أهل (خَيْزان) وأمر بحصنها فهدم (٢٤٥) ، مما يدل على تكرار انتقاضها وشدّة مقاومتها للفاتحين .

وسالم مسلمة ملوك الجبال : جبال القفقاس ، وسار إليه صاحب (مَسْقَط) (٢٤٦) .

وهاجم مسلمة مدينة (باب الأبواب) ، وكان في قلعتها ألف أهل بيت من الخَزَر ، فحاصرهم ورماهم بقنابل الحجارة والحديد ، فلم ينتفع بهذا القصف ، وبقيت المدينة ثابتة .

---

(٢٤٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٢٤٤) فتوح البلدان (٢٩٠) . (٢٤٥) فتوح البلدان (٢٩١) .
(٢٤٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وعمد مسلمة إلى العَيْن التي كان انُو شِرْوان أجرى منها الماء إلى صهريج المدينة ، فذبح البقر والغَنَم ، وألقى فرثها وفضلاتها الأخرى في الصهريج ، فلم يمكث ماؤهم إلاّ ليلة حتى دوّد وأنتَن وفسد ، فلما جنّ عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة [٢٤٧] ، وهكذا استعاد مسلمة مدينة (باب الأبواب) بعد حصار طويل وقتال مرير .

ووطّد مسلمة العزم على ترصين مدينة باب الأبواب لجعلها قاعدة متقدمة للمسلمين ، فأسكن المدينة أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشّام على العطاء ، فأهل الباب لايدعون عاملاً يدخل مدينتهم إلاّ معهُ مال يفرِّقهُ بينهم [٢٤٨] .

وبنى مسلمة في مدينة باب الأبواب هُرْياً للطعام ، وهُرْياً للشّعير ، وخزانة للسِّلاح ، وأمر بتطهير صهريج المدينة ، ورمّ المدينة وشرّفها [٢٤٩] . وهكذا جعل مسلمة من هذه المدينة قاعدة أمينة متقدِّمة في محاولة لعدم انتقاضها مرة أخرى ، ولكي ينطلق منها المسلمون شمالاً لحماية البلاد المفتوحة ولاضافة فتح جديد .

وقد فرّ الخزر من مدينة باب الأبواب باتّجاه منطقة باب (اللان) ، فطاردهم مسلمة إلى هناك للقضاء عليهم وإجبار قواتهم الضّاربة على الاستسلام .

ولقي مسلمةُ (خاقان) [٢٥٠] في جموعه ، فنشب بين الجانبين قتال مرير استغرق قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزمَ خاقان في السّابع من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وهذه الغزوة تسمى غزوة الطِّين ، وكانت ملحمة عظيمة ، لهطول الأمطار الغزيرة التي جعلت ساحة المعركة تغصّ بالطِّين [٢٥١] .

---

(٢٤٧) فتوح البلدان (٢٩١) . (٢٤٨) فتوح البلدان (٢٩١) .
(٢٤٩) فتوح البلدان (٢٩١) .
(٢٥٠) الخاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .
(٢٥١) النجوم الزاهرة (٢٦٧/١) وتاريخ الاسلام (٣٠٤/٤) .

لقد قضى مسلمة هذه السنة صيفاً وشتاءً غازياً ، وكان من عادة المسلمين أن يغزوا الصّائفة ويستقرّوا في الشتاء ، ولكن سير الحوادث في تلك السنة أجبره على ألاّ يُريح ولا يستريح ، للقضاء على مقاومة الخزر الاشدّاء الاقوياء المتمرّسين على الحروب الجبليّة .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣١ م) ، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت مدائن وحصوناً على يديه ، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودانَ له مَنْ وراء جبال (بَلَنْجر) من بلاد الخزر ، وقتل ابن خاقان [٢٥٢] ، فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر والترك وغيرهم عليه في جمع لايعلم عددهم إلاّ الله . وكان مسلمة قد جاوز مدينة (بَلَنْجَر) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم ، وعاد وعسكرهُ جريدة [٢٥٣] ، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطووا المراحل : كلّ مرحلتين في مرحلة واحدة ، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق [٢٥٤] ، فأكمل بناء الباب وحصّنها [٢٥٥] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ، استعمل هشام بن عبدالملك مروان بن محمد بن مروان بن الحَكَم وهو ابن عَمه على (الجزيرة) و (أذربيجان) و (إرمينية) وعزل أخاه مسلمة [٢٥٦] ، فعاد أدراجه إلى دمشق .

ولم يكن الموقف العسكريّ بصالح المسلمين عند عزل مسلمة ، وما مثل مسلمة يرضى بأن يتخلىّ عن القيادة ، والبلاد التي بامرته ورجاله والمسلمون في موقف عصيب .

(٢٥٢) في المعارف (٣٦٥) : انه قتل ملك الترك .
(٢٥٣) الجريدة : خيل لا رجالة فيها ، ويقصد : أن الجيش كان مسرعاً كسرعة الخيالة .
(٢٥٤) ابن الأثير (١٧٣/٥-١٧٤) .
(٢٥٥) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ ابن خياط (٣٥٩/٢) .
(٢٥٦) ابن الأثير (١٧٧/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٣/١) وابن خلدون (٣٠٠/٣) .

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة بدون مرافقة مسلمة المسبّقة ، وليس من المعقول أن يُعْزَل مسلمة لقلة كفايته ، لأنّ كفايته فوق الشبهات ، ولأنّ هشام بن عبدالملك ولاّهُ لكفايته المتميزة ، ليعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النّظر ، أنّ مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية أو قيادة منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية (٧٣٢ م) ، حتى توفاه الله سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٧ م) أو إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٢٨ م) .

وغيابه عن تحمّل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الواجب ، ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ في مثل تلك الظروف الحرجة .

وإذا كان بالامكان أن يتخلى مسلمة عن تولي المناصب الاداريّة ، فليس بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب القياديّة ، وهو الذي يؤثر أن يكون غازياً لا والياً ، فقد حمل السِّلاح قائداً وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وقضى كلّ سنيّ حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلىّ عن تولي المناصب القياديّة لأسباب خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أنّ تخليه عن تولي القيادة ، لم يكن بارادته ولا بارادة الخليفة هشام ، بل تخلّى عنها مُكرها ، وذلك لاصابته بمرض أقعده عن تولي هوايته المفضّلة ، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميِّز تمتّعه بالقابلية البدنيّة المتميِّزة ، ليستطيع تحمّل أعباء الجهاد ، وما أثقلها من أعباء .

وإلاّ فليس هناك أيّ سبب آخر يسوّغ ابتعاده عن ساحات الجهاد غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش بكفاية وقوّة وأمانة .

٤ ـ جهاد الجراح بن عبدالله الحكمي (٢٥٧)

أ : في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢) م ، ولّى يزيدُ بن عبدالملك الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ إرمينية . (٢٥٨)

وسبب تولية الجرّاح ، أنّ المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجريّة (٧٢١ م) ، دخلوا بلاد الخَزَر (القفقاس) من إرمينية وعليهم ثُبَيْت النّهْرانِيّ (٢٥٩) ، فاجتمعت الخزر في جمع كثير ، وأعانهم الترك من مختلف أنواعهم ، فلقوا المسلمين في موضع يُعرف بـ (مَرْج الحجارة) . ونشب القتال بين الجانبين بشدّة وعُنف ، فقُتل من المسلمين بشر كثير (٢٦٠) واستولى الخزر على معسكرهم ، وغنموا جميع ما فيه (٢٦١) ، وذلك في عزّ الشتاء من شهر رمضان من سنة ثلاث ومئة الهجرية (٢٦٢) (٧٢١ م) .

وهكذا تجمّعت على المسلمين حُشود الخزر الضخمة وحلفاؤهم ، وبرد الشتاء القارس في عنفوانه ببلاد جبلية باردة جداً ، فأدّى هذان العلامان إلى هزيمتهم .

وأقبل المنهزمون إلى الشّام ، على يزيد بن عبدالملك وفيهم ثُبَيْت ، فوبّخَهم يزيد ، فقال ثُبَيْت : « ياأمير المؤمنين ! ماجبنتُ ولا نكبتْ عن لقاء العدو ، ولقد لصقتِ الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي ، وضاربت حتى انقطع سيفي ، غير أنّ اللهَ سبحانهُ وتعالى

---

(٢٥٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .

(٢٥٨) ابن الأثير (١١١/٥) وتاريخ خليفة ابن خياط (٣٣٧/١) والعبر (١٢٦/١)وتاريخ الموصل (١٧) .

(٢٥٩) في تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) : أن قائد المسلمين كان معلق بن صفار البهراني

(٢٦٠) في تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) : فأصيب من المسلمين جميعاً .

(٢٦١) ابن الأثير (١١٥/٥) .

(٢٦٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٦/١) .

يفعلُ مايُريد » [٢٦٣] .

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين ، طمع الخزر في البلاد ، فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يزيدُ بن عبدالملك على إرمينية وأَذْرَبِيْجان الجرّاحَ ابن عبدالله الحَكَمِيَّ ، وأمدّهُ بجيش كثيف ، وأمرهُ أن يغزو الخزر وغيرهم من الأعداء ، وقَصْدَهم في عقر دارهم . وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين ، فلجأوا إلى مدينة (باب الأبواب) . ووصل الجرّاح إلى مدينة (بَرْذَعَة) [٢٦٤] ، فأقام بها حتى استراح هو ومَنْ معهُ . وتوجّه نحو الخزر ، فعبر نهر (الكُرّ) [٢٦٥] فسمع أن بعض مَنْ كان معهُ في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبرهُ بمسير الجرّاح إليه ، فأمر مناديه فنادى بالناس : « إنّ الأمير مقيم ههنا مدّة أيام ، فاستكثروا من الميرة » ، فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبرهُ أنّ الجرّاح مقيم ، ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه [٢٦٦] .

ولما كان اللّيل ، أمر الجرّاح بالرّحيل ، فسار مُجِدّاً حتى انتهى إلى مدينة (باب الأبواب) ، فلم ير الخزر ، ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من المدينة إلى منطقة حشودهم ، فدخل المسلمون المدينة ، وبثّ الجرّاح سراياهُ على مايجاور المدينة ، فغنموا وعادوا في الغد .

وسار الخزر وحلفاؤهم إلى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان) ، فالتقوا عند نهر (الرّان) [٢٦٧] ، فنشب القتال الشديد بين الجانبين ، وحرّض

---

(٢٦٣) ابن الأثير (١١١/٥) .

(٢٦٤) برذعة : مدينة من مدن إرمينية الأولى ، انظر التفصيل في معجم البلدان (١١٩/٢-١٢٢)

(٢٦٥) نهر الكر : نهر ينبع من كورة جرزان(جورجيا) من جبال (جلدير) ويمر بمدينة تفليس ، ويبلغ طوله نحو (٩٤٠ كم) ، انظر ماجاء عن هذا النهر في : معجم البلدان (٢٣٧/٧-٢٣٨) .

(٢٦٦) ابن الأثير (١١١/٥) .

(٢٦٧) نهر الران : هو نهر (أران) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٣/٣-٢١٤)، ومنطقة أران من إرمينية الأولى .

الجرّاح أصحابه ، فظفر المسلمون بالخزر وهزموهم ، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقُتل منهم خلق كثير . وغنم المسلمون جميع مامعهم ، وفُتح حصن (الحُصَيْن) سلماً ، ونقل أهلهُ عنه .

وسار الجرّاح بالمسلمين إلى مدينة (يَرْغوا) (٢٦٨) ، فأقام عليها ستة أيام ، وهو مجد في قتال أهلها ، فطلبوا الأمان ، فأمّنهم ونقلهم منها (٢٦٩) .

وسار الجرّاح إلى (بَلَنْجر) وهو حصن مشهور من حصونهم ، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة ، شدّوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها ، وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن ، وكانت تلك العجل أشدّ شيء على المسلمين في قتالهم (٢٧٠) .

وخرج رجل من المسلمين فقال : « مَنْ يَشْري الله نفسهُ ؟ » ، فأجابته جماعة مابلغت عدّتهم ثلاثين رجلاً ، فكسروا جفون سيوفهم ، وشدّوا على العجل ، وأجلوا الرجال عنها ، وأخذوا عجلة منها (٢٧١) .

وحدّ الخزر بقتالهم ، ورموا من النشاب ماكان يحجب الشّمس ، فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا إلى العَجَل ، وتعلقوا ببعضها ، وقطعوا الحبل الذي يمسكها ، وجذبوها ، فانحدرت ، وتبعها سائر العَجَل ، لأنّ بعضها كان مشدوداً إلى بعض ، وانحدر الجميع إلى المسلمين (٢٧٢) .

والتحم القتال واشتدّ . وعظم الأمر على الجميع ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، فانهزم الخزر وحلفاؤهم ، واستولى المسلمون على الحصن عَنْوَةً ،

(٢٦٨) يرغوا : لم أجد لهذه المدينة ذكراً في معجم البلدان ، وقد وردت في كتاب : تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) : يزعوا .

(٢٦٩) ابن الأثير (١١٢/٥) .

(٢٧٠) ابن الأثير (٢/٥جـ ١) .

(٢٧١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

(٢٧٢) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

(٢٧٣) كان فتح بلنجر يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول ، انظر خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .

وأصابوا جميع مافيه غنائم للمسلمين ، فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، وكانت تلك المعركة في ربيع الأول (٢٧٣) من سنة أربع ومئة الهجريّة (٢٧٤) .

وسار الجرّاح عن (بَلَنْجَر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بَلَنْجَر) وأهله ، فبعث الجرّاح إليه وأحضره وردّ أمواله وأهله وحصنه إليه ، وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم .

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر) (٢٧٥) وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجرّاح على مال يؤدّونه . (٢٧٦)

وسار الجرّاح إلى (وَرْثان) (٢٧٧) ، فأدركه الشتاء ، فأقام المسلمون فيها .

وكتب الجرّاح إلى يزيد بن عبدالملك يخبره بما فتح الله عليه ، وأن أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، ويسأله المدد .

ووعد يزيد أن يبعث بالمدد إلى الجرّاح ، ولكنّ الأجل أدركه قبل قبل أن يبعث بما وعد به ، فأرسل هشام بن عبدالملك إلى الجرّاح المدد ، وأقرّه على عمله . (٢٧٨)

ب : وفي سنة خمس ومئة الهجريّة (٧٢٣ م) ، زحف الترك نحو إرمينية وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك ، فالتقى الجانبان في موضع يقال

---

(٢٧٤) ابن الأثير (١١٢/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .
(٢٧٥) ونبدر : لم أجد لهذا الحصن ذكراً في كتاب : معجم البلدان ، ويبدو من سير القتال أنه يقع في منطقة أران .
(٢٧٦) ابن الأثير (١١٢/٥) .
(٢٧٧) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٨/١) ، وفي ابن الأثير (١١٣/٥) : أنه عاد الى رستاق (ملي) .
(٢٧٨) ابن الأثير (١١٣/٥) .

له : (الزمّ) ، [٢٧٩] بين نهري (الكُرّ) و (الرَسّ) من إرمينية في شهر رمضان من هذه السنة ، واستمرّ القتال أياماً ، فانهزم الترك . [٢٨٠]

والظّاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بن عبدالملك بارساله إلى إرمينية قد وصل إلى الجرّاح في الوقت المناسب ، فاستأنف المسلمون استعادة ما انتقض من إرمينية ، فغزا الجرّاح (اللان) [٢٨١] ، وهي بلاد واسعة غنيّة ، فاستعاد الجرّاح فتحها وفتح مدائن وحصوناً وراء (بلنجر) ، وأصاب غنائم كثيرة [٢٨٢]

ج : وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤ م) ، غزا الجرّاح بلاد (اللان) ، فصالح أهلها وأدّوا الجزية [٢٨٣] ، بعد أن أوغل في بلاد الخزر ، وهو أول مَنْ قفل من باب (اللان) في إرمينية [٢٨٤] .

د : وفي سنة سبع ومئة الهجريّة (٧٢٥ م) ، عزل هشام بن عبدالملك الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان وولاّها أخاه مسلمة بن عبدالملك [٢٨٥] .

ولم يذكر المؤرخون سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان ، لأنّ الجرّاح لم يقصّر في واجبه قائداً وإدارياً ، كما إنّ نزاهته كانت فوق الشبهات ويبدو أنّ هشام بن عبدالملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه مسلمة القياديّة في منطقة نائية جبلية اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر ، فعزل الجرّاح واستعمل أخاه .

---

(٢٧٩) الزم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر معجم البلدان (٤٠٥/٤٥) ، وليست هي المقصودة هنا ، لبعدها عن ساحة القتال ، بل هي موضع بين نهري (الكر) و (الرس) في إرمينية .

(٢٨٠) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) .

(٢٨١) اللان : بلاد واسعة في طرف إرمينية قرب مدينة (باب الأبواب) مجاورة للخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٤/٥) .

(٢٨٢) ابن الأثير (١٢٥/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) والبداية والنهاية (٢٣١/٩).

(٢٨٣) ابن الأثير (١٣٤/٥) .

(٢٨٤) تاريخ خليفة بن خياط (٣٤٩/٢) .

(٢٨٥) ابن الأثير (١٣٧/٥) .

هـ : وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجريّة (٧٢٩ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك الجرّاح ثانية على إرمينية وأذربيجان ، وعزل أخاه مسلمة بن عبدالملك [٢٨٦] .

ودخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْلِيسْ) ، واستعاد فتح مدينة من مدن الخزر هي مدينة (البيضاء) [٢٨٧] ، ثم انصرف سالما [٢٨٨] .

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقيادة ابن خاقان ، فدخلوا إرمينية ، ثمّ سار ابن خاقان ، فحاصر (أَرْدَبِيلْ) [٢٨٩] .

و : وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، زحف الجرّاح من (بَرْذَعَة) [٢٩٠] ، وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللان) . وعسكر الجرّاح ومَنْ معه بمرج (أرْدَبِيلْ) ، وقاتل جموع الخزر والترك أشدّ قتال رآه الناس ، فصبر الفريقان صبراً جميلا [٢٩١] .

وتكاثر الخَزَر والتُّرك على المسلمين ، فاستُشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة ، وغلبت الخَزَر على أذربيجان وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل) ، وعظم الخطب على المسلمين [٢٩٢] ، وتكبدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال.

---

(٢٨٦) ابن الأثير (١٥٨/٢) وتاريخ الاسلام (٢٠٢/٤) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) .
(٢٨٧) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٣٥/٢)
(٢٨٨) ابن الأثير (١٥٨/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٤/٢) .
(٢٨٩) تاريخ خليفة ابن خياط (٣٥٤/٢-٣٥٥) .
(٢٩٠) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٥/٢) .
(٢٩١) ابن الأثير (١٥٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٦/٢) .
(٢٩٢) ابن الأثير (١٥٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٦/٢) .

٦ : جهاد سعيد بن عمرو الحرشي

لما بلغ هُشام بن عبدالملك خبر استشهاد الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ ، دعا سعيداً الحَرَشِيّ ، فقال له : « بلغني أنّ الجرّاح قد انحاز عن المشركين ! » قال : « كلاّ يا أميرَ المؤمنين ! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قُتل» قال : « فما رأيك ؟ » ، قال : «تبعثني على أربعين دابّة من دوّاب البريد ، ثمّ تبعث إلي كلّ يوم أربعين رجلاً ، ثمّ اكتبْ إلى أُمراء الأجناد يوافوني » ، ففعل ذلك هشام [٢٩٣] وولاّه مقدّمة مَسْلَمَة بن عبدالملك [٢٩٤] الذي ولاّه إرْمِينِيَة وأذْرَبِيْجان [٢٩٥] .

وسار الحَرَشِيّ ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَن يريد الجهاد في سبيل الله .

ووصل إلى مدينة (أَرْزَن) [٢٩٦] ، فلقيه جماعة من أصحاب الجرّاح وبكوا وبكى ابكائهم ، ففرّق بينهم نفقة وردّهم معه .

ووصل الحَرَشِيّ على رأس المقدّمة التي كانت مؤلفة من جيش كامل — وإنما سميّت مقدّمة لأن الحَرَشِيّ انطلق بسرعة قبل مَسْلَمَة — وصل إلى (خِلاط) ، [٢٩٧] وفتح الحصون والقلاع شيئاً بعد شيء ، إلى أن وصل إلى (بَرْذَعَة) [٢٩٨] بعد فتح (خِلاط) عَنْوَة .

ونزل (بَرْذَعة) ، وكان ابنُ خاقان يومئذ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي

---

(٢٩٣) ابن الأثير (١٥٩/٥—١٦٠)،وانظر الطبري (٧٠/٧) وتاريخ خليفة بن خياط(٣٦٥/٢)

(٢٩٤) فتوح البلدان (٢٩٠) . (٢٩٥) فتوح البلدان (٢٩٠) .

(٢٩٦) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٠/١—١٩١) .

(٢٩٧) خلاط : مدينة مشهورة ، وهي قصبة إرمينية الرابعة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٥٣/٣) .

(٢٩٨) برذعة : مدينة كبيرة جداً في ارمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١١٩/٢—١٢٢)

ويقتل وهو محاصر مدينة (وَرْثان) (٢٩٩) ، فخاف الحَرَشِيّ أن يملكها، فأرسل بعض أصحابه إلى أهل (وَرْثان) سِرّاً يعرّفهم بوصوله ويأمرهم بالصّبر ؛ فسار الرّسول ولقيه بعض الخَزَر ، فأخذوه وسألوه عن حاله ،فأخبرهم وصدقهم ! وقال الخَزَر له : إنْ فعلتَ ما نأمركَ به ، أحسنّا إليك وأطلقناك، وإلاّ قتلناك . قال : « فما الذي تريدون ؟ » ، قالوا : تقول لأهل (وَرْثَان): إنّكم ليس لكم مدد ولا مَنْ يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا . . . فأجابهم إلى ذلك .

وقارب الرَّجلُ المسلمُ المدينة ، فوقف بحيث يسمع أهلها كلامه، والخَزَر يترصّدونه ويسمعون كلامه ، فقال لأهل (وَرْثَان) : « أتعرفوني ؟ » ،قالوا : نعم ، أنت فلان ! قال : « فانّ الحَرَشيّ قد وصل إلى مكانه كذا في عساكر كثيرة ، وهو يأمركم بحفظ البلد والصّبر، وفي هذين اليومين يصل إليكم » ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل .

وقتلت الخَزَر ذلك الرَّجل ، ثمّ رحلوا عن مدينة (وَرْثان) ، فوصلها الحَرَشِيّ في العساكر وليس فيها أحد من الخزر .

وارتحل الحَرَشِيّ يطلب الخَزَر في (أَرْدَبِيل) (٣٠٠) ، فانسحب الخزر منها .

ونزل الحَرَشِيّ (باجَرْوَان) (٣٠١) ، فجاءه مَنْ يخبره أنّ الخَزَر في عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من أهل بيت من المسلمين أسارى وسبايا ، وقد

(٢٩٩) ورثان : بلد هو آخر حدود أذربيجان ، بينه وبين نهر (الرس) فرسخان ، وبين ورثان وبيلقان سبعة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤١٣-٤١٤) .

(٣٠٠) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان ، وكانت قبل الفتح الاسلامي قصبة أذربيجان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٨٢-١٨٤) .

(٣٠١) باجروان : مدينة من نواحي (باب الأبواب) قرب مدينة (سروان) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٤) .

نزلوا على بُعْدِ أربعة فراسخ من مكانه الذي هو فيه .

وسار الحَرَشِي ليلاً ، فوافى الخَزَر آخر اللّيل وهم نيام ، ففرّق أصحابه في أربع جهات ، وكبّس الخَزَرَ مع الفجر ، ووضع المسلمون فيهم السّيف. فما بزغت الشمس حتى أُبِيْدَ الخَزَرُ ، وحتى أصبح أسرى المسلمين وسباياهم أحراراً ، فأخذهم الحَرَشِي معه إلى (باجَرْوان) .

ولم يكد يستقرّ به المقام في (باجَرْوان) إلاّ أتاه مَنْ يخبره بأنّ الخَزَر ومعهم أموال المسلمين وحُرَم الجرَّاح وأولاده في مكان قريب .

وأسرع الحَرَشِيّ إلى هدفه الجديد ، فلم يشعر الخَزَر إلاّ والمسلمون معهم ، فوضعوا فيهم السّيف وقتلوا كيف شاؤوا ، ولم يفلت من الخَزَر إلاّ الشّريد ، واستنقذ المسلمون مَن معهم من المسلمين والمسلمات الأسرى والسبايا ، وغنموا أموالهم ، وأخذوا أولاد الجرّاح وحُرَمه وأكرموهم وأحسنوا إليهم ، وحملوا الجميع إلى (باجَرْوان) أيضاً .

وبلغ ما فعله الحَرَشِيُّ بعساكر الخَزَر ابنَ ملكهم ، فوبّخ عساكره وذمّهم ونسبهم إلى العجز والوَهَن ، فحرّض بعضهم بعضاً ، وأشاروا عليه بجمع أصحابه والعود إلى قتال المسلمين .

وجمع ابنُ ملك الخَزَر أصحابه من نواحي أذربيجان ، فاجتمع معه جيش كثيف .

وسار الحَرَشِيّ إلى جموع الخَزَر ، فالتقى المسلمون بالخزر في أرض (بَرْزَنْد) (٣٠٢) ، فنشب القتال بين الجانبين بشدّة وعنف . وانحاز المسلمون وقتاً يسيراً ، وتصدّعت صفوفهم ، ولكن الحَرَشِيّ حرّضهم على القتال وأمرهم بالصّبر ، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة .

(٣٠٢) برزند : بلدة من نواحي تفليس من أعمال جرزان من إرمينية الأولى ، بينها وبين أردبيل خمسة عشر فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٢٤) .

واستغاث مَنْ مع الخزَر من أسارى المسلمين ، ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء ، فتصاعد استقتال المسلمين ، ولم يبق أحد إلاّ بكى ابكاء الأسرى .

واشتدّت حملة المسلمين على الخزَر ، فولّوا الأدبار منهزمين ، فطاردهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر (الرَّس)(٣٠٣) ، ثمّ عادوا عنهم بعد أن أطلقوا أسرى المسلمين وسباياهم ، وغنموا أموال الخزَر ،وساروا عائدين أدراجهم إلى قاعدتهم المتقدّمة : (باجَرْوان) .

وجمع ابن ملك الخزَر مَنْ لحق به من عساكره ، وكرّ راجعاً إلى المسلمين ، فنزل على نهر (البَيْلَقَان) (٣٠٤) ، فالتقى الخزَر بالمسلمين هناك .

وحمل المسلمون على الخزر حملة صادقة، في منطقة نهر (البَيْلَقَان) ، فتضعضعت صفوف الخزَر . وتتابعت حملات المسلمين ، فصبر الخزَر صبراً عظيماً،ثمّ كانت الهزيمة عليهم ، فولّوا الأدبار منهزمين ، وكان مَنْ غرق في النهر منهم أكثر مِمّن قُتِل .

وجمع الحَرَشِيّ الغنائم ، وعاد إلى (باجَرْوان) فقسمها (٣٠٥) .

وقَدِم مَسْلَمَةُ بن عبد الملك إرمينية ، والخزَر قد انسحبوا إلى (مِيمَذ)(٣٠٦) ، والحَرَشِيّ يستعدّ لقتالهم ، فأتاه كتاب مَسْلَمَة يلومه على قتاله الخزَر قبل قدومه ، ويُعْلِمه أنه قد عزَاه وولّى قيادة جيشه غيرَه .

وسلّم الحَرَشِي القيادة لخلفه ، فأخذه رسولُ مَسْلَمَة وقيّده وحبسه في سجن (بَرْذَعَة) .

(٣٠٣) نهر الرس : نهر مخرجه من (قاليقلا) ويمر بأران ثم يمر بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو ونهر الكر وبينهما مدينة البيلقان ، انظر التفاصيل في معجم البدان (٤/٢٥٠-٢٥١) .

(٣٠٤) البيلقان : مدينة قرب (باب الأبواب) تعد من إرمينية الأولى قريبة من (شروان) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٤٠-٣٤١) .

(٣٠٥) ابن الأثير (٥/١٥٩-١٦٢) .

(٣٠٦) ميمذ : مدينة بأران في إرمينية الأولى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٧) .

وكتب مَسْلَمَة إلى هشام بن عبدالملك بما حدث ، فكتب هُشام إلى مَسْلَمَة :

أتتركُهُمْ بميِمْنَد قد تراهم وتطلبهم بمنقطع الطريق !

وأمر هشام بإطلاق سراح الحَرَشِيّ من سجنه [٣٠٧] ، فرحل إلى دمشق [٣٠٨]

٧ : جهاد مروان بن محمد بن مروان الأموي

تولّى مَسْلَمَة بن عبدالملك إرْمِينِيَة وأذْرَبِيْجان للمرّة الثالثة سنة اثنتي عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٠) بعد استشهاد الجرّاح بن عبدالله الحَكَميّ كما ذكرنا ، وكان معه ابن عمّه مَرْوان بن محمد بن مروان ، فنازل مروان الخَزَر مع مسلمة وأبلى وقاتل قتالاً شديداً[٣٠٩] .

وفي سنة أربع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٢ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك مروانَ بن محمد بن مروان وهو ابن عمّه على (الجزيرة)وأذربيجان وإرمينيَة وعزل مَسْلمة بن عبد الملك أخاه عن إرمينية وأذربيجان [٣١٠] ، وكان ذلك في مستهل شهر المحرّم من هذه السنة[٣١١] .

وسيّر هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة إلى إرمينية ، فاجتمع عند مروان من الجنود والمتطوّعة مئة وعشرون ألفاً . وأظهر مروان بعد إكمال حشد رجاله أنه يريد غزو (اللان) وقصد بلادهم ، وأرسل إلى ملك الخَزَر يطلب منه المهادنة فأجابه إلى ذلك ، وأرسل ملك الخَزَر إلى مروان وفداً لتقرير شروط الصلح ، فأمسك مروان الوفد عنده إلى أن فرغ من جهازه ، ثمّ أغلظَ للوفد الخَزَريّ القول وآذنه بالحرب . وسيّر مروانُ وفد الخَزَر إلى ملكهم بذلك ، ووكل به مَنْ يسيّره

(٣٠٧) فتوح البلدان (٢٩٠) .

(٣٠٨) ابن الأثير (١٦٢/٥) .

(٣٠٩) فتوح البلدان (٢٩٢) .

(٣١٠) الطبري (٩٠/٧) وابن الأثير (١٧/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٢/١) .

(٣١١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

على طريق فيه بُعْد ، ثم انطلق هو في أقرب الطرق ، فما وصل الرفد الخَزَرِيّ إلى ملكهم إلا ومروان قد وافاهم . وأعلم الوفد ملكَ الخزر بإخفاق المفاوضات مع المسلمين ، وأنهم قد قرّروا الحرب ، فاستشار الملك أصحابه ، فقالوا : إنّ مروان قد أغَرَّكَ ودخل بلادك ، فإن أقمتَ إلى أن تجمع رجالك ، لم يجتمع عندك إلى مدّة فيبلغ منك ما يريد ، وإن أنت لقيته على حالك هذه هزمك وظفر بك ، والرأي أن تنسحب إلى أقصى بلادك وتدَعَه وما يريد . فقَبِل رأيهم وسار حيث أمروه.

ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى حتى انتهى إلى آخرها في توغّله ، وأقام فيها عِدّة أيام حتى أذلّ الخزر وانتقم منهم .(٣١٢)

وفي رواية ، أنّ ملك الخزر حين بلغه كثرة مَنْ وطئ به مروان بلاده من الرجال وما هم عليه في عُدّتهم وقوّتهم ، امتلأ قلبه رعباً . ولما دنا مروان من عاصمة ملك الخَزَر ، أرسل إلى ملك الخزر رسولاً يدعوه إلى الإسلام أو الحرب . فقال الملك : « قد قبلتُ الإسلام ، فأرسل إليّ مَنْ يعرضه عليّ » ، ففعل مروان .

وأظهر ملكُ الخَزَر الإسلام ، وودع مروان الذي أقرّه في مملكته ، وسار مروان مع الملك بخلق من الخَزَر ، فأنزلهما بين (السّمُور) و (الشّابَران)(٣١٣) في سهل أرض (اللّكز)(٣١٤) .

وكان مروان قبل أن يتقدّم إلى بلاد الخَزَر ، قد نزل مدينة (كِسال) وهو الذي بنى مدينتها وهي من (بَرْذَعة) على أربعين فرسخاً ، ومن (تَفْلِيس)

---

(٣١٢) ابن الأثير (١٧٨/٥) .

(٣١٣) السمور والشابران : لم أجد لمدينة السمور ذكراً في معجم البلدان ، أما الشابران ، فهي مدينة من أعمال أران ، بينها وبين مدينة شروان نحو عشرين فرسخاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٥/٥) ، والظاهر ان مدينة السمور في تلك المنطقة أيضاً قريبة من الشابران .

(٣١٤) فتوح البلدان (٢٩٢) .

على عشرين فرسخاً ، ثمّ دخل أرض الخزَر مما يلي باب (اللان) برَتلٍ تحت قيادته ، وأمر أسيْد بن زافر السُّلَميّ أبا يزيد ومعه ملوك الجبال أن يدخل أرض الخزَر من ناحية (باب الأبواب) على رأس رتَل آخر ، فأغارَ مروان على (صقالبة) [٣١٥] كانوا بأرض الخزَر . فسبى منهم عشرين ألف بيتٍ ، وأسكنهم (خاخيط) ، ولكنّ الصّقالبة قتلوا أميرهم وهربوا ، فطاردهم مروان وقتلهم [٣١٦]

ودخل مروان بلاد ملك (السّرير) [٣١٧] ، فأوقع بأهله وفتح قلاعاً ودان له الملك وصالحه على ألف رأس : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية في كل سنة ، وعلى مئة ألف مُدْي [٣١٨] تحمل إلى أهراء مدينة (الباب) ، وأخذ منه الرهن .

وصالح مروان أهل (تُومان) [٣١٩] على مئة رأس : خمسين جارية وخمسين غلاماً وعشرين ألف مُدْي للأهراء في كل سنة .

ثمّ دخل أرض (زِريكِران) فصالحه ملكها على خمسين رأساً وعشرة آلاف مُدْي للأهراء في كل سنة .

ثم أتى أرض (حمزين) ، فأبى حمزين أن يصالحه ، فحصرهم وافتتح حصنهم بعد أن حاصرهم شهراً ، فأحرق وأخرب ، وكان صلحه إياه على خمسمائة رأس يؤدونها دفعة واحدة ثم لا يكون عليه سبيل ، وعلى أن يحمل ثلاثين ألف مُدْي إلى أهراء الباب في كل سنة .

ثمّ أتى مروان (سُغْدان) [٣٢٠] ، فافتتحها صلحاً على مئة رأس يعطيها

---

(٣١٥) الصقالبة : (ج) صقلب ، جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٧٢-٣٧٣) .

(٣١٦) فتوح البلدان (٢٩٢) .

(٣١٧) السرير : مملكة واسعة بين (اللان) وباب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٨٠) .

(٣١٨) المدي : مكيال في الشام ومصر يسع تسعة عشر صاعاً .

(٣١٩) تومان : لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان ، والظاهر أنها في منطقة اللان .

(٣٢٠) سغدان : وردت كذلك في ابن الأثير (٥/١٧٨) ، ووردت : سدان في فتوح البلدان (٢٩٣) ، والأول (أصح) .

إيّاها صاحبها دفعة واحدة ، ثمّ لا يكون عليه سبيل فيما يُستَقبَل ، وعلى أن يحمل في كلّ سنة إلى أهراء الباب خمسة آلاف مُدْيٍ .

ووظف مَرْوان على أهل (طَبَرْ سَرَانْشاه) [٣٢١] عشرة آلاف مُدْيٍ في كل سنة تحمل إلى أهراء الباب .

ولم يوظّف على (فِيلاَنشاه) شيئاً ، وذلك لحسن غنائه وجميل بلائه وإحماده أمره

ثمّ نزل مروان على قلعة (اللّكْز) وقد امتنع صاحبها من أداء شيءٍ من الوظيفة وكان صاحبها قد خرج يريد صاحب الخَزَر فقتله راع بسهم رماه به وهو لا يعرفه، فصالح أهل اللّكْز على عشرين ألف مُدْيٍ تحمل إلى أهراء مدينة الباب .

وسار مروان إلى قلعة (شَرْوان) وهي تدعى (خِرْس) [٣٢٢] وهي على البحر ، فأذعَن أهلها بالطّاعة والانحدار إلى السّهل ، وألزمهم عشرة آلاف مُدْيٍ في السنة .

وجعل مَرْوان على صاحب (شَرْوان) أن يكون في المقدّمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخَزَر وفي السّاقة إذا رجعوا .

وجعل على فِيلاَنشاه أن يغزو مع المسلمين فقط ، وعلى طَبَرْسَرانْشاه أن يكون في السّاقة إذا بدأوا وفي المقدمة إذا انصرفوا .

وسار مروان إلى (الدُّودانِيّة) [٣٢٣] ، فأوقع بهم ، ثم عاد أدراجه إلى مقرّه [٣٢٤]

---

(٣٢١) ملك أنوشران ملوكاً رتبهم ، وجعل لكل أمرئ منهم شاهية ناحية من النواحي ، فمنها خاقان الجبل ، وهو صاحب السرير ويدعى وهرارزانشاه ، ومنهم ملك فيلان وهو فيلان شاه ، ومنهم طبرسرانشاه ، وملك اللكز ويدعى جرشانشاه، وملك ليران ويدعى ليران شاه ، وملك شروان ويدعى شروانشاه ، انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٧٦-٢٧٧)، وهم ملوك الطوائف في إرمينية الذين كانوا يحكمون باسم الفرس في حينه .

(٣٢٢) خرس : وردت في فتوح البلدان (خرش) خطأ من الناشر والمحقق، وهي حصن بارمينية على البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٩/٣) .

(٣٢٣) قوم يدعون أنهم عرب من نسل دودان بن أسد بن خزيمة .

(٣٢٤) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (٢٩٢-٢٩٤) وانظر ابن الأثير(١٧٨/٥-١٧٩).

ومن الواضح أنّ مروان أحرز انتصارات باهرة في غزوته هذه السنة ، فافتتح عهده في إرمينية افتتاحاً موفّقاً : استعاد المناطق التي انتقضت ، وقاتل الذين أصرّوا على انتقاضهم وصالح الذين احبّوا الطّاعة والسّلام ، وأدب الذين اعتادوا إشاعة الفوضى وكافأ الذين اعتادوا النّظام ، وطبّق عملياً مبدأ العقاب والمكافأة بالنسبة للمسيئين والمحسنين ، وقسّم الواجبات القتاليّة على القادة المحليين والواجبات الإداريّة على الإداريين .

ولم يكن لمروان سنتي خمس عشرة ومئة الهجرية (٧٣٣ م) وست عشرة ومئة الهجرية (٧٣٤ م) أيّ نشاط عسكريّ في إرمينية ، مما يدلّ على نجاح تدابيره العسكرية والإدارية فيها .

ولكنه بعث بَعْثَين سنة سبع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٥ م) إلى جبل (القَبْق) وهو جبل القفقاس الكبرى ، فافتتح أحدُ البعثين ثلاثة حصون من (اللان) ، ونزل البعثُ الآخر على تُومانشاه ، فنزل تومانشاه على حكم مروان ، فبعث بـه مروان إلى هشام بن عبدالملك في (دِمَشْق) ، فردّه هشام إلى مروان ، فأعاده مروان على مملكته (٣٢٥) .

ومن الواضح أن الاضطرابات التي حدثت في إرمينية كانت اضطرابات طفيفة ، لذلك بعث مَن يعالجها ولم يتولّ معالجتها بنفسه ، كما أنّ عفوه عن تُومان شاه وإعادته إلى مملكته دليل على أن اضطراباته لم تكن خطيرة فتمّ تسويتها بسلام .

وفي سنة ثماني عشرة الهجريّة (٧٣٦ م) غزا مروان أرض (وَرْتَنِيْس)(٣٢٦) فدخلها من ثلاثة أبواب ، فهرب وُرْتَنِيْس إلى الخَزَر وترك القلعة ، فنصب مروان عليها المجانيق . وقُتِل ورتنيس في طريقه إلى الخَزَر ، فبعث مَنْ قتله برأسه إلى مروان ، فنصبه لأهل حصنه ، فنزلوا على حكم مروان ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية (٣٢٧) .

(٣٢٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٢/٢) وابن الأثير (١٨٦/٥) .
(٣٢٦) ورتنيس : حصن في بلاد سمياط ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(٤١٣/٨) .
(٣٢٧) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٣/٢) وابن الأثير (١٩٨/٥)، وورد فيه : ورنيس .

وفي سنة تسع عشرة الهجرية (٧٣٧ م) غزا مروان في إرمينية ، فدخل من باب اللان ، واخترق هذه الولاية حتى خرج منها إلى بلاد الخَزَر ، فمرّ بمدينة (بَلَنْجَر) و (سَمَنْدَر) وانتهى إلى (البيضاء) عاصمة خاقان ، فهرب خاقان منه [٣٢٨] .

وكانت هذه الغزوة من غزوات مروان الشاملة التي قصد بها إبراز قوّة الدولة الإسلاميّة ومقدرتها على قمع كلّ انتقاض بكفاية وسرعة .

ويبدو أن هذه الغزوة أثمرت في توطيد الأمن والاستقرار في ربوع إرمينية ، فقد كانت سنة عشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) سنة سلام واستقرار في أرجاء إرمينية بالنسبة للمسلمين وبالنسبة للسكان الأصليين ، إذ لم يَغْزُ مروان هذه السنة ، فاستعادت قوّات المسلمين أنفاسها ، وأكملت استحضاراتها لجهاد جديد .

وفي سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية (٧٣٨ م) ، غزا مروان في إرمينية ، فأتى قلعة بيت السّرير فقتل وسبى .

ثمّ أتى قلعة ثانية ، فقتل وسبى أيضاً .

ودخل مروان (غومَسْك) [٣٢٩] وهو حصن فيه بيت الملك يكون فيه ملك السّرير ، فخرج الملك هارباً حتى أتى حصناً يقال له (خترج) [٣٣٠] فيه سرير الذّهب ، فأقام مروان عليه شتوةً وصيفةً ، فصالحه على ألف رأسٍ في كل سنة ومئة ألفِ مُدْيٍ .

وسار مروان ، فدخل أرض (تُوْمان) ، فصالحه تومان ملكُها .

وسار مروان ، فدخل أرض (زَرُوبُكْزان) [٣٣١] فصالحه ملكها .

---

(٣٢٨) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٤/٢) وابن الأثير (٢١٥/٥) وانظر النجوم الزاهرة (٢٨٢/١)

(٣٢٩) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢)، أما في ابن الأثير (٢٤٠/٥) فقد وردت : غوميك .

(٣٣٠) ورد كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢) ، أما في ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، فقد وردت : خيزج .

(٣٣١) وردت كذلك في ابن خياط (٣٦٧/٢)، أما في تاريخ ابن الأثير (٢٤٥/٥) ، فقد وردت : أزرو بطران .

وسار حتى أتى (حمزين) [٣٣٢] فأخرب بلاده ، وحصر حصناً له شهراً فأخرب بلاد حمزين ، ثم سأله حمزين الصلح فصالحه .

وأتى مروان أرض (مسدار) [٣٣٣] فافتحها على صلح ، ثم نزل على (كِيْران)[٣٣٤] ، فصالحه طَبَرْسَرَانشاه وفيلان شاه .

وكلّ هذه الولايات على شاطئ البحر من إرمينية إلى (طَبَرَستَان)[٣٣٥].

ومن الواضح أنّ هذه الغزوة كانت لغرض فرض سيطرة الدولة على الذين انتقضوا وإظهار قوّتها للذين خالفوا وللذين يتردّدون في إعلان مخالفتهم ، والقوّة هي السبيل الوحيد لقمع الفوضى وفرض النِّظام .

وقد تهيأ لمروان في هذه السنة من الفتوحات أمرٌ عظيم ، ووقع في قلوب الخزَر والترك منه رعبٌ عظيم [٣٣٦] .

وقد وطّد أركان الأمن والاستقرار في إرمينية، وأصبح الذين كان دأبهم، الانتقاض على الدولة والشّغب عليها وقطع الجزية عنها أو المماطلة في أدائها يخافون مروان ويهابونه ويطيعونه وينفذون أوامره ، كما أصبح للدولة هيبة في نفوس السكّان لذلك نعمت إرمينية بالسّلام والاستقرار ، وانصرف مروان إلى التعمير ، حتى عاد أدراجه من إرمينية إلى دمشق على رأس جيش ضخم سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤ م) مطالباً بالخلافة ، فتولى الخلافة بعد يزيد بن الوليد بن عبدالملك، فانتهى برحيله عن إرمينية ما نَعِمَت به خلال ست سنوات من نعمة السّلام والاستقرار والتعمير ،وهي سنوات لم تنعم إرمينية بمثلها قبل مروان ولا بعده،

(٣٣٢) وردت كذلك في ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، أما في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢) ،فقد وردت : خمري .

(٣٣٣) وردت كذلك في تاريخ ابن خياط (٣٦٧/٢)،أما في تاريخ ابن الأثير (٢٤٠/٥) ، فوردت : مسدار .

(٣٣٤) كيران : مدينة بأرمينية بالقرب من بيلقان ، انظر معجم البلدان (٣٠٥/٧) .

(٣٣٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٦٧/٢) وابن الأثير (٢٤٠/٥) .

(٣٣٦) العبر (١٥٣/١) .

فكانت ولا يته خيراً على إرمينية: « فتح خلالها بلاداً كثيرة وحصوناً متعدّدة ، لأنه كان لا يفارق الغزو ، وأحرز انتصارات باهرة على التُّرك والخَزَر واللان وغيرهم وكان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي » (٣٣٧) .

وبقدر نجاحه قائداً في المجال العسكري ، كان إخفاقه خليفة في المجال السياسيّ ، فخسرته العسكرية ولم تربحه السياسة ، فقد كان مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

ولم يستطع خلفه على إرمينية أن يملأ الفراغ الذي تركه مروان ، وشغل أيامه بالاقتتال الذي أشاعه خصوم الدولة من العرب لأسباب قبليّة ومذهبيّة وطائفية ، فأثاروا موجة عارمة من الفوضى والاضطرابات والفتن ، ولم يبق له وقت ولا قوّات للقتال لإيقاف موجة الانتقاض الذي أظهره أعداء المسلمين ، وبذلك أصبح الاقتتال هو القاعدة والقتال هو الاستثناء ، وأصبحت سيوف العرب المجاهدين على العرب لا على أعدائهم .

وتوقّف الفتح واستعادة الفتح بسقوط الأُمويين ، وكان قصارى ما يطمح إليه العباسيون هو المحافظة على البلاد المفتوحة ، أما إضافة فتح جديد فقد ذهب إلى غير رجعة .

عِبْرَة استعادة الفتح

بمقارنة سير الحوادث في فتح إرمينية بسير الحوادث في استعادة فتحها تبرز حقائق واضحة جليّة ، ما أحرانا أن نعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا ، لأنّ التاريخ ليس قصّة للتسلية وتبديد الوقت سدى ، بل للعبرة للدارسين والباحثين والسّامعين ، لا بدّ من الاعتبار بها من أجل حاضر أفضل ومستقبل أحسن ، وفائدة التاريخ تكمن في اتخاذ حوادثه عبرة للأمة التي سجل أحداثها بخاصة ولغيرها من الأمم بعامة .

(٣٣٧) البداية والنهاية (١٠/٤٧) .

وكان المسلمون الأوّلون يحرصون على تعليم القرآن الكريم والحديث الشّريف واللّغة والتاريخ وعلى تعلّمها ، لتقويم عقولهم وقلوبهم وألسنتهم لبناء الفرد المسلم إنساناً ، وابناء المجتمع الإسلامي أمّةً ، حتى يتربّى الفرد مثالياً والأمة لا تُقْهر أبدا

وكان الفرد يعتبر بالتاريخ ايتأسّى بالمُحْسِنِيْن فيسجّل بأعماله صفحات من نور في تاريخ أمّته ، ويترفّع عن أخطاء المُسيئين حتى لا يَسوّد صفحات أمته ويلحق بها العار .

وكانت الأمّة تعتبر بالتاريخ ، للتأسّي بالأمم المُحْسِنة ، فتسجّل بأعمالها صفحات من نور في تاريخها تنافس بها الأُمم الأخرى ، وتترفّع عن أخطاء الأُمم المسيئة ، حتى لا تسوّد تاريخها وتلطّخه بالعار .

لقد فتح المسلمون إرمينية لأول مرّة بسهولة ، ولكنهم استعادوا فتحها بصعوبة. وكان الفتح بسرعة ، وكانت الإستعادة ببطء .

وكان الفاتحون قليلين عَدَداً ، فأصبحوا كثيرين عَدَداً وعُدَداً في أيام استعادة الفتح .

وكان الفاتحون قليلي الخبرة والتجربة ، فأصبحوا خبراء بالبلاد وسكّانها وأصحاب تجربة عملية طويلة في أيام استعادة الفتح .

وكانت خسائر الفاتحين بالأموال والأرواح قليلة ، فأصبحت خسائر المُسْتَعِيْدِين بالأموال والأرواح كثيرة .

فكيف أصبحت النتائج بعكس المقدّمات ؟ !

إنّ المفروض في حالة ازدياد تَعْداد الفاتحين وعُددهم ، وتكاثر خبرتهم وتضاعف تجربتهم في البلاد وأهلها ، أن يكون استعادة الفتح أسهل من الفتح لا أصعب منه وأسرع في استعادة الفتح من الفتح لا أبطأ منه ، وأن تكون الخسائر بالأرواح والأموال أقلّ في استعادة الفتح لا أكثر منها في الفتح ، وبخاصة أنّ أهل البلاد لم تتطوّر قوّتهم الضّاربة بعد الفتح ولا في أيام استعادة

الفتح ، فما تغيّر أهل البلاد ، ولكنّ الفاتحين في أيام استعادة الفتح غيّروا ما بأنفسهم ، فتزعزعت معنوياتهم التي كانت الحافز الأول للفتح ، وضعفوا واستكانوا ولم يُفلحوا ابدا .

لقد كان المسلمون أيام الفتح محرِّرين كما رآهم أهل البلاد ، فأصبحوا أيام استعادة الفتح مستَعْبِدِين في نظر أهل البلاد ، لأنّ المسلمين كانوا يطبّقون الحرب العادلة نصاً وروحاً في أيامِ الفتح ، تلك الحرب التي تنصّ عليها تعاليم القتال في الاسلام ، فكانوا محرِّرين للشعوب حقاً، هدفهم إعلاء كلمة الله ونشر الفضيلة والتسامح والإخاء والمُثل العليا بين الناس ، فلابد أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأن يُقبلوا على تعلّم العربية الفصحى لأنها لغة الكتاب العزيز ولغة الإسلام ولغة الفاتحين ، رهبان الليل وفرسان النهار الذين كانوا يمثلون تعاليم الإسلامي في تطبيقها العملي بشراً سوياً يمشون على الأرض ويأكلون الطعام كسائر البشر ، فكان الفتح فتح مبادئ لا فتح سيوف، لذلك كان فتحاً سهلاً سريعاً ميَسرا .

وقال قائل أهل البلاد المفتوحة من إرمينية : « والله لأنتم أحبّ إليّ مَلَكَةً من آل كسرى ، والله لا يقوم لكم شيءٌ ما وفيتم ووَفَى ملككم »[٣٣٨] ، وكان هذا القائل هو شهر براز ملك مدينة (باب الأبواب)الذي تولّى الملك على عهد كسرى قبل أن يفتح المسلمون بلادهُ ، وتولّى على عهد المسلمين الفاتحين ، فجرّب حكْم كسرى ، ثم جرّب حكم المسلمين ، فقال ما قاله نتيجةً لتجربته لا نتيجة لعاطفته .

ولما غزا عبدالرحمن ذو النور بن ربيعة الباهليّ بلاد الخزَر لأول مرة سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، والخزَر من أشدّ الأمم قوّةً وشجاعة وإقداماً ، قال الخزر : ما اجترأ علينا هذا

---

(٣٣٨) الطبري (١٥٩/٤) .

الرَّجل إلاّ ومعه الملائكة تمنعه من الموت [٣٣٩]! فتحصن منه الخَزَر وهربوا ، فرجع بالغُنْم والظّفر بدون خسائر في الأرواح [٣٤٠] .

ولكنّ تغيّر كثير من الذين تحمّلوا أعباء استعادة الفتح ، فقد كان جند الكوفة حينذاك ينهض بمهمة الفتــح واستعادة الفتح في الجبهة الشرقية للدولة الإسلاميّة ومنها إرمينية ؛ فتبدّل أهل الكوفة لاستعمال مَن ارتدّ في جيوش المسلمين استصلاحاً لهم ، فلم يصلحهم ذلك وزادهم فسادا أن سادهم مَن طلب الدنيا [٣٤١] .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئــة الهجرية (٦٥٢ م) قــاد عبــدالرحمن ذو النور بن ربيعة الباهليّ جيشاً إلى (بَلَنْجَر) في بلاد الخَزَر من إرمينية ، أي إلى المنطقة التي هاجمها قبل عشر سنوات فقط ، فكان الجيش الذي قاده في الغزوة الأولى مؤلفاً من عناصر وصفهم عبدالرحمن بقوله : « أقوام صحبوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ودخلوا في هذا الأمر – يريد هذا الدين – بنيّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرّم في الجاهليّة ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزال هذا الأمر لهم ، ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَنْ يغلبُهم ، وحتى يُلْفَتُوا عن حالهم بمن غيّرهم » ، فغزا في هذه الغزوة الأولى(بَلَنْجَر) وبلغت خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بَلَنْجَر) بدون خسائر في الأرواح أما في غزوته الثانية التي كانت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية ، بعد تغيّر في نفوس الفاتحين أو تغيّر قسم من نفوس الفاتحين ، فقدغزا (بَلَنْجَر) فاستُشهــد عبدالرحمن وانهزم المسلمون وتفرّقوا [٣٤٢] .

وقد انتبه عثمان بن عفّان إلى تغيّر نفوس قسم من الفاتحين ، فكتبَ إلى عبدالرحمن قبل أن يخوض معركة (بَلَنْجَر) الثانية يقول : « إنّ الرعيّة قد أبْطَرَ كثير منهم البِطْنَة ، فقصِّر ، ولا تقتحم بالمسلمين ، فإنّي خاشٍ أن

(٣٣٩) الطبري (١٥٨/٤) وابن الأثير (٣٠/٣)
(٣٤٠) الطبري (١٥٨/٤) .
(٣٤١) الطبري (١٥٨/٤) .
(٣٤٢) الطبري (١٥٨/٤) .

يُبْتَلَوا »، فلم يزجر ذلك عبدالرحمن عن غايته[٣٤٣]، فقُتل وقتل كثير من رجاله، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ! ! .

إنّ أكثر الذين خاضوا معارك الفتح في إرمينية وفي غيرها من البلاد من أصحاب (القلوب) ، فأصبح أكثر الذين خاضوا معارك استعادة الفتح في ارمينية وفي غيرها من البلاد المفتوحة ، من أصحاب (الجيوب) .

وبتعبير آخر ، إنّ أكثر جنود الفتح وقادته، كانوا من ذوي العقيدة الراسخة التي تجعلهم يتحلّون بمزية : (إرادة القتال) لتحقيق هدفها الواضح ، وهو : إنما هي إحدى الحُسْنَيَيْن : النصر أو الشّهادة .

وأصحاب العقيدة الرّاسخة ، يعملون لعقيدتهم التي هي المصلحة العليا للمسلمين كافة في العزّة والكرامة ، والدفاع عن الأرض والعِرْض ، ونشر الفضيلة والأخوّة والمُثُل العليا بين الناس ، والترفّع عن الظلم والاستغلال والاستثمار والمصالح الشخصيّة للفرد .

أما أكثر جنود استعادة الفتح وقادته ، فقد تخلّوا بدرجات متفاوتة عن عقيدتهم الرّاسخة التي قادت سلفهم إلى النصر ، وخسروا مزيّة : (إرادة القتال) ، فأصبحوا يعملون لانفسهم لا لعقيدتهم أو لمصلحة المسلمين العليا ، فتخلّى عنهم النصر ، واستهان بهم عدوّهم .

والفرق بين أصحاب العقيدة الرّاسخة وأصحاب العقيدة المهزوزة ، أن كلّ فرد من الأولين يتمنى أن يموت قبل صاحبه ، وكلّ فرد من الآخرين يتمنى أن يموت صاحبه قبله !

وليس معنى ذلك ، أنّ جميع الذين شهدوا الفتح صالحون خيّرون ، وأنّ جميع الذين شهدوا استعادة الفتح طالحون سيّئون ، ولكنّ كان الغالبية العظمى من الذين شهدوا الفتح من ذوي العقيدة الراسخة والأقليّة النادرة من ذوي العقيدة المهزوزة ، بينما انتشر الانحراف بين الذين شهدوا استعادة الفتح ، وثبت قسم على

(٣٤٣) الطبري (٣٠٤/٤) .

عقيدتهم الرّاسخة فلم يُبدِّلوا أو يُغيّروا ولم يتبدّلوا أو يتغيّروا .

فقد قرأنا أنّ قائداً من قادة الفتح قُدِّمت له ياقوته حمراء هي أغلى من مدينة (باب الأبواب) ، فردّها إلى صاحبها غير مكترث بها ولا بقيمتها [٣٤٤] ، لأنّ أمانته أغلى عليه ، فآثر الأمانة على الخيانة ، وما عند الله على ما عند الناس .

وقرأنا أن قائداً من قادة استعادة الفتح ، أصطفى أموال المغلوبين وذراريهم ، فأخذ منها ما أعجبه ، وأمر بتقسيم الباقي على رجاله [٣٤٥] ، لان أمانته هانت عليه ، فآثر المَغْنَم على الأمانة ، وما عند الناس على ما عند الله .

ولكن لم تخل أجْنادُ استعادة الفتح وقادته من عناصر صالحة خيِّرة تعتبر نماذج عالية في الصّلاح والخير .

فقد استشهد الجرّاح بن عبدالله الحكّمي في إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية مُقبلاً غير مُدْبِر ، صابراً محتسباً [٣٤٦]

واشترى أحد جنود استعادة الفتح جُوْنة [٣٤٧] بدرهمين ممّن يتولى بيع ما تبقّى من الغنائم في مزاد علنيّ ، فلما عاد بها إلى خيمته في المعسكر فتحها ، فوجد فيها سبائك من ذهب ، فرجع وهو واضع يده على لحيته كأنه رمى وردّ الجُونةَ وأخذ الدرهمين ، فلما ذاع الخبر طُلب فلم يوجد [٣٤٨] ! .

وبعث قائد من قادة استعادة الفتح أحد رجاله سِرّاً إلى مدينة يحاصرها العدو ويضيّق عليها الخناق ، وهي غاصّة بالمسلمين وذرّياتهم ، ليعرِّفهم وصول المد من المسلمين إليهم قريباً ويأمرهم بالصّبر واخترق الرجل مواضع العدو الحصينة متحدّياً الأهوال والأخطار ، فألقي القبض عليه ، فسألوهُ عن حاله ، فأخبرهم

(٣٤٤) الطبري (٥/١٥٩-١٦٠) . (٣٤٥) الطبري (٧/١٠) .

(٣٤٦) ابن الأثير (٥/١٥٩) .

(٣٤٧) الجونة : سليلة مستديرة مغشاة بالجلد يحفظ فيها العطار الطيب ، وفي الحديث في صفته صلى الله عليه وسلم : « فوجدت ليده برداً وريحاً كانما أخرجها من جونة عطار » ج : جون .

(٣٤٨) الطبري (٧/١٠) .

وصدقهم ، فقالوا له : إن فعلتَ ما نأمرك به أحسنّا إليك وأطلقناك : تقول لأهل البلد المحاصَرِين ، إنكم ليس لكم مَدَدٌ ولا مَنْ يكشف ما بكم ، وتأمرهم بتسليم البلد إلينا . . . . فأجابهم إلى ذلك .

ولما قاربَ المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه ، فقال لهم : « أتعرفونني ؟ قالوا : نعم ، أنت فلان . قال : « فإنّ جيش المسلمين قد وصل إلى مكان كذا في عساكر ، وقائد الجيش يأمركم بحفظ البلد والصّبر ، وفي هذين اليومين يصل إليكم » ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتّهليل .

وقتل العدو ذلك الرجل ، ورحلوا عن المدينة المحاصَرة ، ونجا أهلها من القتل والأسر والسّبي (٣٤٩) ! .

وأوغل الخَزَر في بلاد المسلمين . وقتلوا قائدهم في إرمينية وأبادوا رجاله وأسروا قسماً منهم وسَبوا ، فعيّن الخليفة قائداً جديداً ، وأرسله إلى إرمينية على دواب البريد ليتدارك الأمور هناك ويستنقذ المسلمين ويستعيد الفتح .

وسار القائد الجديد مسرعاً إلى إرمينية ، فكان لا يمرّ بمدينة إلاّ ويستنهض أهلها ، فيجيبه مَنْ يريد الجهاد (٣٥٠)

ولقد وضعتُ (خطّاً) تحت تعبير : مَنْ يريد الجهاد ، فالموقف الرّاهن الذي هو عبارة عن اكتساح بلاد المسلمين ، فأوغل العدو في البلاد حتى قاربوا مدينة (المَوْصِل) ، وعظم الخطب على المسلمين (٣٥١) .

في مثل هذا الموقف يصبح الجهاد فرضاً عَيْنياً على حدٍّ تعبير الفقهاء ، يشمل كلّ قادر على الجهاد بماله ونفسه من المسلمين : القادر على الجهاد بماله يجاهد بماله ، والقادر على الجهاد بنفسه يجاهد بنفسه ، والقادر على الجهاد بماله ونفسه يجاهد بهما معاً ، لا فرق بين غني وفقير ، أو أمير وأجير ، أو كبير وصغير وليس لمسلم في مثل هذا الموقف أن يريد أو لا يريد ، لأنّ الجهاد ليس من المسائل

(٣٤٩) ابن الأثير (٥/١٦٠) .
(٣٥٠) ابن الأثير (٥/١٦٠) .
(٣٥١) ابن الأثير (٥/١٥٩) .

ولمزاجيّة ، بل هو فرض من الفروض المقدّسة الذي يلتزم بها المسلم الحق ، إلا كان من الخوالف : يعتزله المسلمون في الدنيا ويقابلونه بالاحتقار ، وينال عقاب الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف في الآخرة .

لقد كان جنود الفتح في الأغلب من أمثال صاحب الجوْنة في أمانتهم المثالية ، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال صاحب الجوْنة ومن اللاهثين وراء الثراء .

وكان معظم جنود الفتح من أمثال الفدائيّ الذي ضحّى نفسه لإنقاذ المسلمين المحاصرين ، وكان في جنود استعادة الفتح من أمثال ذلك الفدائي قليل .

وكان المسلمون كلّهم بدون استثناء في أيام الفتح مجاهدين ، فأصبح قسم من جنود استعادة الفتح مجاهدين وقسم رضوا بأن يكونوا مع الخوالف .

وما تغيّرت العقيدة ، ولكنّ المسلمين تغيّروا .

وكان تغيير المسلمين ما بأنفسهم من عقيدة راسخة طفيفاً ، ثم ازداد التغيير شيئاً فشيئاً ، كالزاوية تبدأ صغيرة ثم يبتعد الضلعان قليلاً قليلاً ، فتزداد المسافة بين الضلعين بالتدريج ، حتى أصبح المسلمون بمرور الزمن بعيدين عن روح الإسلام الصحيح .

لقد كان الفتح بالإسلام في دعوته للجهاد بالأموال والانفس سريعاً سهلاً حاسماً قليل التكاليف ، ثم أصبح استعادة الفتح بالمجاهدين الصادقين وغيرهم بطيئاً صعباً متردداً كثير التكاليف ، لأنّ المجاهدين الصادقين قلّوا عدداً بالنسبة لعددهم أيام الفتح وكثر الجنود النظاميّون الذين يقاتلون لأنهم يتقاضون مرتباتهم الشهريّة من الدولة ، وشتّان بين المجاهدين الصادقين الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وبين الجنود النظاميّين الذين يقاتلون من أجل قبض المرتّبات.

وبالرغم من ازدياد عدد الجيوش وعُددها وتضاعف تجاربها القتالية في أيام استعادة الفتح ، فإنها لم تحقق ما حققه المسلمون في أيام الفتح اندفاعاً وتضحيته ونصرا ، وهذا دليل عمليّ من سير حوادث الفتح وسير حوادث استعادة الفتح ، يدلّ بشكل قاطع على كذب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من الأجانب وغير

الأجانب : أنّ الفتح كان لضعف الحكومات القائمة في أيام الفتح و « لعدم وجود جيش منظم قويّ يستطيع صدّ الفتح الإسلامي ويحمي البلاد المفتوحة ، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطيّة قد استنزفت كلّ قوى الدولتين ، وأنّ مصاولة الفاتحين اقتصر على السكّان المحليّين أو القوّات المحلية بطاقاتهم المحدودة » ، فقد قاتل الفاتحون في معارك حاسمة جيوش الفُرس والروم وانتصروا عليها ، ولم يقاتل المسلمون في أيام استعادة الفتح جيوش الفرس والروم في معارك حاسمة ، لأنّ دولة الفرس انقرضت والرّوم كانوا في شغل شاغل في الدفاع عن وطنهم الأم ومحاولة استعادة جزء من البلاد التي فتحها المسلمون . كما أنّ معارك المسلمين في أيام استعادة الفتح اقتصرت على السكّان المحليين والقوّات المحلية بطاقاتها المحدودة ومع ذلك خسر المسلمون معارك كثيرة ولم يخسروا معركة واحدة من معارك الفتح .

إنّ وقائع التاريخ تكذّب ادعاء أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب وغير الأجانب في أنّ الفتح الإسلامي كان للأسباب التي يردّدونها والتي ذكرنا مجملها ، وهدف هؤلاء هو (التهوين) من شأن الإسلام في إحراز النصر ، ومن أثره في تحقيق الفتح ، فقد حقد هؤلاء على الإسلام لأنه أكل قلوبهم وفتح بلادهم وانتشر في أرجاء العالم وأصبح القوّة التي تخيفهم وتقضّ مضاجعهم وتهدّد حاضرهم ومستقبلهم كما هدّدت ماضيهم .

ولكنّ الواقع شيء ، واتباع الهوى شيء آخر .

ولو كان انتصار المسلمين على أعدائهم في أيام الفتح ، لضعف أعدائهم دون سائر الأسباب الأخرى وعلى رأسها انتصار الفاتحين بالإسلام الذي وحّد صفوفهم وأهدافهم ، وأشاع فيهم الانسجام الفكريّ الذي يؤدي إلى التعاون فيما بينهم جماعات وأفراداً ، وأرسى دعائم مجتمع الأخوة : (إنما المؤمنون إخوة)[٣٥٢] « ولا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه »[٣٥٣] ، فجعل هـذا المجتمع

(٣٥٢) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ١٠) .
(٣٥٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والامام أحمد في مسنده عن أنس ، انظر : مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٦٦) .

كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا ، ورفع معنوياتهم . . . لكان انتصار المسلمين بعد ازدياد عَدَدهم وتضاعف خبرتهم في القتال ومعرفتهم بطبيعة البلاد المفتوحة وصفات سكّانها الأصليين ، مع بقاء عدوّهم على تفرقّهم وضعفهم وانهيار معنوياتهم ، أسهل وأسرع وأثبت في أيام استعادة الفتح ، ولكنّ الواقع التاريخي كان عكس ذلك تماماً ، مما يدل على أنّ انتصار المسلمين في أيام الفتح كان انتصار عقيدة راسخة ، وتعثر انتصارهم في أيام استعادة الفتح كان لأنّهم غيّروا ما بأنفسهم فكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، فتعثّر انتصارهم ولولا بقيّة من بقايا الصالحين فيهم لما انتصروا أبدا .

وكان من بوادر انحراف المسلمين في أيام استعادة الفتح عما كانوا عليه في أيام الفتح ، ظهور العصبيّة القبليّة ، والتفرقة المذهبية والطّائفية ، والتكالب على المادة أموالاً ومساكن وطعاماً وشراباً وجنساً ، والحرص على المناصب الاداريّة والرتب العسكريّة ، والتهالك على حبّ الدنيا وكراهية الموت .

كان رجال الفتح يحبّ أحدهم أن يموت قبل صاحبه (مجاهداً) إلاّ مَن غضب الله عليه وهم قِلّة قليلة .

فأصبح رجال استعادة الفتح يحبّ أحدهم أن يموت صاحبه قبله (قاعداً) إلاّ مَن رحم الله .

وما استطاع رجال استعادة الفتح أن ينتصروا إلاّ بالرجال الذين تمسّكوا بعقيدتهم الرّاسخة جهاداً في سبيل الله ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ولكن بمرور الزّمن تناقص عدد المجاهدين الصادقين ، فتبدّل حال المسلمين من حال إلى حال .

والعرب مادّة الإسلام كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهم قادة الفتح وجنوده وعلى أكتافهم وبجهادهم وجهودهم تحقّق النّصر فتحاً واستعادة

للفتح ، وهم الذين غيّروا ما بأنفسهم يوماً بعد يوم ، حتى ساءت الحال وتردّى المآل .

لقد كان العرب قبل الإسلام مستعبَدين للفُرس في العراق وللرُّوم في أرض الشام ، وحتى للأحباش في اليمن .

وجاء الإسلام، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام أن يوحّد شبه الجزيرة العربيّة تحت لواء الإسلام ، ولا يعرف التاريخ أحداً وحّدها قبله ولا بعده حتى هذا اليوم .

وكان تَعداد صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذين خلّفهم من بعده مئة وخمسة وعشرين ألفاً في أكثر ما ذكره المؤرخون .

وارتدّ قسم من العرب بعد التحاق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالرفيق الأعلى ، فاستطاع خليفته على المسلمين أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه أن يستعيد بهم الوحدة إلى شبه الجزيرة العربيّة ، واستطاع بهم أن يخوض معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت للمسلمين أبواب أرض الشّام ، كما استطاع أن يخوض بهم معارك ثانويّة مهّدت للمسلمين فتح العراق .

وتولّى عمر بن الخطّاب الخلافة ، فأكمل الفتح الذي بدأه أبو بكر الصديق رضي الله عنهما ، ففتح العراق وإيران وأكثر مناطق إرمينية وأرض الشام بما فيها سورية ولُبنان وشرقي الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنّوبة ، وكان عهد عمر بن الخطّاب هو عهد الفتح الإسلامي الذهبيّ بدون منازع (٣٥٤) .

ومع كلّ فتوحات عمر بن الخطّاب ، فقد كان حسنة من حسنات أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما .

واستمرّ مدّ الفتح الإسلامي عارماً في أوائل عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، حتى نشبت الخلافات بين المسلمين ، فانتقض أهل فارس سنة تسع وعشرين

---

(٣٥٤) انظر التفاصيل في كتابنا : الفاروق القائد - ٩٣ .

ومئة الهجرية [٣٥٥] (٧٤٦ م ،) وانتصر الخَزَر والترك على المسلمين لأول مرة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) ، فقتلوا قائد المسلمين عبدالرحمن بن ربيعة الباهليّ في (بَلَنْجَر) وكبّدو المسلمين خسائر فادحة بالأرواح والأموال[٣٥٦] وانتشرت الفرضى في عقر ديار المسلمين ، حتى قتل عثمان بن عفّان في المدينة عاصمة المسلمين سنة خمس وثلاثين الهجرية (٦٠٥ م) بيد العرب لا بيد أعدائهم [٣٥٧] .

وبدأ الاقتتال بين الفاتحين بعد استشهاد عثمان بن عفّان ، وأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم ، فانتقضت البلاد المفتوحة ، وضعفت هيبة الدولة داخلياً وخارجياً ، حتى استطاع عبدالملك بن مروان جمع شمل العرب مرة أخرى سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) وإعادة الوحدة اليهم ، فكانت هذه السنة سنة الرحدة بحق ، فانطلق الفتح من جديد وانطلق استعادة الفتح ، ولكنّ عوامل التفرقة ظلّت كالنار في الرماد لا تخبو مدة إلاّ لتظهر في مدة ثانية ، حتى توقّف الفتح نهائياً سنة مئة الهجرية (٧١٣ م) .

وكان عصر الفتح وهو القرن الأول الهجريّ هو خير القرون ، ويمكن أن نقسم هذا العصر إلى ثلاثة أقسام : عهد الفتح أولاً ، وهو من غزوة (بدر الكبرى) في السنة الثانية الهجريّة (٦٢٣ م)، وكانت هذه الغزوة من الغزوات التاريخيّة الحاسمة ، بدأ فيها الفتح تدريجياً حتى شمل شبه الجزيرة العربية كلّها في وحدة عربية شاملة تحت لواء الإسلام ، وانتهى هذا العهد في سنة تسع وعشرين الهجرية (٦٥٠ م) في أوائل خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وعهد الاقتتال الداخليّ من سنة تسع وعشرين الهجرية حتى سنة الوحدة في أيام عبدالملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين الهجرية (٦٩٢ م) ، وفي هذا العهد

(٣٥٥) ابن الأثير (١٥١/٣) .
(٣٥٦) انظر التفاصيل في ابن الأثير (١٣١/٣-١٣٣) .
(٣٥٧) ابن الأثير (١٥٤/٣-١٧٩) .

توقّف الفتح لأن الفاتحين شُغلوا بالاقتتال فيما بينهم ولم يشغلوا بالجهاد ، فانتقضت كثير من البلاد المفتوحة وشاعت الفوضى في البلاد المفتوحة التي تنتقض ، حتى أدّى المسلمون الجزية للرُّوم ولغيرهم ، فأصبح الغالب مغلوباً والقائد مقوداً والمنتصر مهزوماً .

وعهد الفتح واستعادة الفتح من سنة الوحدة أي سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى انسحاب المسلمين من حصار القُسْطَنْطِينِيَّة بقيادة مَسْلَمَة بن عبدالملك(٣٥٨) وفي هذا العهد فتح المسلمون (السِّنْد) بقياده محمد بن القاسم الثقفيّ ، وما وراء النهر (تركستان الشرقيّة) بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلِم البَاهِليّ (٣٥٩) وشمالي إفريقية : الجزائر والمغرب ، بقيادة موسى بن نصير(٣٦٠) والأندلس بقيادة طارق ابن زياد (٣٦١) وموسى بن نُصَيْر اللَّخْمِيّ ، وبعد تلك الفتوح توقف الفتح نهائياً إلاّ ما كان من فتوح قليلة في (صِقِلِّيَّة) بقيادة أسد بن الفرات ، والقُسْطنطينيّة بقيادة محمد الفاتح ، وما كان من استعادة فتح القدس وفلسطين وأجزاء من أرض الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي .

وهذه الفتوح واستعادة الفتح التي جرت في القرن الأول الهجري يمكن اعتبارها فتوحات سَوْقِيَّة لأهميتها المصيرية ، وما عداها تعتبر فتوحات تعبويّة لأنها ثانويّة

وبعد سنة مئة الهجرية حتى سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) وهي سنة سقوط الدولة الأموية في الشّام ومولد الدولة العباسية في بَغْداد ، حدثَ شيء من استعادة الفتح في خُراسان سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) وسنة أربع ومئة الهجريّة (٧٢٢ م) وفي إرمينية في تلك السنة أيضاً ، وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجريّة (٧٣١ م) وأربع عشرة ومئة الهجريّة (٧٣٢ م) في إرمينية

(٣٥٨) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد الروم .
(٣٥٩) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي .
(٣٦٠) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (٢٢١/١-٣٠٩) .
(٣٦١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح الأندلس والبحار .

وبلاد الخَزَر ، وكذلك سنة إحدى وعشرين ومئة الهجريّة (٧٣٨ م) ، كما حدثت عدّة غزوات دفاعيّة في هدفها هجوميّة في أسلوبها خلال هذه المدّة هنا وهناك ، لها طابع محلّي وصفة تعبويّة ،ثم توقّف استعادة الفتح أيضاً حتى سقطت الدولة الأمويّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية .

وسبب توقف الفتح واستعادة الفتح في هذه المدة القاحلة من حكم الدولة الأُمويّة ، تفرق كلمة الفاتحين واقتتالهم فيما بينهم ، وإقبالهم على الدنيا وانغماسهم بالترف ، واستشراء النزعة القبلية والطائفيّة بينهم وغياب الوازع الديني الذي قادهم للنصر : فقد كان في العراق خلال سنتي إحدى ومئة واثنتين ومئة الهجريتين ثورة يزيد بن المُهلّب هدّدت كيان الدولة ، وكان في خراسان اقتتال لسنة ست ومئة الهجرية بين مُضَر واليمن ، وتصاعد نشاط دعاة بني العباس في خُراسان بخاصة وفي أقطار المشرق الإسلاميّ بعامة ،وازدادت ثورات الطالبيين وكثرت مقاتلهم ، وفسدت اليمانيّةوفسدت قُضاعة وهم واليمن أكثر جند أهل الشام (٣٦٢) وأشدّهم بأساً .

ولم تقتصر التفرقة على العرب المسلمين بل شملت البيت المالك ، فقد قُتل الوليد بن يزيد بن عبدالملك نتيجة لمؤامرة يزيد بن الوليد بن عبدالملك ، وبذلك بدأت المؤامرات بين رجال البيت المالك ، حتى قال قائلهم : هَلَكَ بنو مروان ! (٣٦٣)

وبُويع يزيد بن الوليد بن عبدالملك بالخلافة سنة ست وعشرين ومئة الهجريّة (٣٦٤) (٧٤٣ م) وهو الذي تآمر على ابن عمّه وقتله ، فاضطرب أمر بني أُميّة وهاجت الفتنة ، فوثب سليمان بن هشام بن عبدالملك بعد قتل الوليد بعَمّان ، وكان قد حسبه الوليد بها ، فخرج من الحَبْس وأخذ ما كانَ بها من الأموال وأقبل إلى دمشق (٣٦٥) ، وحالف مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

---

(٣٦٢) ابن الأثير (٢٨١/٥) .
(٣٦٣) ابن الأثير (٢٨٧/٥) .
(٣٦٤) العبر (١٦٢/١) .
(٣٦٥) ابن الأثير (٢٩٢/٥) .

وكان على إرمينية وأذربيجان فترك ولايته وأنفذ إلى الثغور مَن يضبطها ويحفظها له وسار على رأس رجاله إلى دمشق [٣٦٦] .

ومات يزيد بن الوليد بن عبدالملك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية بعد ستة أشهر وليلتين من تولية الخلافة ، [٣٦٧] فتولاّها بعده أخوه ابراهيم بن الوليد بن عبدالملك [٣٦٨] الذي لم يتمّ له الأمر ، فكان يُسلّم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يُسَلّم عليه بواحدة منهما ، فمكث أربعة أشهر ، ثم سار إليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فخلعه [٣٦٩] .

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجريّة (٧٤٤ م) بُويع مروان بن محمد بن مروان بدمشق بالخلافة [٣٧٠] ، وأعانه على تولي الخلافة جنوده الذين كانوا معه في الجزيرة وإرمينية فتركوا موطنهم وعادوا إلى دمشق وخاضوا في طريق العودة معارك طاحنة دارت بينهم وبين القوات الموالية لابراهيم بن الوليد بن عبدالملك [٣٧١] ، تكبّد الجانبان فيها خسائر فادحة بالأرواح والأموال ، كما تعرّضت البلاد المفتوحة للفتن وتوقّف الفتح واستعادة الفتح دون مسوِّغ .

ولم يكد مروان يستقرّ على عرشه ، حتى خلعه سليمان بن هشام بن عبدالملك ، فدارت معارك طاحنة بين العرب الفاتحين من أنصار مروان وأنصار سليمان [٣٧٢]

وكان من نتيجة اختلاف الأمويين وتفرّقهم ، تفشّي الخلاف في البلاد الإسلامية ، فخالف أهل حمص [٣٧٣] ، وخالف أهـل فلسطين [٣٧٤] ، واضطربت أمور خُراسان [٣٧٥] ، وحارب أهل اليمامة عاملهم الذي ولاّه

---

(٣٦٦) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/٣٠٩-٣١٠) .
(٣٦٧) ابن الأثير (٥/٣١٠) .
(٣٦٨) العبر (١/١٦٢) .
(٣٦٩) ابن الأثير (٥/٣١١) .
(٣٧٠) العبر (١/١٦٤) .
(٣٧١) العبر (١/١٦٤) .
(٣٧٢) ابن الأثير (٥/٣٣١-٣٣٤) .
(٣٧٣) ابن الأثير (٥/٢٩٢-٢٩٤) .
(٣٧٤) ابن الأثير (٥/٢٩٤-٢٩٧)
(٣٧٥) ابن الأثير (٥/٢٩٧-٢٩٨) .

الخليفة [٣٧٦] ، ووقع الاختلاف بين أهل خُراسان [٣٧٧] ، واضطربت أمور المغرب العربي [٣٧٨] وذلك سنة ست وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٣ م) .

وفي سنة سبع وعشرين ومئة الهجرية (٧٤٤ م) ، انتقض أهل حِمْص [٣٧٩] وخالف أهل (الغوطة) وهي جزء من دمشق وولّوا عليهم أميراً وحاصروا دمشق [٣٨٠] وخالف أهل فلسطين [٣٨١] ، واضطرب أمر العراق [٣٨٢] ، وخلع أهل الأندلس أميرهم الشّرعي [٣٨٣] ، واشتدّ ساعد شيعة بني العبّاس في خُراسان وأقطار المشرق الإسلامي [٣٨٤] ، وهكذا شملت الفتن الأقطار الإسلاميّة البعيدة والقريبة وامتدّت إلى قلب عاصمة الدولة : دمشق ، بعد أن شملت العرب الفاتحين والمسلمين كافة وامتدّت إلى قلب الدولة الإسلاميّة : البيت المالك .

وأصبحت الدولة تهتزّ أركانها بعنف شديد ، فضاعت هيبة الدولة وتبدّدت هيبة الحُكم ، وشغل العرب عن الفتح واستعادة الفتح بالفتن والاضطرابات الداخلية.

وهكذا أصبحت سلطة الخلافة لا تتجاوز عاصمة الدولة أو لا تتجاوز القصر الذي يسكنُه الخليفة ، بينما كانت سلطة الخلافة تمتدّ من الصين شرقاً إلى قلب فرنسا غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى المحيط جنوباً ، وإنما كانت سلطة الخلافة بالتمسّك بروح الإسلام الذي جعل الجهاد فريضة على القادرين على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وأمر بالوحدة ونهى عن الفرقة ، وحارب العصبيّة والتعصّب ، وحارب الاتجاه نحو المادة تطاولاً في البنيان واكتنازاً للأموال والجشع والترف .

وليستْ بي حاجة إلى تعداد المآسي والفتن التي حاقت بالعرب في تلك السنين التي انحرف المسلمون اوأكثرهم عن دين الله ، فغيروا ما بأنفسهم ، فقد قامت

(٣٧٦) ابن الأثير (٥/٢٩٨–٣٠١)
(٣٧٧) ابن الأثير (٥/٣٠٢–٣٠٧)
(٣٧٨) انظر التفاصيل في (٥/٣١١–٩)
(٣٧٩) ابن الأثير (٥/٣٢٨–٣٢٩) .
(٣٨٠) انظر ابن الأثير (٥/٣٢٩) .
(٣٨١) ابن الأثير (٥/٣٣٠–٣٣١) .
(٣٨٢) ابن الأثير (٥/٣٣٤–٣٣٧) .
(٣٨٣) ابن الأثير (٥/٣٣٧–٣٣٩) .
(٣٨٤) ابن الأثير (٥/٣٣٩–٣٤٠) .

الدولة العباسيّة سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجريّة (٧٤٩ م) ، وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفاء بني أُميّة شريداً طريداً في مدينة نائية من مدن مِصْر سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية ، وبانقضاء عهد بني أُمية انقضى عهد الدولة العربيّة التي كانت تؤمن بأنّ العرب مادة الإسلام ، وبقيام الدولة العبّاسيّة تزعزع مركز العرب وارتفع شأن الفُرس لأنهم أعانوا على قيامها بقيادة أبي مُسْلم الخُراسانيّ الذي نفذ التعليمات الصّادرة إليه وبالغ بتنفيذها ، وكان نصّ تلك التعليمات في خطاب موجّه إلى أبي مسلم الخُراسانيّ : « إنك رجل منّا . . . وأما مُضَر فإنهم العدوّ القريب الدار ، واقتل مَنْ شككتَ فيه ، وإن استطعتَ أن لا تَدَعَ بخُراسان مَن لا يتكلّم بالعربيّة فافعلْ ، وأيّما غلام بلغ خمسةَ أشبار تتّهمه فاقتله . . . » [٣٨٥] فقتل مئآت الألوف من العرب الفاتحين صبراً وغدراً في خُراسان وغيرها من أقطار المشرق الإسلامي ، وساد العنصر غير العربيّ على العنصر العربيّ بالعصبيّة والتعصّب لا بتطبيق تعاليم الإسلام .

وبدأ بقيام الدولة العباسيّة عصر التنافس بين العرب وغيرهم ، ودام هذا التنافس حتى توفّي المعتصم العباسي سنة سبع وعشرين ومئتين الهجريّة [٣٨٦] (٨٤١ م) ، وفي هذا العصر أصبحت الدولة الإسلاميّة الواحدة دولا ، وضعف شأن العرب وقلّت قيمتهم المعنوية وتولى القيادة الإدارية والعسكرية على الأكثر غير العرب ، وقلّ المجاهدون وكثر المحترفون .

وبعد المعتصم ساد العنصر الأعجميّ على العنصر العربي ، وكثرت دول الطوائف ، وسيطر غير العرب على الخلفاء ، وأصبحت الخلافة منصباً رمزياً له سمة دينيّة حسب والحكم لغير الخليفة ، حتى انقرضت الدولة العباسيّة على أيدي التاتار سنة ست وخمسين وستمائة الهجرية (١٢٥٨ م) ، وكان هذا العصر عبارة عن مآس قاصمة للظهر وحاقت بالمسلمين ، لأنهم تخلّوا عن الجهاد إلاّ مَن رحم الله ، وفي هذا العصر ذلّ العرب لأنهم غُزوا في عقر ديارهم وانصرفوا

(٣٨٥) ابن الأثير (٣٤٨/٥) . (٣٨٦) العبر (٤٠٠/١) .

عن الجهاد ، واعتمدوا على غيرهم للدفاع عنهم وعن أرضهم وعرضهم .

وبدأ بعد سقوط الدولة العباسيّة عصر الظلمات ، فهان العرب على أنفسهم وعلى الناس ، وتولى قيادتهم الفعليّة غيرهم من الأمم ، حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، حيث بدأ عصر استعمار الدول العربية .

واستقلّ المسلمون سياسيّاً وعسكريّاً واقتصادياً في أواخر النصف الأول من القرن العشرين الميلادي وفي أوائل النصف الثاني من هذا القرن ، ولكنهم يعانون من الاستعمار الفكريّ . البغيض حتى اليوم ، في غياب الجهاد عنهم وغياب التمسك بتعاليم الدين الحنيف .

وكانت انتصاراتهم في عصر الفتح الذهبيّ وعصر استعادة الفتح انتصار عقيدة ، وحّدت صفوفهم وجمعت كلمتهم وجعلتهم كالبنيان المرصوص يُشدّ بعضه بعضاً ، فاصبحوا في توحيدهم ووحدتهم قوّة لا تقهر أبدا .

فلما غيّر المسلمون بأنفسهم وانحرفوا عن عقيدتهم ، لم ينتصروا أبدا ، لأنّ أنفسهم هانت عليهم فهانوا على الأمم .

وقد جرّب المسلمون مبادئ وعقائد شتى ، فما زادتهم إلاّ ضَعفاً وهواناً على الناس ، ولا يزالون يجرّبون مبادئ وعقائد جديدة ، ولكنهم بقوا في آخر قائمة الأمم عسكرياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً ، وحسبهم أن تعتبرهم الأمم المتقدمة في قائمة الأمم النامية ، وهو التعبير التخديريّ الذي معناه : الأمم المتخلِّفة !

لقد أصبح المسلمون في سنوات معدودات بالإسلام في الأوج ، فقادوا العالم عسكريّاً وسياسياً وحضارياً ، وأصبحوا خير أمة أخرجت للنّاس .

وأمسى المسلمون منذ قرون طويلة بغياب الإسلام في الحضيض ، ففقدوا ما فتحوه وخسروا دار الإسلام واستعبدتهم الأمم ، وأمسوا أهون أمة في العالم ، وحتى أصبح للصهاينة في بلادهم دولة وكيان. لا لقوّة الصهاينة ولكن لضعف العرب .

فمتى يعود العرب والمسلمون إلى الإسلام من جديد، ليستعيدوا مكانهم ومكانتهم في الأرض ، ويعودوا خير أمة أخرجت للنّاس ! .

تلك هي عبرة : استعادة الفتح ، لعلّ فيها فائدة للمسلمين في كلّ مكان .

إنّ الطريق واضحة المعالم، ولكنّ الاستعمار الفكري الذي يسيطر على قلوب المسلمين وعقولهم معاً هو الذي جعل المسلمين يتيهون في متاهات لا أوّل لها ولا آخر ، وهو الذي جعلهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، فمتى يميّز المسلمون بين الحق والباطل ، فيقلعون عما صنعه أعداؤهم فتقبّلوه وفيه هوانهم الأبدي ؟ ! .



من مشكلات اللغة الكردية وأدبها

الدكتور كامل حسن البصير
(عضو المجمع)

اقدم في هذا البحث الموجز صورة مجملة عن التراث الكردي في اللغة والادب ،واتتبع نموه وتطوره ومانشأ حوله من دراسات ، مستخلصاً خلال ذلك كله المشكلات التي اعترضت سبيله ، ثم ابين اسهام المجمع العلمي العراقي الموقر بهيئته الكردية في حل هذه المشكلات واجباً من واجباته الرئيسة ذلك لان قانون تأسيسه المرقم (١٦٣) لسنة ١٩٧٨ قد نص في مادته الثانية على ان هذا المجمع يسعى الى تحقيق الاغراض الآتية : —

١— النهوض بالدراسات والبحوث العلمية في العراق لمواكبة التقدم العلمي والادبي فهذه الفقرة تلزم المجمع ان يشمل هذا النهوض الدراسات والبحوث باللغة الكردية وقد تجلى هذا في الفقرة (ب) :—

التي قررت (أنّ من اهداف المجمع اللغوية العمل على نماء اللغة الكردية ووفائها بمطالب الحياة) .

يتحمل المجمع العلمي العراقي مهمة جليلة في تحقيق مانص عليه قانون تأسيسه وخاصة اذا ماوقفنا على فقر المكتبة الكردية وقلة مصادرها ومراجعها التي وضعت في شتى مجالات المعرفة ، فالمعروف ان مانشر من هذه المصادر والمراجع في ارجاء المعمورة منذ سنة ١٧٨٧م وحتى ١٩٧٥ قد بلغ اربعاً وخمسين ومئتين والف كتاب (١) ويقين ان هذه المجموعة من الكتب لاتكاد تفي بالحد الأدنى من طموحنا في نماء اللغة الكردية ونهوضها بالتعبير عن شؤون

الحياة في ميادين التربية والتعليم والثقافة العامة وتلبية حاجات المؤسسات الجامعية والتربوية والثقافية التي قامت متتابعة منذ سنة ١٩٥٨ وحتى ايامنا هذه .

التراث الكردي قبل ظهور الاسلام :

ليس من هدف هذا البحث الخوض في النظريات التاريخية التي تلتمس اصل الاكراد وتسعى الى الكشف عن نشوئهم ومع هذا فمن المسلم به ان هذا الشعب قد تميز قبل ظهور الاسلام بخصائص لغوية واجتماعية وفكرية منحته كيانا مخصوصاً بين الشعوب القديمة في منطقة آريانا وتقتضي هذه المسلمة ان تكون لهذا الشعب منذ اقدم العصور لغته الخاصة وثقافته المتميزة ، ومن هنا فان الباحثين الاكراد المعاصرين يتحمسون للكشف عن هذه الثقافة وتلك اللغة فينقل بعضهم ان شخصاً باسم (آزه ربود مارسوبه ند) قد استنبط من الخط البهلوي الفباء كردية من اثنين واربعين حرفاً سماها خط (زه ند) وذلك سنة ثمانمئة والفين قبل الميلاد (٢) .

والحقيقة ان هذه الالفباء لم تنقل الينا نصوصاً جرى تحقيقها ونشرها في هذه الايام ومن هنا فان اضرب الالفباء الكردية المعاصرة كما سنرى لم تعتمد عليها كما لم يقيد لها الذيوع بين الكاتبين في العصور الاسلامية التي تطورت فيها الثقافة الكردية ووصلت الينا منها آثار أدبية . ويروي بعضهم الآخر انه كان لزەردەشت كتابان دينيان هما (آويستا) و(دیین کورد) وان دیین كورد كان قد دون لضخامته على جلود اثني عشـــر الف بقرة وكان هذان الكتابان مؤلفين باللغة البهلوية التي هي اساس اللهجة اللورية الكردية احدى اللهجات الاربع التي وصلت بها الينا نصوص أدبية متذ اوائل القرن الرابع الهجري كما سنرى ويروى ان الكتابين كانا منظومين مما جعل الناس يرتلونهما في أناشيد ملحنة .

والسؤال هنا يستفسر من منطق الواقع عن مدى تأثير هذين الكتابين في التراث الكردي الذي سلم من الضياع وانبسط اساساً لتطور الثقافة الكردية القديمة والمعاصرة ؟ .

المعروف ان جمهور الاكراد قد دخلوا في الدين الاسلامي منذ العقد الثاني للهجرة ، مما أدى ذلك الى انقطاع الصلة بينهم وبين ماكان لهم من آثار دينية قبل ظهور الاسلام ، ومع هذا فان بعض الباحثين يرجعون الوزن المقطعي الكردي في نظم الشعر الى الايقاعات التي جرت بها أناشيد آويستا (٣) .

وفي ميدان الحضارة يرى بعضهم انه اشتهر للاكراد قبل ظهور الاسلام علماء منهم : (تنك كه‌لوو) المشهور بـ (شه‌نكول) الذي الف كتباً في الشؤون الدينية والتنجيم سنة سبعمائة قبل الميلاد .

ومنهم (آرياته) وهو طبيب وضع مصنفــاً في الطب باللغة الكردية سنة ثمان وثمانين وستمائة قبل الميلاد ولكن المقرر ان نتاج هذين العالمين لم يصل الينا ولم يكن له أثر مباشر في الفكر الحضاري الكردي الذي ترعرع في ظل الاسلام (٤) .

اما في التراث الشعري فقــد حكي ان العلماء (قد عثروا على لوحتين من شمال ايران تحملان قصيدتين احداهما لشاعر كردي اسمه (بورابوز) والاخرى لشاعرمجهول وقدكان الشاعران يعيشان حوالي(٣٣٠–٣٢٠ قم)(٥)

ومع هذا فان هاتين المقطوعتين تستويان بين يدي مؤرخي الأدب الكردي ، وعليه فهما يشكلان اساساً تراثياً يستضاء به في فهم طبيعة الشعر الكردي واستجلاء معالمه المضمونية والشكلية .

ولعل النتيجة التي تفرض نفسها علينا في هذه الرحلة القصيرة مع التراث الكردي تقرر باطمئنان ان هذا التراث يشكل ملاذاً للباحثين الذين يبغون تتبع جذور اللغة والأدب الكردي وما غذاهما من حضارة وثقافة وقام حولهما من علوم قبل ظهور الاسلام مما وجدناهم يلتمسون في دراساتهم العلمية

المعاصرة هذه الجذور وانما يعتمدون على منهج وصفي يقف باصحابه عندما وصل الينا من هذا التراث بعد ظهور الأسلام بأكثر من ثلاثة قرون .

الأكراد في فجر الاسلام :

يلتقي الباحث بإشارات واضحة الى الشعب الكردي في المصادر العربية الاسلامية المختلفةمما يدل ذلكعلىانهذاالشعب كان يمتلك مقوماتهقبل ظهور الاسلام بقرون ويظهر من هذه الاشارات ان اتصال الاكراد بالاسلام كان منذ ايام الرسول الكريم (ص) .

فالمعروف من بين صحابته (رض) صحابي كردي يدعى (جابان ــ كابان) الكردي وله ابن يدعى (ميمون) ويكنى بـ (ابي بصير) واتسع هذا الاتصال فشمل الجموع الكردية بعد سنة ثماني عشرة للهجرة يوم فتحت الجيوش الاسلامية المناطق الكردية اثر فتح حلوان وتكريت . (٦)

واذا ما التمسنا للأدب الكردي وجوداً في هذه الحقبة صادفنا تناقض الروايات وشك الباحثين ، فهناك من يزعم انه اكتشفت ابيات على قطعة جلد في كهف (هزارميرد) قرب مدينة السليمانية تصف وقائع الفتوحات الاسلامية في منطقة شهرزور ، ثم تتشعب السُبل بهذا الزعم فيتباين حول الخط الذي كتبت به هذه الابيات فاذا هو خط آرامي تارة وخط بهلوي تارة اخرى .

والحقيقة ان النقد الداخلي للغة هذه الابيات يؤكد انها منحولة : اصطنعها بعضهم من اللهجات الكردية المعاصرة لغرض ما .

وهناك من يرى ان شاعراً كردياً اسمه (خليل المنداجي) (٧) المتوفى سنة عشرين للهجرة (٦٤٠–٦٤١ م) ينتسب الى هذه الحقبة ، بيد اننا لم نعثر على شيء من شعره واعلنا نبتعد عن قصد الايجاز اذا ماتتبعنا هنا سائر الروايات التي تجتهد في ان تضع اليد على اوليات الأدب الكردي حتى بداية القرن الرابع للهجرة ولكننا ينبغي ان نقرر انه كانت للشعب الكردي لغته

المتميزة وأدبه المخصوص في هذه الفترة ، وآية ذلك اننا نلتقي بشاعر هو بابا طاهر الهمداني عاش في القرن الرابع للهجرة ووصلت الينا رباعيات متكاملة ناضجة مضموناً وشكلاً .

مشكلات اللغة الكردية :

لقد ترتب على ضياع الآثار المدونة باللغة الكردية قبل ظهور الاسلام وتمنعها عن الاكتشافات حتى يومنا هذا تباين آراء الباحثين المعاصرين في اصل اللغة الكردية ومهما يكن ، فعلى رأي الاختصاصيين الذين يستطيع المرء ان يعول على آرائهم ونظرياتهم ، ان اللغة الكردية ، ليست لهجة مشتقة او محرفة عن اللغة الفارسية الحالية ، بل انها لغة مستقلة تمام الاستقلال لها تطوراتها التاريخية الحقيقية ، وهي أقدم من اللغة الفارسية القديمة التي كتبت بها آثار (دار يوش الاولى) فاذا صحت هذه النظرية القوية . فقد يحق لعلماء التاريخ ان يذهبوا بطبيعة الحال الى : ان اللغة الكردية كانت موجودة في القرن السادس (ق م) وكانت مستقلة عما عداها من اللغات المجاورة ، تمام الاستقلال ويقول الميجر (ادموندس) الاختصاصي في تاريخ الكرد اصبح من الوضوح بمكان ان اللغة الكردية ليست عبارة عن لهجة فارسية محرفة مضطربة . بل انها لغة آرية نقية معروفة لها مميزاتها الخاصة وتطوراتها القديمة(٨)

واذا ما التمسنا لهذه اللغة كيانها في الأدب الكردي التقينا بها منذ بداية الربع الاول من القرن الرابع للهجرة مجزأة على اربع لهجات رئيسة :-

اولاها: اللهجة اللورية وقد وصل بها الينا لاول مرة نتاج الشاعر بابا طاهر الهمداني الذي ولد سنة ٣٢٦ هـ- ٩٣٥ م ومات ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م .

وثانيتها: اللهجة الكرمانجية الشمالية التي تسلمنا اقدم ماكتب بها من الشاعر مه‌لاى جزيرى المولود ٥٤٠ هـ -١٤٠٧ م والمتوفى ٦١٤ هـ -١٤٨١ م.

وثالثتها: اللهجة الكورانية (الهورمانية) ورائد الشعراء الذين اذاعوا

بها قصائدهم هو بيساراني الذي ولد ١٠٥٢ هـ – ١٦٤١ م ومات ١١١٣هـ – ١٧٠٢ م .

ورابعتها: اللهجة الكرمانجية الجنوبية وقد دون بها نتاجه الشعرى لاول مرة الشاعر المعروف نالي الذي ولد سنة ١٧٩٧ م وتوفي ١٨٥٥ م .

ان هؤلاء الشعراء قد رسموا بلهجاتهم هذه للشعراء الذين يتتمون الى مناطقهم سبل النظم بلهجاتهم المحلية فأسهموا في ترسيخ ظاهرة اللهجوية في المجتمع الكردي حتى ايامنا هذه وذلك بالاضافة الى العوامل الجغرافية والتاريخية التي تمزق عادة لغات الشعوب الى لهجات اذا لم تتوفر لها ظروف الوحدة اللغوية المعروفة في تاريخ بعض الامم . ويقين ان هذا يمثل مشكلة معقدة للغة الكردية تعرقل سبيل تطورها ونمائها والتعبير عن وحدة الشعب الكردي.

وقد خيمت هذه المشكلة على مؤسسة التربية والتعليم في المنطقة الكردية يوم تقرر ان تكون اللغة الكردية لغة للتدريس في نطاق محدود قبل ثورة الرابع عشر من تموز وتعقدت عندما توسع هذا النطاق ايشتمل على التعليم الابتدائي في ارجاء المنطقة كافة بعد هذه الثورة . وحينما تقرربعد ثورة السابع عشر – الثلاثين من تموز ١٩٦٨ م ان يكون التعليم باللغة الكردية في المرحلة الابتدائية والمتوسطة والاعدادية استفحلت هذه المشكلة والحقيقة انه جرت محاولات لحلها .

وأولى هذه المحاولات قد بذاها لاول مرة بصورة رسمية وجماعية مؤتمر المعلمين الاكراد الذي انعقد في شقلاوة في المدة من ١١–١٣ من الشهر التاسع سنة ١٩٥٩ إذ اوصت لجنة اللغة والأدب الكردي في هذا المؤتمر ان تتخذ اللهجة السورانية التي هي فرع رئيس من فروع الكرمانجية الجنوبية اساساً للغة تأليف الكتب المدرسية على ان تطعم باللهجات الاخرى في قواعد النحو والمفردات

ان هذه التوصية لم تأخذ طريقها الى التنفيذ بصورة علمية شاملة وذلك لان اللغة الموحدة لاي شعب لا تتكون بصورة آلية مصطنعة وانما تحييها ظروف مخصوصة وتجعلها لغة الثقافة والعلم والفكر في صورة قائمة على المبادرة الجماعية والدراسات اللسانية العلمية الهادفة ، وقد بذلت جهود علمية جماعية وفردية بعد بيان الحادي عشر من آذار سنة ١٩٧٠ م في سبيل الوصول الى هذه اللغة الموحدة ، والظاهر انها اثمرت في تحقيق بعض اهدافها اذ ظهر لفيف من الأدباء والكتاب الناطقين باللهجات المختلفة ، وهم يمتلكون زمام اللغة الكردية الموحدة فكتبوا بها وألفوا في ضوئها بعيدين عن لهجاتهم الخاصة .

ومهما يكن فرأيي ان اللغة القومية الموحدة لشعبنا الكردي تبعث من اعماق التاريخ للكشف عن قواعدها المشتركة ومفرداتها الدقيقة في لهجاتها وفروعها المحلية كافة ، وهذه مهمة علمية شاقة لما يتم النهوض بها . وليس هذا حسب وانما تقوم دون تحققها المشكلات التي تتعثر بها علوم اللغة الكردية :—

واولى هذه المشكلات قلة المصنفات في دراسة النحو الكردي ، اذ لا تتعدى اصابع اليد الواحدة حتى يومنا هذا ، ثم ان منهج تأليف هذه المصنفات غير مستنبط في الغالب من طبيعة اللغة الكردية ولا يهدف السائرون في ضوئه الى تحقيق مهمة بعث اللغة الموحدة للأكراد وانما يحصرون دراستهم في لهجة واحدة منقطعين عن اللهجات الاخرى .

فالمعروف ان اول كتاب في النحو الكردي ألفه عن اللهجة الكرمانجية الشمالية القس الايطالي (ماوريزو كارزوني) سنة ١٧٨٧ م ، وهو يقع في ثمان وسبعين ومئتي صفحة ، ثمان وسبعون صفحة منها في قواعد تلك اللهجة ، وسائرها معجم ايطالي كردي من خمسة الاف كلمة (١٠) وهذا الكتاب رغم اهميته التاريخية الا انه قد سن للنحاة الاكراد سنة تقليد مناهج الاجانب في دراسة نحو لغتهم القومية . واول كتاب في النحو الكردي وضعه مصنف كردي هو (مختصر النحو والصرف الكردي) الفه السيد صدقي كابان عن

اللهجة الكرمانجية الجنوبية سنة ١٩٢٨ م ثم جاء بعده في التأليف النحوي الاستاذ توفيق وهبي والاستاذ نوري علي امين اللذان وضعا اكثر من دراسة في هذه اللهجة .

وقد شعرت لجنة اللغة الكردية في مجمعنا بأبعاد المشكلة اللهجوية في اللغة الكردية وابتلاء الكتب النحوية بها فقامت بدراسة مقارنة اللهجات الكردية الاربع فاستنبطت المفارقات الصوتية والنحوية بينها وذلك خلال العام المجمعي (١٩٨١ م — ١٩٨٢ م) وفي يقيني ان هـذه الدراسة ارضية صالحة لاقامة صرح اللغة الكردية الموحدة اذا ماأثرتها دراسات جادة توجة الهيئة الكردية في المجمع الباحثين اليها على ان يعقد مؤتمر علمي لمدراستها وأخذ القرارات العلمية في توحيد قواعد نحو هذه اللغة على اساس احيائها فن لهجات هذه اللغة . وثانية هذه المشكلات غياب الابجدية الكردية الموحدة :—

فقد اشرت سابقاً الى ان مانوه به من انه ابجدية كردية قديمة لم يعتمد عليه في الكتابة ومن هنا فعندما جرى التصنيف والكتابة باللغة الكردية بشكل واسع بعد ظهور الاسلام برزت دعوات مختلفة الى نوعية الاحرف الكردية : فالمعروف تأريخياً ان النتاج الفكري والأدبي الكردي يدون حالياً بثلاثة أضرب من الالفباء : —

اولاها: الالفباء السولافية التي يستخدمها اكراد الاتحاد السوفيتي في التدوين والتأليف .

وثانيتها: الالفباء اللاتينية التي وضعها بعض المستشرقين ثم تحمس لها الاستاذ توفيق وهبي في كتابه خويندہ واری باو : اي تعميم التعليم الذي نشره سنة ١٩٣٣ م وضمنه بحثاً عن نوعية الحروف وكيفية الكتابة الكردية بالالفباء اللاتينية فحدد ثمانية اصوات متحركة وخمسة وعشرين صوتاً وصوتاً واحداً مركباً (١١) .

وقد ادرك الدكتور جمال نەبەز انالاستاذ توفيق وهبي لم يحل بمصنفه ذاك مشكلة كتابة اللغة الكردية بالاملاء اللاتيني فألف سنة ١٩٥٧ م كتيبه لتلافي هذه المشكلة وكيفية الكتابة بهذا الاملاء فأقام الدعوة الى الكتابة بالالفباء اللاتينية على اساس يستند اليه المتحمسون لهذه الدعوة في العراق .

وثالثتها: الالفباء العربية التي استعملها الاكراد منذ اتصالهم بالاسلام في اوائل القرن الاول للهجرة ودوّنوا بها تراثهم في اللغة والأدب . والظاهر ان الكتابة الكردية بهذه الالفباء قد صادفت معوقات لغوية وذلك لوجود اصوات في اللغة الكردية لا توجد في اللغة العربية ولرغبة الكتاب الاكراد في ان يضعوا لكل صوت في لغتهم حرفاً مخصوصاً فبذلوا جهوداً لازالة هذه المعوقات . ويأتي الاستاذ نوري علي امين في مقدمتهم واقعية في التشخيص وعلمياً في المعالجة وذلك في كتابه (رايه رى بوئيملاى كوردى) أي (مرشد الاملاء الكردي) الذي نشره سنة ١٩٦٦ فحدد فيه اصوات اللغـــة الكردية وتعريفها وحل عوائق تصويرها بالحروف العربية فشخص اثني عشر صوتاً متحركاً وواحداً وثلاثين صوتاً صامتاً واقترح حروفاً للاصوات الكردية المخصوصة وطرح حلولاً لكتابة الكلمات بشتى انواعها في الجملة والفقرة .

ان عمل الاستاذ نوري علي امين هذا بالرغم من ذيوعه واعتماد المديرية العامة للدراسة الكردية عليه في تأليف الكتب المدرسية الا انه لم تعتمد عليه المؤسسات الثقافية كافة ولم يلتزمه معظم المؤلفين باللغة الكردية . ومن هنا ظلت الكتابة الكردية بالحروف العربية تعاني من صعوبات، مما دعا ذلك الهيئة الكردية في مجمعنا الى محاولة اقامة ندوة علمية لحل هذه الصعوبات والوصول الى املاء موحد بالحروف العربية، لقد قامت هذه المحاولة على مرحلتين :—

اولاهما : — دعوة الباحثين الاكراد الى كتابة بحوث علمية معمقة في صعوبة او اخرى من تلك الصعوبات فاستجاب لها سبعة عشر باحثا ونشرت ابحاثهم في عدد خاص من مجلة مجمعنا (١٢) .

وثانيتهما : استضافة نخبة من المربين والادباء والمتخصصين الاكراد وممثلي المؤسسات الكردية لمدارسة تلك البحوث ومناقشتها ثم الوصول الى قرارات علمية حاسمة لحل هاتيك الصعوبات واستخلاص قواعد راسخة للاملاء الكردي الموحد للحروف العربية .

وفي الوقت الذي اثمن فيه رئاسة المجمع لتبني محاولة الهيئة الكردية وتخصيصها المبالغ الكافية لتنفيذ المرحلة الثانية واقامة هذه الندوة ، اسجل هنا ضرورة عقد الندوة بشكل او بآخر وصولا الى ذلك الهدف العلمي الذي يحسم الدعوات المختلفة في كتابة اللغة الكردية وارساء هذه الكتابة على الاحرف العربية وذلك للحفاظ على تراثنا وتطويره وتوطيد الصلات الثقافية العريقة بين العرب والاكراد .

وثالثة هذه المشكلات قصور المصطلح الكردي عن التعبير في مجالات الحياة . ان المقرر الثابت في تاريخ المصطلح الكردي ان محاولات وضعه لتلبية حاجات الشعب الكردي المعاصرة قد جرت في نطاق ضيق جدا ، اذ لم تثمر سوى كتيبات معدودة ، ومصطلحات هذه الكتيبات تعاني من ثلاث ظواهر سلبية :—

اولاها : صياغتها من غير منهج علمي استقرت اسسه في الدراسات اللغوية المعاصرة وقد سعيت الى تلافي هذه الظاهرة بوضع كتاب (١٣) في هذا المنهج تقرر تدريسه في اقسام اللغة الكردية بجامعة السليمانية وجامعة بغداد .

وثانيتها : تعدد المصطلح الدال على المعنى الواحد وتنازع المؤلفين وتنافسهم في ادارة المصطلحات المترادفة من غير قاعدة ومن غير ضابط .

وثالثتها : الاكثار من المصطلحات الاوربية المعاصرة والجنوح عن المصطلح الكردي .

ان لجنة اللغة الكردية ولجنة الادب والتراث الكردي في مجمعنا تبذلان جهودا علمية لتلافي هـذه الظواهر ، وفي اعتقادي ان هـذه الجهود ينبغي ان تتوج بندوة علمية متخصصة لتدارس المصطلحات الموضوعة في ضوئها

بعد ان تدعو الهيئة الكردية الباحثين الاكراد لتقديم مقترحاتهم بهذا الصدد تحقيقا لوحدة المصطلح الكردي ووضعه لتلبية متطلبات الحياة .

ورابعة هذه المشكلات استفحال حاجتنا الى معجم لغوي موحد : —

ان هذه الحاجة تستجيب لهدفنا في بعث اللغة الكردية الموحدة وترسيخ مفرداتها التي يديرها المتكلمون بلهجات هذه اللغة،والحقيقة ان هناك مجموعة من المعجمات في اللغة الكردية بعضها كردي كردي وبعضها كردي عربي وعربي كردي وبعضها الاخر كردي مع لغات اوربية وبخاصة اللغة الانكليزية واللغة الروسية واللغة الايطالية ،والملاحظة العلمية علىهذه المعجمات انها تتعثر بظاهرة الترادف التي تمنع من تحديد مدلولات المفردات بالشواهد الادبية الاصيلة كما تعاني من ضيق مساحتها اللغوية والاقتصار على لهجة كردية دون اخرى .

وفي ضوء هذه الملاحظة تقوم الحاجة الماسة الى معجمين موحدين كردي كردي وعربي كردي يتلافيان هذه الظواهر في المعجمات الكردية المصنفة وبدهي ان تلبية هذه الحاجة لايتم الا في رحاب مجمعنا الموقر .

الأدب الكردي ومشكلاته :

ان ماوصل الينا من الأدب الكردي قديماً وما نعاصره حديثاً يمكن تصنيفه على ضربين :—

اولهما : الأدب الشعبي ـ وهو ماأسهم الشعب في بنائه مصدرا لموضوعاته ومتذوقاً لاشكاله ، ويشتمل على الفولكلور الذي لايعرف قائله وتتنوع الوانه بين الحكم والامثال والحكايات والاساطير المنظومة والمنثورة، كما يضم النتاجات التي تنسب الى اشخاص باعيانهم،والمميزات الرئيسة للأدب الشعبي الكردي تتمثل في ان جذوره التاريخية قديمة وافكاره اصيلة وأوزان المنظوم منها مقطعية ترتقي الى مصدر كردي مخصوص .

والأدب الشعبي رغم اهميته لم يدون منه الا القليل ويمكن الاشارة بهذا الصدد الى الاساتذة اسماعيل شاويس والشيخ محمد الخال والسيد علاء الدين السجادي بالاضافة الى طائفة من المستشرقين الذين وان كانوا دونوا لنا مجموعات قيمة الا ان تدوينهم لم يقدم الا النادر اليسير منه .

وعليه فان مجمعنا الموقر يتحمل مسؤولية اتمام الجمع ، وأقترح تشكيل لجان وتكليف افراد للنهوض بهذه المسؤولية وفق خطة عامية وعملية تضعها لجنة الأدب والتراث الكردي .

وثانيهما : الأدب الفني : وهو ما أبدعته قرائح الأدباء وصاغته مواهبهم فذاعت اسماؤهم واشتهروا بانتاجه وفق تقاليد فنية في المضمون والشكل وهذا الأدب بطبيعته شعر ونثر :—

اما الشعر فأقدم نص وصل الينا منه ماينسب الى الشاعر بابا روخ الهمداني الذي عاش في القرن التاسع الميلادي ومات في آب ٨٤١ م (١٤) ومعنى هذا ان الشعر الكردي القديم قد ترعرع تحت خيمة الاسلام وترسخت خصائصه متأثرة بنتاجات الشعوب الاسلامية عامة وبالتراث العربي خاصة .

والحقيقة اننا اذا مادرسنا دواوين هذا الشعر القديمة التي لها مقلدوها من الشعراء المعاصرين ويسميها بعضهم خطأ دواوين الشعر الكلاسيكي نلاحظ ان الكثير من اصحابها ينظمون قصائدهم على قواعد العروض العربي وزناً وقافية ويصوغون تعابير الغزل التقليدي في ضوء قواعد البلاغة العربية التي تقررت في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي والكتب التي لخصته وشرحت تلخيصاته .

وفي الربع الاول من القرن العشرين نزع شعراء من امثال الشيخ نوري الشيخ صالح وبيره مرد وعبدالله كوران الى تجديد الشعر الكردي ونظمه على الاوزان المقطعية القومية مع الابتعاد عن الكليشهات البيانية الموروثة فبنوا بذلك أسس تطور الشعر الكردي الحديث ، وهي اسس قل ان يلتزمها معظم الشعراء الشباب وانما يخرجون عليها باسم التجديد مقلدين المدارس الشعرية الاوربية

كالبرنانسية والرمزية والسريالية واللامعقولية التي يقعون عليها من التراجم العربية لشعراء هذه المدارس في المجلات اللبنانية وسواها .

اما النثر الكردي فلم يصل من تراثه القديم الينا شيء ذو اهمية تاريخية وانما نلتقي منه نماذج يسيرة منذ اوائل القرن التاسع عشر وهذه النماذج لمّا تنشر في طبعات محققة .

ومع هذا فيبدو ان الكتاب الاكراد كانوا يملكون القدرة على الكتابة الفنية منذ القديم وآية ذلك مقالاتهم وتحقيقاتهم وبحوثهم التي نطالعها في الصحف اليومية والمجلات الدورية التي بلغت ثمان وسبعين صحيفة ومجلة منذ صدور صحيفة كردستان في استنبول سنة ١٨٩٨ م– ١٩٧١ م (١٥) يعاني الأدب الكردي في صورته هذه من مشكلات تكاد تقضي على جانبه المشرق وتبرز سلبياته ، وهذه المشكلات :

اولاها : بقاء دواوين الشعراء الاكراد القدامى مخطوطة في الاغلب ونشر القليل منها وهذا القليل معظمهُ من غير تحقيق علمي . وقد قطعت هذه المشكلة الصلة الفكرية والفنية بين شعرائنا الشباب وبين تراث شعبهم كما تركت ساحة الدراسات اللغوية والنحوية والنقدية والبلاغية خالية في الاغلب من الشاهد الاصيل .

وثانيتهما : عدم دراسة تاريخ هذا الأدب بشكل منهجي علمي ، ومما يجسد هذه المشكلة ان المكتبة الكردية تحتوي في هذا الباب على كتابين فقط باللغة الكردية هما الشعر والأدب الكردي للاستاذ رفيق حلمي وتاريخ الأدب الكردي للاستاذ علاء الدين السجادي .

وثالثتها : غياب الدراسات النقدية والبلاغية الكردية الاصيلة من عالم الأدب الكردي مما ترك تراثه من غير دراسة واطلق العنان للمعاصر منه لينطلق منتجوه على هواهم في الاغلب من غير قيادة نقدية وبلاغية واعية .

وتتمثل هذه المشكلة في ان مانشر في هذا الباب باللغة الكردية حسب علمنا لايتعدى كتابين للاستاذ علاء الدين السجادي (١٦) وكتاب لي (١٧) في

الدراسات النقدية واربعة كتب في الدراسات البلاغية اثنان منهد للاستاذ علاء الدين السجادي (١٨) والثالث للاستاذ عزيز كەردى (١٩) والرابع لي (٢٠) .

وبدهي ان هذه المشكلات الرئيسة التي يتعثر بها الأدب الكردي يقدر مجمعنا ان يسهم في حلها فيمكن بذلك هذا الأدب من مواكبة التطور العلمي والفكري والفني الذي تنهض عليه مؤسسات تعليمية وثقافية كردية ننوه هنا بخمس منها :

اولاها الامانة العامة للثقافة والشباب ومديرياتها الثقافية في منطقة الحكم الذاتي .

وثانيتها المديرية العامة للدراسة الكردية في وزارة التربية ببغداد .

وثالثتها دار الثقافة والنشر الكردية التابعة لوزارة الثقافة والاعلام .

ورابعتها قسم اللغة الكردية في كلية الآداب جامعة صلاح الدين .

وخامستها فرع اللغة الكردية في كلية التربية جامعة بغداد .

والسؤال من حقه ان يستفسر بين ايدي هذه المؤسسات قائلاً كيف تستجيب المكتبة الأدبية واللغوية الكردية لهذه المؤسسات وهي تعاني من هذه المشكلات.؟

وهذا السؤال بلا ريب يوجه الانظار الى المجمع العلمي العراقي بهيئته الكردية فماذا تراه منجزاً للنهوض بهذه المسؤولية الكبرى ؟

الهيئة الكردية ولجانها :

مما لامراء فيه ان المؤسسات الثقافية والتعليمية التي نوهت بها فيما مضى تسهم بشكل او بآخر في حل مشكلات اللغة الكردية وأدبها وتعمل على تطورهما، ومع هذا فإنه يبقى للمجمع العامي العراقي بهيئته الكردية ولجان هذه الهيئة دوره المتميز الذي يقوم على ثلاثة أسس متلازمة :—

اولها : التخصص الدقيق والتعمق في البحث .

وثانيها : الشمول والاحاطة في الدراسة والتتبع .

وثالثها : الزام المؤسسات المختلفة وتكليفها بتنفيذ القرارات والتوصيات.

وعليه فان الشعب الكردي يعقد آمالا على هذا المجمع وينتظر منه الكثير لتحقيق مايصبو اليه من تطور في المجالات العلمية والثقافية والحضارية . وقد نهضت الهيئة الكردية منذ قيامها في تنظيمات المجمع قبل أكثر من ثلاث سنوات بوضع خطة عملها فشكلت ثلاث لجان :-

اولاها : لجنة الأدب والتراث الكردي التي تتألف من سبعة خبراء وعضو عامل واحد، وهي تعمل في تحقيق الدواوين والكتب التراثية وكتابة ابحاث متخصصة تعالج جانباً او آخر من جوانب الأدب الكردي وتراثه وقد انجزت خلال عملها للعام المجمعي المنصرم وهذا العام مايأتي :

اولا : تحقيق كتاب مجاس الأدباء الذي الفه السيد امين فيضي وطبع طبعة غير محققة سنة ١٩٢٠ م .

ثانياً : تحقيق ديوان الشاعر المشهور مصطفى كردي طبع عدة طبعات غير محققة وغير تامة فاستكملته اللجنة وحققته وتتوقع ان يصل حجمه الى نيف وألف ورقة .

ثالثاً: وضع المصطلحات الاساسية في الشؤون الأدبية .

رابعاً: تكليف كل عضو من اعضاء اللجنة باعداد بحث في اختصاصه

وثانيتها: لجنة اللغة الكردية وهي متألفة من ستة خبراء وعضو عامل واحد وخطتها ان تدرس اللهجات الكردية وتثبت قواعدها وتضع المصطلحات العامة في ضوء منهج يكفل لهذه المصطلحات خلوصها من الظواهر السلبية التي نوهنا بها، ثم كتابة كل عضو من اعضائها بحثاً لغوياً متخصصاً يعالج مشكلة منهجية او صوتية لهجوية وقد انجزت هذه اللجنة للعام المجمعي المنصرم وهذا العام ما يأتي

اولاً : وضع مصطلحات علم اللغة والدراسات الصوتية .

ثانياً: دراسة اوجه الخلاف بين اللهجات الكردية الاربع في الاصوات والمفردات والنحو .

ثالثاً: وضع مصطلحات عامة وذلك بمراجعة ماوضع منها من قبل واقتراح المصطلحات البديلة ونحت المصطلحات الجديدة .

ومما اود التنويه به هنا ان الفقرة الاولى والثانية من عمل هذه اللجنة ستنشران في عدد قادم من مجلة المجمع (الهيئة الكردية) اما الفقرة الثالثة فقد انجز منها معظم مصطلحات حرف الهمزة .

وثالثتها: لجنة المجلة والنشر وهي تتألف من ثلاثة خبراء وعضوين عاملين وقد انجزت طبع ثلاثة اعداد من المجلة وثمانية كتب خلال الاعوام المجمعية الثلاثة المنصرمة .

والمشكلة الرئيسة التي تعاني منها الهيئة الكردية هي قلة انتاج المطبعة وهذه المشكلة بلا شك ترجع الى الظروف الاستثنائية التي نمر بها جميعاً ومع هذا فلا بد من الاشارة اليها لوضع حل لها اذ ان الهيئة الكردية قد التزمت بطبع نيف وعشرين كتاباً لباحثين في مختلف الاختصاصات وقد مضت على هذا الالتزام المدة المقررة لطبع الكتب في مجمعنا وبعد هذا كله اود ان أؤكد ضرورة استكمال عدد الهيئة الكردية في ضوء مانص عليه قانون المجمع العلمي العراقي لتتمكن من توزيع اعمالها ووضع خطة مفصلة لانجاز مهماتها الجسيمة التي انوه هنا بأربع منها : —

اولاها: وضع قواعد الاملاء الكردي الموحد بالاحرف العربية .

وثانيتها: وضع معجم موحد كردي كردي وعربي كردي .

وثالثتها: وضع المصطلحات الكردية الموحدة .

ورابعتها: وضع قواعد النحو الكردي للغة الكردية الموحدة .

وفي يقيني ان الهيئة الكردية قادرة على النهوض بهذه المهمات خلال اجتماعاتها الدورية المنتظمة ، بالافادة من الخبراء الثلاثة المتفرغين للعمل في المجمع وبعقد ندوات متخصصة وفق برنامج زمني مناسب .

المصادر والمراجع

١ – ببلو كرافيا الكتب الكردية : السيد نريمان مصطفى السيد احمد مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧٧

٢ – معجم مهاباد : كيوموكرياني ص ٧٦٧ مطبعة كردستان اربيل وكتاب كيونامه للمؤلف نفسه .

٣ – الوزن والقافية في الشعر الكردي : الدكتور معروف خەزندار . مطبعة الوفاء بغداد ١٩٦٣ .

٤ – معجم مهاباد ص ج

٥ – الواقعية في الادب الكردي : الدكتور عزالدين مصطفى رسول ص ٥٥

٦ – خلاصة تاريـــخ الكرد وكردستان : الاستاذ محمد امين زكي ص .١٢٩ مطبعة السعادة – مصر ١٩٣٩ م

٧ – الواقعية في الادب الكردي ص ٥٦ .

٨ – خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ص ٣٢٣ .

٩ – راجع خارطة اللهجات الكردية في بحث التوزيع الجغرافي للهجات اللغة الكردية للسيد فؤاد حمه خورشيد حيث بيان مفصل لانقسام تلك اللهجات الاربع الى فروع محلية – بحث مستل من المجلد الثالث العدد الثاني من مجلة المجمع العلمي الكردي عام ١٩٧٥ .

١٠– ببليو كرافيا الكتب الكردية ص ١٤

١١– ما كتب عن اللغة الكردية الدكتور عبدالرحمن معروف ترجمة السيد محمد امين غفور الهورماني ص ٣٥ – مطبعة المجمع العلمي الكردي بغداد سنة ١٩٧٨

١٢– مجلة المجمع العلمي العراقي الهيئة الكردية الجزء التاسع مطبعة المجمع العلمي العراقي .

١٣ المصطلح الكردي : الدكتور كامل حسن البصير ـ مطبعة جامعة السليمانية سنة ١٩٧٩

١٤ـ الواقعية في الادب الكردي ص ٥٧

١٥ـ تاريخ الأدب الكردي : الاستاذ علاء الدين السجادي ص ٦٠٩ مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٧١

١٦ـ الأدب الكردي والتحليل في الادب الكردي ـ مطبعة المعارف ١٩٦٨ والثاني : معرفة النقد ـ مطبعة المعارف ١٩٧٠ .

١٧ـ الشيخ نوري الشيخ صالح في ميدان الدراسات الادبية والنقدية : الدكتور كامل حسن البصير ، مطبعة المجمع العلمي العراقي بالاضافة الى مجموعة ابحاث نشرت باللغة الكردية في مجاة المجمع ومجلة البيان حول المقاييس النقدية والشعر الكردي والاصالة والتقليد في الشعر الكردي والشعر الكردي ومصطلح الكلاسيكية في النقد الاوربي وناقد ونظرية الشعر .

١٨ـ كتابا الاستاذ علاء الدين السجادي ـ الاول ـ الفصاحة ، مطبعةالمعارف سنة ١٩٧٨ والثاني البلاغة .

١٩ـ البلاغة في الأدب الكردي : الاستاذ عزيز كەردي .

٢٠ـ علم المجاز من النقد اليوناني والروماني والعربي والاوربي الى الدراسات النقدية الكردية : الدكتور كامل حسن البصير : مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨١ .



أعضاء الإنسان المصطنعة عند العرب

ميخائيل عوّاد

(عضو المجمع)

تمهيد :

يزدحم تاريخ العرب بمناحيَ حضارية رائعة ، ذات أثر عظيم في حياة البشر . كما تزخر التصانيف العربية في التراجم والأدب والتاريخ وغيرها ، بأفانين العلم والمعرفة .

وقد ذهب كثير من الناس ، إلى انّ تلكم المآثر ، منبتها ديار الغرب ، وفيه نشأت ، بينما ثبت لدى تتبع التاريخ ، انّ الشرق ، ولا سيما الشرق العربي ، هو المبتكر لها ، في دياره نَمَت وترعرعت ، وعنه أخذها الغرب ، فَهذَّبها ووَسّعَها ، فأضحت كما نراهـا في عصرنا الحاضر .

وفي مطالعاتنا في كُتُب تراثنا العربي القديم ؛ وقفنا على اخبار طرائف ترقى الى مئات السنين ، تتناول تركيب أعضاء مُصْطَنَعة للإنسان حينما كان يفقد عضواً مِن أعضائه : كالرِجل واليد والأصابع والأنف والأسنان والشَعر واللحية .

وها نحن نتناول في بحثنا هذا ، الأعضاء المُصْطَنَعة هذه :

الرِجل المُصْطَنَعة

ذَكَر غير واحد ، ممّن ترجم للزمخشري ، الأديب اللغوي الشهير — المتوفىً سنة ٥٣٨ هـ = ١١٤٤م — ، انه أصابه خراج في رِجْله ، فقطعها

واتّخذ رِجلاً مِن خشب . وقيل أصابه برد الثلج في بعض أسفاره بنواحي خوارزم ، فسقطت رجله .

وحُكي انّ الدامغاني المتكلّم الفقيه ، سأل الزمخشري عن سبب قَطْع رِجله ، فقال: دعاء الوالدة ، وذلك انّي أمسكتُ عصفوراً وأنا صبي صغير ، وربطتُ برِجله خيطاً ، فأفلَتَ مِن يدي ، ودخل خرقاً ، فجذبتُه فانقطعت رِجْله ، فتألّمت له والدتي ، وقالت : قَطَع الله رِجلكَ كما قطعتَ . فلمّا رحلتُ الى بُخارَى في طلب العلم ، سقطتُ عن الدابة في أثناء الطريق فانكسرت رِجْلي ، وأصابني مِن الألم ما أَوجب قَطْعها[1] .

وكان إذا مَشَى أَلْقَى عليها ثيابه الطوال ، فيظنّ مَن يراه انّه أعرج .

اليَد المُصْطَنَعة :

جاء في أحداث سنة ٤٢٧ هـ (= ١٠٣٥ م)، انّه في شهر رمضان ، توفّي رافع بن الحسين بن مقَن . وكان حازماً ، شجاعاً . وخلّف بتكريت[2] ما يزيد على خمس مائة ألف دينار ، فملكها ابن أخيه خميس بن تغلب ، وكان طريداً في أيام عمّه . وكانت يده قد قُطِعت ، لأنّ بعض عبيد بني عمّه كان يشرب معه ، فجرى بينه وبين آخر خصومة ، فجرّدا سيفَيْهما ، فقام رافع ليصلح بينهما ، فضرب العبد يده فقطعها غلطاً . ولرافع فيها شِعر ، ولم تمنعه مِن قتال ، فقد عمل له كفّاً أخرى يمسك بها العنان ويقاتل[3] .

---

(١) ياقوت الحموي –ت ٦٢٦ هـ – « إرشاد الأريب الى معرفة الأديب = معجم الأدباء » (٧ : ١٤٧ ، تحقيق : مرجليوث . مصر ١٩٢٥) .

(٢) كانت تكريت لبني مقن العقيليين . وكانت الى آخر سنة ٤٢٧ هـ ، بيد رافع بن الحسين ابن حماد بن مقن ، المعروف بـ « طاهر الدولة أمير العرب » .

(٣) ابن الأثير –ت ٦٣٠ هـ – « الكامل في التاريخ » (٩ : ٤٥١ ، ط . بيروت ١٩٦٦) ؛ و « تاريخ هلال الصابىء » – ت ٤٤٨ هـ (ص ٤٥٠ ، تحقيق : آمدروز . بيروت ١٩٠٤) .

الأصابع المُصْطَنَعة :

ذكر ابن قتيبة الدينوري – ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م – ، في ترجمة خلف بن خليفة ، انّه « كان أقطع اليد ، وله أصابع مِن جلود . وكان شاعراً ظريفاً مطبوعاً ... » (٤) .

ولم يذكر إذا كانت مفاصل تلكم الأصابع تتحرّك أم لا . ومهما يكن مِن الأمر ،فاتّخاذ الأصابع مِن الأدم ، يدلّ على أنّ العرب عرفوا شيئاً مِن التعويض عمّا يتلف مِن أعضائهم .

الأنف المُصْطَنَع :

أوّل مَن اتّخذ أنفاً مِن المعدن ، هو عَرْفَجَة (٥) بن أسعد ، فقد أُصيب بأنفه في وقعة يوم الكُلاب (٦) ، وقد صنَع له أنفاً مِن وَرِق (٧) – أي مِن فضّة – فَصَدُوَ وتَعَفّن أنفه ، فأمره الرسول (ص) أن يتّخذ أنفاً مِن ذهب (٨) ، لأنّ الذهب لا يصدأ (٩) .

---

(٤) « الشعر والشعراء » (ص ٢٧٣–٢٧٤ ، تحقيق : مصطفى السقا . القاهرة ١٩٣٢) .

(٥) حديث « عرفجة » هذا ، في « الجامع الصحيح ، وهو سنن الترمذي » .

(٦) كلاب (وزان غراب): اسم لماء بين الكوفة والبصرة . وبه يومان مشهوران من حروب العرب . أنظر : « معجم البلدان » [٤ : ٢٩٣–٢٩٦] . وسمي « الكلاب » لما لاقوا فيه من الشر .

(٧) حسب بعض من نوه بهذا الموضوع ، انهاتخذ له أنفاً من ورق – أي من الكاغد – وهذا وهم . أنظر : (مجلة « دار السلام » ٢ [بغداد – ١٤ ك١ ١٩١٩] مج ٢ ، ع ٢٥ ؛ ص ٥٠٦–٥٠٧) .

(٨) التحلية بالذهب حرام ، إلا في اتخاذ أنف أو سن ، فيجوز للحاجة . وورد أيضاً أنه يحل استعمال الذهب في ثلاث : السن والمصحف والسيف . راجع : « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » للهيثمي – ت ٨٠٧ هـ – : (٥: ١٥٠ ، ط . الهند ١٣٠٨ هـ) ، و« الفقه على المذاهب الأربعة » (٢ : ١٤–١٧) .

(٩) أحمد بن حنبل – ت ٢٤١ هـ – : « المسند » (٥ : ٢٣ ، المط الميمنية – القاهرة ١٣١٣ هـ) ؛ أبو داود الطيالسي – ت ٢٠٤ هـ – : « مسند الطيالسي » (حديث رقم=

الأسنان المُصْطَعَنة . شَدّ الأسنان بالذهب (١٠)

تتبوأ الأسنان الصدارة في ميدان تركيب الأعضاء المُصْطَنَعة للانسان . ولعلّ أبْعد الأخبار عهداً في هذا الشأن ، يرتقي الى فجر الإسلام . فقد ذكر غير واحدٍ مِن المؤرّخين الذين تناولوا ترجمة الخليفة عثمان بن عفّان (ت ٣٥ هـ = ٦٥٦ م) أنّ أسنانه كانت مشدودة بالذهب (١١) .

وقال غيرهم ، إنّه حينما كبر وتقدّم في السنّ وضع له سنّاً مِن الذهب.

= ١٢٥٨) ؛ ابن سعد – ت ٢٣٠ هـ – : « كتاب الطبقات الكبير » (مج ٧ ، كراسة ١ ، ص ٣٠ ، تحقيق جماعة من المستشرقين) ؛ الترمذي : محمد بن عيسى – ت ٢٧٩ هـ – « الجامع الصحيح : وهو سنن الترمذي » : (الفصل الخاص باللباس ، في الباب الثلاثين ، مج ٧ ، ص ٢٦٩ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر . القاهرة ١٩٣٧) ، عبدالحي الكتاني : « التراتيب الإدارية » (٢ : ٦٥–٦٦ ، الرباط ١٣٤٩ هـ) .

(١٠) قال الزهراوي : أبو القاسم خلف بن عباس –ت ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م – ، ما هذا نصه : « واعلم أيضاً أن الأسنان قد تتقلقل وتتحرك ، ويخاف عليها السقوط عند شدة المضغ ، والطريق في مسكها أن تكمد بالأدوية القابضة كبزر الورد والآس والعذبة وانقرض وقشر الرمان وغير ذلك ، فإن لم يفد ذلك فتؤخذ شريط فضة أو ذهب – والذهب أجود – وتشد به ويمسك المتحرك منها بغير المتحرك ، ويشد الربط شداً قوياً ، ثم يقطع طرف الشريط الفاضل. وقد يتخذ سن من عظم أو من عاج ، ويركز عوض سن قد سقطت ، ويشد بالشريط المذكور على الصورة المذكورة . والله أعلم » : « التصريف لمن عجز عن التأليف » (مخطوطة اكسفرد) . وراجع : الطبرسي : الحسن –ت ٥٤٨ هـ –: « مكارم الأخلاق ومعالم الأعلاق » (ص ١٠٨ ، ط . ايران : تشبيك الأسنان بالذهب) .

(١١) أحمد بن أبي يعقوب – ت ٢٨٤ هـ – : « تاريخ اليعقوبي » : (٢ : ٢٠٥ ، تحقيق هوتسما – ليدن ١٨٨٣) ، « مسند أحمد بن حنبل » : (١ : ٧٣) ، « طبقات ابن سعد » : (٣ : ٥٨) ، ابن عبد ربه – ت ٣٢٧ هـ –: « العقد الفريد » : (٤ : ٢٨٤ ، تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الأبياري . القاهرة ١٩٦٧) ، المسعودي – ت ٣٤٦ هـ –: « التنبيه والإشراف » (ص ٢٩٢–٢٩٣ ، تحقيق : دي غويه . ليدن ١٨٩٣) ، عبدالفتاح عبادة : « أغرب صفحات التاريخ الإسلامي : العرب وأسنان الذهب » : (مجلة « الهلال » ٢٧ [القاهرة – ك٢ ١٩١٩] ج٤ ، ص ٣١٣) .

وذَكَر ابن حجر (١٢) ، انّ عبدالله بن عبدالله ابن أُبَيّ ، فَقَد في معركة أُحد ، إحدى رباعياته ، فنصحه رسول الله بأن يعوّضها بثنيّة من ذهب .

وكان عبدالملك بن مروان ـ ت ٨٦هـ = ٧٠٥ م ـ ، مِن أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، مفتوح الفمّ ، مشباك الأسنان بالذهب . وقد أجاب سائله يوماً : انّ الذي أحوجني الى شدّ ثناياي بالذهب ، قِراع المنابر . قال أبو الحسن المدائني : لمّا شَدّ عبد الملك أسنانه بالذهب قال : لولا المنابر والنساء ما باليت متى سَقطت (١٣) .

يعني انّ مِن مستلزمات الخطيب أن يكون فصيح النطق ، بَيِّنَ الألفاظ وإنّ فَقْد مُقَدّم الأسنان يذهب بالنطق الفَحْل ويُوهِن قيمةَ ألفاظِ الخطيب التي يريد بها التأثير على السامع (١٤) .

وكان لعبدالملك أيضاً سِنٌ سوداء يخفيها عن الناس ، فَقلَعها وجَعَل مكانَها سِنّاً ذهباً . ودليل ذلك انّه عندما دخلت عليه ليلى الأخيلية ، وقد أَسَنّت ، قال لها : ما رأى توبة فيكِ حتّى أَحبّكِ وعشقكِ ؟ قالت له : رأى فيَّ ما رأى الناس فيكَ حين وَلّوكَ . فضحِكَ حتى بَدَت له سِنٌ سوداء كان يخفيها (١٥) .

واخبر الرواة ان موسى بن طلحَة بن عُبَيْد الله التَيْمِيّ ـ المتوفّى في الكوفة سنة ١٠٤ هـ = ٧٢٢ م ـ ، شَدّ أسنانه بالذهب .

(١٢) « لسان الميزان » (٣ : ٢٢٠ ، ط . حيدر آباد ١٣٣٠ هـ) .

(١٣) الزمخشري : « ربيع الأبرار » (٢ : ٤٢١ ، تحقيق : د. سليم النعيمي . بغداد ١٩٨٢) .

(١٤) أبو رزق : عبد الرؤوف النابلسي : « ما لا يعلمه الناس من الأوائل العربية » (ص ٩٠ ، ط٣ ، القدس) .

(١٥) الجاحظ ـ ت ٢٥٥ هـ ـ : « البيان والتبيين » (١ : ٦٠ ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون . القاهرة ١٩٤٨) ، ابن قتيبة الدينوري : « الشعر والشعراء » (ص ١٧٠-١٧١) ، ابن الفوطي ـ ت ٧٢٣ هـ ـ : « تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب » (كتاب اللام والميم ، ص ٨٦٧) .

ونظيره أبو عمرو بن العلاء - ت ١٥٤ هـ = ٧٧٠م - ، مِن أعلام النحويين في البصرة ، كانت أسنانه الأمامية مكسوّة بالذهب [١٦] .

وعُرِف في بغداد، رجلٌ يقال له أبو مُسْلِم مُعاذ الهرّاء النحوي الكوفي. كان يبيع الثياب الهروية ، فنُسِب إليها . كان مِن أعيان النحاة . وعنه أخذ الكسائي النحو [١٧] . توفّي ببغداد سنة (١٨٧ هـ = ٨٠٢ م) .

قال ابن خلّكان : « كان في عصره مشهوراً بالعمر الطويل . وكان له أولاد وأولاد أولاد فمات الكلّ وهو باق . وقد عاش مئة وخمسين سنة . قال عثمان بن أبي شيبة: رأيتُ مُعاذ بن مسلم الهرّاء، وقد شدّ أسنانه مِن الكبر» [١٨].

وكان الحسن بن عليّ بن شبيب المعروف بالمعمري ، مِن علماء بغداد . تولّى القضاء في البصرة زمناً . توفّي ببغداد سنة (٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م)، شدّ أسنانه بالذهب ، وقد عمّر ، فبلغ اثنتين وثمانين سنة [١٩] .

وروى أحمد بن حنبل عن حماد بن أبي سليمان الكوفي، انّه قال : إنّه رأى المغيرة بن عبدالله ، وقد شدّ أسنانه بالذهب [٢٠] .

(١٦) المعلوف : عيسى اسكندر - ت ١٩٥٦ م -: « تاريخ الطب عند العرب » (ص ٥٠-٥١ ، دمشق ١٩٢٥) ، أوتوشبيس : « طب الأسنان عند العرب » - : ترجمه عن الألمانية : حسين مؤنس « صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد » (المجلد الرابع عشر - مدريد ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ص ١٩٩-٢٣٠ ، المراجعة ص ٢٢١) ،

B. Sellheim, Gelebrte Und Gelebrsamkeit im
Reicbe De R Chaifenin
Festgabe Fur Paul Kirn
(Frankfurt, 1961 p. 73) .

(١٧) « الكامل في التاريخ » (٦ : ١٨٩ ؛ حوادث سنة ١٨٧ هـ) .

(١٨) « وفيات الأعيان » (٢ : ١٤٥ ؛ ط . بولاق الأولى ١٢٧٥ هـ) ، ميخائيل عواد : « صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي » (ص ١١٧ ؛ بغداد ١٩٨١) .

(١٩) ابن الجوزي - ت ٥٩٧ هـ -: « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » (٦ : ٧٨-٧٩، ط . حيدر آباد ١٣٥٧ هـ) .

(٢٠) « مسند أحمد بن حنبل » (٥ : ٢٣) ، و « طب الأسنان عند العرب » (ص ٢٢٢) .

الشَعر المُصْطَنَع :

عُرِف عن أبي الفرج الأصفهاني ، صاحب كتاب « الأغاني » انّه يتناول في مؤلّفاته الكثير مِن المُلَح والطُرَف . وها هو ذا ، يذكر لنا خبراً طريفاً بشأن الشَعر المُصْطَنع ، خلال كلامه على جميلة [٢١] سيِّدة الغناء . قال : قال أبو عبدالله : جلست جميلة يوماً و ابست بُرْنُساً طويلاً ، وألْبَسَت مَن كان عندها برانس دون ذلك ، وكان في القوم ابن سُرَيْج ، وكان قبيح الصَّلَع قد اتّخذ وَفْرَة [٢٢] شعر يضعها على رأسه ... ، ثمّ دعَت بثياب مُصَبّغة ووَفرة شَعر مثل وَفْرَة ابن سُرَيْج ، فوَضَعَتْها على رأسها ، ودَعَت للقوم بمثل ذلك ، فلبِسوا ، . . . » [٢٣]

وقال أبو الفرج الأصفهاني ، في موطن آخر : « جَلَست جميلة يوماً للوِفادة عليها ، وجعلت على رؤوس جواريها شُعوراً مُسْدَلَة كالعناقيد ، الى أعجازهنّ ، وألبستهنّ أنواع الثياب المصبّغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان . . . ». [٢٤]

اللحية المُصْطَنعة :

في المصادر العربية القديمة ، أخبار وحكايات بشأن اللحى ، تجمع بين الطرافة والغرابة ، والعناية بها كأنّها رمز الحكمة . وقد صنّف غير واحدٍ مِن العلماء والكُتّاب القدامى والمعاصرين ، رسائل في اللحية [٢٥] .

---

(٢١) هي جميلة مولاة بني سليم ، ثم مولاة بطن منهم يقال لهم بنو بهز . وهي أصل من أصول الغناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية والشماسيتان خليدة وربيحة.
كانت جميلة أعلم خلق الله بالغناء ، وكان معبد يقول : أصل الغناء جميلة وفرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين : « الأغاني » (٨ : ١٨٦ ؛ دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٣٥) .

(٢٢) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس ، أو ما سال على الأذنين منه .

(٢٣) و (٢٤) « الأغاني » (٨ : ٢٢٦–٢٢٨) .

(٢٥) منها : « كتاب طوال اللحى »: لأبي العنبس محمد بن اسحاق بن ابراهيم الصيمري=

وما يُعْنينا في هذا المقام ، هو الكلام على اللحية المُصْطَنَعة .

جاء في أخبار سنة (٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م) انّ « فيها ظهر في دار الخليفة المعتضد بالله ، شخصٌ في يده سيف مسلول ، فقصده بعض الخدّام ، فضربه بالسيف فجرحه واختفى في البستان ، فطُلِبَ فلم يوجد له أثر ، فعظُم ذلك على المعتضد واحترز على نفسه وساءت الظنون فيه ، فقيل هو مِن الجنّ ، وقيل غير ذلك . وأقام الشخص يظهر مراراً ثم يختفي ، ولم يظهر خبره حتّى مات المعتضد والمكتفي ، فإذا هو خادم كان يميل الى بعض الجواري التي في الدور . وكانت عادة المعتضد انّه مَن بلَغ الحُلُم مِن الخدّام ، منعه مِن الدخول الى الحُرَم . وكان خارج دُور الحُرَم بستان كبير ، فاتّخذ هذا الخادم لحية بيضاء ، وبقي تارة يظهر في صورة راهب ، وتارة يظهر بزيّ جنديّ بيده سيف . واتّخذ عدّة لحىً مختلفة الهيئات والألوان ، فإذا ظهر خرجت الجارية مع الجواري لتراه ، فيخلو بها بين الشجر ، فإذا طُلِب دخل بين الشجر ونزع اللحية والبُرْنُس ونحو ذلك ، وخبأها وترك السيف في يده مسلولاً كأنّه مِن جملة الطالبين لذلك الشخص . وبقي كذلك إلى أن وَلِيَ المقتدر الخلافة ، وأُخرِج الخادم الى طَرَسوس[٢٦] فتحدّثت الجارية بحديثه بعد ذلك »[٢٧] .

وكان بعض المحدّثين لا يقبل في مجلسه مَن لم يكن ملتحياً ، خوفاً مِن قصص الغرام فيما يظهر ، ويُذكر أنّ صبياً كان شديد الرغبة في سماع الحديث ،

= (ت : ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م) ، « رسالة المنية في تحقيق الشارب واللحية » : للشيخ محمد رضا الطبسي (المط العلمية - النجف ١٣٧٢ هـ) ، « ذكرى ذوي النهى في حرمة حلق اللحية » ؛ للسيد حسن الصدر (بغداد ١٣٤٣ هـ) ، « إرشاد أهل الحجى في حرمة حلق اللحى » : للشيخ محمد حسن كبة (ت : ١٩١٤ م) : (بغداد ١٣٦٨ هـ) .

(٢٦) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.

(٢٧) ابن تغري بردي - ت ٨٧٤ هـ - : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » (٣ : ١١٤ ؛ دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٣٢) ، ابن كثير - ت ٧٧٤ هـ - : « البداية والنهاية في التاريخ » (١١ : ٧٧ ، القاهرة ١٩٣٢) .

ومُنع مِن ذلك ، فاتّخذ لنفسه لحية مُصْطَنَعة (٢٨) .

وذَكَر القاضي المُحَسِّن التنوخي — ت ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م — ، خبراً يجمع بين الطبّ والذكاء والدهاء والحيلة ، جاء فيه : « حدّثنا أبو القاسم الجهني ، قال : إنّ حظية لبعض الخلفاء — أظنّه الرشيد — قامت لتتَمَطّى ، فلمّا تَمَطّت ، جاءت لتردّ يديها فلم تقدر ، وبقيتا جافتين ، فصاحت ، وآلمها ذلك ، وبلغ الخليفة ، فدخل ، وشاهد مِن أمرها ما أقلقه ، وشاور الأطباء ، فكلٌ قال شيئاً ، واستعمله ، فلم ينجح . وبقيت الجارية على تلك الصورة أياماً ، والخليفة قاق بها . فجاءه أحد الأطباء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا دواء لها ، إلاّ أن يدخل إليها رجلٌ غريبٌ ، فيخلو بها ، ويمرّخها مروخاً يعرفه ، فأجابه الخليفة الى ذلك ، طلباً لعافيتها .

فاحضر الطبيب رجلا واخرج من كُمّه دهناً ، وقال: أريد أن تأمر يا أمير المؤمنين بتعريتها ، حتّى أمرخ جميع أعضائها بهذا الدهن ، فشَقّ ذلك عليه ، ثمّ أمر أن يفعل ذلك ، ووضع في نفسه قتل الرجل ، وقال للخادم : خذه ، فأدخله عليها ، بعد أن تعرّيها ، فعُرّيت الجارية ، وأُقيمت . فلمّا دخل الرجل ، وقرب منها ، سعى إليها ، وأومأ الى (ف) ليمسّه ، فغَطّت الجارية (ف) بيدها ، واشدّة ما داخلها مِن الحياء والجزع ، حمى بدنها ، بانتشار الحرارة الغريزية ، فعاونتها على ما أرادت مِن تغطية (ف) واستعمال يدها في ذلك . فلمّا غَطّت (ف) ، قال لها الرجل : قد برئتِ ، فلا تحركي يديكِ . فأخذه الخادم ، وجاء به الى الرشيد ، وأخبره الخبر . فقال له الرشيد : كيف نعمل بمن شاهد (ف) حرمتنا ؟ ، فجذب الطبيب بيده لحية الرجل ، فاذا هي ملتصقة ،

---

(٢٨) متز (آدم) — ت ١٩١٧ م —: « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » (الترجمة العربية ١ : ٣٠٢ ؛ القاهرة ١٩٤٠) نقلا عن :
(Wustenfelld, Schafiiten, Aggw 37, Nr. 88).

فانفصلت ، فإذا الشخص جارية . وقال : يا أمير المؤمنين ، ماكنتُ لأبدي حرمتكَ للرجال ، ولكن خشيتُ أن أكشف لكَ الخبر ، فيتّصل بالجارية ، فتبطل الحيلة ، لأنّي أردتُ أن أدخل الى قلبها فزعاً شديداً ، يحمي طبعها ، ويقودها الى الحمل على يديها ، وتحريكها ، وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك ، فلم يقع غير هذا ، فأخبرتكَ به . فأجزل الخليفة جائزته ، وصرفه ».[29]

(بغـــداد) ميخائيل عواد

* * *

(٢٩) « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » (٧ : ٢٧٣ - ٢٧٥ ؛ تحقيق : عبود الشالجي . بيروت ١٩٧٣) ، ابن الجوزي : « الأذكياء » (ص ١٧٥ ؛ ط . بيروت) ، القفطي - ت ٦٤٦ هـ - : « تاريخ الحكماء = إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ص ١٣٤-١٣٥ ؛ تحقيق : ليبرت . ليبسك ١٩٠٣) : وقد وردت فيه هذه القصة باختصار ، وجاء فيها أن الطبيب المعالج كان جبرائيل بن بختيشوع وان الرشيد وصله بعد أن عوفيت الجارية بخمسمائة ألف درهم .

أيّوبُ الأبرَش الرَّهاويّ

(القرن ٣هـ — ٩ م)

الدكتور يوسف حبّي

عضو المجمع العلمي العراقي

ورئيس تحرير مجلة بين النهرين

أيوب الابرش او أيوب الرهاوي عالم جايل من صنف أولئك الذين لم تحصل لهم شهرة واسعة هم أهل لها ، فقد كان حقاً من الاساطين التي قام عليها صرح حضارة عربية زاهرة في القرنين الثاني والثالث للهجرة — الثامن والتاسع للميلاد وفيما تلته من عصور .

حياته وعصره :

ورد ذكره في المصادر السريانية والعربية باسم (ܐܝܘܒ) (أيوب) ، واختلف المؤلفون ، القدامى والمحدثون ، حول شخصيته ، فجاء خبره لدى المؤرخين العرب تحت اسم (ايوب الرهاوي) تارة ، واخرى تحت اسم (ايوب الابرش) . وجمع بعضهم الاسمين في شخص واحد ، بينما ميّز غيرهم ذلك ، فاعتبروا أيوب الرهاوي شخصاً ، وأيوب الابرش شخصاً آخر ، ولا بدّ من تفصيل الامر ليتسنّى للمعنيين الوقوف على بيّنة الامر ، فيحسموا معنا قضية نظنها واحدة من عداد جماة قضايا حجبت شمس علم أيوب وراء غيوم ملبّدة ، فكان من المنسيين المهملين ، بينما يظل فضله كبيراً .

يذكره حنين بن اسحق (المتوفى سنة ٨٧٣م) ٣٧ مرة في رسالته الى علي بن يحيى (في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم) (١)، ويتعرض للجهد العلمي الكبير الذي بذله أيوب في ترجمة كتب جالينوس ، ويقول صريحاً انه (أيوب الرهاوي المعروف بالابرش (٢) .

اما ابن النديم فيضعه في جملة « النقلة من اللغات الى اللسان العربي » ، ويسمّيه « أيوب الرهاوي » (٣)

لكن ابن ابي اصيبعة هذه المرة مَن أوقع المؤلفين في الارتباك والحيرة ، فهو يعقد كلمة قصيرة لايوب « المعروف بالابرش » ، وذلك في « طبقات الاطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس » (٤) ، وكلمة متوسطة الحجم لابراهيم بن ايوب الابرش طبيب اسمعيل اخي المعتز ، والمعتز بالله ، ووالدته قبيحة (٥) ، ثم يذكره في باب « طبقات الاطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم ، ويسميه هنا،

(١) قام بطبع رسالة حنين بن اسحق الى علي بن يحيى (في ذكر ماترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض مالم يترجم) العلامة برجشتراسر عام ١٩٢٥ ، وقد أعطى لكل عنوان كتاب رقماً بحسب الترتيب الابجدي ، سوف نذكره بالاضافة الى ذكر الصفحات . ثم قام د. عبدالرحمن بدوي مؤخراً باعادة نشر هذه الرسالة دون ترقيم في (دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٤٧-١٧٩ ، وسنشير الى هذه الطبعة ايضاً . اما طبعة برجشتراسر فتعرف أصلا بهذا العنوان :

Hunain b. Ishaq, Uber die syrischen und arabischen Galen — Ubersetzungen, zum ersten Mal Herausgegebn und ubersetzt von G. Bergstrasser, Leipzig 1925.

(٢) انظر الرقم آ ص ٣ من رسالة حنين المذكورة في الهامش السابق ، طبعة برجشترا سر ، و ص ١٥٠ طبعة بدوي .

(٣) الفهرست لابن النديم ، ط رضا تجدد ، ص ٣٠٥ .

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي اصيبعة ، ط د . نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٤١ .

(٥) عيون الانباء لابن أبي اصيبعة ، ص ٢٤١ .

ايضاً « أيوب المعروف بالابرش»(٦). لكنه يذكر بعد ذلك بقليل« ايوب الرهاوي » ويقول ما نصه : « ليس هو أيوب الابرش المذكور أولا » (٧) .

وعلى الرغم من اننا نجلّ ابن ابي اصيبعة ونعتبر سفره النفيس في تاريخ الطب والاطباء من أوسع ما سجله القدامى في هذا الباب ، الا اننا لا نوافقه هذه المرة على تمييزه أيوب الرهاوي عن أيوب الأبرش ، فهو شخص واحد ، وذلك استناداً الى شهادة مَن هم أقدم منه عهدا ، ولا سيما حنين بن اسحق الذي عاش في فترة قريبة جدا من فترة ايوب ، بل عاصره . هذا بالاضافة الى شهادات آخرين .

ويتبدد الشك فنقنع بتأكيد حنين ان ايوب الرهاوي وأيوب الابرش شخص واحد ، من ان ابي اصيبعة نفسه يجعل ابراهيم بن ايوب الابرش معاصرا للخليفة العباسي المعتز بالله (٨٦٦ — ٨٦٩ م) ، ويعني ذلك أنه معاصر لحنين بن اسحق لذا قال اولمان بان وفاة ايوب الرهاوي بعد سنة ٨٣٢ م ، مستشهداً في ذلك بابن المطران (٨) ، ويعتبر سيزكين علمنا هذا ممن عاشوا في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة — التاسع للميلاد (٩) وكان منكنا قد اقترح سنة ٧٦٠ لولادته ، كما يذكر انه حادثة جرت مع المأمون أفادنا بها ياقوت الحموي في معجم الأدباء ، وذلك سنة ٨٣٢ ، الامر الذي يؤكد بان وفاته ليست قبل التاريخ الاخير (١٠) اما لكليرك فكان قد قال بوفاة أيوب سنة ٧١٠ م (١١) ، لكنه تاريخ لا

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .
(٧) المصدر عينه ، ص ٢٨١ .
(٨) Manfred Ullmann, Die Medizin im Islam, Leiden/Koln 1970, p. 101.
(٩) F. Sezgin, Geschichte des Arabischen Schrifttums, III, Leiden 1970, p. 230.
(١٠) ص ١٩ من مقدمة منكنا لكتاب الكنوز
Book of Treausrures by Job of Edessa, Syriac Text edited and translated with a critical apparatus by A. Mingana, Cambridge (W. Heffer and Sons Limited) 1935, p. XIX.
(١١) Lucien Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe, t. I, Paris 1867 (Rabat 1980), p. 174.

يستقيم الا اذا ميزنا بين ايوب الرهاوي وايوب الابرش ، الكننا ميالون الى جمع الاثنين في شخص واحد ، كما أسلفنا .

فتكون ولادة أيوب الرهاوي في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد ، ووفاته في النصف الاول من القرن التاسع . يتفق ذلك مع قول ابن العبري انه اشتهر في ايام البطريرك طيمثاوس الاول (٧٨٠ – ٨٢٣ م) (١٢ . وقد قال ليفن انه طبيب من أطباء الخليفة المأمون ، وانه كتب موسوعته الفلسفية العلمية في أوائل القرن التاسع ، او في أواسطه ، مستندا في ذلك الى استنتاجات بينس (١٣) . وقد حدا الامر بفايزر ان يضع سنة ولادة ايوب وسنة وفاته بكل بساطة على النحو التالي : ٧٦٩ – ٨٣٥ (١٤) .

وأيوب معاصر لجبريل (جبرائيل) بن بختيشوع ، اذ يذكر حنين انه ترجم لجبريل مقالات من كتاب النبض وعلاج التشريح (١٥) ، كما انه معاصر لابنه بختيشوع فقد ترجم له كتاب جالينوس في المرة السوداء (١٦). وهو قبل حنين بقليل كما يتضح من كل ما أوردنا من بيّنات .

ثقافته :

لا ندري أين تلقّى أيوب العلم ، لا سيما الطب والفلسفة . الكن يبدو بان مدرسته الاولى تلك الرقعة التي كانت يوما ما محطّ أنظار المتعامين ومركز اشعاع

(١٢) التاريخ الكنسي لابن العبري ، ج٢ ، ص ١٨١ (بالسريانية)

(١٣) Bernhard Lewin, Job d'Edesse et son Livre des Trésors, Orientalia Suecana 6 (1958, p. 21 ; S. Pines, Rev. des études juives 1938, p. 145.

(١٤) U. Weiser, Das Buch uber das Geheimnis der Schopfung von Ps. Apollonios von Tyana, Berlin 1980, p. 55.

(١٥) رسالة حنين (الهامش ١) ، رقم يو ص ١٥ ، ورقم كا ص ٢٠ .

(١٦) رسالة حنين رقم سد ص ٣٢ .

من المراكز الثقافية المرموقة، نعني بها الرها (اورفه) ، ومنها اتخذ عالمنا كنيته (١٧)

ومما لا ريب فيه ايضاً ان ايوب أكمل تعليمه . أو مارس علمه وعلّم وألّف على الاقل ، في عاصمة الحضارة عهد ذاك ، بغداد مدينة الرشيد والمأمون والعباسيين . ولعله انتقل اليها بانتقال الخلافة العربية الإسلامية من سوريا الى العراق وتشييد بغداد عام ٧٦٢ م ، واستقطاب هذه العاصمة الجديدة العديد من رجال العلم والادب والحرف ، نظراً لتشجيع الخلفاء الحركة الثقافية بشكل منقطع النظير ، وعلى رأسهم الرشيد والمأمون . فكان أيوب واحداً ممن احتضنتهم الحركة الفكرية التي نشطت ببغداد في عصر الترجمة والحضارة ، شأنه في ذلك شأن آل بختيشوع وآل ماسويه ، وآل حنين ، وغيرهم كثيرين من ناطقين بالسريانية كانوا ضليعين باليونانية والسريانية علاوة على العربية ، ويعملون يداً بيد مع الكثيرين من شتى الملل والنحل ، في المدارس وبيوت الحكمة والبيمارستانات والقصور (١٨) .

كان أيوب طبيباً ومترجماً . ولا يبدو انه كان طبيباً ماهرا ، اذ لا يرد ذكره في جملة الاطباء الذين اشتهروا بهذه الصناعة ، ويكتفي ابن ابي اصيبعة بالقول انه «كان له نظر في صناعة الطب»(١٩) . ولعلّ أمره لم يشتهر كثيراً لأنه لم يكن طبيب بلاط .

(١٧) بشأن الرها ومدرستها انظر :

R. Duval, Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse jusqu'à la première Croisade, Journal Asiatique, ser. VIII, tome XVIII, 1891 ; E. R. Hayes, l'Ecole d'Edesse, Paris 1930 ; J. B. Segal, Edessa, Oxford 1970 etc.

(١٨) للاطلاع على شيء ولو يسير من ذلك راجع : دي لاسي اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ترجمة متى بيثون ويحيى الثعالبي، بغداد ١٩٥٨ . الشحات السيد زغلول ، السريان والحضارة الاسلامية ، الاسكندرية ١٩٧٥ . رشيد حميد حسن الجميلي ، حركة الترجمة في المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، طرابلس ١٩٨٢ .

(١٩) عيون الانباء ، ص ٢٤١ . وقد يبالغ صاحب ديباجة (كتاب الكنوز) اذ ينعته بلقب « رئيس اطباء » (طبعة منكنا ، الديباجة السريانية ، ص ٢٩٧) .

لكنه اشتهر بالترجمة ، حتى قال صاحب عيون الانباء ان « ما نقله في آخر عمره يضاهي نقل حنين »(٢٠) ، لكنه كان « متوسط النقل » (٢١) ، وقد « نقل كتبا من مصنفات اليونانيين الى السرياني والى العربي » (٢٢) . ويذكره علي بن رضوان في جملة النقلة من اليونانية الى السريانية والعربية دون ان يوضح الامر (٢٣) .

ولم يترك لنا الدهر أيا من آثار أيوب المترجمة الى العربية ، ولعل سبب ذلك عدم جودة نقوله العربية ، فان ابن ابي اصيبعة يفيدنا بانه « ناقل جيد عالم باللغات ، الا انه بالسريانية خير منه بالعربية » (٢٤) . بل نعرف من رسالة حنين بان نقوله كانت ضعيفة ، ولا يذكر الاخير له سوى نقول من اليونانية الى السريانية ، لكننا نقبل بملاحظة صاحب عيون الانباء بان « ما نقله في آخر عمره فهو أجود مما نقله قبل ذلك » (٢٥) .

وقد قسا حنين على أيوب فوصفه اكثر من مرة بضعيف النقل ورديئه ، ولئن انطبق قوله على النقول ، فأيوب مؤلف له وزنه ، واساوبه جيد . نستدل على ذلك من كتابه الكبير في الطبيعيات الذي سماه (كتاب الكنوز) ، فهو موسوعة فلسفية علمية ذات قيمة يحق لهـا وحدها ان تضـع صاحبها في عداد أكابر العلماء (٢٦) ، يمكننا منها ان نستدل على عاو كعب أيوب وسعة علمه ، كما انها اشارة جديدة الى المستوى الثقافي الرفيع الذي كان سائدا في بغداد في ذلك العصر .

وأيوب ، على ما يبدو ، واحد من العلماء الذين يشكّلون حلقة الوصل

(٢٠) ابن ابي اصيبعة ، ص ٢٨٠ .
(٢١) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .
(٢٢) المصدر عينه .
(٢٣) كتاب النافع في كيفية تعلم صناعة الطب ، مخطوطة جستر بيتي ، رقم ٤٠٢٦ .
(٢٤) عيون الانباء ، ص ٢٨١ .
(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٤١ .
(٢٦) انظر مفصل هذه الموسوعة الضخمة في الفقرة الخاصة بذلك .

بين الطب القديم الذي عاش أبداً في بلادنا وبين الحدث الجديد الذي ولد مع ازدهار العلوم في العصرين الاموي والعباسي وانتقال الكتب اليونانية والسريانية الى العربية .

آثاره :

نأتي أولاً على ذكر نقوله ثم على تآليفه ، ويعود الفضل في تسجيل نقوله الى حنين وذلك في رسالة هذا الاخير الى يحيى بن علي (٢٧) .

نقل أيوب كتب جالينوس الطبية التالية :

١- كتاب جالينوس المسمى (فينكس) وفيه ذكر كتبه ، وهو مقالتان ، تشتمل الاولى على كتبه الطبية ، والثانية على كتب المنطق والفلسفة والبلاغة والنحو ، والفهرس هذا غير كامل ، كما يقول حنين ، ويضيف في رسالته الى يحيى بن علي « وقد سبقني الى ترجمته الى السريانية ، أيوب الرهاوي المعروف بالابرش ... » (٢٨)

٢- كتاب جالينوس في الصناعة الطبية ، مقالة واحدة . يقول حنين : « وقد كان ترجم هذه المقالة ، أعني الصناعة الطبية ، عدة : منهم سرجس الراس عيني قبل ان يقوى في الترجمة ، ومنهم ابن سهدا ، ومنهم أيوب الرهاوي »(٢٩)

٣- كتاب جالينوس في النبض ، وهو في ست عشرة مقالة ، « وقد كان سرجس ترجم من هذا الكتاب الى السريانية سبع مقالات ، من كل واحد من الثلاثة الاجزاء الأول مقالة مقالة . . واربع مقالات الجزء الأخير . . ثم ان ايوب الرهاوي ترجم لجبريل بن بختيشوع المقالات السبع الباقية » (٣٠) .

٤- كتاب جالينوس في علاج التشريح وهو خمس عشرة مقالة وقد كان

(٢٧) سنكتفي بذكر رقم الكتاب كما ورد في طبعة برجشتراسر ، مع الاشارة الى الصفحة في طبعته ، كما في طبعة بدوي (انظر الهامش ١) .

(٢٨) رسالة حنين ، طبعة برجشتراسر رقم آ ، ص٣ ، طبعة بدوي ص ١٥٠ .

(٢٩) برجشتراسر رقم د ، ص ٥-٦ ، بدوي ، ص ١٥١ .

(٣٠) برجشتراسر رقم يو ، ص ١٣-١٥ ، بدوي ١٥٦-١٥٧ .

ترجم هذا الكتاب الى السرياني ايوب الرهاوي لجبريل بن بختيشوع (٣١)

٥- كتاب جالينوس فيما وقع من الاختلاف في التشريح ، وهو مقالتان ، « وكان ترجم هذا الكتاب أيوب الرهاوي فأعياني اصلاحه ، فأعدت ترجمته ليوحنا بن ماسويه الى السريانية » (٣٢)

٦ - كتاب جالينوس في تشريح الحيوان الميت ، وهو مقالة ، واحدة ، « وقد كان أيوب ترجمه ،وأعدت ترجمته مع الكتاب الذي قبله الى السريانية(٣٣)

٧ - كتاب جالينوس في تشريح الحيوان الحي ، وهو مقالتان ، « وترجم أيوب الرهاوي ايضا هذا الكتاب ، وأعدت انا ترجمته مع الكتاب الذي قبله الى السريانية » (٣٤)

٨ - كتاب جالينوس في علم ابقراط بالتشريح ، وهو خمس مقالات ، « وقد كان ترجم هذا الكتاب الى السريانية أيوب ، ثم ترجمته انا مع الكتب التي ذكرتها قبله » (٣٥)

٩ - كتاب جالينوس في تشريح الرحم ، مقالة واحدة صغيرة ، « وقد كان ترجم هذا الكتاب أيوب ، ثم ترجمته انا مع سائر ما ترجمته من كتب التشريح الى السريانية » (٣٦) .

١٠- كتاب جالينوس في تشريح العين ، مقالة واحدة ، ولعله لروفس او لمن هو دونه ، « وقد كان أيوب ترجم هذا الكتاب ، ثم تلخصته بالمساعدة ليوحنا بن ماسويه » (٣٧) .

---

(٣١) برجشتراسر رقم كا ، ص ٢٠ ، بدوي ١٥٩ .
(٣٢) برجشترا سر رقم كد ، ص ٢١ ، بدوي ص ١٦٠ .
(٣٣) برجشترا سر رقم كه ص ٢١ ، بدوي ١٦٠ .
(٣٤) برجشترا سر رقم كو ص ٢١ ، بدوي ص ١٦٠ .
(٣٥) برجشترا سر رقم كز ص ٢١ ، بدوي ص ١٦٠ .
(٣٦) برجشترا سر رقم لا ص ٢٢، بدوي ص ١٦١ .
(٣٧) برجشترا سر رقم له ص ٢٣ ، بدوي ص ١٦١ .

١١- كتاب جالينوس في علل التنفس ، ومقالتان ، « وكان أيوب ترجمه ترجمة لا تفهم ، وترجمه ايضا اصطفن الى العربية لمحمد بن موسى ، وسألني محمد فيه قبل الذي سألني في الكتاب الذي قبله (في حركة الصدر والرئة) ، وأمر اصطفن بمقابلتي ، فأصلحت السرياني بكلام مفهوم مستقيم لا ينكر منه شيء لاني أحببت ان اتخذ نسخة لولدي ، والعربي ايضا كمثله على انه قد كان في الاصل أصلح من السرياني بكثير » (٣٨) .

١٢- كتاب جالينوس في قوى الادوية المسهلة ، وهو مقالة واحدة ، « ترجم هذه المقالة الى السريانية أيوب الرهاوي ، ونسختها عندي باليونانية ، وقد ترجمتها الى السريانية » (٣٩) .

١٣- كتاب جالينوس في آراء ابقراط وافلاطون ، كتبه في عشر مقالات ، « وكان ترجم هذا الكتاب الى السريانية أيوب ، ولم يترجمه الى هذه الغاية أحد غيره .. ثم ترجمته من بعد الى السريانية » (٤٠) .

١٤- كتاب جالينوس في الحركات المعتاصة المجهولة ، مقالة واحدة ، «ترجمها أيوب ... ثم اني ترجمتها بعد الى السريانية » (٤١)

١٥- كتاب جالينوس في سوء المزاج المختلف ، مقالة واحدة ، « وقد ترجمه أيوب .. ثم ترجمته انا الى العربية » (٤٢)

١٦- كتاب جالينوس في الادوية المفردة ، في احدى عشرة مقالة ، « وقد كان ترجم الجزء الاول ، وهو خمس مقالات ، الى السريانية يوسف الخوري ترجمة خبيثة رديئة ، ثم ترجمه بعد أيوب اصلح مما ترجمه

(٣٨) برجشترا سر رقم لز ص ٢٤ ، بدوي ص ١٦٣ .
(٣٩) برجشترا سر رقم مد ص ٢٦ ، بدوي ص ١٦٣ .
(٤٠) برجشترا سر رقم مو ص ٢٦ ، بدوي ص ١٦٣ .
(٤١) برجشترا سر رقم مز ص ٢٧ ، بدوي ص ١٦٣-١٦٤ .
(٤٢) برجشترا سر رقم نب ص ٢٩ ، بدوي ص ١٦٥ .

يوسف ولم يتخلصه على ما ينبغي ، ثم ترجمته الى السريانية لسلمويه»(٤٣)

١٧– كتاب جالينوس في اوقات الامراض ، مقالة واحدة ، « وقد ترجم هذا الكتاب أيوب .. ثم اني ترجمته الى السريانية » (٤٤)

١٨– كتاب جالينوس في الاورام ، مقالة واحدة ، « وأحسب أيوب كان ترجمه » (٤٥)

١٩– كتاب جالينوس في الاسباب البادئة وهي الأول التي تحدث من خارج البدن ، مقالة واحدة ، « وقد ترجمه ايوب » (٤٦)

٢٠– كتاب جالينوس في الاسباب المتصلة بالمرض ، مقالة واحدة ... « وقصتها مثل قصة المقالة التي قبلها » (٤٧) ، وليس واضحاً ما يقصده حنين بقوله هذا .

٢١– كتاب جالينوس في المرة السوداء ، مقالة واحدة ، « وقد كان ترجمه ايوب منذ قريب لبختيشوع بن جبريل » (٤٨)

٢٢– كتاب جالينوس في رداءة التنفس ، ثلاث مقالات ، «وكان ترجمه الى السريانية ايوب ، وقابلت به انا اليوناني وأصلحته لولدي وترجمته انا الى العربية » (٤٩)

٢٣– كتاب جالينوس في نوادر تقدمة المعرفة (لابقراط) ، مقالة واحدة ، « وترجمه الى السريانية ايوب ... ثم اني ترجمته الى السريانية »(٥٠)

٢٤– كتاب جالينوس في الذبول ، مقالة واحدة ، « واظن ان ايوب قد

(٤٣) برجشترا سر رقم نج ص ٢٩–٣٠ ، بدوي ص ١٦٥ .
(٤٤) برجشترا سر رقم نه ص ٣٠ ، بدوي ص ١٦٦ .
(٤٥) برجشترا سر رقم نز ص ٣١ ، بدوي ، ص ١٦٦ .
(٤٦) برجشترا سر رقم نح ص ٣١ ، بدوي ص ١٦٦ .
(٤٧) برجشترا سر رقم نط ص ٣٢ ، بدوي ص ١٦٦ .
(٤٨) برجشترا سر رقم س ص ٣٢ ، بدوي ص ١٦٧ .
(٤٩) برجشترا سر رقم سح ص ٣٤ ، بدوي ص ١٦٨ .
(٥٠) برجشترا سر رقم سط ص ٣٤ ، بدوي ص ١٦٨ .

ترجمه ... ثم اني ترجمته الى السريانية » (٥١)

٢٥- كتاب جالينوس في قوى الاغـذية ، ثلاث مقالات ، « وقـد كان ترجمهسرجس ثم ايوبوترجمته انا لسلمويه في المتقدم مننسخه..»(٥٢)

٢٦- كتاب جالينوس في الترياق الى فيسن ، مقالة واحدة ، « وقد ترجمه ايوب الى السريانية »(٥٣)

٢٧- تفسير جالينوس لكتاب الفصول (لابقراط) ، سبع مقالات ، « وقد كان ترجمه أيوب ترجمة رديئة ورام جبريل بن بختيشوع اصلاحه فزاده فسادا ، فقابلت به اليوناني واصلحته اصلاحا شبيها بالترجمة»(٥٤)

٢٨- تفسير جالينوس لكتاب تدبير الامراض الحادة (لابقراط) ، خمس مقالات ، « وبلغني ان ايوب ترجمه ، وقد ترجمت انا هذا الكتاب كله » (٥٥)

٢٩- تفسير جالينوس لكتاب جراحات الرأس (لابقراط) ، مقالة واحدة ، واحسب ايوب قد ترجمه ، ونسخته اليونانية في كتبي ، وترجمته انا الى السريانية » (٥٦)

٣٠- تفسير جالينوس لكتاب ابيذيميا (أي الامراض الوافدة لابقراط) ، « اما المقالة الاولىمن هذا الكتاب ففسرها (جالينوس) في ثلاث مقالات وترجمها ايوب الى السريانية ، وترجمتها انا الى العربية .. واما المقالة الثانية ففسرها ايضا في ثلاث مقالات ، وترجمها ايوب الى السريانية وترجمتها انا الى العربية .. فاما المقالة السادسة ففسرها في ثمانيمقالات،

(٥١) برجشترا سر رقم عب ص ٣٥ ، بدوي ص ١٦٨ .
(٥٢) برجشترا سر رقم عد ص ٣٥ ، بدوي ص ١٦٩ .
(٥٣) برجشترا سر رقم فج ص ٣٨-٣٩ ، بدوي ص ١٧٠ .
(٥٤) برجشترا سر رقم فح ص ٤٠ ، بدوي ص ١٧١ .
(٥٥) برجشترا سر رقم صب ص ٤١ ، بدوي ص ١٧٢ .
(٥٦) برجشترا سر رقم صد ص ٤١ ، بدوي ص ١٧٢ .

وقد ترجمها ايوب الى السريانية .. » (٥٧)

٣١– كتاب جالينوس في ان الطبيب الفاضل فيلسوف ، مقالة واحدة ، وقد ترجمه ايوب الى السريانية ، ثم ترجمته انا من بعد الى السريانية لولدي والى العربية (٥٨)

٣٢– كتاب جالينوس فيما يعتقده رايا ، مقالة واحدة ، « وقد ترجمه ايوب الى السريانية ، وترجمته الى السريانية لاسحق ابني » (٥٩)

٣٣– كتاب جالينوس في البرهان ، جعله في خمس عشرة مقالة ، « وترجم له ايوب ما وجد . واما انا فلم تستطب نفسي بترجمة شيء منها..» (٦٠)

٣٤– كتاب جالينوس في الاخلاق ، اربع مقالات ، « وقد ترجم هذا الكتاب الى السريانية رجل من الصابئين يقال له منصور بن اثاناس ، وذكروا ان ايوب الرهاوي ايضا ترجمه . واما ما ترجمه منصور فقد رأيته وما رضيته ، واما ما ذكروا ان ايوب ترجمه فما رأيته ، ولست أعلم ايضا هل ترجم شيئا أم لا » (٦١)

٣٥– كتاب جالينوس في ان قوى النفس تابعة لمزاج البدن ، مقالة واحدة ، « وقد كان ترجمه ايوب الى السريانية ، ثم ترجمته انا الى السريانية لسلمويه » (٦٢)

---

(٥٧) برجشترا سر رقم صه ص ٤١–٤٢ ، بدوي ص ١٧٢ . انظر كذلك :
J. H. Wenrich, De auctorum graecorum versionibus et commen-
1842, p. 250 ; A. Baumstark Geschichte der Syrischen
tariis syris, armenis, persicisque commentatio, Lipsiae
Literatur, Bonn 1922, p. 230.

في المرجعين الأخيرين ذكر لكتاب الكنوز ، وكتاب النبض وهما من وضع أو ترجمة ايوب .

(٥٨) برجشتراسر رقم قج ص ٤٤ ، بدوي ص ١٧٤ .

(٥٩) برجشتراسر رقم قيج ص ٤٦ ، بدوي ص ١٧٥ .

(٦٠) برجشتراسر رقم قيه ص ٤٧ ، بدوي ١٧٦ ، فينريش ، ص ٢٥٧ .

(٦١) برجشتراسر رقم قيط ص ٤٩ ، بدوي ١٧٦–١٧٧ .

(٦٢) برجشتراسر رقم قلج ص ٥٠ ، بدوي ص ١٧٧ .

أما ما وضعه أيوب نفسه من مؤلفات فكما يلي :

٣٦ـ كتاب الكنوز بالسريانية (كثاوا دسيماثا) ، موسوعة في الفلسفة والعلوم الطبيعية ، ألفها في بغداد حوالي سنة ٨١٧م ، وقد نشره منكنا في كمبردج بترجمة انكليزية عام ١٩٣٥ . وسنتناول هذا السفر المهم مفصلا .

٣٧ـ كتاب في داء الكلب بالسريانيـــة (كلبا بقرا) ، ورد ذكره في كتاب الكنوز (٦٣) ، وهو محفوظ في مخطوطة كتاب الكنوز عينّها ، منكنا رقم ٥٥٩ (٦٤) وما يزال غير منشور ، ونعمل على تحقيقه ونقله الى العربية لغرض نشره قريباً .

٣٨ـ كتاب في البول بالسريانية (تفشورتا) ورد ذكره لدى ابي الحسن الطبري في رسالته في ذكر القارورة (مخطوطة دانيشكاه ٨ ، ١٠٥ ، رقم ١٥٣٥) (٦٥) . ويذكره أيوب نفسه في كتاب الكنوز) (٦٦) وفي كتابه السابق (٦٧) .

٣٩ـ كتاب في علل الحميّات بالسريانية (عللاثا دشتواثا) يذكره في كتاب الكنوز عدة مرات (٦٨) .

٤٠ـ كتاب في النفس بالسريانية (نفشا) يذكره في كتاب الكنوز ٦٩)

٤١ـ كتاب في علة حدوث الكون من العناصر بالسريانية ، وعد ايوب

---

(٦٣) انظر المقالة ٦ ، الباب ٨ من كتاب الكنوز لايوب .

(٦٤) يصف منكنا المخطوطة اليتيمة هذه في فهارس مخطوطاته، المجلد ١ ، ص ١٠٣٤-١٠٣٩ .
Catalogue of the Mingana, Collection of Manuscripts :

(٦٥) سيزكين ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٦٦) المقالة ٦ ، الباب ٨ من كتاب الكنوز .

(٦٧) ورد ذكره في الكتاب السابق. انظر فهارس مخطوطات منكنا، المجلد١ ، ص١٣٦-١٣٧ ، وسيزكين ٢٣٠-٢٣١ ، ويذكر الأخير بأن لأيوب (كتاب التفسير في البول) و (كتاب البيان لما يجيبه تغير البول) ونظنهما كتاباً واحداً .

(٦٨) المقالة ١ ، الباب ٩ ، والمقالة ٣ ، الباب ٥ ، والمقالة ٤ ، الباب ١٤ .

(٦٩) المقالة ٢ ، الباب ١٤ ، والمقالة ٦ ، الباب ١ والباب ٨ .

بتدبيجه ولا نعلم ان فعل ام لا (٧٠) .

٤٢- كتاب في الحواس الخمس بالسريانية (حمشا رغشي) ورد ذكره في كتاب الكنوز (٧١) .

٤٣- كتاب في الجو اهر بالسريانية (او سياس، كما باليونانية) ورد ذكره في كتاب الكنوز ايضاً (٧٢) .

٤٤- كتاب في الإيمان بالسريانية (هيمانوثا) مذكور في كتاب الكنوز (٧٣)

٤٥- كتاب البراهين العشرة بالسريانية (عسرا سولوكيسمي) وموضوعها لاهوتي ، يذكره أيوب في كتاب الكنوز كذلك (٧٤) .

ولم يبـق لنا الدهر على مصنفات أيوب هذه ما خلا (كتاب الكنوز) المطبوع ، وكتاب(داء الكلب) المخطوط ، غير ان معظم آرائه معروضة ولو بايجاز في كتابه الموسوعي الجدير بالاهتمام .

كتاب الكنوز

يقترح منكنا ، ناشر الكتاب ومترجمه الى الانكليزية ، سنة ٨١٧م كتاريخ لتدبيج هذه الموسوعة الفلسفية العلمية من قبل ايوب الرهاوي او الابرش ، وذلك بسبب تطرق المؤلف الى ذكر اضطرابات وقلاقل حدثت في بغداد أيام وضع هذا السفر ، وذلك في الباب السادس عشر من المقالة الثالثة ، ويشخص هذه الاحداث بالرجوع الى تاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير (٧٥) ، ويدعم رأيه بالقول ان ايوب لا علم له بترجمة المصنفات

(٧٠) وذلك في سياق حديثه في المقالة ٣ ، الباب ٦ بحيث لا يمكننا التعرف على العنوان ولا التاكد من انه كتبه ام لا .

(٧١) المقالة ٣ ، الباب ٢ . (٧٢) المقالة ٣ ، الباب ١٦ .

(٧٣) كما يصفه في كلام وارد في المقالة ٦ ، الباب ٨ .

(٧٤) المقالة ٦ ، الباب ٨ .

(٧٥) مقدمة منكنا لكتاب الكنوز، ص ٠١٤ تاريخ الطبري ١٠ ، ص ٢٣٨-٢٤٣ طبعة القاهرة الكامل لابن الأثير ٦ ، ص ١٠٩-١١٠ طبعة القاهرة ايضاً .

الفلكية لبطليموس ، التي تمت ترجمتها سنة ٨٢٨ . ومهما يكن من أمر ، فان كتاب الكنوز يرجع الى الثلث الاول من القرن التاسع الميلادي .

وكتاب الكنوز موسوعة علمية فلسفية ضخمة ، جاء في ديباجتها انها من وضع فيلسوف الروح والجسد أيوب الرهاوي في معرفة الموجودات وسبب انقسامها الى اجناس وانواع وافراد ، وتكون هذا العالم من العناصر ، وفي طبيعة الافعال . ويقسم المؤلف موسوعته الى ست مقالات طويلة ، والمقالات الى أبواب او فصول .

تتكون المقالة الاولى من ٣٣ باباً وتبحث في عالم العناصر البسيطة والمركبة ، وكل ما هو موجود او يقع تحت الحواس او يدرك بالفكر ، والعناصر الاربعة البسيطة ، والاخلاط ، وتركيب الاجسام ، والعظام والاعصاب والاوردة والشرايين والمرة السوداء والمرة الصفراء ، وحركة الاحياء ، كما في الرأس والارجل والاصابع والشعر والدغدغة .

وتشتمل المقالة الثانية على ٢٣ بابا في الحرارة والبرودة ، والدغدغة والنوم ، والذكور والاناث والشعر واللحى ، والرحم والحيض ، والاسنان ، وطول الاجسام وقصرها وألوانها ، وأنواع الحيوانات واختلافها واجناسها ، واختلاف الانسان عن الحيوان ، وانواع الحيوانات البرية والبحريةوالجوية ، والأذناب والقرون ، واختلاف الغذاء ، والطيور والاسماك .

وتضم المقالة الثالثة ٢٠ بابا في اجناس الطعوم ، والالوان والبصر ، والشم ، والسمع ، والنطق ، والروح ، والتنفس ، واللمس ، والسبب الذي من أجله كانت الحواس خمسا ، واللون والصوت والطعم ، ولم الروائح ليست جواهر ، كما في حاسة الطعوم والروائح والاصوات ، وتفنيد رأي القائلين بنظرية اخرى في الاعراض والجواهر .

وتتألف المقالة الرابعة من ١٨ بابا في المعادن كالذهب والفضة ، والنحاس والحديد والقصدير ، والكبريت والزرنيخ والقير ، والشب ، كما في الجبال والصخور

والسهول ، والبلدان الشمالية والجنوبية ، والعيون والثلج ، وفصول السنة ، وحركة الارض ، والرياح ، والبحار ، والحمامات .

وتحتضن المقالة الخامسة ٢٦ بابا في السحب والامطار ، والثلج والبرد ، والرعد والبرق ، وقوس قزح ، والزوابع والاعاصير ، والصواعق والشهب ، والمجرة ، وهالة الشمس والقمر ، وطبيعة الشمس والكواكب وحدوثها من العناصر خارجا عن عالمنا ، وحركة عالمنا والعالم العلوي ، والابراج الاثني عشر ، والكواكب السيارة السبعة ، ونور الكواكب ، وموقعها ، وحركتها ، وكبر الشمس ، واستمداد القمر نوره من الشمس ، ولون السماء ، وعدم عاقلية الاجسام السماوية .

اما المقالة السادسة والأخيرة ففيها ١١ بابا في الملائكة ومراتبها ، ونهاية العالم ، وتجدد العناصر وتغيرها ، والقيامة وكيفيتها ، وانحلال الجسم الى العناصر ، واختلاف عالمنا هذا عن العالم الآتي ، كما في وجود ملكوت وجحيم ، وعدم وجود نهاية للعالم الآتي ، ولمَ جعل الله حدّاً لعالمنا هــذا بينما لا حدّ للعالم الآخر .

وقــد درس قضية مصــادر هذا الكتاب الموسوعي منكنا بشكل مقتضب في مقدمته (٧٦) ، كما انه يشير احياناً الى بعض كتب ابقراط وجالينوس وارسطو وفردوس الحكمة لعلي بن ربن ، ثم قام بدراسة هذه القضية المهمة كل من ليفين (٧٧) و فايزر (٧٨) .

يستشهد ايوب صراحة بابقراط مرة واحدة ، وبجالينوس مرتين ، ويذكر ارسطو عدة مرات ، وينوّه بعلماء ومفكرين آخرين سبقوه ، ويشن حرباً شعواء على معاصرين تحاملوا — حسبه — على نظرية العناصر الاربعة الثابتة . لكننا نعرف بان أيوب مطلع على كتب ابقراط وجالينوس ، كما يتضح من الكتب التي قام بترجمتها . وهو مطلع بما فيه الكفاية على كتب ارسطو الصحيحة او المنسوبة

(٧٦) مقدمة منكنا ص ٢٤–٢٦ ، كما انه يشير الى بعض المصادر في هوامش بعض الابواب .
(٧٧) انظر الهامش ١٣ .
(٧٨) انظر الهامش ١٤ .

كالآثار العلوية ، والطبيعة ، والعالم ، والنفس ، والشباب والشيخوخة ، والحس والنوم والسهر ، والسماء ، والولادة والزوال ، وما بعد الطبيعة .

ويتفق مؤلفنا عادة مع آراء ارسطو وجالينوس وغيرهما ، كما ينحو منحى خاصا في أمور تتعارض وايمانه بالله الواحد، كما بشأن الهيولى وقدمها، والعناصر السماوية الخمسة ، وتأليه الكواكب ، وأزلية حركة العناصر الاولى ، وطبيعة الأثير . . .

ويرى ليفين – مستندا الى ما قاله بينس (Pines) – مطابقة آراء أيوب لآراء ابراهيم النظّام من المعتزلة (المتوفى حوالي سنة ٨٤٠ م) ، لا سيما فيما يخص خلق العالم ودحضه آراء الفلاسفة اليونان الذين قالوا بقدم العالم . ولاعجب فان ايوب ينوه في الابواب ١٦ – ٢٠ من المقالة الثالثة الى آراء معاصرين له . ويظل ثمه فارق واضح بين الاثنين قائم في ان ايوب يمثل النزعة الافلاطونية المحدثة التي عمّدها مؤمنون مسيحيون ، بينما يمثل ابراهيم النظام جانبا من الفكر الاسلامي المتطور (٧٩)

ويبدو أن ايوب اجتمع بالنظام واتباعه وناقش بعض آرائه مع جماعة المعتزلة دون الرجوع الى كتبهم (٨٠) .

ويأخذ ليفن ايضاً برأي بول كراوس (٨١) القائل بان مواضيع ايوب تنطبق تماما ومواضيع بليناس الحكيم المعروضة في كتابه المنسوب اليه والمعروف بعنوان (سر الخليقة) (٨٢) ، ويقدم كراوس نماذج تبين مدى التطابق الكبير (٨٣) ، ومنها تمييز الذكور عن الاناث (الباب ١٤ من المقالة ٢) .

ويشير ليفن ايضاً الى التوافق الحاصل بين أفكار ايوب وافكار برقلس فى كتابه

(٧٩) ويذكر ليفن تأثر ايوب بباسيليوس الكبير وغريغوريوس النبصي ، ص ٢٣–٢٤ .
(٨٠) المقالة ٢ ، الباب ٨ .
(٨١) Paul Kraus, Jabir ibn Hayyan, 2, p. 40.
(٨٢) Apollonius de Tyana بليناس او ابولونيوس، وكتابه سر الخليقة، نظر الهامش ١٤ .
(٨٣) كراوس ، جابر بن حيان ، ٢ ، ص ٢٧٦ فما بعدها .

(المسائل الطبيعية) ترجمة اسحق بن حنين (٨٤) ، بينما اختلف ايوب عن برقلس فى قضية قدم العالم (٨٥) . ولعل كتاب برقلس هو ما ذكره ابن النديم بعنوان (العشر مسايل) (٨٦) ، ولعل أيوب استعان بترجمة سريانية تسبق العربية .

وايوب كجابر بن حيان يعتمد على كتاب تيميسوس (في طبيعة الانسان) (٨٧) .

وبشأن النوم يتفق رأي ايوب (الباب ٣ من المقالة ٢) مع ما جاء لدى ارسطو في كتابه (في السهر والنوم) ، وبشأن الشعر ونموه في اللحى لدى الذكور (البابان ٥ و ٦ من المقالة ٢) مع ما لدى ارسطو (في طول الحياء وقصرها ، الفصل ١٤) ، وبشأن حركة القلب مع ما قاله جالينوس في كتابه (منافع الاعضاء ، الفصل ٧) ، وبشأن تمييز الذكور عن الاناث (الباب ١٤ من المقالة ٢) مع تعليم ابقراط (٨٨) ، الى غير ذلك من اتفاق آراء وانسجام تعاليم .

ولا غضاضة في ذلك ، فقد كان الكثير من هذ التعاليم والآراء ارثاً حضارياً شائعاً ، ولم يدع ايوب ابتكارها اوتسجيلها للمرة الاولى ، بل نراه على العكس يعيد الى الاذهان بالحاح ذكر من سبقوه من علماء ومفكرين افاضل ، بينما يلوم بعض المتحذلقين ممن خرجوا على تعاليم سائدة لم يكن له ان يرى عكسها يومذاك ، كما يصحح سابقيه فيما يتعارض ومبادئه .

فليس أيوب بناقل وناسخ وجامع وحسب ، انما هو مؤلف بكل ما في هذه

(٨٤) ماجاء في المقالة ١ ، الباب ٦ والباب ٧ ، والمقالة ٢ ، الباب ١ والباب ٢ ، وما جاء في (المسائل الطبيعية) لبرقلس ، ترجمة اسحق بن حنين ، نشر النص .د . عبدالرحمن بدوي ، الافلاطونية المحدثة عند العرب ، الكويت ١٩٧٦ ، ص ٤٣-٤٦ .

(٨٥) بشأن رأي برقلس في قدم العالم ، انظر النص المنشور من قبل بدوي ، الافلاطونية المحدثة عند العرب ، ص ٣٤-٤٢ .

(٨٦) لم يتم بعد تشخيص كتاب برقلس هذا ، فهل هو ما نشره بدوي ، ام يجب البحث عنه فهرست ابن النديم ، اذ ثمة عشرات الكتب في (المسائل) .

(٨٧) كراوس ، ص ٢٧٨ .

(٨٨) Oeuvres complètes d'Hyppocrate, éd. Littré, vol. VIII, p. 478.

الكلمة من معان وابعاد ، لذا كان عمله جهدا شخصيا يستحق عليه كل التقدير ، ولا بد ان يذكر الى الابد في جملة الذين صبّوا تراثا علمياً وفكرياً مبينا في لها وزنها ونفعها .

وقد قال كراوس بان « ايوب صاحب اصالة لا تنكر (٨٩) ، فنحن نرى مؤلفنا يصرح في موضع ما (الباب الثامن من المقالة الثانية) انه لم يقرأ ما سيذكره في أي من الكتب القديمة ، وهو الاول الذي استخدم اسلوباً استدلاليا مبنيا على الظواهر الطبيعية بشأن اصل الكون ، كما بشأن أصل الاجسام (٩٠) ، وتبدو سعة تفكيره ، علاوة على سعة اطلاعه ، من مناقشة الرأي الفاسد القائل ان الحواس والالوان جواهر ، بينما هي حسية أعراض وكذلك من طريقة معالجته الموضوع في الفصول الأخيرة من المقالة الثالثة وتفنيده آراء بعض المتحذلقين ، هذا بالاضافة الى قناعاته بشأن حدوث العالم وقيامة الموتى والعالم الآخر في المقالة الأخيرة .

ولغة ايوب السريانية صعبة ، لكنها بليغة وجميلة ، فقد تتعبك قراءته ، لكنك متى أمعنت القراءة استطبتها ، اذ انها تقرب الى النظم احيانا (٩١)

وقد نقل الرازي في كتاب الحاوي عن أيوب بعربية تؤكد لنا شيئاً من آثار الرهاوي العربية وذلك فى الاجزاء : ١٥/٧٢ ، ١٩/٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٠٧ .

ولا ينبغي ان نغفل ذكر بعض التشويش الحاصل في تنسيق فصول أو أبواب من هذه الموسوعة المحكمة التركيب ككل ، والمفككة احياناً ، او المتضمنة شيئاً من التكرار او النقصان . وهي هنات لا تجيز لنا ان ننقص من قيمة عمل ايوب العظيم هذا ، فهو مفكر وعالم جليل .

---

(٨٩) كراوس ، ص ٢٧٧ ، والمقالة ٢ ، الباب ٨ من كتاب الكنوز لأيوب .

(٩٠) مقدمة منكنا لكتاب الكنوز ، ص ٢٦-٢٧ .

(١٩) ننهض منذ اكثر من سنة ، انا والصديق بهنام دانيال ، بتحقيق كتاب الكنوز هذا ، ونقله الى العربية ، ووضع تعليقات وايضاحات مفيدة وقد قطعنا شوطاً كبيراً في ذلك ، ونأمل أن ندفع به الى الطبع قريباً .

السلوك الطبي للأطباء العرب والمسلمين

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد
مستشفى الأطفال – الموصل – العراق

السلوك الطبي او الادب الطبي – نعني به هنا ما يجب على الطبيب من التزامات اخلاقية في حياته الاجتماعية والعملية مع مرضاه والتزامات مهنية تجاه زملائه من الأطباء . والا لتزامات الأخلاقية في ممارسة الطب هذه نشأت مع نشأة الطب حيث وضعت لها المجتمعات مع مر العصور قوانين جائرة بحق الطبيب ومنها مقبولة ما زال الطبيب يلتزم بها حتى اليوم .

وبغية اعطاء صورة واضحة المعالم عن دور العرب والمسلمين ، ابان نهضتهم في العصور الوسطى ، في ذلك سوف نتكلم عن خمس مسائل تشكل في مجموعها النظام المتميز للسلوك المهني للاطباء العرب والمسلمين .

أولاً – المسؤولية الطبية –

عرف المصريون القدماء المسؤولية الطبية ، وسجلوا شروط ممارسة المهنة في كتبهم ، فكان على الطبيب ممارسة مهنته بموجبها ، اما اذا خالفها فكان جزاؤه الاعدام .

اما الآشوريون فكانوا اقل شدة من غيرهم حيث كان على الطبيب اذا اخطأ او لم يستطع علاج مريض ان يطلب العفو من الآلهة على ذلك بينما كان

البابليون اكثر قسوة منهم على الأطباء حيث يتبين ذلك جلياً في بعض بنود قانون حمورابي .

جاء في البند (٢١٨) « اذا عالج الطبيب جرحاً بليغاً اصيب به رجل — بمبضع معدني — وسبب موته ، واذا شق ورماً بمبضع جراحي معدني وعطل عين الرجل ، تقطع يده »

وجاء في البند (٢١٩) « اذا عالج طبيب عبد رجل من عامة الشعب بمبضع جراحي وسبب موته من الجرح ، عليه ان يعطي سيده عبداً بعبد »

وجاء في البند (٢٢٠) « اذا شق الطبيب الورم — بمبضع معدني جراحي وعطل عين المريض ، يدفع نصف قيمة العين فضة »

وعند الاغريق كان الطبيب يسأل جنائياً في احوال الوفاة التي ترجع الى نقص خطأ غير النقص في كفايته . وجاء في القانون الروماني « اذا كان الموت لا يصح ان ينسب الى الطبيب فانه يجب ان يعاقب على الأخطاء التي يرتكبها نتيجة جهله ، وان من يغشون اولئك الذين يكونون معرضين للخطر ، لا يصح ان يخلّوا من المسؤولية ، بحجة ضعف المعارف البشرية » .

اما في اوربا في العصور المظلمة فقد جاء في القانون الكنسي عند الغوط الشرقيين — اذا مات المريض بسبب عدم عناية الطبيب ، او جهله يسلم الطبيب الى اسرة المريض ويترك لها الخيار بين قتله او اتخاذه رقيقاً . والغوط الغربيون يعدّون الأتعاب التي تعطى للطبيب مقابلة الشفاء فان لم يشف المريض ، اعتبروا العقد غير منفذ ، ولا يسأل الطبيب عن وفاة المريض اذا لم يثبت حصول الأخطاء وفي عهد الصليبيين كانت المحاكم في بيت المقدس ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، تعتبر الطبيب مسئولاً عن جميع اخطائه وجميع اهمالاته فاذا توفي الرقيق بسبب جهل الطبيب فانه يلتزم بدفع ثمنه لسيده ، ويترك المدينة اما اذا كان المجني عليه حراً وكانت المسألة تتعلق بجرح بسيط

او سوء عناية لم يترتب عليه الموت ، تقطع يد الطبيب ولا تدفع اتعابه اما اذا مات المريض فيشنق الطبيب (١) .

هذه القساوة دعت الأطباء في كثير من الاحيان ، ان يحجموا عن التطبيب او يشترطوا شروط عدم المسؤولية ، كما حصل فيما رواه غليوم دى تيبر . من ان الملك اموري الأول من ملوك اورشليم (١١٦٢ – ١١٧٣) اصيب بمرض خطير ، ولكن الأطباء من اهل البلد رفضوا ان يعالجوه فلجأ الى الأطباء الأجانب ، فاشترطوا عليه ان يعدهم بعدم ترتيب اي عقاب عليهم في حال عدم نجاحهم (٢) .

ان هذه القصة تشير الى كون العقوبات التي ذكرناها لم تكن مطبقة بشكل دائم وانما كانت الحد الأقصى لمعاقبة الطبيب .

المسؤولية الطبية في الشريعة الاسلامية – (٣)

ان المسؤولية الطبية لم تكن معروفة في الشريعة الاسلامية فحسب ، بل كان لها فيها من القواعد الدقيقة ما يجعل تنظيمها في جوهره اقرب مايكون الى احدث ما وصلت اليه ارقى الشرائع المدنية في العصر الحديث ، وها هي بعض النصوص الواردة في هذا الصدد – القاعدة الشرعية – ان كل من يزاول عملاً او علماً لا يعرفه يكون مسؤولاً عن الضرر الذي يصيب الغير نتيجة هذه المزاولة وقد جاء في الحديث « من تطبب ولم يكن بالطب معروفاً فاصاب نفساً فما دونها فهو ضامن » ويختلف الأمر من ناحية المسؤولية المدنية ، بين الطبيب الجاهل والطبيب الحاذق ، فعلماء الشريعة ينفون المسؤولية المدنية عن الطبيب الجاهل ، اذا كان

(١) التونجي – عبدالسلام / المسئولية المدنية للطبيب ص ٤٠ (دار المعارف – لبنان ١٩٦٧ .)

(٢) المصدر نفسه نقلا عن :

Fazembat « Andre » : Resparsibi Lite Legele desmedecirs traitarts these, paris - 1903 .

(٣) للمزيد من التفصيل يرجع للمصدر نفسه حيث لخصنا الفقرة التالية عنه بتصرف .

الطبيب المريض يعلم انه جاهل لا علم له ، واذن له بعلاجه رغم ذلك .

اما الطبيب الحاذق ، فلا يسأل عن الضرر الذي يصيب المريض ولو مات المريض من جراء العلاج ، ما دام المريض قد اذن له بعلاجه ولم يقع من الطبيب خطأ في هذا العلاج ، بل كان الضرر او الموت نتيجة امر لا يمكن توقعه او تفاديه . وعلى هذا اتفق الفقهاء على ان الموت اذا جاء نتيجة لفعل واجب مع الاحتياط وعدم التقصير ، لا ضمان فيه

ويمكن القول بأن الطبيب تنتفي مسؤوليته في الشريعة الاسلامية للأسباب التالية —

١ــ اضفاء صفة الوجوب على عمله ــ لأن التطبب فرض عين غير قابل للسقوط في الأماكن التي ليس فيها طبيب ــ فهو اذا يقوم بعمله انما يقوم بواجب ملقى عليه ، وله حرية كاملة في اختيار هذا العمل واختيار الطريقة التي يرى فيها صلاحها للمريض .

٢ــ حسن النية ــ الطبيب اذ يؤدي عمله ، انما يؤديه بحسن النية هذا هو المفروض والمتطلب منه ، فهو بعمله انما يقصد نفع المريض ، لا ضرره . اما اذا كان سيء النية ، او قصد قتل المريض ، فهو في عمله مسؤول عن فعله جنائياً ومدنياً حتى ولو لم يؤد فعله الى الوفاة او الى احداث عاهة .

٣ــ اذن المريض ــ يعتبر اذن المريض موافقة ، وسماحاً للطبيب بأن يأتي الفعل ، والعبرة باذن المريض لا شخصه بالذات بل قد يأذن وليه او وصيه او الحاكم عند عدم وجود الوصي او الولي .

٤ــ اذن ولي الأمر ــ المراد هنا باذن ولي الأمر ، هو السماح للطبيب بمباشرة عمله بصفة عامة ، كاذن وزارة الصحة او النقابة في اجازة الطبيب بالعمل ، ذلك ان الشريعة الاسلامية تشترط في الطبيب ، ان يكون على درجة مهنية من الفهم العلمي .

وان يكون على جانب من الكفاءات تؤهله لأن يباشر التطبيب ويرد معيار

الكفاءات الى ولي الأمر .

اذا توفرت هذه الشروط ، فان الطبيب يعفى من المسؤولية ولو الحق الضرر بالمريض ، لطالما انه لم يكن قاصداً إلا الاصلاح والنفع العام له ، اما اذا انعدم شرط من هذه الشروط عد الفاعل مسؤولاً عن عمله ، ووجب عليه التعويض .

مما لا شك فيه ان القوانين الوضعية تتفق مع الشريعة الاسلامية في اعتبار التطبيق عملاً مباحاً ، كما تتفق مع الشريعة التي تمنع المسؤولية فتستلزم ان يكون الفاعل طبيباً ، وان يأتي الفعل بقصد العلاج وبحسن النية ، وان يعمل طبقاً للأصول الفنية ، وأن يأذن له المريض في الفعل . وتعتبر القوانين الوضعية التطبيب حقاً ، بينما تعتبره الشريعة واجباً ، ولا شك ان نظرية الشريعة افضل لأنها تلزم الطبيب بأن يضع مواهبه في خدمة الجماعة ، كما انها اكثر انسجاماً مع حياتنا الاجتماعية القائمة على التعاون والتكاتف وتسخير كل القوى لخدمة الجماعة .

وهذه الحصانة المحددة المعالم التي تمتع بها الأطباء العرب فيظل الشريعة الاسلامية كانت خير دافع لممارسة مهنة الطب بكل حرية مما دفع الكثيرين الى الابداع دون خوف من عقاب او اضطهاد واوقف الكثيرين من المتطفلين على هذه المهنة من ممارستها . وان ما جاء في كتب الحسبة في الأجزاء الخاصة بالأطباء تظهر الصورة التي كان الأطباء يتعاملون فيها مع مرضاهم ، وحدود مسؤولية الطبيب ، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب معالم القربة في طلب الحسبة لابن الاخوة من جملة ما ذكره (٤) .

« وينبغي للطبيب اذا دخل على المريض ، وسأله عن سبب مرضه وعن ما

(٤) ابن الاخوة – محمد بن احمد القرشي – معالم القربة في احكام الحسبة / تحقيق د . محمد محمود شعبان ، صديق احمد عيسى المطيعي ص ٢٥٥–٢٥٦ .

يجد من الألم ، ثم يرتب قانوناً (ويعني وصفة) من الأشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض ، واذا كان من الغد حضر ونظر الى دائه ونظر الى قارورته (ويعني ادراره) ، وسأل المريض هل تناقص به المرض ام لا . ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال ، ويكتب له نسخة ويسامها لاهله ، وفي اليوم الثالث كذلك ، وفي اليوم الرابع كذلك الى ان يبرأ المريض او يموت ، فان برئ من مرضه اخذ الطبيب اجرته وكرامته ، وان مات حضر اولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عايه النسخ التي كتبها لهم الطبيب ، فان رآها على مقتضى الحكمة ، وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب ، قال هذا قضاء بفروغ اجله وان رأى الأمر بخلاف ذلك ، قال لهم خذوا دية صاحبكم من الطبيب فانه هو الذي قتله بسوء صناعة الطب وتفريطه فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة الى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من اهاه ، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه .

ثانيا — الرقابة الطبية

ان الحرية العظيمة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون لم تكن فوضى بل كانت محددة المعالم كما ذكرنا ، وبغية الالتزام بالاطار العام لممارسة مهنة الطب وضعوا اساس الرقابة الطبية على نحو عصري مما نقوم به اليوم فشرعوا لذلك نظاماً حددوا الأركان التي يجب ان يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي « ١— حفظ الصحة الموجودة . ٢— رد الصحة المفقودة بحسب الامكان .

٣— ازالة العلة او تقليلها بحسب الامكان . ٤— تفويت ادنى المصلحتين لتحصيل اعظمهمـــا » (٥) .

(٥) الكيلاني — د. نجيب / (في رحاب الطب النبوي) (بحث قدم للمؤتمر الثالث للسيرة النبوية — الدوحة ١٤٠٠ هـ .)

واناطوا تطبيق ذلك بالمحتسب في ديوان الحسبة (٦) الذي كان اضافة لواجباته الأخرى في مراقبة مرافق الدولة يقوم بمراقبة الصحة العامة والسلوك المهني للأطباء والصيادلة . ويقوم ايضاً باختبارهم ومنحهم اجازة الممارسة بعد اداء القسم الطبي امامه ، وكان له حق حجب الاجازة ممن يجد منه تقصيراً او عجزاً ، وتحميل المقصر مسؤولية فعلته .

وقد تعرضت كتب الحسبة باسهاب الى كل هذه المراقبة ووسائلها وطرقها الى ان تتوغل في اعماق علم الطب وتفاصيله ومجال مراقبتها اجرائياً ومهنياً واخلاقياً ولعلها قد ضبطت في هذه العناصر التالية (٧) .

١- التعريف بالطبيب وتحديد مسماه علمياً .

٢- ان يترأس الأطباء حكيم مشهور بحكمته كثير الحرمة بالغ التجربة بعد ادائه يميناً قاطعة لا كفارة فيها .

٣- تحديد طريقة امتحان معلومات كل صنف من اصناف الأطباء والمواد العلمية التي يجب ان تتوفر في كل من يجاز ويؤذن له بالطبابة .

٤- ما يجب ان يفعله الطبيب عند مباشرته لمريضه .

٥- اللجوء الى تحكيم رئيس الأطباء في طريقة المعالجة عند حدوث ما يدعو لذلك .

٦- تضمين الطبيب ومسألته قضائياً .

٧- على المحتسب ان يأخذ عهد ابقراط على الطبيب المجاز .

فعلى سبيل المثال - جاء في الحسبة على الأطباء والكحالين والجراحين والمجبرين قول ابن الأخوة (٨) فيما يخص الأطباء و وصناعتهم - « وينبغي

---

(٦) الحسبة - نظام اسلامي شأنه الاشراف على المرافق العامة وتنظيم عقاب المذنبين . وهي وظيفة دينية شبه قضائية تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ابن الاخوة ص ٢٣) .

(٧) بسيس - محمد طيب / قواعد وإداب - مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الطبي الاسلامي / مؤتمر الطب الاسلامي الأول - الكويت ١٤٠١-١٩٨١ .

(٨) ابن الاخوة ص ٢٥٦ .

للمحتسب ان يأخذ عليهم عهد ابقراط الذي اخذه على سائر الأطباء ، ويحلّفهم على ان يعطوا احداً دواءً مراً ولا يركبوا لهسمعاً،ولا يصنعوا له تمائم عند احد العامة ، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل ، وليغضوا من ابصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى،ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار ، ولا يتعرضوا لمـــا ينكر عليهم فيه » .

وكانت مهنة الطب مهنة جليلة لها حرمة يحاسب ممارسوها ان استهانوا بها ، ومن ذلك ما رواه ابن ابي اصيبعة (١٢٦٩ – ١٣٠٣ م) عن احد الأطباء الأجلاء وهو جمال الدين بن ابي الحوافر رئيس الأطباء في مصر زمن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قال « وحدثني بعض اصدقائه قال ، كان يوماً راكباً فرأى في بعض النواحي على مسطبة بياع حمص مسلوق وهو قاعد وقدامه كحال يهودي ، وهو واقف وبيده المكحلة والميل وهو يكحل ذلك البيـــاع فحين رآه على تلك الحـــال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعـــة على رأسه ، وشتمه . وعنـــدما مشى معـــه قال له اذا كنت انت سفلة في نفسك ، اما للصناعة حرمة ، كنت قعدت الى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي بياع حمص،فتاب ان يعود لفعل ذلك الفعل وانصرف»(٩).

ثالثا – صفات الطبيب

من الحقائق الملفتة في مبادئ اخلاقيات وسلوك الطبيب عند العرب والمسلمين اضافة لتحديد مسؤوليته والرقابة عليه وضعهم الصفات الدقيقة الملزمة واللائقة بالطبيب الماهر الحاذق لأنه كما يقول الانطاكي « الطب اشرف العلوم موضوعه البدن الذي هو اشرف الموجودات ، اذ العلوم لا تشرّف الا بمسيس

(٩) ابن ابي اصيبعة – طبقات الاطباء ج٣ ص ١٩٨ . (اصدار دار الفكر – بيروت ١٩٥٦م) .

الحاجة او شرف الموضوع فما ظنك باجتماعهما » (١٠) وكما يقول رشيدالدين علي بن خليفة (مولده ٥٧٩ هـ)« الطبيب مدبر لبدن الانسان من حيث هو مقارن نفسه لا من حيث هو بدن انسان بالقول المطلق . وهذا التركيب من اشرف التراكيب ينبغي ان يكون معانيه من اشرف الناس » (١١) .

وقبل ذكر التفصيلات التي ذكرها الأطباء العرب حول صفات الطبيب لابد من تبيان وجهة النظر الاسلامية حول ذلك (١٢) من المعلوم « بأن الاسلام يهدف الى تكوين الذات الاسلامية منذ الطفولة بحيث يمتزج الخلق الاسلامي مع تكوين الفرد وطباعه والطبيب المسلم الذي يحمل امانة الاسلام اولاً وامانة المحافظة على صحة المسلمين ودفع الضرر عنهم ثانياً اولى الناس ان تكون تربيته اسلامية وسلوكه محمدياً والتزامه بخلق الاسلام جزءاً من طبعـــه يمارسه بلا تكلف في جهره وعلانيته .

هذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها كل الفضائل والأخلاقيات التي اوصى بها القرآن والرسول الكريم والتي لا يتسع المجال لذكر نصوصها هنا،ومنها (الصبر ، الاحسان في العمل ، الكلام الطيب ، الابتسام ، الحياء ، الرحمة ، الرفق ، التواضع ، الصحبة الحسنة) وهناك بعض الجوانب الأخلاقية المعينة تمس عمل الطبيب اكثر من غيره ويلزمه ان يتذكر دائماً حكم الاسلام فيها من ذلك —

١— غض البصر — يقول القرآن الكريم « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم) (سورة النور آية ٣٠) فلا يجوز ان يكون الترخيص بالاطلاع على عورات الناس عند الضرورة مبرراً للتخلي عن

(١٠) الانطاكي — داود / التذكرة في الطب ص ٧ .
(١١) ابن ابي اصيبعة ج ٣ ص ٤١٥ .
(١٢) للمزيد من الاطلاع حول ذلك يراجع بحث (نظرة الاسلام للطب) للدكتور ابراهيم الصياد من ابحاث مؤتمر الطب الاسلامي في الكويت ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

الحياء الواجب على كل مسلم . وعلى الطبيب ألا يطلع إلا على مـــا هـــو ضروري . وان يراعي حرمة الميت كما يراعي حرمة الحي .

٢ـ لا يجوز اخبار المريض بخطورة مرضه ولو كان ميؤوساً من شفائه قال (ص) « اذا دخلتم على المريض فنفسوا له في اجله فان ذلك لا يرد شيئاً ويطيّب نفسه » . (رواه الترمذي وابن ماجة) .

٣ـ وتطبيقاً للقاعدة الشرعية (لا ضرر ولا ضرار) (رواه ابو داود وابن حنبل) فانالطبيب عليه ان يحفظ المريض المصاب بمرض معد ويدعوه الى الاعتكاف لمنع الضرر عن المسلمين ، فعندما علم الرسول (ص) ان مريضاً بالجذام قادم اليه ليبايعه مع المسلمين ارسل اليه ليرجع قائلاً « ارجع فقد بايعناك » . (صحيح مسلم) .

٤ـ الطبيب في مهنته معرّض للاطلاع على اسرار المريض فيجب ان يتخلق بخلق الاسلام في هذا المجال « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » (صحيح مسلم) .

واذا استشاره المريض فليلتزم بالأمانة في ابداء المشـــورة وليحافظ على ما استشيرفيه فالرسول يقول « المستشار مؤتمن » .

٥ـ فحص الطبيب للمريضة يجب ان تحضره ممرضة او احد محارم المريضة تطبيقاً لقوله (ص) « لا يخلون رجل بامرأة الا ذو محرم » (صحيح البخارى) .

٦ـ الا يقدم على ممارسة المهنة الا اذا كان مطمئناً الى كفايته لتنفيذها فالرسول (ص) يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ويحترم التخصص المهني تنفيذاً لقول (ص) « من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » (سنن ابي داود) ويحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر يقول (ص) « الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها ينشدها » (جامع الترمذي) .

٧- توجيه عمله لله حتى يثاب عليه، وتجنّب ما حرم الله في العلاج لقوله (ص) « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » وتجنب الممارسات كالاجهاض والوشـــم قال (ص) « لعن الله الواشـــمات والمتوشـــمات والواشرات والمتوشرات » .

٨- ان يتعامل مع زملائه الأطباء على اسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح ويحترم الكبير ولا يتعالى على الصغير ويقدم النصح لمن يحتاجه وان يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة يقول (ص) « من دل على خير فله مثل اجر فاعله » (صحيح مسلم) .

والآن لنتكلم عن صفات الطبيب على ضوء ما جاء عند الأطباء العرب والمسلمين ، عندما وضـــع الدارسون الأقدمون من اطباء ومؤرخين وفقهاء تصوراتهم الواقعية المقبولة لهذا الفرد صاحب المكانة الخاصة المتميزة في المجتمع كان رائدهم الاقتداء بالقيم السمحة والمبادئ السامية التي جاءت بها الشريعة الغراء ، وبتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية .

ولأجل تهيئة من سيقوم بشرف معالجة هذه النفس البشرية التي كرمها الله سبحانه وتعالى بقوله « ولقد كرمنا بني ادم » اجمعوا على وجوب تحلي الطبيب ببعض القواعد الأخلاقية الكريمة والآداب المهنية العالية ، اضافة للكفاءة العلمية ، ويمكن تفصيل كل ذلك بما يلي :

١- الشهادة الطبية واجازة ممارسة المهنة - من الالتزامات المطلوبة اليوم من الطبيب ان يكون كفوءاً في مزاولته مهنته من الوجهة العماية والعلمية واول شارات الكفاءة هـــذه حصوله على الشهادة الطبية حيث بدونها لا يمـــكن ان يحصل على اجازة ممارسة المهنة . والمشرفون على امور الدولة العربية الاسلامية تنبهوا الى ضرورة ذلك وكان الخليفة المقتدر العباسي اول من

سن هذا النظام ، والسبب الذي دعاه الى ايجاد هذا النظام ما رواه ابن ابي اصيبعة على لسان سنان بن ثابت بن قرة رئيس الأطباء في عصره « لما كان عام ٣١٩ هـ – ٩٣١ م ، اتصل بالمقتدر ان غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل ، فأمر الخليفة ابراهيم ابن محمد بن بطيحة المحتسب بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه سنان بن ثابت بن قرة ، وكتب له رقعة بخطه يطلق له التصرف فيه من الصناعة » (١٣)

٢– القَسَم الطبي :

لقد اشترطوا على كل من يريد ممارسة الطب ان يؤدي قَسَماً طبياً يقطع به عهداً على نفسه بتطبيق بنوده .

والقَسَم هذا شمل اغلب بنود وفقرات قسم ابقراط المعروف مع تغيير وتحوير فيه جعله اوفى تقنيناً لآداب المهنة واكثر ملاءمة للمفاهيم الاسلامية الداعية للطهارة والفضيلة في ممارسة مهنة الطب . ولم يلتزم الجميع بقسم واحد ثابت بل نرى في كتبهم انماطاً مختلفة لها تدور جميعها في نفس المفهوم الأدبي والأخلاقي مشددة على الالتزام بقدسية المهنة وعدم الخروج عن حدودها المرسومة .

فقسم ابقراط جاء ذكره عند ابن ابي اصيبعة كما يلي « قال ابقراط ، اني اقسم بالله رب الحياة والموت ، وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج. واقسم بأسقلبيوس واقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً ، واشهدهم جميعاً على اني افي بهذا اليمين وهذا الشرط وارى ان المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي ، وواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي. واما الجنس المتناسل منه فأرى انه مساو لاخوتي ، واعلمهم هذه الصناعة ان

(١٣) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٢٥٤ .

احتاجوا الى تعلمها بغير اجرة ولا شرط واشرك اولادي واولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة ، واما غير هؤلاء فلا افعل به ذلك واقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى ، واما الأشياء التي تضرّ بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا اعطي اذا طلب مني دواء قتالاً ، ولا اشير ايضاً بمثل هذه المشورة ، وكذلك ايضاً لا ارى ان ادني من النسوة فرزجة تسقط الجنين واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة، ولا اشق ايضاً عمن في مثانته حجارة ، ولكن اترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل ، وكل المنازل التي ادخلها انما ادخل اليها لمنفعة المرضى ، وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد اراديّ مقصود اليه في سائر الأشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد ، واما الأشياء التي اعانيها في اوقات علاج المرضى ، او اسمعها او في غير اوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجاً فأمساك عنها ، وارى ان امثالها لا ينطق به ، فمن اكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له ان يكمل تدبيره وصناعته على افضل الأحوال واجملها وان يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً ، ومن تجاوز ذلك كان بضده » (١٤) .

وسرد مهذب الدين علي بن احمد بن هبل البغدادي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ) قواعد الحكمة التي يستوجب ان يتحلى بها الطبيب والتي يقول بأنه عاهد الله تعالى على ذلك . نوجز فيما يلي بعضاً منها :

١ــ ان يكون تعلمه اياها طالباً بها وجه الله تعالى وحسن ثوابه .

٢ــ وان يتوفر الطبيب على من يستطع ان يفي بواجب تدبيره منهم وان يمشي الى ضعفائهم ولا يتكبر على فقرائهم ولا يستنكف عن مداواة من انهكته

(١٤) المصدر نفسه ج١ ص ٤٣ .

الأغلال وكثرت به الجراحات والمواد استقذاراً .

٣- ان لا يلتمسوا - الأطباء - من المرضى الا ان يعطوا من غير طلب وان يستعينوا بما يصل من اغنيائهم على مداواة الضعفاء الذين تتعذر عليهم الأدوية .

٤- وان يلقوا المرضى بالهشاشة والبشاشة والايناس .

٥- وان لا يعزب في ذكر الأدوية عن المشهور . وان يكون من عمل هذه الصناعة متقرباً بنصحه الى الله تعالى لا الى الخلق .

٦- ان لا يصفوا الأدوية لاسقاط الأجنة ولا ما يمنع الحبل لقطع النسل الا ان يدعو الى ذلك امر عظيم خشي منه هلاك المرأة في الحمل والوضع .

٧- وان لا يعطوا السموم لغرض وسخط ولا يتخذوها ولا يعلموها ولا يتعلموها الا في معرض مداواة من لعله يشفى منه .

٨- يأخذون عليهم العهود في حفظ الأسرار فأنهم يطلعون على ما لا يطلع عليه الآباء والأولاد من احوال الناس .

٩- وان يلزموا العفة وغض الطرف واذا دخلوا بيوت الناس لا تكون همتهم مصروفة الا الى ما يعود بمصالح المرضى . (١٥)

٣- اتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي :

اعطى الأطباء العرب والمسلمون مسألة اتقان العمل والمحافظة على مستوى جيد في مزاولة مهنة الطب اهمية قصوى لأن المسألة تتعلق بحياة الانسان وموته. يقول الكندي « ليتق الله تعالى المطبب ، ولا يخاطر فليس عن الأنفس عروض، فكما يجب ان يقال انه كان سبب عافية المريض وبرئه ، وكذلك ان يحذر ان يقال انه كان سبب علته وموته » .

ونصائح الرازي (٢٥١-٣١٣ هـ) لطلاب الطب والأطباء ، شملت الى جانب قراءة الكتب والمطالعة والتتبع تأكيدات على ضرورة تحكيم العقل

(١٥) البغدادي - مهذب الدين علي بن هبل / المختارات في الطب ٣-٥ .

والاعتماد على التجربة الشخصية لكي تؤتي المعالجة ثمارها فيقول :

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والوقوف على اسرارهم نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس ، وقراءة الكتب خذل » .

« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعضدته التجربة فليكن امامك » .

« الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون اعمال الماهر الحكيم برأيه خطر » (١٦) .

ويؤكد علي بن العباس (من ابناء القرن العاشر الميلادي) نفس المعني عندما يتكلم عن صفات الطبيب الجيد حيث يقول : « ولا ينبغي ان يكون اكثر تشاغله الا بقراءة الكتب والحرص على النظر فيها اعني كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قرأه ...» .

« ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازماً للبيمارستان ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم واحوالهم مع الأستاذين من الحذاق من الأطباء» (٧) .

وشدد الرازي على مسألة الخبرة الشخصية في معالجة المرضى محذراً المريض من الأطباء المقلدين والأحداث منبهاً الأطباء على عدم التسرع ومساءلة المريض بشكل تفصيلي عن المرض يقول : « الأطباء الأميون والمقلدون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون » (١٨)

ويقول في كتاب الفصول « ومن ابلغ الأشياء فيما يحتاج اليه في علاج الأمراض بعد المعرفة الكاملة بالصناعة ، حسن مساءلة العليل وابلغ من ذلك

---

(١٦) ابن ابي اصيبعة / ج٢ ص ٣٥١ .
(١٧) علي بن العباس / كامل الصناعة الطبية ج٢ ص ٨-٩ .
(١٨) المصدر السابق ص ٣٥١ .

لزوم الطبيب العليل ، وملاحظة احواله . ومن ذلك انه ليس كل عليل يحسن ان يعبر عن نفسه .. » (١٩) ومن وصايا رشيد الدين علي بن خليفة « الأمراض لها اعمار ، والعلاج يحتاج الى مساعدة الأقدار ، واكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما فيه اليقين . وجزآها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ونتيجتها حفظ الصحة اذا كانت موجودة وردها اذا كانت مفقودة وفيها يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر ، ويتميز الفاعل عن الجاهل ، والمجد في الطب عن المتكاسل ، والعمال بمقتضى القياس والتجربة ، عن المحتال على اقتناء المال وعلو المرتبة » (٢٠) .

ومن اقوال عبدالله الاشبيلي الحريري (٥٩١ –٦٤٦ هـ) في صفات الكحال « وان يكون قد انفق زمانه في تحصيل صناعته وخدم المشائخ وعمل بين ايديهم فان هذه الصناعة تحتاج الى مباشرة وتطبيق على قانون طبي » .

« وينبغي ان تطاوعه يده على الحذق في الأعمال الدقيقة واقط السبل ، وكشط الظفرة ، وقدح الماء ... الى غير ذلك مما يقع فيه الخطأ بسبب عدم الحذق والخوف ، لذلك ينبغي ان يكون ثبت الجنان مشفقاً ، ولا تكون شفقته لضعف قلبه » (٢١) ومن الأمثلة على ضرورة بذل الجهد في الدرس والتحصيل وتحمل المشقة دونما خجل او غرور في سبيل الحصول على الكفاءة العلمية قول عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧ – ٦٣٩ هـ) « ومن لم يعرق جبينه الى ابواب العلماء لم يعرق في الفضيلة ، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس ... ومن لم يحتمل الم التعليم لم يذق لذة العلم ، ومن لم يكدح لم يفلح » « وينبغي ان تكثر ايهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها ، وتعرض خواطرك

(١٩) الرازي – ابو بكر محمد بن زكريا / كتاب المرشد او الفصول – تحقيق الدكتور البير زكي اسكندر ص ١٢١ .
(٢٠) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤١٣ .
(٢١) المصدر نفسه ج٣ ص ٤٢ .

على العلماء وعلى تصانيفهم وتثبت ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبدال الزلل » (٢٢) .

ومن الوصايا القيمة لمهذب الدين ابي الحسن علي بن احمد بن هبل البغدادي (المتوفى سنة ٦١٠ هـ) قوله في مقدمة كتابه المختارات في الطب :

« ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعلمه وعمله ان ينظر فيما اذااتفق زمانه الماضي ان كان في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء من اهلها ، وطول ملازمتهم ، والقراءة عليهم ، والعلاج بين ايديهم والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم ، وملازمة خدمة البيمارستان الذي يجتمع فيه حذاق الأطباء ، وكثرة نظره الى معالجة الأستاذ ، فيشار اليه ويقول عليه — وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته ، وان همته اذا خلافي بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة ، وانه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب التي تستغرق الزمان بالتضييع ، والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي ان يوثق اليه ولا يعول في هذه الصناعة عليه » .

وفي وصايا ابي عبدالله محمد بن الحاج العبدري (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ — ١٣٣٦ م) في كتابه المدخل نجد لوناً من الوان آداب الطبابة التي تحتوي على حيوية وحركة نشيطة تكاد تربط حاضرنا بماضينا وتلامس اوضاعنا وكأنها وضعت ليومنا وكأن ما يتحدث عنه قد شاهده في حياتنا المعاصرة يقول :

«فيتعين على الطبيب ان يسمع كلام المريض الى آخره فلعل آخره ينقض أوّله او بعضه وربما يغلط المريض في ذكر حاله او يعجز عن التعبير عنه فاذا تأنى الطبيب واعاد عليه السؤال برفق امن الغلط فان الغلط في هذا خطر

---

(٢٢) البغدادي — عبداللطيف / مقالتان في الحواس / تحقيق د. بول غليونجي ، د. محمد عبدة ص ١٦٩ . مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٤ .

لأن اصل الطب والمقصود منه معرفة المرض فاذا عرف سلمت مداواته غالباً . ويتعين على الطبيب ان كان غير عارف بدوائه ان لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من اضاعة المال .

وينبغي للطبيب ان لا يقتصر على سؤال المريض وحده بل يسأل من خدم المريض اذ ربما يعرف عن المريض اكثر مما يعرفه هو . وينبغي للطبيب ان يعرف حال المريض في حال صحته في مزاجه ومرباه واقليمه وما اعتاده من الأطعمة والأدوية سواء بالسؤال من المريض او ممن يلوذ به واذا تعذر عليه ذلك فليسأل عن والدي المريض ويطبه بمقتضى حالهما » (٢٣) .

واخيراً وليس اخراً نذكر هذا النص الحي النابض بالحياة والقوة والذي يبين المرونة التي تمتع بها الأطباء العرب والمسلمون وعدم الحياء من الاعتراف بعدم معرفتهم ان كانوا يجهلون امراً « قال ابو الثناء الحابي شكوت الى ابن النفيس عقالاً في يدي فقال انا والله بي عقال فقلت له فبأي شيء اداويه ؟ فقال والله لا ادري بأي شيء اداويه » (٢٤) .

٤– حسن الخلق والهيئة :

لقد تنبه فلاسفة الطب منذ زمن ابقراط على ان العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة انسانية نفسية الى جانب كونها مسألة علمية وعملية ، لذلك نجدهم يؤكدون على ضرورة اتصاف الطبيب بحسن الخلق والشكل والهيئة ، لما لذلك كله من موقع حسن في نفس المريض واثر طيب في العلاج والشفاء .

والأطباء العرب والمسلمون بلغوا في ذلك شوطاً بعيداً ، نذكر فيما يلي بعضاً مما قالوه :

يقول علي بن العباس « ينبغي لمن أراد ان يكون طبيباً فاضلاً ، ان يتخلق

(٢٣) (بسيس – محمد الطيب / قواعد وآداب مزاولة مهنة الطب كما وردت في التراث الاسلامي – مؤتمر الطب الاسلامي الاول – الكويت ١٤٠١/١٩٨١ .

(٢٤) المفتي – د. يونس / مبادئ الأخلاق الطبية في الاسـلام – مؤتمر الطب الاسلامي الأول – الكويت ١٤٠١ / ١٩٨١ .

بالأخلاق الفاضلة وان لا يتهاون فيها ، فانه ان فعل ذلك كانت مداواته للمرض مداواة صواب » (٢٥) .

من بين الشروط التي ذكرها ابن رضوان في الطبيب « ان يكون تام الخلقة صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرواية عاقلاً ذكوراً ، خير الطبع » . «ان يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف اليدين والثوب » .

«ان يكون سليم القلب عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله من امور النساء والأحوال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن ان يتعرض الى شيء منها » (٢٦) .

وقال الحكيم ابو الخير في كتابه امتحان الأطباء « انه يجب ان يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء متناسبة في مقاديرها حسنة في شكلها قوية في وضعها ، معتدل المزاج ... يخالط نظره دائماً سرور وفرح وفيه بشاشة وطلاقة » « فأما في نفسه فأن يكون ذكياً ذكوراً ، جيد النصوير قوي الحدس والتخمين صبوراً على التعب والنصب ، في درك الحق من الأمور ، كتوماً متحملاً ما يسمعه من المرضى » (٢٧) .

ومن ذلك قول الانطاكي (من ابناء القرن العاشر الميلادي)« ينبغي لهذه الصناعة وكشف دقائقها . . وينبعي تنزيهه عن الأراذل والضن به على ساقطي الهمة لئلا تدركهم الرذالة عند الدعوة الى واقع في التلف فيمتنعون او فقير عاجز فيكلفونه ما ليس في قدرته » .

« ويجب اختيار الطبيب حسن الهيئة ، كامل الخلقة ، صحيح البدن ،

---

(٢٥) علي بن العباس / كامل الصناعة الطبية ص ٨ .
(٢٦) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٧٠ .
(٢٧) ابن جاجل = ابو داود سليمان / طبقات الحكماء /تحقيق فؤاد السيد ص ١٥٨ ، مطبعة المعهد للعلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥

نظيف الثياب ، طيب الرائحة ، يسر من نظر اليه وتقبل النفس على تناول الدواء من بين يديه ، وان يتقن بقلبه العاوم التي تتوقف الإصابة في العلاج عليها ، وان يكون متيناً في دينه متمسكاً بشريعته دائراً معها حيث دارت ، واقفاً ، عند حدود الله تعالى ورسوله ، نسبته الى الناس بالسواء ، خلي القلب من الهوى لا يقبل الارتشاء ولا يفعل حيث يشاء ليؤمن معه الخطأ وتستريح اليه النفوس من العنا » (٢٨) .

ويتكلم الاشبيلي عن الصفات التي يجب ان يتحلى بها جراح العين وهي لا تختلف عما يؤكده اطباء اليوم ، يقول « وان يكون ذكي الحواس ، فان يسيراً من ضياء الحسّ خير كثير من درس الحكمة .

ولا يؤلم مريضاً بما فيه صلاحه ، بل ينبغي له ان يجتهد في حفظ الصحة وردها بألطف طريق يمكنه ، ويستحب ان يطيب معانيه (اي عزيمته) وان تكون عينه سليمة من الامراض .

وان يكون ... لا يستنكف عن مداواة من كثرت في عينه الامراض والاوساخ . . . والقرح والدموع استقذاراً منه وأنفة .

وان ينوي الخير للناس كافة ، ولا يقصد اذى احد من المخلوقين ويرفق بالضعيفين والمساكين » (٢٩) .

وأوصوا الطبيب والعالم بعدم اقتناص المال ، لان المال هو يجري نحوه متى ما أدى واجبه على الوجه الاكمل .

يقول الرازي في ذلك (ينبغي ان تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلا على الدنيا كلياً ولا معرضاً عن الآخرة كلية فيكون بين الرغبة والرهبة)(٣٠).

(٢٨) الانطاكي – داود / التذكرة في الطب ص ٨ .
(٢٩) الاشبيلي – عبدالله بن قاسم الحريري / نهاية الافكار ونزهة الابصار/ تحقيق الدكتور مصطفى شريف العاني والدكتور حازم البكري ص٤٢–٤٣. وزارة الثقافة العراقية ١٩٦٩ .
(٣٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٣٥١ .

ويقول عبداللطيف البغدادي « اني لا أقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم، بل هو الذي يعرض عنها . . . (للعلم عبقاً وعرفاً ينادي عن أصحابه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته » (٣١) .

ويقول العبدى « ان يكون الطبيب خالص النية في عمله لله تعالى حتى يكون عمله من اعظم العبادات لا يريد عليه عوضاً من الدنيا ، وان قصده امتثال السنة المطهرة في التطبيب وكشف الكرب عن اخوانه المسلمين ومشاركتهم في مصائبهم والنوازل التي تنزل بهم كما ينوى الشفقة عليهم » (٣٢) .

وجاء في وصية رشيد الدين علي بن خليفة بعض النصائح التي تبين العلاقة بين التلميذ والأستاذ ، قال « احترم المشائخ ولو سكتوا عن جواب سؤالك فلعل ذلك لبعد العهد وكلال القوى ، أو لأنك سألت عما لا يعنياك، او معرفتهم بعجز فهمك عن الجواب » .

« اذا تطببت فاتق الله واجتهد ان تعمل بحسب ما تعلمه علماً يقيناً ، فإن لم تجد فاجتهد ان تقرب منه » .

« اذا وصلت الى رتبة المعلمين فلا تمنع مستحقاً وهو العاقل الذكي الخير الحكيم النفس ، وامنع سواه » (٣٣) .

نعني بالسر الطبي هنا ، كتمان ما اطلع عليه من احوال مريضه والتي لا يجوز افشاؤها . وهذا ما كان يطالب به الطبيب منذ الوهلة الأولى من حياته العلمية ، عندما يؤدي القسم الطبي ويعطي العهد الذي جاء في أحد بنوده كما ذكرنا « سوف احتفظ بكل ما اراه او اسمعه من اسرار الناس التي ينبغي

(٣١) البغدادي ــ عبداللطيف / مقالتان في الحواس ص ١٧٠

(٣٢) بسيس محمد الطيب / قواعد آداب مزاولة مهنة الطب / مؤتمر الطب الاسلامي الاول الكويت ١٤٠١/١٩٨١ .

(٣٣) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤١٢ .

أن لا اكشف ما لا يجب ذكره مما اتصل معرفتي اليه في حدود مهنتي او خارجها أو في مخالطتي اليومية مع الناس بل اكتمه سراً » .

ويقول الرازي في ذلك « ينبغي للطبيب ان يكون رفيقاً بالناس حافظاً لغيبهم كتوماً لأسرارهم ... فانه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه عن اخص الناس به مثل ابيه وامه وولده ، وانما يكتمونه خواصهم ويفشونه الى الطبيب ضرورة .. » . وبقي الأطباء العرب والمسلمون ملتزمين بهذا الشرط مع مرضاهم في حياتهم وحتى بعد مماتهم ، وكمثال لعدم افشاء اسرار المرضى حتى بعد وفاتهم . قول البلدي (كان حياً ٣٦٨ هـ) عند التحدث عن مرضى الصرع حيث قال « رأينا من عرض لهم الصرع ممن تجاوز الأربعين والخمسين فمنهم من برئ براءاً كاملاً ومنهم من كان من لا يعرض له ذلك الا في زمان طويل وعلى غير نظام في حفظ الأدوار ممن لو ذكرتهم لعرفوا لكن اكتفى عن ذكر اسمائهم رحمهم الله تعالى » (٣٤) .

وعن الصراحة الطبية نقول بأن اخلاقية المهنة الطبية في الحضارة الاسلامية تدعو الى عدم التصريح ، كما تحبب اظهار التفاؤل امام المريض فيما يسره . روى ابن ماجة قول الرسول (ص) ، اذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل فان ذلك لا يغير شيئاً وهو تطمين لنفس المريض . كما ان في الأقوال المأثورة عن النبي الكريم ، لكل داء دواء ، ما انزل الله داء الا انزل له الشفاء... مما يقوي نفس المريض ويحثه على طلب الدواء والتفتيش عنه فيعلق قلبه بروح الرجاء ويتفاءل بالخير وقد يجده ، والفأل كلمات يسمعها العليل فتقوى بها عزائمه ، وكان من بين الكلمات التي جاءت في قسم الأطباء العرب دعوتهم

---

(٣٤) البلدي – احمد بن محمد / تدبير الحبالى والاطفال والصبيان / تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ص ٢٤٨ .

الى اجتناب ما يغم المريض وقعه من الكلام » (٣٥) .

وفي ذلك ايضاً يقول مهذب الدين البغدادي « ولا يؤيسوا المرضى في امراضهم المعروفة الخطر من العافية فيتعجلوا منهم سقوط القوة وضعف الرجاء الذي وراءه من جانب الله تعالى علم ما لم يعلموه فليس في طاقة البشر الاطلاع على جميع اسرار الخليقة ومعرفة نظام العالم فقد طالما خرج الطبيب من عند المريض وهو مأيوس منه فعاد اليه وقد فتح الله له ابواباً من الصحة وخرج من عند آخر ورجاؤه فيه اوثق من وثوقه بقوة بدنه واستقامة صحته ثم قضى عليه » (٣٦) .

وهناك من اوصى بوجوب التصريح والتنبيه في الحالات الميئوس منها ولكن بأسلوب غير مباشر وطريقة لبقة فمن ذلك قول السبكي « من حقه — ويقصد الطبيب — بذل النصح ، والرفق بالمريض واذا رأى علامات الموت لم يكره لمن ينبه الوصية بلطف من القول » .

رابعاً — حقوق الطبيب —

تمتع الأطباء في الدولة العربية الاسلامية بحقوقهم كاملة ، فنالوا احترام الجميع من خلفاء ووزراء وعامة الناس ، وبلغوا حتى غير المسلمين منهم مراتب عالية ومراكز حساسة في الدولة . كل ذلك لأنهم قدروهم حق قدرهم ، يقول ابن ابي اصيبعة عن جده حينما اراد تعليم والده وعمه مهنة الطب « وقصد الى تعليمهما صناعة الطب لمعرفته بشرفها ، وكثرة احتياج الناس اليها ، وان صاحبها الملتزم لما يجب من حقوقها يكون مبجلاً حظياً في الدنيا وله الدرجة العلياء في الآخرة » (٣٧) .

---

(٣٥) الشطي — الدكتور احمد شوكت / اخلاقيات الطب في التراث الاسلامي وواقعه اليوم/ بحث قدم للمؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقد في حلب — نيسان ١٩٧٧ .

(٣٦) البغدادي — مهذب الدين علي بن هبل / المختارات في الطب ج١ ص ٥ .

(٣٧) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٤٠٢ .

ويمكن تقسيم حقوق الأطباء الى :

١- تكريم الأطباء -

لقد اوصى الرسول الكريم (ص) في بداية الدولة العربية الاسلامية بالتطبب عند الحارث بن كلدة . وكرم خلفاء بني امية عدداً من الأطباء امثال ابن اثال النصراني طبيب معاوية وابي بكر الدمشقي وابنه الحكم وابن ماسرجويه السرياني ايام عمر بن عبد العزيز وتبعهم في ذلك خلفاء بني العباس حيث اعطوا مكانة خاصة للأطباء ، على سبيل المثال عائلة بختيشوع من الأطباء النصارى الذين فازوا بكرم العديد منهم . ومن بين من اشتهر وكرم من غير المسلمين ايضاً في عهدهم حنين بن اسحاق (المولود عام ١٩٤ هـ) الذي كان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب العربية وابنه ، ويوحنا بن ماسويه (المولود عام ١٦١ هـ) وغيرهم ، وبلغ البعض منهم درجة من التكريم بحيث كان يوقع عن الخليفة ، فمثلاً ايام المعتضد بالله «كانت التوقيعات تخرج بخط داود بن ديلم لمحله منه ومكانته(٣٨).

هذا بالنسبة لغير المسلمين من الأطباء ، اما المسلمون منهم فقد بلغ بعضهم من التكريم ما جعل الخلفاء ينيطون بهم اعلى مراتب وظائف الدولة الى جانب الطب ، فولي بعضهم الوزارة مثل الرئيس ابن سينا (ولد عام ٣٧١ هـ) ، والحفيد ابي بكر بن زهر (١٠٩٤ -١١٦٢ م) ، وفخر الدين الساعاتي والصاحب نجم الدين بن اللبدي (ولد عام ٦٠٧ هـ) ، ومهذب الدين يوسف بن ابي سعيد والصاحب امين الدولة من ابناء القرن السابع الهجري .

ومنهم من تولى القضاء مثل القاضي الفيلسوف ابن رشد الذي تولى القضاء في اشبيلية وقرطبة ، والقاضي ابن المرخم بن سعد الذي اصبح قاضي القضاة ببغداد ايام المقتفي ، وافضل الدين ابي عبدالله الذي صار قاضي القضاة بمصر (٣٩)

(٣٨) المصدر نفسه ج٣ ص ١٣٥ ص ١٤٣ .
(٣٩) المصدر نفسه ص ١٢٣ ، ١٣٠ .

ومن الأمثلة على تقدير الأطباء واجلالهم ، ان الخليفة المعتضد بالله « لما تقلد الخلافة اقطع ثابتاً بن قرة ضياعاً جليلة وكان يجلس بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام ، ويكون بدر الأمير قائماً والوزير ، وهو جالس بين يدي الخليفة » ويروى ايضاً « ان ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان ... وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يمشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة ، ففزع ثابت ... وقال له يا ابا الحسن سهوت ، ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون . فان العلماء يَعلُون ولا يُعلَوْن » (٤٠) .

وجاء في كتاب صبح الاعشى « وكانت اعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وظائف الأطباء ، فكانت القاب ارباب الصناعات الرئيسية ، كرئاسة الطب من الدرجة الأولى درجة المجلس او امرة المجلس وموضوعها التحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ، ولا يكون الا واحداً وفي المرتبة الاولى مرتبة المجلس العالي :

وكان من الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص ، وهو الطبيب الخاص بالخليفة يجلس على باب دار الخلافة كل يوم ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر ، دون اربعة اطباء او ثلاثة فيخرج . . الخدم . . . فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص . . . ولكل منهم الجاري والراتب على قدره » (٤١) .

ومن الامثلة التي تبين اعتزاز الأطبـــاء بشخصيتهم وكرامتهم وترفعهم عن الأمراء ، ما رواه ابن جلجل في طبقاته عن ابن الجزار القيرواني (٢٨٥–٣٧٧ هـ)

(٤٠) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٩٤ .
(٤١) عيسى – الدكتور احمد / تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٤ ، طبع جمعية التمدن الاسلامي – دمشق ١٩٢٧ .

« ولم يركب الى احد من رجال افريقية ولا الى سلطانها ، الا الى ابي طالب عم (الخليفة المعز لدين الله) ، كان له صديقاً قديماً » وقال « حدثني من اثق به قال كنت عنده غداة في دهليزه وقد غص بالناس ، اذ أقبل ابن اخي النعمان القاضي ، وكان حدثاً جايلاً بافريقية فتخلف القاضي اذا منعه مانع عن الحكم ، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه ، الا مجلس ابي جعفر ، فخرج ابو جعفر ، فقام له ابن اخي القاضي على قدم ، فما اقعده ولا انزله » قال الذي حدثني فكنت عنده صحوة نهار ، اذ أقبل رسول النعمان القاضي ، بكتاب يشكوه فيه على ما تولى من علاج ابنته ، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال ، فقرأ الكتاب وجاوب شاكراً ، ولم يقبض المال ولا الكسوة . قال الذي حدثني فقلت له ابا جعفر رزق ساقه الله اليك ، ترده ؟ قال لي والله لاكان لأحد من دولة معد قبلي نعمة » (٤٢) .

اجور الأطباء :

تقاضى الأطباء اجوراً عن معالجة المرضى منذ القديم ففي حضارة وادى الرافدين ومصر القديمة كان الطبيب يستوفي اجوراً تناسب مكانته العلمية والعملية ، ومكانة المريض الاجتماعية . فعلى سبيل المثال نجد نصوصاً في (شريعة حمورابي) تحدد اجور الطبيب الجراح حيث كان يتقاضى خمسة عشر شقلاً فضة من المريض من طبقة الأحرار ، وعشرة شقلات من الطبقة المتوسطة وشقلين من سيد العبد عند معالجة العبيد .

وكان ابقراط في الحضارة الاغريقية يأخذ اجوراً عينية من الأغنياء والمرفهين كالأساور والحلي الذهبية والفضية ، او الهدايا الثمينة في الوقت الذي يقوم بعلاج الفقراء بدون اجر .

وفي الحضارة العربية الإسلامية كان الأطباء يتقاضون اجوراً عالية من الخلفاء والأمراء والقادة والاغنياء بينما كانوا يعالجون الفقراء بأجور بسيطة او بالمجان ،

(٤٢) ابن جلجل – ابو داود / طبقات الاطباء والحكماء ص ٨٩ .

وكتب التاريخ تروي لنا مبلغ ماوصله بعض الأطباء من حسن ورغد العيش وكمثال لدرجة مباراة الخليفة في اللباس والزي والطيب والفرش والضيافات والتفسح في النفقات . من ذلك :

ان ابا بكر يوحنا بن ماسويه اكتسب من صناعة الطب الف درهم وجمع جبريل بن بختيشوع مالاً كثيراً ، فقد بلغ ايراده السنوي ملخصاً عما رواه ابن ابي اصيبعة (٤٩٠٠٠٠٠) درهم ومجموع ما حصل عليه خلا خدمته لهارون الرشيد مدة ٢٣ سنة والبرا مكة مدة ١٣ سنة (٨٨٧٠٠٠٠٠) درهم (٤٣) .

وان رسوم ابن التلميذ في بغداد سنوياً كانت تزيد على عشرين الف دينار وبلغت تركة ابن الجزار بعد وفاته اربعة وعشرين الف دينار . وكان الاطباء يتلقون هبات من الخلفاء والأمراء ووجهاء الدولة اضافة لأجورهم المقررة فمثلاً عندما اراد الطبيب ابو الفرج النصراني تزويج بناته ، أكرمه صلاح الدين بثلاثين ألف درهم لتجهيزهن ، ولما بلغ الطبيب ابن مطران تأثر من ذلك ، وعندما سمع صلاح الدين بتأثره امر له هو الآخر بمثل ذلك المبلغ سواء بسواء (٤٤) وان ما وصل مهذب الدين بن الدخوار (المتوفى سنة ٦٢٨ هـ) من معالجة الملك العادل بالشرق من معالجته من مرض صعب سبعة آلاف دينار مصرية وما وصله من معالجة ابنه الملك الكامل صاحب الديار المصرية كان من الذهب اثني عشر الف دينار واربع عشرة بغلة بأطواق ذهب ، والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها (٤٥) .

وان الشيخ السديد رئيس الأطباء في مصر حصل له في يوم واحد من الخلفاء في بعض معالجاته لاحدهم ثلاثون الف دينار وانه لما طهر ولدي الحافظ لدين الله حصل له في ذلك الوقت من المال نحو خمسين الف دينار واكثر من ذلك ، سوى

(٤٣) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ١٢٣ . . .
(٤٤) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٨٨ .
(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٩٤ .

ما كان في المجلس من اواني الذهب والفضة فانها وهبت جميعها له » (٤٦) .

وفي العمل الحرفي بممارسة مهنة الطب لم يكن هناك تحديد لأجرة فحص المريض ومعالجته بالمعنى الذي نفهمهُ اليوم ، بل كان الطبيب يتقاضى الأجور حسب حالة المريض المالية كما ذكرنا ، ويذكر لنا ابن جلجل عن الطبيب اسحق بن عمران أنه لفترة من حياته كان يفحص المرضى بأجر محدد فيقول عنه إنه عندما أمر زيادة الله بقطع رزقه أي راتبه « فلما قطع عنه الرزق خرج الى موضع فسيح من رحاب القيروان ، ووضع هناك كرسياً ودواة وقراطيس فكان يكتب الصفات كل يوم بدينار » (٤٧) .

وكان أغلب الأطباء العرب والمسلمون – من أمثال الرازي وابن سينا وابن الجزار وغيرهم – يقومون بمعالجة الفقراء مجاناً أو بأجر يسير في الوقت الذي لايتساهلون فيه مع المتمكنين والأغنياء ، ومن الأمثلة على ذلك ماروواه ابن جلجل عن رجل من أهل خراسان ادعى الفقر فرضي الطبيب ابن وصيف أن يعالجه بأجر قليل ، فلما ثبت كذب ادعائه للفقر حيث وقعت يده على عضده فوجد نطاقاً صغيراً فيه دنانير ، رفض معالجته (٤٨) .

وكان البعض منهم لايتقاضى أية أجرة من الجميع ، من أولئ ك الذين كانوا يطبون الناس من دون أجرة ، أبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري قاضي اشبيلية ، وكمال الدين الحمصي الذي كان يكره التكسب بصناعة التردد الى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين زنكي ويعالج المرضى فيه احتساباً (٤٩) .

ومن الأمثلة التي تشير الى ترفع الأطباء العرب والمسلمين عن الطمع

(٤٦) المصدر نفسه ص ١٨١ .
(٤٧) ابن جلجل / طبقات الاطباء والحكماء ص ٨٥ .
(٤٨) المصدر نفسه ص ٨١ .
(٤٩) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٣٢٩ .

ماروواه البيهقي عن الحكيم ابي الفتح عبدالرحمن الخازن « وكان نقي الجيب عن الأطماع الخسيسة ، بعث السلطان الأعظم سنجر اليه الف دينار على يد الأمير الامام شافع الطبيب فرده وقال لااحتاج اليها ، وبقي لي عشرة دنانير ، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنانير وليس معي في تلك الدار الاسنور » « وبعثت اليه زوجة الأمير لامي كافور بلك الكبير الف دنار فردها أيضاً » (٥٠) .

وكان بعضهم الاخر يستنكف أن يأخذ الأجور بل يقوم بذلك خادمه ، من أولئك ابن الجزار القيرواني الذي كان ثرياً موسراً يكتظ المتداوون في محل عيادته ، وبعد فحصهم يحيلهم لغلامه رشيق الذي يوزع الأدوية والأشربة ويتقاضى الأجور لأن سيده ينزه من أن يأخذ من أحد ثمناً علماً بأن ذلك كان شأنه مع وجوه الدولة وعامة الناس (٥١) .

أما أجور الأطباء في البيمارستانات ، فكانت تشبه الى حد ما طريقة عمل اطباء اليوم حيث خصصوا للأطباء رواتب شهرية تتفاوت حسب شهرة الطبيب وعلمه وكفاءته أضافة لأجور أخرى لقاء قيامه بأعمال اضافية كالتدريس أو الترجمة والأمثلة التالية تبين المفهوم العام لمسألة الرواتب في البيمارستانات .

« وكان لبعضهم كجبرائيل الكحال الف درهم في كل سنة » (٥٢) .

« وكان لماسويه جامكية من الفضل في كل شهر ستمائة درهم وعلوف دابته ، ثم تزيد الى الفي درهم ومعونة في السنة عشرة الآف درهم وعلوفة ونزل . وممن كان يأخذ رزقين جبرائل بن عبدالله بن بختيشوع ، فكان يأخذ برسم الخاص ثلاثمائة درهم شجاعية وبرسم البيمارستان ثلاثمائة درهم شجاعية سوى الجراية . وكان لعز الدين بن السويدي جامكية في اربع جبهات ، في

(٥٠) البيهقي – ظهير الدين / تاريخ حكماء الاسلام ص ١٦٢ . مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦ .
(٥١) ابن جلجل ص ٨٩ .
(٥٢) عيسى – د. احمد / تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص ٢٩ بالاصل نقلا عن القفطي ص ١٥٢ .

البيمارستان النوري وفي بيمارستان باب البريد في دمشق وللتردد على قلعة دمشق وتدريسه في مدرسة الدخوارية (٥٣) .

« وكان من اطباء الأمير سيف الدولة بن حمدان من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة ارزاق لتعاطيه ثلاثة علوم وكان في جملتهم عيسى النفيس الطبيب فكان يأخذ ثلاثة ارزاق رزقاً للنقل من السرياني الى العربي ، ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين » (٥٤) « وكان الحكيم موفق الدين عبدالعزيز يأخذ في كل شهر مائة دينار ورواتب أخرى من الملك العادل لقاء عماه في البيمارستان ومعالجة الملك ، ولما توفي عينَ بدلهُ مهذب الدين الدخوار بنفس الرواتب المقررة » (٥٥) .

وعن أبيه يقول ابن أبي اصيبعة « فأقام بدمشق وصار يتردد الى القلعة لخدمة الدور السلطانية لكل من ملك دمشق من أولاد العادل وغيرهم ، وكلهم يرون له ويعتمدون عليه في المداواة وله الجامكية والجراية والأنعام الكثيرة ويتردد أيضاً الى بيمارستان نور الدين الكبير وله الجامكية والجراية » (٥٦) .

ويقول أيضاً « مهذب الدين بن الحاجب عندما توجه الى دمشق أكرمه صلاح الدين والفاضل وجماعة الرؤساء وأجري له ثلاثون ديناراً » (٥٧) .

وكمثال لرعاية الدولة للأطباء وصرف مايشبه الراتب التقاعدي لهم ، ما حصل لأبي البيان بن المدور فيما رواه ابن أبي اصيبعة « وعمر الشيخ ابو البيان بن المدور وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف ، من كثرة الحركة والتردد الى الخدمة فأطلق له الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله في كل شهر اربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل اليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلف

(٥٣) ابن ابي اصيبعة ج٢ ص ٢١٦ .
(٥٤) ابن القفطي ص ٢٥٠ .
(٥٥) ابن ابي اصيبعة ج٣ ص ٣٩١ .
(٥٦) المصدر نفسه ص ٤٠٦ .
(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٩٨ .

خدمة . وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل اليه نحو عشرين سنة » (٥٨) .
وقبل ان نختم البحث نقول :

ان الأطباء في كل زمان ومكان كبقية بني البشر ، قد يظهر فيهم أحياناً بعض المتطفلين والمشعوذين أو ذوي النفوس المريضة فيسيء هؤلاء للمهنة بسلوكهم الشائن ، والحضارة العربية الأسلامية في تاريخها الطويل لم تخل من البعض من غير الملتزمين بآداب مهنة الطب ، إلاّ ان هؤلاء لم ينجوا من تقريع ولوم الملتزمين منهم بتلك الآداب ، فكان الرازي مثلاً من أوائل الذين اندفعوا بشدة في احتقار الاطباء الذين يتخذون مهنتهم طريقاً لأبتزاز اموال الناس بوسيلة غير شريفة ، كما أنه حذر الناس من الدجالين والمشعوذين من الذين يتظاهرون بصنعة الطب بغية اكتساب المال وهم لايعرفون من الطب شيئاً فيسيئون الى المريض اساءة بالغة بدل شفائه .

وا نتقد ابن الكتبي (من اطباء بدايات عصر تخلف الحضارة العربية) في كتابه مالا يسمع الطبيب جهله ، بعض اطباء زمانه الجهلاء الذين دأبهم ارتداء الملابس الفاخرة وملازمة الأمراء والنبلاء وحضور الولائم وهم غافلون عن قوانين الصنعة ويجهلون احكامها ولا يتابعون تطورها بالدرس والملاحظة والالتزام باعمالهم المهنية حتى افسدوا شرائعها واستهانوا بقيمها مما حط من كرامة الصناعة وقدرها في عيون الناس .

وكلمة أخيرة لابد من ذكرها وهي « ان قضية السلوك المهني لاتحل بقسم ولا تستوفى بدراسة مقرر علمي في آداب ممارسة الطب ولا تحكمها قواعد قانونية تقررها نقابة طبية او دستور وضعي ، ان الرعاية بالمريض تحمل التزامات اخلاقية والطبيب في ممارسته اليومية ستواجهه كثير من المواقف تستلزم

(٥٨) المصدر نفسه ص ١٩١ .

استفتاء الضمير . وهنا ستتأثر قرارته بمدى التزامه تجاه ربه » (٥٩) .

وانطلاقاً من ذلك فاننا نجد وعلى مدى قرون عديدة بأن الأطباء العرب والمسلمين منهم حقاً كان اسلامهم يلزمهم بمنهاج متكامل يربط كل فرد منهم لا بالمجتمع فحسب بل بالله الذي يعبدون علماً بأن التزامهم بهذا المنهج لم يأت قسراً وانما جاء عن طواعية واختيار في ظاهرهم وفي باطنهم ومن غير خشية من عقاب المجتمع او القانون بل رغبة في طاعة خالقهم وطلباً لتوبته الغالية التي جعلوا حياتهم كلها وسيلة لها وطريقاً اليها .



(٥٩) بحث نظرة الاسلام للطب / الدكتور ابراهيم الصياد / من ابحاث مؤتمر الطب الاول - الكويت ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

ابو جعفر الطبري ومنهجه في القراءات

الدكتور عبد الحسين الفتلي

كتب عن هذا العالم الكبير كثير من الدراسات والبحوث وألفت عن تفسيره « جامع البيان » رسالة دكتوراه ، لذا فسوف أذكر شيئاً مقتضباً عن حياته وكتبه لأتعرض بعد ذلك لآرائه في القراءات .

فهو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ، أبو جعفر الطبري نسبة الى « طبرستان » استوطن بغداد وأقام بها الى حين وفاته . .(١)
وكان أحد الأئمة الذين يُحكم بقولهم، ويُرجع الى رأيهم لمعرفته وفضله . وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصره . وكان حافظاً لكتاب الله . عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني فقيهاً في أحكام القرآن عالماً بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام ومسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس واخبارهم ، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك ، وكتاب التفسير لم يصنف احد مثله – يعني كتاب « جامع البيان» – وكتاب سماه تهذيب الآثار لم أر سواه في معناه إلاّ أنه لم يتمه. (٢)

وقال البغدادي أيضاً : وله في أُصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار

---

(١) تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، ومعجم الأدباء ٤٠/١٨ .
(٢) تاريخ بغداد ١٦٢/٢ .

من أقاويل الفقهاء ، وتفرد بمسائل حفظت عنه . . » (٣)
وكان الطبري كثير السماع والرحلة جمع المسندين على الرجال والأبواب وصنف حديث الأئمة ، مالك ، والثوري ، وشعبة ، ويحيى بن سعيد وغيرهم . سمع محمد بن حميد الرازي ، واحمد بن ابي منيع البغوي ، ومحمد بن زنبور المكي ، وابا كريب محمد بن العلاء الهمداني ، وابراهيم بن احمد ابن يعيش ، ويحيى بن حكيم المقوم ، وعلي بن سعيد بن شهريار ، ومحمد ابن المثنى العنزي ، وسلم بن جناده ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، وعبدالجبار ابن العلاء ، وسعيد بن عبدالرحمن المخزومي ، ومحمد بن حسان الأزرق . (٤)
وذكر أن قوماً من تلاميذه احصوا ايام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا شيء لايتهيأ لمخلوق إلاّ بحسن عناية الخالق . . (٥)
وذكر في تاريخ بغداد . . (٦) وحدث فيما أسنده إلى أبي بكر بن بالويه قال : قال لي ابو بكر محمد بن اسحاق – يعني ابن خزيمة بلغني انك كتبت التفسير عن محمد بن جرير ، قلت : نعم كتبنا التفسير عنه إملاءً ، قال : كله ؟ قلت : نعم ، قال : في اي سنة ؟ قلت : من سنة ثلاث وثمانين الى سنة تسعين ، قال : فاستعاره مني ابو بكر ورده بعد سنين ، ثم قال : نظرت فيه من اوله الى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير . . »
وكانت ولادته في سنة خمس وعشرين ومائتين ، ووفاته سنة عشر وثلاثمائة يوم السبت لأربع بقين من شوال ، ودفن في داره . . . (٧)

---

(٣) انظر تاريخ بغداد ١٦٣/٢ .
(٤) انظر تاريخ بغداد ١٦٥/٢ والمعجم ٤٥/١٨ .
(٥) انظر معجم الأدباء ٤٤/١٨ .
(٦) ١٦٢/٢ ، وانظر معجم الأدباء ٤٣/١٨ .
(٧) انظر تاريخ بغداد ١٦٤/٢ ومعجم الأدباء ٤٠/١٨ .

وذكر البغدادي أنّ الطبري كان أسمر الى الأدمة ، أعين ، نحيف الجسم مديد القامة ، فصيح اللسان ، وكان السواد في شعره رأسه ولحيته كثيراً . .(٨) وقال ياقوت : وذكر غير الخطيب البغدادي أنه دفن ليلاً ، وأما الخطيب فانه قال : ولم يؤذن به احد فاجتمع على جنازته من لايحصي عددهم إلاّ اللهُ ، وصلّي على قبرهِ عدة شهور ليلاً ونهاراً ورثاه خلق من أهل الدين والأدب . . . » (٩)

مقدمة عن القراءات

ليس هناك كتاب سماوي مثل القرآن الكريم قد أُحيط بالعناية والرعاية والتقدير فحفظ على نصه وقراءته دون المساس بلفظه او معناه . وقد أشار الله تعالى الى ذلك بقوله « إنّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لَهُ لحافظُونَ » . .(٩) وليس غريباً ان يكون علم القراءات من أسبق العلوم المختلفة في العربية لأنه واكب النص المُنزّل ، كما واكبهُ علم التفسير بعد تكامل سور الفرقان العزيز ، كما كان للقراءات اتصال وثيق باللغة والنحو والصرف والبلاغة وربما كانت العناية بالقراءات القرآنية قد مهدت الطريق لقيام الدراسات اللغوية والنحوية — إذا ماعلمنا انّ أحد اسباب نشأة النحو هو الحفاظ على القرآن الكريم من أي لحن أو تحريف — الى جانب علم القراءات الذي تبارى الكثير من العلماء بدراسته دراسة دقيقة متوخين من وراء ذلك صيانة هذا الكتاب المقدس . ونشأ عن هذا الأمر علم التفسير .

قال الدمياطي : ولم تزل العلماء تستنبط عن كل حرف يقرأ به قارئ

(٨) انظر معجم الأدباء ٤٠/١٨ وتأريخ بغداد ١٦٤/٢ .

(٩) الحجر : ٩ .

(١٠) اتحاف فضلاء البشر : ٥ ، وانظر مجلة جامعة الموصل العدد السادس آذار ١٩٧٩ مقالا د . كاصد الزيدي .

معنى لايوجد في قراءة الآخر . . (١٠) فعلماء اللغة المتقدمون واصحاب الدراسات القرآنية كانوا يوجهون القراءات المتعددة الشائعة منها والشاذة توجيهاً قائماً ، على اللغة وعلومها ، وكما هو معروف أن أول كتاب في النحوهو كتاب سيبويه الذي لم يترك موضوعاً إلاّ استشهد بالآيات القرآنية مشيراً في أكثر الأحايين الى اختلاف القراءات في هذه الشواهد محتجاً لها بالشعر وربطها بلغات العرب واساليبهم في التعبير — ناهيك عن ميل أكثر النحاة بعد سيبويه الى التأليف في معاني القرآن والقراءات ، فالفراء مثلاً قد ألف كتاباً سماه « معاني القرآن » وكذلك الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة من البصريين قد الّف كتاباً في العنوان نفسه ، وابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى « ٢١٠ هـ » والمبرد « ٢٨٦ هـ » والزجاج « ٣١٠هـ » ثم ابو جعفر محمد بن جرير الطبري .

ومع هذا النشاط في التأليف الذي يتعلق بالقرآن وقراءاته وتفسيره كان القراء السبعة انفسهم يتحرجون من أن يقرأوا بمالم يقرأ به القراء فقد ذكر ابو بكر بن مجاهد عن الأصمعي انه قال : سمعت ابا عمرو بن العلاء يقول : لولا انه ليس لي ان أقرأ إلاّ بما قرئ به لقرأت حرف كذا وكذا وحرف كذا وكذا . . » (١١) فالقراءة المتلقاة بالقبول هي تلك التي تعتمد على الرواية قبل كل شيء وليست تلك التي يقرأ بها اجتهاداً وقياساً لجوازها في العربية ، فالجائز في العربية لايقرأ به إذا لم يكن له اصل ، أو بعبارة أخرى لايقرأ به إذا لم تكلله الرواية الصحيحة المقبولة ، ولذا عد الباحثون في القراءات عدم الاتّباع في القراءة سفهاً بغير علم .. (١٢) وهذا ماتمسك به أبو جعفر الطبري في كتابه الكبير « جامع البيان » فقد قال : وغير جائز في القرآن أن يقرأ بكل ماجاز في العربية ، لأن القراءة إنما هي ماقرأت به الأئمة الماضية

(١١) ابن مجاهد كتاب السبعة : ٤٨ .

(١٢) انظر بحث « القراءات القرآنية بين الاتباع والقياس » مجلة جامعة الموصل : ١٤ : د . كاصد الزيدي .

وجاء به السلف على النحو الذي أخذوا عمن قبلهم . . . » (١٣)
وكتاب أبي جعفر الطبري هذا في التفسير والقراءات ، أفاد الكثير من أجيال الدراسين ، لأنه انعقد على مبادئ وأسس علمية ولغوية ونحوية سنحاول في هذا البحث ان نشير الى جزء من معالمها وملامحها .

منهج الطبري في القراءات ومصادره

يعتمد كثيراً على قراء الأمصار ويعدّ ماجاء عنهم امراً مسلماً به لايمكن الخروج عليه ولو تعارض ذلك مع اللغة او القواعد النحوية ، كذلك يعتبر الحجة من القراء هم المعول على آرائهم ، فما قرأ به السلف لايسمح بغيره وينقل الكثير من آراء هؤلاء القراء من مختلف الأمصار من أهل مكة والمدينة وأهل الكوفة والبصرة وأحياناً ينقل عن اهل الشام ، وينقل عن النحاة واللغويين أمثال أبي العلاء وأبي اسحاق الحضرمي وعيسى بن عمرو ، ويونس بن حبيب وابي عبيدة والكسائي والفراء ، وعن رواة الحديث والمفسرين أمثال ابن عباس والحسن البصري وابن مسعود وقتادة والأعمش . ويبدو واضحاً تأثير معاني الفراء على كتابه « جامع البيان » لأنه ينقل عنه كثيراً من الآراء في التفسير واللغة والنحو والقراءات وهو — كما رأينا — من المعنيين بعلم القراءات. ولايتسامح أبداً في مخالفة خط المصحف ، وشواهده من الشعر والرجز كثيرة لاتعد ولاتحصى كلها لقبائل مشهورة معروفة من العرب ممن يستشهد بشعرهم .
وعلى الرغم من استعانته ببعض الأقوال لقراء مشهورين كابن كثير وابن عامر والكسائي وحمزة وابي عمرو بن العلاء فانه يتدخل أحياناً في الشرح ويرد على بعض الآراء التي لايرتضيها ، وقد يختار رأياً يقره ويدلل على صحته . وما أكثر الآراء التي يذكرها ويعرض عنها في النهاية لأنها ليست بمقبولة عنده ، فشخصيته بارزة وآراؤه سديدة قاطعة في كل مايذكره ، لأنه كان فقيهاً

(١٣) انظر : جامع البيان ٢٢/١٤٥ .

بلغ مرتبة الاجتهاد ، عالماً بالخلاف بين المذاهب ، وكان له مذهب خاص واتباع وكان من أئمة الحديث وحفاظه (١٤) وصاحب تآليف مشهورة في كل العلوم .

والذي يدرس كتابه « جامع البيان » يمكنه ملاحظة أمور ، هي :

١ــ اعتمادهُ على السماع ، ومايحكى عن العرب ، والاهتمام بلغات القبائل.

٢ــ النقل عن العلماء المشهورين واحترام المنقول ، واعتماده على اللغات المعروفــة .

٣ــ القياس على الاشهر من اللغات والاعتداد بما أجمع عليه العرب .

٤ــ يذكر آراء متعددة ثم يستخلص منها رأياً يرتضيه لايحيد عنه .

٥ــ لايعتد بالشاذ حتى في شواهده الشعرية .

٦ــ لايمكن الخروج على خط المصحف واو تعارض ذلك مع قواعد الأملاء أو قواعد اللغة .

٧ــ كثيراً مايذكر قراءتين أَو ثلاثاً يرتضيها كلها ، لكنه في بعض الأحايين يفضل واحدة منها لاعجابه بها .

٨ــ اهتمامهُ بتقارب المعنى وأحق اللغات التي يقرأ بها كتاب الله من لغات العرب أَفصحها وأشهرهم فيهم .

٩ــ عدم الاعتراض على الحجة من السلف ، لذا فهو يكرر عبارة والقراءة التي لاأَستجيز غيرها لاجماع الحجة من القراء عليها أولى بالصواب عندنا .

١٠ــ يرد على قراء مشهورين من القراء السبعة مثل عاصم وابن كثيــر والكسائي وأَبي عمرو بن العلاء وغيرهم .

١١ــ يذكر قراءات مشهورة لدى الأمصار ويعجب بقراءة منها غيــر مخطّئٍ للقراءات الاخرى .

(١٤) انظر معجم الأدباء ١٨/٤٠ . وتاريخ بغداد ٢/١٦٢ .

١٢- يذكر قراءتين مشهورتين فيعلق عليهما في أكثر المرات أحياناً وأحياناً يتركهما بلا تعليق .

وعلى هُدى هذه الملاحظات سنستعرض لطرف من القراءات التي ذكرها في كتابه الكبير « جامع البيان » .

أولاً : اجماع الحجة من القراء : قال : وقد اختلفت القراء في قراءة قوله « أَصحابُ الجنةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكهون » (١٥) فقرأت ذلك عامة قراء المدينة وبعض البصريين على اختلاف عنه « في شُغْلٍ » بضم الشين وتسكين الغين . وقد روي عن أبي عمرو الضم في الشين والتسكين في الغين والفتح في الشين والغين جميعاً ، « في شَغَلٍ » . وقد قرأ ذلك بعض أهل المدينة وعامة قراء أهل الكوفة « في شُغُلٍ » بضم الشين والغين . والصواب في ذلك عندي : بضم الشين والغين أو بضم الشين وسكون الغين ، فبأي ذلك قرأ القارئ فهو مصيب ، لأن ذلك هو القراءة المعروفة في قراء الأمصار مع تقارب معنييهما ، وأما قراءته بفتح الشين والغين – وهي قراءة أبي عمرو – فغير جائزة عندي لاجماع الحجة من القراء على خلافها .. » (١٦)

وقال : اختلفت في قراءة قوله « ألم تر أنَّ اللهَ سَخرَّ لكم ما في الأرضِ والفُلْكَ تجري » (١٧) فقرأته عامة قراء الأمصار « والفُلْكَ » نصباً بمعنى سخر لكم مافي الأرض والفُلْكَ عطفاً على « ما » وعلى تكرير « أنّ » وأنّ الفلك تجري . وروي عن الأعرج أنه قرأ ذلك رفعاً على الابتداء ، والنصب وهو القراءة عندنا في ذلك لاجماع الحجة من القراء عليه . . . » (١٨)

وقال: اختلف القراء فيقراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الأمصار إلاّ ابن كثير « والذينَ هم لأماناتِهم وعهدِهم راعونَ » (١٩) على الجمع ، وقرأ ذلك ابن

(١٥) يس : ٥٥ .
(١٦) انظر جامع البيان ١٨/٢٣ .
(١٧) الحج : ٦٥
(١٨) جامع البيان ١٩٧/١٧ .
(١٩) المؤمنون : ٨

كثير « لأمانتهم » على الواحدة ، والصواب من القراءة عندنا « لأماناتهم » لاجماع الحجة من القراء عليها . . . » (٢٠)
وقال : وقرأت قراء الأمصار « يكاد سنا برقه يذَهبُ بالابصار » (٢١) بفتح الياء من « يذهب » سوى ابي جعفر القارئ فانه قرأ بضم الياء « يُذهب بالأبصار » والقراءة التي لااختار غيرها هي فتحها لاجماع الحجة من القرّاء عليها ، وأن العرب اذا أدخلت الباء في مفعول « ذهبت » ولم يقولوا : إلاّ ذهبت به دون أذهبت به ، واذا أدخلوا الألف في أذهبت لم يكادوا أن يدخلوا الباء في مفعوله فيقولون : أذهبته وذهبت به . . . (٢٢)
وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « غُلبت الروم في أدنى الأرض » (٢٣) فقرأته عامة قراء الأمصار « غُلبت الرومُ » بضم الغين . بمعنى أن فارس غلبت الروم ، وروي عن ابن عمر أنه كان يقرأ « ألم غَلَبت الرومُ » فقيل له : ياأبا عبدالرحمن : على أي شئ غلبوا قال : على ريف الشام ، والصواب الذي لايجوز غيره « الم غُلبت الرومُ » بضم الغين ، لاجماع الحجة من القراء عايه .

وقال : واختلف القراء في قراءة قوله « وأنَّ اللهَ لايضيعُ أَجرَ المؤمنين»(٢٥) فقرأ ذلك بعضهم بفتح الألف من « أنَّ » بمعنى : « يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ » (٢٦) وبأنَّ الله لايضيع أجر المؤمنين ، وبكسر الألف على الاستئناف واحتج من قرأ ذلك بأنها في قراءة عبدالله « وفضلٍ » والله لايُضيع أجر المؤمنين » قالوا : فذلك دليل على أنَّ قوله « وإنَّ اللهَ » مستأنف على غير متصل بالأول ، وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ ذلك « وأنَّ الله » بفتح الأول

(٢٠) جامع البيان : ٥/١٨ .
(٢١) النور : ٤٣ .
(٢٢) جامع البيان ١٥٤/١٨ .
(٢٣) الروم : ٣ .
(٢٤) جامع البيان : ١٦/٢١ .
(٢٥) آل عمران : ١٧ .
(٢٦) آل عمران : ١١٧ .

لاجماع الحجة من القراء على ذلك . . .(٢٧)

وقال : اختلفت القراء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الأمصار « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزرَ » (٢٨) بفتح « آزر » على اتباعه في الخفض ، ولكنه لما كان اسماً اعجمياً فتحوه إذ لم يجروه وإن كان من موضع خفض .

وذكر عن أبي يزيد المديني والحسن البصري انهما كانا يقرآن ذلك « آزرُ » بالرفع على النداء ، بمعنى : ياآزرُ ، فأما الذي ذكر عن السدّي من حكايته أن آزر اسم صنم ، وانما نصبه بمعنى : أتتخذ آزر أصناماً آلهة ، فقول من الصواب من جهة العربية بعيد ، وذلك أن العرب لا تنصب اسماً بفعل بعد حرف الاستفهام ، لاتقول : أخاك أكلمت ؟ وهي تريد : أكلمت أخاك .

والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من فتح الراء من آزر ، على اتباعه اعراب الأب وأنه في موضع خفض ، ففتح إذ لم يكن جارياً ، لأنه اسم أعجمي وإنما أُجيزت قراءة ذلك كذلك لاجماع الحجة من القراء عليه ، وإذا كان ذلك هو الصواب من القراءة وكان غير جائز أن يكون منصوباً بالفعل الذي بعد الاستفهام صح لك فتحه من أحد وجهين :

إما أن يكون اسماً لأبي ابراهيم فيكون في موضع خفض رداً على الأب . ولكنه فتح لما ذكرت من أنه لما كان اسماً أعجمياً ترك اجراؤه ففتح كما فتح العرب في اسماء العجم . أو يكون نعتاً له فيكون أيضاً خفضاً بمعنى تكرير اللام عليه ولكنه لما خرج مخرج أحمد وأسود ترك اجراؤه وفعل به كما يفعل بأشكاله فيكون تأويل الكلام حينئذٍ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة » (٢٩)

---

(٢٧) انظر جامع البيان ٤/١٧٥ . (٢٨) الأنعام : ٧٤ .

(٢٩) الأنعام : ٧٤ وانظر جامع البيان ٧/٢٤٣ ، وانظر مثلا ٢٨/٢٣٢ ، ١٥/٢٤٥ ، ١٣/١٨ . ٢٥/٨٢ ، ١٨/١٣ ، ١٦/٢١٠ ، ٧/١٦٧ ، ٦/٦٥ ، ٢٦/٢٩ ، ٢٥/٨٢ ، ١٥/٢٨٤ ، ٢٦/١٩ .

ثانياً : الاعتماد على السماع ومايحكى عن العرب ومايجري على ألسنتها يلتزم السماع في آرائه متابعاً للكوفيين التزاماً دقيقاً حتى في المصطلحات مثل الجحد والصرف والترجمة والتفسير والصفة فيحروف الجر والظروف والنسق ومالم يسم فاعله والمكنى وغير ذلك من اصطلاحات الكوفيين المعروفة .

كما يهتم بما يحكى عن العرب الفصحاء الذين يعتد بلغتهم وخاصة القبائل المشهورة كقيس وتميم وبني الحارث ، والأزد وبني أسد وأهل الحجاز الذين يطلق عليهم أحياناً « بأهل العالية » وهذه بعض الأمثلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى .

قال : اختلف القراء في قراءة قوله « لاتُضارُّ والدةٌ بولدها ولا مولودٌ له بولده » (٣٠) فقرأه عامة قراء أهل الحجاز والكوفة والشام « لاتُضارَّ والدةٌ بولدها » بفتح الراء بتأويل ، لاتضارر على وجهة النهي ، وموضعه إذا قرئ كذلك جزم غير أنه حرك إذ ترك التضعيف بأخف الحركات وهو الفتح ، ولو حرك الى الكسر كان جائزاً اتباعاً لحركة لام الفعل حركة عينه ، وإن شئت فلأن الجزم إذا حرك حرك الى الكسر .

وقرأ بعض أهل الحجاز وبعض أهل البصرة ، لاتضارُّ والدةٌ بولدها » فَعَلَ ومن قرأه كذلك لم تحتمل قراءته معنى النهي ، ولكنها تكون بالخبر عطفاً بقوله « لاتضارَّ » على قوله « لاتكلف نفسٌ إلاّ وسعها » وقد زعم بعض نحويي البصرة أن معنى من رفع « لاتضارُّ والدةٌ بولدها » هكذا في الحكم أنه « لاتضارَّ والدةٌ بولدها » أيماينبغي أن تضار ، فلما حذفت « ينبغي » وصار تضارّ في موضعه صار على لفظه ، واستشهد لذلك بقول الشاعر :

على الحَكم المأتيّ يوماً إذا قضى ... قضيَّته أن لا يجورَ ويقصدُ

فزعم أنه رفع « يقصد » ينبغي ، والمحكي عن العرب سماعاً غير الذي قال

(٣٠) البقرة : ٢٣٢ .

وذلك أنه روي عنهم سماعاً : فتصنع ماذا ، إذا أرادوا أن يقولوا : فتريدَ أن تصنع ماذا ، فينصبونه بنيـّة « أن » وإذا لم ينووا « أن » ولم يريدوها قالوا : فتريدُ ماذا ، فيرفعون « تريد » لأنه لاجالب لأن قباه، كما كان له جالب قبل تصنع فاو كان معنى قوله : لا تضارّ إذ قرئ رفعاً بمعنى ينبغي أن تضارَّ أو ماينبغي أن تضارَّ ثم حذف ينبغي وأن ، وأقيم تضارّ مقام ينبغي لكان الواجب أن يقرأ إذا قرئ بذلك المعنى نصباً لارفعاً ليعلم بنصبه المتروك قبله المعنى المراد كما فعل بقوله : فصنع ماذا ، ولكن معنى ذلك ما قلنا اذا رفع على العطف على « لاتكلف » ليست تكلفُ نفس إلاّ وسعها ، وليست تضارٌّ والدةٌ بولدها يعني بذلك أنه ليس ذلك في دين الله وحكمه .

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ بالنصب ، لأنه نهي من تعالى ذكره كل واحد من أبوي المولود عن مضارة صاحبه له . . . (٣١)

وقال : اختلفت القراء في قراءة « ولله ِ عـلَى الناس ِ حِجُ البَيتِ من ْ استطاعَ إليه ِ سبيلاً » (٣٢) فقرأ جماعة من أهل المدينة والعراق بالكسر « ولله ِ على الناس ِ حِـــجُ البيتِ » وقرأ جماعة أخرى منهم بالفتح « ولله َ على الناس ِ حَجُ البيتِ » وهما لغتان معروفتان للعرب ، فالكسر لغة أهل نجد ، والفتح لغة أهل العالية ، ولم نر أحداً من أهل العربية ادعى فرقاً بينهما في في قوله « لقد تقطّع بينَكم » (٣٤) فقرأته عامة قراء أهل المدينة نصباً بمعنى لقد تـَقـَطـِّع ماينكم . وقرأ ذلك عامة قراء مكة والعراقيين «لقد تـَقـَطـّع بينُكم » رفعاً بمعنى لقد تقطع وصلكم .

والصواب من القول عندي في ذلك أن يقال أنهما قراءتان مشهورتان باتفاق المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب ، ذلك أن العرب قد تنصب « بين» في موضع الأسم ذكر سَماعاً منها،إيابي نحوَك ،ودونَك وسواك ،

---

(٣١) جامع البيان ٢/٤٩٦ .
(٣٢) آل عمران : ٩٧ .
(٣٣) جامع البيان ٤/١٨
(٣٤) الأنعام : ٩٤ .

نصباً في موضع الرفع ، وقد ذكر عنها سَماعاً الرفع في « بين » إذا كان الفعل لها وجعلت اسماً وينشد بيت مهلهل :

كأنَّ رِمَاحَهم أَشطانُ بئْرٍ بعيدٍ بينُ جالبها جرورُ

برفع « بين » إذ كانت اسماً ، غير أن الأغلب عليهم في كلامهم النصب فيها في حال كونها صفة وفي حال كونها اسماً . . . » (٣٥)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله «فَجعَلناهم سَلَفَاً ومَثَلاً للآخرين»(٣٦) فقرأته عامة قراء الكوفة غير عاصم « فجعلناهم سُلُفاً » بضم السين واللام توجيه ذلك منهم الى جمع سليف من الناس وهو المتقدم أَمام القوم ، وحكى الفراء أنه سمع القاسم بن معن يذكر أنه سمع العرب تقول : مَضَى سَلِيفٌ من الناس .

وقرأته عامة المدينة والبصرة وعاصم « فجعلناهم سَلَفاً » بفتح السين واللام وإذا قرئَ كذلك احتمل أَن يكونَ مراداً به الجماعة والواحد، والذكر والأُنثى لأنه يقال للقوم : أَنتم لنا سَلَفٌ ، وقد يجمع فيقال : هم أَسلافٌ .

وأولى القراءات في ذلك بالصواب قراءة مَن بفتح السين واللام ، لأنها اللغة الجوداء والكلام المعروف عند العرب ، وأَحق اللغات أَنْ يقرأ بها كتاب الله من لغات العرب أَفصحها وأَشهرها فيهم . . . » (٣٧)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « لَقَدْ كان لكَم فيهم أُسوَةٌ » (٣٨) فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار « إسوةٌ » بكسر الألف خلا عاصم بن أَبي النجود فانه قرأه . . . . . . .بالضم من « أُسوة » وكان يحيى بن وثاب يقرأ هـذه بالكسر ، ويقرأ قوله « لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ » بالضم .

وهما لغتان ، وذكر أن الكسر في أَهل الحجاز والضم في قيس، يقولون :

---

(٣٥) جامع البيان ٢٧٩/٧ .
(٣٦) الزخرف : ٥٦ .
(٣٧) جامع البيان ٨٤/٢٥ .
(٣٨) جامـع البيان ٢١ / ١٤٣ .

أسوة وأخوة . . (٣٩)

وقال : وقد اختلفت القراء في قوله « فَكُلي واشربي وقَرِي عَيْنًا » (٤٠) فأما أهل المدينة فقرأوه « قَرَي » بفتح القاف على لغة من قال : قَرِرتُ بالمكان أقَر به . وقَرِرت عيناً أَقر به قروراً ، وهي لغة قريش فيما ذكر لي وعليها القراءة .

فأما أهل نجد فأنها تقول : قَرَرتُ به عيناً أَقر بهِ قراراً، وقَرَرتُ بالمكان أقِرُ به فالقراءة على لغتهم « وقَرِيَ » بكسر القاف ، والقراءة عندنا على لغة قريش بفتح القاف (٤١) وقال : وقد اختلف القراء في قراءة « إنّ هذانِ لساحران » (٤٢) فقرأته عامة قراء الأمصار « إنّ هذانِ » بتشديد النون من «إنّ » وبالألف في « هذان » وقالوا قرأنا ذلك كذلك .

وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول : إنّ خفيفة في معنى ثقيلة وهي لغة لقوم يرفعون بها ، ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى « ما » وقال بعض نحويي الكوفة ذلك على وجهين :

أحدهما على لغة بني الحارث بن كعب ومن جاورهم ، يجعلون الاثنين في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، وقد أنشدني رَجُل من الأزد عن بعض بني الحارث بن كعب :

فأطرق إطراق الشجاع ولو رأى مَسَاغاً لناباه الشجاع لصمما

وقد حكي عنه أيضاً : هذا خط يدا أخي أعرفه . قال : وذلك إن كان قليلاً أَقيس لأن العرب قالوا : مسلمون فجعلوا الواو تابعة للضمة لأنها لاتعرب ، ثم قالوا : رأيت المسلمين ، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم ، قالوا : فلما رأوا الياء من الاثنين لا يمكنهم كسر ما قبلها وثبت مفتوحاً تركوا الألف تتبعه قالوا : رجلان في كل حالٍ .

(٣٩) جامع البيان ١٤٣/٢١ .
(٤٠) مريم : ٢٦ .
(٤١) جامع البيان ٧٤/١٦ .
(٤٢) طـه : ٦٣ .

قال : وقد اجتمعت العرب على إثبات الألف في كلا الرجلين في الرفع والنصب والخفض ، وهما إثنان إلاّ بني كنانة فأنهم يقولون : رأيت كلي الرجلين ، ومررت بكلي الرجلين ، وهي قبيحة قليلة ، مضوا على القياس قال : والوجه الآخر أَن تقول : وجدت الألَف من هذا دعامة وليست بلام « فَعْلَى » فلما بنيت زدت عليها نوناً ثم تركت الألف ثابتة على حالها ، لاتزول بكل حال ، كما قالت العرب : الذي ، ثم زادوا نوناً تدل على الجمع . فقالوا : الذين في رفعهم ونصبهم وخفضهم ، كما تركوا « هذانِ » في رفعه ونصبه وخفضه ، قال : وكان القياس أن يقولوا : الذّونَ . . . » (٤٣)

وقال : واختلفت القراء في قراءة قوله تعالى : « لو شِئتَ لاتخذتَ عَليهِ أجراً » (٤٤) فقرأته عامة قراء أهل المدينة والكوفة ، على التوجيه منهم له إلى أنه لافتعلت من الأخذ وقرأ ذلك بعض أهل البصرة « لو شئت لتخذتَ » بتخفيف التاء وكسر الخاء ، وأصله لافتعلت ، غير أنهم جعلوا التاء كأنها من أصل الكلمة . ولأن الكلام عندهم في فعل ويفعل من ذلك : تخذت فلان كذا يتخذه تخذاً ، وهي لغة فيما ذكر لهذيل ، وقال بعض الشعراء :

وقد تخِذت رحلي لدى جنب غَرْزِها
نسيفاً كافحوص القطاة المطرقِ

والصواب أنهما لغتان معروفتان من لغات العرب بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب ، غير أني اختار قراءته بتشديد التاء لافتعلت ، لأنها أفصح اللغتين وأشهرهما وأكثرهما على ألسن العرب . . . (٤٥)

وقال : اختلف القراء في قراءة قوله « إنّ يأجوج ومأجوج » (٤٦) فقرأت القراء من أهل الحجاز والعراق وغيرهم « أنّ ياجوج ومأجوج » بغير همز على فاعول من يججتُ ومججتُ ، وجعلوا الألِفين فيهما زائدتين غير عاصم

(٤٣) جامع البيان ١٦/١٨٠ .
(٤٤) الكهف : ٧٧ .
(٤٥) جامع البيان : ١٥/٢٩١ .
(٤٦) الكهف : ٩٤ .

ابن أبي النجود والأعرج فأنه ذكر انهما قرآ ذلك بالهمز فيهما جميعاً ، وجعلا الهمز فيهما من أصل الكلام ، وكأنهما جعلا يأجوج يفعول من أججت ومأجوج مفعول .

والقراءة التي هي القراءة الصحيحة عندنا أن ياجوجَ وماجوجَ بألفٍ بغير همز لاجماع الحجة من القراء عليه وانه الكلام المعروف على ألسن العرب ومنه قول رؤبة :

لو أنّ ياجوج وماجوج معا وعاد عادوا واستجاشوا تُبّعا(٤٧)

وهما أمتان من وراء السد .

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « وأنه أهلك عاداً الأولى » (٤٨) فقرأته عامة قراء المدينة وبعض قراء البصرة « عاداً لوُلى » بترك الهمز وجزم النون حتى صارت اللام في الأولى كأنها لام مثقلة ، والعرب تفعل ذلك في مثل هذا ، حكي عنها سماعاً منهم « قم لآن عنا » يريد : قم الآن ، جزموا الميم لما حركت اللام التي مع الألف في الآن » وكذلك تقول : صم اثنين « يريدون : صم الاثنين » . وأما عامة قراء الكوفة وبعض المكيين فأنهم قرأوا ذلك باظهار النون وكسرها وهمز الأولى على اختلاف في ذلك عن الأعمش ، فروي أصحابه عنه غير القاسم بن معن موافقة أهل بلده في ذلك . وأما القاسم ابن معن فحكي عنه عن الأعمش أنه وافق في قراءته ذلك قراء المدينة .

والصواب من القراءة في ذلك عندنا ماذكر نا من قراءة الكوفيين ، لأن ذلك هو الفصيح من كلام العرب ، وان قراءة من كان من أهـــل السليقة فعلى البيان والتفخيم ، وان الأدغام في مثل هذا الحرف وترك البيان إنما يوسع فيه لمن كان ذلك سجيته وطبعه من أهل البوادي ، فأما المولدون فان حكمهم أن يتحروا أفصح القراءات واعذبها وأثبتها وإن كانت الأخرى جائزة غير

(٤٧) جامع البيان : ١٦/١٦ .

(٤٨) النجم : ٥٠

مردودة . . . » (٤٩)

وقال : اختلفت القراء في قوله تعالى : « قالوا أرجهِ وأخاه وابعث في المدائن حاشرين » (٥٠) فقرأته عامة قراء المدينة وبعض العراقيين : قالوا أرْجهِ » بغير همز وبجر الهاء وقرأه بعض قراء الكوفيين « أَرجِهْ » بترك الهمز وتسكين الهاء على لغة من يقف على الهاء في المكنى في الوصل إذا تحرك ماقبلها كما قال الراجز :

أنحى علي الدهر رِجْلاً ويداً ‌ ‌ ‌ ‌ يُقسم لا يصلُح إلاّ أفسدا

وقد يفعلون مثل هذا بهاء التأنيث فيقولون : هذه طلحهْ قد أقبلت ، كما قال الراجز :

لما رأى أن لادعهْ ولا شبَعْ ‌ ‌ ‌ ‌ مال إلى أرطاةِ حقفٍ فاضطجع

وقرأ بعض البصريين « أرجِئهُ » بالهمز وضم الهاء على لغة قيس .

وأولى القراءات في ذلك بالصواب أشهرها وأفصحها في كلام العرب وذلك ترك الهمز وجر الهاء ، وإن كانت الأخرى جائزة غير أن الذي اخترنا أفصح اللغات وأكثرها على ألسن فصحاء العرب . . . » (٥١)

ثالثاً : تقارب المعنى : جعل تقارب معاني الألفاظ أساساً من أسس منهجه في القراءات يلجأ اليه كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، فقد تكون الألفاظ مختلفة في الشكل أو الحركات ولكن معناها واحد فلا يغير مثل هذا عنده شيئاً من طبيعة القراءة ، فكلها قراءات يمكن أن يقرأ بها القراء مادام معناها واحداً لكنه يميل أحياناً الى قراءة معيَّنة لأنها أحب إليه من الأخرى لا لأن الثانية غير صحيحة أو جائزة فنراه يعتل لما يرغب ويحب من القراءات .

---

(٤٩) جامع البيان ٧٧/٢٧ . ‌ ‌ ‌ ‌ (٥٠) الشعراء : ٣٦ .

(٥١) جامع البيان ١٦/٩ ، وانظر ١٥٣/١٣ و ٢٦٥/١٥ ، ٢٥/٢٩ ، ١٨/٢ ، ١٥٣/١٣ ، ١١١/٨ ، ٢٠٣/٢٩ ، ١/١٤ ، ٢٨٧/١٥ ، ٢٢٤/٢٧ ، ٦٦/١٦ ، ١٠٣/٣٠ ، ٢٦٥/١٥ .

قال: اختلفت القراء في قراءة قوله: « أُذِنَ للذين يقاتلونَ بأنهم ظُلِمُوا»(٥٢) فقرأته عامة قراء المدينة « أُذِنَ للذين يُقاتَلُون » بضم الالف من « أُذِنَ » وفتح التاء من « يقاتَلونَ » بترك تسمية الفاعل في أُذن ويُقاتَلون ، جميعاً وقرأ ذلك بعض الكوفيين وعامة قراء البصرة « أُذِنَ » بترك تسمية الفاعل « ويُقاتِلون » بكسر التاء بمعنى : يقاتل المأذون لهم في القتال المشركين .

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض المكيين «أَذِنَ بفتح الألف، بمعنى : أَذِنَ اللهُ. و«يُقاتِلونَ»بكسر التاء. بمعنى: إنَّ الذين أَذنَ اللهُ لهم بالقتال يقاتلونَ المشركين.

وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعنى ، لأنَّ الذين قرأوا أُذِنَ على وجه ما لم يسم فاعله يرجع معناه في التأويل إلى معنى قراءة مَن قرأه على وجه ما سمي فاعله . وإن قرأ« يُقاتِلونَ » و « يُقاتَلونَ »بالكسر والفتح فقريب معناهما من معنى الآخر . وذلك أنَّ من قاتل إنساناً فالذي قاتله له مقاتَل وكل واحد منهما مقاتل ، فإذا كان ذلك كذلك فبأية هذه القراءات قرأ القارئ فمصيب الصواب . غير أن أحبَّ ذلك إليَّ أنْ أقرأ به « أَذِنَ » بفتح الألف بمعنى : أذن اللهُ ، لقرب ذلك من قوله « إنَّ اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ خوّانٍ كفورٍ » (٥٣) فيرد «أَذن» على قوله « إنَّ اللهَ لا يُحبُّ » وكذلك أَحبُّ القراءاتِ إليَّ في « يُقاتلونَ » كسر التاء بمعنى : الذين يقاتلون من قد أَخبر اللهُ عنهم أنه لا يحبهم فيكون الكلام متصلاً معنى بعضه ببعض (٥٤) .

وقال : اختلفت قراء الأمصار في قراءة قوله « وأنّى لهم التناوشُ مِنْ مكان بَعيدٍ » فقرأته عامة قراء المدينة « وأنّى لهم التناوشُ » (٥٥) بغير همز ، بمعنى التناول وقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة « التناؤش » بالهمز ، بمعنى : التنؤش وهو الابطاء ، يقال منه تناءشت الشيء : أَخذته من بعيد . ونشته : أَخذته من قريب . ومن التنؤش قول الشاعر :

(٥٢) الحج : ٣٩ .
(٥٣) الحج : ٣٨ .
(٥٤) جامع البيان ١٧١/١٧ .
(٥٥) سبأ : ٥٢ .

تُمنّي نئيشاً أن يكون أطاعني وقد حدثت بعد الأمور أمورُ

ومن النوش قول الراجز :

فهي تنوشُ الحوضَ نوشاً من عَلا نوشاً به تَقْطَعُ أجواز الفَلا

ويقال للقوم في الحرب إذا دنا بعضهم إلى بعض بالرماح ولم يتلاقوا : قد تناوش القوم . والصواب أنهما قراءتان معروفتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى . وقد يجوز أن يكون الذين قرأوا بالهمز، همزوا وهم يريدون معنى من لم يهمز ، ولكنهم همزوه لانضمام الواو فقلبوها ، كما قيل: « وإذا الرسلُ أُقّتَتْ »(٥٦) فجعلت الواو من « وُقتتْ » إذ كانت مضمومة همزة (٥٧) .

وفي مرات كثيرة يذكر تقارب المعنى ولا يعلق عليه ، كما فعل في الآيتين اللتيين ذكرناهما آنفاً ، كأنه لايفضل قراءة على أُخرى فهما لديه سواء . قال : اختلفت القراء في قوله « تنزيلُ العزيزِ الرحيمِ » (٥٨) فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة « تنزيلُ العزيز » برفع تنزيل ، والرفع في ذلك يتجه من وجهين :

أحدهما : بأن يجعل خبراً فيكون معنى الكلام إنه تنزيلُ العزيزِ الرحيمِ . والآخر : بالابتداء ، فيكون معنى الكلام حينئذٍ أنك لمن المرسلين هذا تنزيلُ العزيزِ الرحيمِ .

وقرأته عامة قراء الكوفة وبعض أهل الشام « تنزيلَ » نصباً عل المصدر من قوله : « إنك لمن المرسلين » لأن الارسال إنما هو عن التنزيل ، فكأنه قيل : لمنزل تنزيلَ العزيز الرحيم حقاً . والصواب من القول : إنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . . . » (٥٩) وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « أفحسبتُم أنّما خلقناكم عَبَثاً وأنكم

(٥٦) المرسلات : ١١
(٥٧) جامع البيان : ١٠٩/٢٢ .
(٥٨) يس : ٥
(٥٩) جامع البيان : ١٤٩/٢٢

إلينا لاتُرجعَون » (٦٠)

فقرأه بعض قراء المدينة والبصرة والكوفة « لاتُرجعون » بضم التاء ، لاتُردون ، وقالوا : إنما هو من مرجع الآخرة لامن الرجوع إلى الدنيا ، قرأ ذلك عامة قراء الكوفة « لاتَرجعون » بفتح التاء ، وقالوا : سواء في ذلك مرجع الآخرة والرجوع إلى الدنيا ، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إنهما قراءتان متقاربتا المعنى . . . (٦١)

وقال : واختلفوا في قراءة قوله « تُوقدُ من شَجَرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ »(٦٢) فقرأ بعض المكيين والمدنيين والبصريين « تَوَقّدُ من شجرةٍ » بالتاء وفتحها وتشديد القاف وفتح الدال ، وكأنهم وجّهوا معنى ذلك الى تُوقّد المصباح من شجرةٍ مباركةٍ وقرأ بعض عامة قراء المدنيين « يُوقد » بالياء وتخفيف القاف ، ورفع الدال بمعنى : يُوقد المصباح موقده من شجرةٍ ، ثم لم يسم فاعله ، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة « تُوقدُ » بضم التاء وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، بمعنى : تُوقد الزجاجة موقدها من شجرة مباركة لما لم يُسم فاعله فقيل : تُوقدُ وقرأه بعض أَهْلِ مكة « تَوَقّدُ » بفتح التاء وتشديد القاف وضم الدال بمعنى : تتوقّدُ الزجاجة من شجرة ، ثم سقطت إحدى التاءين اكتفاء بالباقية من الذاهبة . وهذه القراءات متقاربات المعاني وإن اختلفت الألفاظُ بها . . . » (٦٣)

وقال : واختلفت القراء في قراءة قوله « فالتقطهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحزَناً » (٦٤)

فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة « وحَزَناً » بفتح الحاء والزاي ، وقرأته عامة قراء الكوفة « وحُزْناً » بضم الحاء وتسكين الزاي والحَزَنُ

(٦٠) المؤمنون : ١١٥

(٦١) جامع البيان ١٨/٦٣ .

(٦٢) النور : ٣٥ .

(٦٣) جامع البيان : ١٨/١٤١

(٦٤) القصص : ٨

بفتح الحاء والزاي مصدر من حزنت حَزَناً ، والحُزْنُ بضم الحاء وتسكين الزاي الاسم كالعَدَمِ والعُدْمِ ونحوه ، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى وهما على اختلاف اللفظ فيهما بمنزلة العَدَمِ والعُدْمِ فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب . . . » (٦٥)

وقال : واختلفت القراء في قراءة ذلك ، فقرأ بعض المكيين وعامة الكوفيين « وأسبغ عليكم نعمةً » (٦٦) على الواحدة ، ووجهوا معناها الى أنه الاسلام . وقرأ عامة قراء المدينة والبصرة « نِعَمَهُ » على الجمع ووجَّهوا معنى ذلك الى أنها النعم التي سخرها الله للعباد في السموات والأرض ، واستشهدوا لصحة قراءتهم ذلك بقولهم « شاكراً لأنعمِه » (٦٧) قالوا : فهذا جمع النعم . والصواب من القول في ذلك عندنا أَنهما قراءتان مشهورتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى ، وذلك أن النعمة قد تكون بمعنى الواحدة ، ومعنى الجمع (٦٨)

رابعاً : القياس على الأشهر من اللغات والاعتماد على المعروف منها وأحق اللغات أَن يقرأ بها القرآن من لغات العرب أَفصحها وأَشهرها فيهم ولا يعتد بالشاذ .

فصاحة اللغة وشهرتها عنده من مقومات القراءة ، وكذلك القياس على المشهور من كلام العرب وعدم الاعتداد بالشاذ ، ولا يقبل كل ماجاز في العربية ، لأن القراءة عنده ماقرأت به الأئمة الماضية وجاء به السلف .

قال : واختلفت القراء في قراءة قوله « ثم أَرْسَلنا رُسلَنا تَتَرى » (٦٩) فقرأ بعض قراء أَهل مكة وبعض أهل المدينة وبعض أَهل البصرة « تَتْراً » بالتنوين وكان بعض أَهل مكة وبعض أَهل المدينة وعامة قراء الكوفة يقرأونه « تترى » بارسال الياء على مثال « فَعْلَى » والقول في ذلك أَنهما قراءتان

(٦٥) جامع البيان : ٢٠ /٣٣ . (٦٦) لقمان : ٢٠ (٦٧) النحل : ١٢١ .
(٦٨) جامع البيان ٧٦/٢١ وانظر ١١/١٣ ، ٦١/٢٨، ٢٣/٢٤ ، ٣٦/٢٥ ، ٣/٢٦، ٩٨/١٣
(٦٩) المؤمنون : ٤٤ .

مشهورتان ولغتان معروفتان في كلام العرب بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب غير أني مع ذلك أختار القراءة بغير تنوين لأنها أفصح اللغتين وأشهرهما . . . (٧٠)

وقال : واختلفت القراء في قراءة قوله « فأتخذتُموهم سُخِريا » (٧١) فقرأه بعض قراء الحجاز وبعض أهل البصرة والكوفة « سِخِريا » بكسر السين ويتأوّلون في كسرها أن معنى ذلك الهُزء ، ويقولون : إنها إذا ضُمت فمعنى الكلمة : السُخرة والاستعباد ، فمعنى الكلام على مذهب هؤلاء : فاتخذتم أهل الايمان بي في الدنيا هُزؤاً ولعباً ، تهزأون بهم حتى أنسوكم ذِكري .

وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة « فاتخذتموهم سُخرياّ » بضم السين وقالوا : معنى الكلمة في الضم والكسر واحد ... وإنما اخترنا الضم في « السخريّ » لأنه أفصح اللغتين ، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان بمعنى واحد . . . » (٧٢)

وقال: واختلفت القراء في قراءة قوله « والذينَ إذا انفقوا لم يُسرفُوا ولم يقُتروا »(٧٣) فقرأته عامة قراء المدينة « ولم يقُتروا » بضم الياء وكسر التاء من أقتر يقُتر ، وقرأته عامة قراء الكوفيين « ولم يَقْتُروا » بفتح الياء وضم التاء من قتَرَ يقتُرُ ، وقرأته عامة قراء البصرة « ولم يَقْتِروا » بفتح الياء وكسر التاء من قتَرَ يقتِرُ ، و الصواب من القول في ذلك أن كل هذه القراءات على اختلاف ألفاظها لغات مشهورات في العرب وقراءات مستفيضات في قراء الأمصار بمعنى واحد ، فبأيتها قرأ القارئ فمصيب . . . . » (٧٤)

(٧٠) جامع البيان ٢٤/١٨
(٧١) المؤمنون : ١١٠ .
(٧٢) جامع البيان ٦٠/١٨ .
(٧٣) الفرقان : ٦٧ .
(٧٤) جامع البيان ٤٠/١٩ .

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « فَهَلْ وجَدَتُم ماوَعَدَ ربُكم حقاً قالوا نَعَمْ »(٧٥) فقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة والبصرة « قالوا نَعَمْ » بفتح العين من « نَعَمْ » وروى عن بعض الكوفيين أنه قرأ « قالوا نَعِمْ » بكسر العين ، وقد أنشد بيتاً لبني كلب :

نَعِمْ إذا قالها منه محققةٌ ولاتجيء عَسَى منه ولا مَمَنُ

بكسر العين من « نَعِمْ » .

قال ابو جعفر : والصواب من القراءة عندنا « نَعَمْ » بفتح العين ، لأنها القراءة المستفيضة في قراء الأمصار واللغة المشهورة في العرب . . (٧٦).

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « وقالَ الذينَ كفروا لاتَأْتينا الساعةُ قلْ بلى وربي لتأتينكم عَالمُ الغيبِ لايَعزُبُ عَنْهُ » (٧٧) فقرأته عامة قراء المدينة « عالمُ الغيب » على مثال « فأل » بالرفع على الاستئناف إذ دخل بين قوله ورَبي وبين قوله « عالم الغيبِ » كلام حائل بينه وبينه .

وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة والبصرة على مثال « فاعل » غير أنهم خفضوا « عالم » رداً منهم على قوله « وربي » إذ كان من صفته ، وقرأ ذلك بقية قراء الكوفة « علاّمِ الغيب » على مثال « فعّال» وبالخفض رد لاعرابه على إعراب قوله « وربي » إذ كان من نعته . والصواب أن كل هذه القراءات الثلاث مشهورات في قراء الأمصار ، غير أنَّ أَعْجبَ القراءات في ذلك إليّ أن أقرأ بها «عَلاّمِ الغيبِ » على القراءة التي ذكرتها عن عامة قراء أهل الكوفة ، فأما اختيار « عــلاّمِ » على عالم ، فلأنها أبلغ في المدح .. وامــا الخفض فيها فلأنها من نعت « الرب » وهو في موضع الجر .

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « قالَ يا بُشرى هَذا غُلامٌ

---

(٧٥) الأعراف : ٤٤ .

(٧٦) جامع البيان ١٨٧/٨ .

(٧٧) سبأ : ٣

وأسرّوه بضاعةً والله عليمٌ بما يَعملون » فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة « يا بُشْريَّ » باثبات ياء الاضافة ، غير أنه أدغم الألف في الياء طلباً للكسرة التي تلزم ما قبل ياء الاضافة من المتكلم في قولهم : غلامي ، وجاريتي في كل حال ، وذلك لغة طيىء ، كما قال أبو دؤيب:

سبقوا هَويَّ وأعنقوا لهواهمُ فتغرموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين « يابُشريَ » بارسال الياء وترك الاضافة . وإذا قرىء كذلك احتمل وجهين :

أحدهما : قاله السديّ وهو أن يكون اسم رجلٍ دعاه المستقي باسمه كما يقال : يازيدُ ، وياعمرو ، فيكون بُشرى في موضع رفع بالنداء .

والآخر : أن يكون أراد إضافة البُشرى إلى نفسه فحذف الياء وهو يريدها فيكون مفرداً وفيه نية الاضافة ، كما تفعل العرب في النداء فتقول : يانفسِ اصبري ، ويانفسي اصبري . ويابني لاتفعل ، ويابُنيَّ لاتفعل ، فتفرد وترفع وفيه نية الاضافة ، وتضيف أحياناً فتكسر كما تقول : ياغلامِ أقبل ، وياغُلامي أقبل ، وأعجب القراءة في ذلك إليَّ قراءة مَن قرأه بارسال الياء وتسكينها لأنه إن كان اسم رجل بعينه كان معروفاً فيهم كما قال السديّ فلذلك هي القراءة الصحيحة لاشك فيها ، وإن كان التبشير فانه يحتمل ذلك إذا قرئ كذلك على ما بينت ، وأما التشديد والاضافة في الياء فقراءة شاذة لا أرى القراءة بها ، وإن كانت لغة معروفة ، لاجماع الحجة من القراء على خلافها(٧٨).

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « إن قتلَهم كانَ خِطْئاً كبيراً »(٧٩) فقرأته عامة قراء أهل المدينة والعراق « إنَّ قَتْلَهم كانَ خِطْئاً كبيراً » بكسر الخاء من الخطأ وسكون الطاء ، وإذا قرئَ كذلك كان له وجهان من التأويل : أحدهما أن يكون إسماً من قول القائل . خَطِئت فأنا أخطأ ، بمعنى : أذنبت

(٧٨) جامع البيان ١٦٧/١٢ .

(٧٩) الأسراء : ٣١ .

وأثمت ويحكى عن العرب خَطِئْتَ إذ أذنبتَ عمداً ، وأخطأتَ ، إذا وقع منك الذنب خَطَأً على غير عمدٍ منك . والثاني : أن يكون بمعنى خَطَأً بفتح الخاء والطاء ، ثم كسرت الخاء وسكنت الطاء ، كما قيل : قِتْبٌ ، وقَتَبٌ ، وحِذْرٌ ، وحَذِرٌ نَجْسٌ ونَجِسٌ ، والخطء بالكسر اسم ، والخَطَأ بفتح الخاء والطاء مصدر من قولهم : خَطِىءَ الرجلُ ، وقد يكون اسماً من قولهم : أخطأ ، فأما المصدر منه فالإخطاء ، وقد قيل: خَطِىءَ كما قال الشاعر :

يا لهفَ هند إذ خَطِئنَ كاهلا .

بمعنى : أخطأن .

وقرأ ذلك بعض أهل المدينة « إنَّ قتلهم كانَ خَطَأً » بفتح الخاء والطاء مقصوراً على توجيهه إلى أنه اسم من قولهم : أخطأ فلانٌ خَطَأً .

وقرأ بعض قراء أهل مكة « إنَّ قتلهم كانَ خَطَاءً » بفتح الخاء والطاء ومد الخطاء بنحو معنى من قرأه « خَطَأً » بفتح الخاء والطاء ، غير أنه يخالفه في مد الحرف ، وكان عامة أهل العلم بكلام العرب من أهل الكوفة وبعض البصريين منهم يرون أن الخِطء والخَطَأ ، بمعنى واحد ، إلاّ أن بعضهم زعم أن الخِطء بكسر الخاء وسكون الطاء في القراءة أكثر ، وأن الخَطَأ بفتح الخاء والطاء فيكلام الناس أفشى ، وأنه لم يسمع الخِطء بكسر الخاء وسكون الطاء في شيء من كلامهم وأشعارهم ، إلاّ في بيتٍ أنشده بعض الشعراء

الخِطْءُ فاحشةٌ والبر نافلةٌ   كعجوةٍ غرست في الأرضِ تؤتبر

وأولى القراءات في ذلك بالصواب القراءة التي عليها قراء أهل العراق وعامة أهل الحجاز ، لاجماع الحجة من القراء عايها وشذوذ ماعداها . . . » (٨٠)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « إنَّ اللهَ ربي وربكم فاعبدوه »(٨١) فقرأته عامة قراء الأمصار بكسر ألف « إنَّ » على ابتداء الخبر ، وقرأه بعضهم .

(٨٠) جامع البيان ٧٩/١٥ .   (٨١) آل عمران : ٥١ .

« أنَّ اللهَ ربي وربكم » بفتح ألف « إنَّ » بتأويل : وجئتكم بآيةٍ من ربكم أنَّ الله ربي وربَكم » على رد « أنَّ » على الآية والابدال منهما . والصواب من القراءة عندنا ماعايه قراء الأمصار وذلك بكسر ألف « إنَّ » على الابتداء لاجماع الحجة من القراء على صحة ذلك ، وما اجتمعت عليه فحجة ، وما انفرد به عنها فرأي ، ولايعترض بالرأي على الحجة . . (٨٢)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « إلاّ أنْ تكونَ تجارَةٌ حاضِرةٌ تديرونَها بينَكم »(٨٣) فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق وعامة القراء « إلاّ أنْ تكونَ تجارةٌ حاضرةٌ» بالرفع ، وانفرد بعض قراء الكوفة فقرأه بالنصب ، وذلك وإن كان جائزاً في العربية إذا كانت العرب تنصب النكرات والمنعوتات مع كان وتضمر مع « كان » مجهولاً فتقول : إنْ كان طعاماً طيباً فائتنا بهِ ، وترفعها فتقول : إن كان طعامٌ طيبٌ فائتنا بهِ ، فتتبع النكرة خبرها بمثل إعرابها ، فان الذي أختار من القراءة ثم لاأستجيزُ القراءة بغيره الرفع في التجارة والحاضرة ، لاجماع القراء على ذلك وشذوذ من قرأ ذلك نصباً عنهم ، ولا يعترض بالشاذ على الحجة . . . » (٨٤)

خامساً : الالتزام بخط المصحف : لايجُوّز أَي تغيير في خط المصحف تحت أي ظرف من الظروف شأنه في ذلك شأن العلماء الأتقياء ، الذين يرون أنَّ أي تغيير يمس كتاب اللهِ غير جائز في الدين ، لأن المصحف الكريم مقدس منزه عن كل تحريف أو تحوير ولو تعارض مع قواعد الاملاء .

قال : ذوعسرةٍ في قوله تعالى « وإن كان ذوعسرةٍ فنَظرةٌ إلى ميسَرَةَ »(٨٥) مرفوع « بكان » والخبر متروك ، وإنما صلح ترك خبرها من أجل النكرات ، تضمر لها العرب أخبارها ، ولو وجهت « كان » في هذا الموضع

---

(٨٢) جامع البيان ٢٨٣/٣ . (٨٣) البقرة : ٢٨٢ .

(٨٤) جامع البيان ١٣٢/٣ . وانظر ٢٥/٣ و ٣٠/٢٢ .

(٨٥) البقرة : ٢٨٠ .

إلى أنها بمعنى الفعل المكتفي بنفسه التام لكان وجهاً صحيحاً ، ولم يكن بها حاجة حينئذٍ إلى خبَرٍ .

وقد ذكر أنّ ذلك في قراءة أبي بن كعب « وإن كان ذَا عُسرةٍ » بمعنى : وإن كان الغريم ذا عسرة فَنَظرةٌ إلى مَيْسَرَةٍ » وذلك إن كان جائزاً في العربية فغير جائز القراءة به عندنا لخلافه خطوط مصاحف المسلمين » (٨٦) .

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « لأهب لَكِ غُلاماً زكياً » (٨٧) فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق غير أَبي عمرو ، بمعنى : أَنا رسولُ ربكِ أرسلني إليكِ لأهب لكِ غلاماً زكياً ، على الحكاية ، وقرأ أبو عمرو ابن العلاء « ليهبَ لك غلاماً زكياً » بمعنى أنا رسولُ ربكَ أرسلني إليك ليهب الله لك غُلاماً زكياً » والصواب من القراءة في ذلك ماعليه قراء الأمصار وهو « لأهبَ لك » بالألف دون الياء ، لان ذلك كذلك في مصاحف المسلمين ، وعليه قراءة قديمهم وحديثهم غير أبي عمرو ، وغير جائز خلافهم فيما أجمعوا عليه ولا سائغ لأحد خلاف مصاحفهم . . . (٨٨)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « وَمَا هُو عَلى الغَيْبِ بضَنين »(٨٩) فقرأته عامة قراء المدينة والكوفة « بضنينٍ » بالضاد بمعنى أَنه غير بخيل عليهم بتعليمهم مَا عَلّمه اللهُ وأَنزل إليهِ من كتابهِ ، وقرأ ذلك بعض المكيين وبعض البصريين وبعض الكوفيين « بظنين » بالظاء بمعنى أَنه غير متهم فيما يخبرهم عن الله من الأنبياء . وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب ماعليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة ، وإن اختلفت قراءتهم به وذلك « بضنين » بالضاد ، لأن ذلك كله كذلك في خطوطها . . . » (٩٠)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « يومَ يأتِ لاتُكلمُ نفسٌ » (٩١)

---

(٨٦) جامع البيان ١٠٩/٣
(٨٧) مريم : ١٩
(٨٨) جامع البيان : ٦١/١٦ .
(٨٩) التكوير : ٢٤ .
(٩٠) جامع البيان : ٨١/٣٠
(٩١) هود : ١٠٥ .

فقرأ عامة قراء أهل المدينة باثبات الياء فيها « يومَ يأتي لاتكلم نَفْسٌ » وقرأ ذلك بعض قراء اهل البصرة وبعض الكوفيين باثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف وقرأ جماعة من أهل الكوفة بحذف الياء في الوصل والوقف « يومَ يأتِ لاتكلم نفس إلاّ باذنهِ » .

والصواب من القراءة « يومَ يأتِ » بحذف الياء في الوصل والوقف اتباعاً لخط المصحف، وأنها لغة معروفة لهذيل تقول : ما أدرِ ماتقول ، ومنه قول الشاعر :

كفاك كف ماتُليق درهماً جوداً وأخرى تقطِبالسيف الدما (٩٢)

سادساً : النقل عن علماء مشهورين في اللغة والنحو ويقف معهم صفاً واحداً .

يشكل النقل عن شيوخ معروفين ظـاهرة واضحة في منهـج أبي جعفر الطبري في القراءات واللغة والنحو ، لكنه ليس ناقلاً لآراء هؤلاء حسب بل تبدو شخصيته واضحة في كل ما ينقل من آراء ، فكثيراً مايجهر برأيه مخالفاً أو موافقاً متى مارأى النقل لاينسجم مع مذهبه أو طبيعة الموضوع الذي يتحدث عنه ، فهو يرد على علماء كبار في القراءات أمثال ابن كثير وابي عمرو زبن العلاء والكسائي وعاصم بن أبي النجود وغيرهم لغزارة علمه في القراءات واللغة ومعرفته الواسعة بلغات القبائل المعروفة بالفصاحة ، وهذا النقل يكون أحياناً بطريق غير مباشر ، كما سنرى ذلك في البحث عن شواهده .

قال : اختلفت القراء في قراءه قوله « لقَالُوا إنما سُكرت أبصارُنا بل نحن قومٌ مَسحورون » (٩٣)

فقرأ أهل المدينة والعراق « سُكّرت » بتشديد الكاف بمعنى : غُشيت وغُطيت هكذا كان يقول أبو عمرو بن العلاء فيما ذكر لي عنه ، وذكر عن مجاهد أنه كان يقرأ « لقالوا إنما سُكِرَت » خفيفة ، وذهب مُجاهد في قراءته ذلك الى حُبست أَبصارنُا ، على الرؤيةٍ والنظر من سكور الريح ،

(٩٢) جامع البيان ١٢/١٥ (٩٣) الحجر : ١٥ .

وذلك سكونها وركودها ، يقال منه : سَكِرتِ الريحُ : إذا سكنت .
وقد حكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : هو مأخوذ من سُكْرْ الشراب وأن معناه : قد غشى أبصارنا السُكْرُ .
وعن ابن عباس « لقالوا إنما سُكّرت أَبصارنا » يقول : أُخذت .
وأولى هذه الأقوال قول من قال : معنى ذلك : أُخذت أبصارنا وسجرت فلا تبصر الشيء على ما هو به ، وذهب حد إبصارها وأنطفأ نوره ، كما يقال للشيء الحار إذا ذهبت فورته وسكن حد حره قد سَكِرُ قال المثنى ابن جندل :

جاء الشتاءُ واجثأل القُبّرُ ... واستخفت الأفعى وكانت تظهر

وجعلت عين الحرور تسْكُرُ

أي : تسكن وتذهب وتنطفىء ، وقال ذو الرمة :

قبل انصداع الفجر والتجهّرْ ... وخوضهنَّ الليلَ حين يَسكِرْ

يعنى : حين تسكن فورته .
غير أن القراءة التي لا استجيز في القراء « سُكّرت » بالتشديد لاجماع الحجة من القراء عليها . . . . » (٩٤)

وقال : اختلف القراء في قراءة قوله « ولا تقولوا لما تَصِفُ أَلسنتكُم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ » (٩٥)
فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق « الكَذِبَ » بالنصب، فتكون نصف الكذب بمعنى : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب فتكون « ما » بمعنى المصدر .
وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ « ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب» بخفض « الكذب » بمعنى : ولاتقولوا للكذبِ الذي تصفه ألسنتكم ، هذا حلال ، وهذا حرام » فيجعل الكذب ترجمة عن « ما » التي في « لما » فتخفضه بما تخفض به « ما » .

(٩٤) جامع البيان ١١/١٤ .
(٩٥) النحل : ١١٦ .

وقد حكي عن بعضهم « لما تصف ألسنتكم الكذبُ » بر فع «الكذب» فيجعل الكذب من صفة الألسنة ، ويخرج على « فُعُلٍ » على أنه جمع كذوب وكُذُبٍ ، مثل شكور وشُكُرٍ ، والصواب عندي من القراءة نصب « الكذب » لاجماع الحجة من القراء عليه . (٩٦)

وقال: اختلفت القراء في قراءة قوله « وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا للنبي » (٩٧) فقرأ عامة قراء الأمصار « إنْ وهبت » بكسر الألف على وجه الجزاء بمعنى : إن تهب ، وذكر عن الحسن البصري أنه قرأ « أنْ وهبت » بفتح الألف ، بمعنى : وأحللنا له امرأةً مؤمنةً ينكحها لهبتها له نفسها . والقراءة التي لاأستجيز غيرها كسر الألف . . . » (٩٨)

وقال : اختلفت القراء في قوله « ولسليمانَ الريحَ عاصفةً تجري بأمرهِ » (٩٩)

فقرأته عامة قراء الأمصار « ولسليمانَ الريحَ » بنصب الريح ، بمعنى : ولقد آتينا داود منا فضلاً وسخرنا لسليمان الريحَ ، وقرأ عاصم « ولسليمان الريحُ » رفعاً بحرف الصفة ، إذ لم يظهر الناصب ، والصواب من القراءة في ذلك عندنا النصب . . . » (١٠٠)

وقال : واختلفوا في قراءة قوله « ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوفهم أمْنَاً » (١٠١) فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار سوى عاصم « ولَيُبَدِّلَنَّهم » بتشديد الدال ، بمعنى : وليغيرنَّ حـالهم عما هي عليه من الخـوف الى الأمن ، والعرب قد تقول : قد بُدل فلان إذا غُيرت حاله ولم يأت مكان فلان غيره ، وكذلك كل مغير عن حاله ، فهو عندهم مبدل بالتشديد وربما

(٩٦) جامع البيان : ١٤/١٨٩
(٩٧) الأحزاب : ٥٠
(٩٨) جامع البيان ٢٢/٢٢ .
(٩٩) الأنبياء : ٨١ .
(١٠٠) جامع البيان : ٢٢/١٨ .
(١٠١) النور : ٥٥ .

قيل بالتخفيف وليس بالفصيح ، فأما إذا جعل مكان الشيء المبدل غيره فذلك بالتخفيف ، أبدلته فهو مُبْدَل ، وذلك كقولهم : أبدل هذا الثوبُ ، أي جُعِلَ مكانه آخر غيره ، وقد يقال بالتشديد ، غير أنّ الفصيح من الكلام ماوصفت ، وكان عاصم يقرؤه « ولَيُبَدلّنهم » بتخفيف الدال . والصواب من القراءة في ذلك : التشديد . . . (١٠٢)

وقال : اختلفت القراء في قوله « فاذكروا اسمَ اللهِ عَليها صَوَافَّ »(١٠٣) فقرأته عامة قراء الأمصار « صَوَافَّ » بمعنى مصطفة ، واحدها صافة ، وقد صفت بين يديها ، وروي عن الحسن البصري ومجاهد وجماعة أنهم قرأوا ذلك « صوافيَ » بالياء منصوبة بمعنى : خالصة لك لا شريك له فيها ، صافية له ، وقرأ بعضهم : ذلك « صَوَافٍ » باسقاط الياء وتنوين الحرف على مثال عَوارٍ ، وعَوارٍ ، وروي عن ابن مسعود أنه قرأه « صَوَافنٌ » بمعنى : معلقة . والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأه بتشديد الفاء ونصبها (١٠٤)

وقال : واختلف القراء في قراءة قوله « يُضاعف لهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدُ فيه مُهَاناً » (١٠٥) فقرأته عامة قراء الأمصار « يُضاعفُ لَه العَذَابُ » بالألف غير أبي عمرو فأنه قرأ ذلك « يُضَعّف » بتشديد العين تأولاً منه في قراءته ، ذلك أنّ يضعف بمعنى : تضعيف الشيء مرة واحدة ، وذلك أن يجعل الشيء شيئين ، فكأنّ معنى الكلام عنده أن يجعل عذاب من يأتي من نساءِ النبي بفاحشة مبينة في الدنيا والآخرة . والصواب من القراءة في ذلك « يُضاعف » وأما التأويل الذي ذهب اليه أبو عمرو فتأويل لانعلم أحداً من أهل العلم : ادعاه غيره وغير أبي عبيدة معمر بن المثنى . ولايجوز خلاف ماجاءت به الحجة مجمعة عليه بتأويل ، ولابرهان له من الوجه الذي يجب التسليم له . . . »

---

(١٠٢) جامع البيان ١٥٩/١٨

(١٠٣) الحج : ٣٦ .

(١٠٤) جامع البيان ١٦٧/١٧ .

(١٠٥) الفرقان : ٦٩

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « لَعَلّي أبلغ الأسبابَ أسبابَ السموات ِ فأطلَعُ إلى إله ِ موسى » ((١٠٦)

فقرأت عامة قراء الأمصار « فأطلعُ » بضم العين ، رداً على قوله « أبلغُ الأسبابَ وعطفاً به عليــه وذكر عن حميد الأعرج أنه قرأ « فأطلعَ » نصباً جواباً « للعل » . وقد ذكر الفراء أن بعض العرب أنشده :

على صروف الدهر أو دُولاتها
يُدلّنـــا اللمةَ من لمـــاتهـــا
فتستريـــحَ النفسُ من زفراتها

فنصب « فتستريحَ » على أنها جواب « للعل » . . .

والقراءة التي لاأَستجيز غيرها الرفع في ذلك لاجماع الحجة من القراء عليه . . . (١٠٧)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « فاذا بَرِقَ البَصَرُ » (١٠٨) فقرأه أبوجعفر القارىء ونافع وابن أَبي إسحاق « فاذا بَرَقَ البَصَرُ » بفتح الراء ، بمعنى شخص وفتح عند الموت وقرأ ذلك شيبة وأبو عمرو وعامة قراء الكوفة « بَرِقَ » بكسر الراء بمعنى : فزع وشق ، وعن أبي عمرو ابن العـــلاء أن بَرِقَ بالكسر بمعنى حار ، قالَ : وسألت عنها عبدالله بن أبي اسحاق فقال : بَرَقَ » بالفتح وانما بَرِقَ الخَيطلُ والنارُ والبرقُ وأما البصر فَبرِقَ عندَ الموت، قال : وأُخبرت بذلك أَنَّ ابن أَبي اسحاق قال : أخذت قراءتي عن الأشياخ نصر بن عاصم وأَصحابه فذكرت ذلك لأبي عمرو فقال : لكن لاأخذ عن نصر ولا عن أَصحابه فكأنه يقول : آخذ عن أَهل الحجاز ، وأولى القراءتين في ذلك بالصواب كسر الراء « فاذا بَرِقَ »

(١٠٦) غافر : ٣٧ .
(١٠٧) جامع البيان : ٦٥/٢٤ .
(١٠٨) القيامــة : ٧ .

بمعنى : فزعَ فشُق وفتــح من هول القيامة ، وفزع الموت ، وبذلك جاءت أشعارُ العرب ، أنشدني بعض الرواة عن أبي عبيدة للكلابي :

لما أتاني ابن صُبيح راغباً أعطيتهُ عَيْسَاءَ منهـا فبَرَقْ

وحدثت عن أبي زكريا الفراء ، أنشدني بعض العرب :

نعاني خيــانةُ طُوالة تسفُ يَبيساً مــن العِشْرِقِ

فنفسك فانعَ ولاتنعني وداوِ الكـلوم ولا تَبرَقِ

بفتح الراء ، وفسره : أنه يقول ـ لاتفزع من هول الجراح التي بك ، قال : وكذلك . يبرق البصر يوم القيامة (١٠٩) .

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « حتى مطلعِ الفجر » (١١٠) فقرأت ذلك عامة قراء الأمصار سوى يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي « مطلَعِ الفجر » بفتح اللام بمعنى : طلوع الفجر ، أتقول العرب طلعت الشمس طلوعاً ومَطْلَعاً ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي « حتى مَطلعِ الفَجْر» بكسر اللام توجيهاً منهم ذلك إلى الاكتفاء بالاسم من المصدر وهم ينوون بذلك المصدر .

والصواب من القراءة في ذلك عندنا فتح اللام لصحة معناه في العربية وذلك أن مطلع بالفتح هو الطلوع والمطلِع بالكسر هو الموضع الذي تطلع منه ، ولا معنى للموضع الذي تطلع منه في هذا الموضع .. » (١١١)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله : « إنَّ هذانِ لساحران » (١١٢) فقرأته عامة قراء الأمصار « إنَّ هذانِ » بتشديد النون من « إنَّ » وبالألف من « هذانِ » وقالوا : قرأنا ذلك كذلك ، وحدثت عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال : قال أبو عمرو وعيسى بن عمر ويونس « إنَّ هَذين لَسَاحرانِ » في اللفظ ، وكتب « هذان » كما يريد الكتاب واللفظ صــواب ، قال :

---

(١٠٩) جامع البيان ١٧٨/٢٩ .
(١١٠) القدر : ٥
(١١١) جامع البيان ٢٦١/٣٠ .
(١١٢) طه : ٦٣

وزعم أبو الخطاب أنه سمع قوماً من بني كنانة وغيرهم يرفعون الاثنين في موضع الجر والنصب. . . » (١١٣)

سابعاً : شواهده من الشعر والرجز : الكتاب في التفسير والقراءات ، لكن الطبري يميل كثيراً الى الاستشهاد بالشعر شأنه شأن العلماء الذين سبقوه في هذا المضمار أمثال الفراء والأخفش الأوسط ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى والمبرد وغيرهم ، والذي يقرأ كتابه « جامع البيان » يرى أنه قد خص شعراء القبائل الشمالية بقسط وافر من شواهده كتميم ، وبكر ، وتغلب وعبد القيس ، وجشم ، وعكل ، والأزد ، وكندة ، والأوس ، والخزرج ، وطيىء ، وأسد وهذيل ، وقريش ، لأن هذه القبائل تعد من أشعر قبائل العرب في الجاهلية ، كذلك يشكل الشعراء الأسلاميون نسبة كبيرة من هذه الشواهد وربما كان يفضل شعراء الاسلام على الجاهليين لما في الشعر الجاهلي من وصف لعادات نهى عنها الاسلام وقبحها ، واعتبرها منافية لتعاليم الدين الحنيف ، وقد سلك الطبري في النقل – كما مر بنا – طريقتين :

١- النقل المباشر عن العرب الفصحاء الموثوق بعربيتهم .

٢- النقل عن العرب عن طريق شيوخه الذين يحترم آراءهم ويُجلّها .

قال : اختلفت القراء في قراءة قوله « إنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مرصاداً للطّاغينَ مَئَاباً، لابثين فيها أحقاباً »(١١٤) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة « لابثين » بالألف وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة « لَبِثينَ » بغير ألف .

وأفصح القراءتين وأصحّها مخرجاً في العربية قراءة من قرأ ذلك بالألف وذلك أن العرب لاتكاد توقع الصفة إذا جاءت على « فَعِل » فتعملها في شيء وتنصبه بها ، لايكادون أن يقولوا : هذا رجلٌ بَخِلٌ بمالهِ ولا عَسِرٌ

(١١٣) جامع البيان ١٦/١٨٠ .

(١١٤) النبأ : ٢٣ .

علينا ، ولا هو خصيمٌ لنا ، لأن « فَعِل » لايأتي صفة إلاّ مَدحاً أو ذماً . فلا يعمل المدح والذم في غيره واذا أرادوا اعمال ذلك في الأسم أو غيره ، جعلوه فاعلاً فقالوا : هو باخلٌ بماله وهو طامعٌ فيما عندنا ، فلذلك قلت : إنّ « لابثين » أصح مخرجاً في العربية وأفصح ولم أُحل قراءة من قرأ « لَبِثين » وإن كان غيرها أفصح ، لأن العربَ ربما أعملت المدح في الأسماء ، وقد يُنشد بيت لبيد :

أومسحِلٌ عَمِلٌ عضادةَ سَمْجَحٍ بَسَراتها نَدَبٌ له وكَلُومُ

فأعمل « عَمِلٌ » في « عضادة » .

ولو كانت عاملاً كانت أفصح ، أويُنشد أيضاً :

وبالفأسِ ضَرّابٌ روؤسَ الكرانفِ

ومنه قول عباس بن مرداس :

أكرُّ وأحمى للحقيقةِ منهمُ وأضرَبَ منا بالسيوف القوانسا (١١٥)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « يومَ لاتملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذ لله » (١١٦) ، فقرأتة عامة قراء الحجاز والكوفة بنصب « يوم » اذا كانت إضافته غير محضة ، وقرأ بعض قراء البصرة بضمّ (يوم) ورفعه رده الأول ، والرفع فيه افصح في كلام العرب ، وذلك أنّ اليوم مضاف إلى « يفْعلُ » والعرب إذا أضافت « اليومَ » الى « يفْعل » أو « تفعل » أو « أفعل » رفعوه فقالوا : هذا يومُ أفعلُ كذا ، وإذا اضافته الى ماضٍ نصبوه ومنه قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصبا وقلتْ ألماّ تصحُ والشيبُ وازعُ (١١٧)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « كأنهم حُمرٌ مُستنفِرَةٌ »(١١٨)

---

(١١٥) جامع البيان : ٩/٣٠ .
(١١٦) الانفطار : ٩
(١١٧) جامع البيان ٩٠/٣٠ .
(١١٨) المدثر : ٥٠

فقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة بكسر الفاء ، وفي قراءة بعض المكيين أيضاً بمعنى « نافرة » ، والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ، وكان الفراء يقول : الفتح والكسر في ذلك كثيران في كلام العرب وأنشد :

إمْسك حِمارَكَ إنهُ مُستَنفِرٌ   في إثْرِ أَحمرةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ (١١٩)

وقال : قوله « يقولُ الأنسانُ يومئذٍ أَينَ المَفَرُّ » بفتح الفاء قرأ ذلك قراء الأمصار ، لأن العين في الفعل منه مكسورة ، وإذا كانت العين من « يَفعل » مكسورة ، فان العرب تفتحها في المصدر منه إذا نطقت به على « مَفْعَل » فتقول : أَفَرَّ يَفِرُّ مَفَرّاً ، يعنى : فَرّاً ، كما قال الشاعر :

يالبكرٍ انشروا لي كُليبا   يالبكرٍ أَينَ أَينَ الفِرارُ

إذا أريد هذا المعنى من « مَفْعَل » قالوا : أينَ المَفَرُّ ، بفتح الفاء ، وكذلك المَدَب من دَبَّ يَدِب كما قال بعضهم :

كأنَّ بقايا الأثر فوقَ مُتنونِهِ   مَدَبّ الدُبى فوقَ النَقَا وهو سَارح

وقد ينشد بكسر الدال ، والفتح فيها أكثر ، وقد تنطق العرب بذلك وهو مصدر بكسر العين، وزعم الفراء أنهما لغتان وأنه سمع : جاء علىمَدَبِ السيلِ ، ومافي قميصه مَصَح ومَصِحٌ ، ويروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ ذلك بكسر الفاء ، ويقول : إنما المَفِرُّ مَفِرُ الدابة حيث تَفِرُّ ، والقراءة التي لاأستجيز غيرها الفتح في الفاء من المَفَر ، لاجماع الحجة من القراء عليها وأنها اللغة المعروفة في العرب إذا أريد بها الفرار ، وهو في هذا الموضع الفِرار . . . » (١٢١)

وقال : قال تعالى « إنَّ اللهَ بالناسِ لروؤف رحيمٍ » (١٢٢) في

---

(١١٩) جامع البيان : ١٦٨/٢٩ .   (١٢٠) القيامة : ١٠

(١٢١) جامع البيان ١٨٠/٢٩   (١٢٢) البقرة : ١٤٣ .

« الرؤوف » لغاتٌ :

إحداها : رَؤُفٌ على « أفعُلٍ » كما قال الوليد بن عقبة :

وشر الطـالبينِ ولا تكنه بقاتلِ عمه الرَؤُفُ الرحيمُ

وهي قراءة عامة أهل الكوفة ، والأخرى : رؤوف على مثال « فَعُول » وهي قراءه عامة أهل المدينة ، ورَئِف وهي لغة غَطَفان على مثال « فَعِلٍ » مثل حَذِرٍ ورَأف على مثال « فَعْلٍ » بجزم العين وهي لغة لبني أسد ، والقراءة على أحد الوجهين الأولين . . » (١٢٣)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « ثُمَ لم تَكُنْ فتنتَهمُ إلاّ أنْ قالوا والله ربنا » (١٢٤) فقرأته جماعة من قراء المدينةِ والبصرة وبعض الكوفيين بنصب « فتنتَهم » بمعنى : لم يكن اختبارنا لهم إلاّ قيلَهم والله ربنا ماكنا مشركين » غير أنهم يقرأون « تكن » بالتاء على التأنيث ، وان كانت للقول لا للفتنة لمجاورته الفتنة وهي خبر وذلك عند أهل العربية شاذ غير فصيح في الكلام ، وقد روي بيت للبيد بنحو ذلك :

فمضى وقدّمها وكانت عادةً منه إذا هي عرّدت أقدامُها

فقال : كانت بتأنيث الأقدام لمجاورته قوله « عادة » .

وقرأ ذلك جماعة من قراء الكوفيين « ثم لم يكن » بالياء « وفتنتهم » بالنصب إلاّ أن قالوا . بنحو المعنى الذي قصده الآخرون الذين ذكرنا قراءتهم ، أنهم ذكروا « يكون » لتذكير « أن » وهذه القراءة عندنا أولى القراءتين بالصواب . لأن « أن » أثبت في المعرفة من الفتنة . . . . » (١٢٥)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « إذ أنتم بالعُدوَةِ الدُنيا وَهُم بالعُدوةِ القُصوى » (١٢٦) فقرأ عامة فراء المدينة والكوفيين « بالعُدوةِ » بضم العين ، وقرأ بعض المكيين والبصريين « بالعِدوةِ » بكسر العين ، وهما

---

(١٢٣) جامع البيان : ١٨/٢ .
(١٢٤) الأنعـام : ٢٣ .
(١٢٥) جامع البيان ٦٦/٧
(١٢٦) الأنفال : ٤٢ .

لغتان مشهورتان بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب وينشد بيت الراعي :

وعنيان حُمْرٌ مآقيها كما نَظَرَ الجُؤذَرُ

بكسر العين من « العِدوة » وكذلك ينشد أوس بن حجر :

وفارسٍ لو تحلُّ الخيلُ عِدوتَهُ ولّوا سِراعاً وماهمّوا باقبال(١٢٧)

وقال : وقد اختلفت القراء في قراءة قوله « فأرسلنا عَليهم ريحاً صَرْصَراً في أيامٍ نَحِسَاتٍ » فقرأته عامة قراء الأمصار غير نافع وأبي عمرو « في أيامٍ نَحِسَاتٍ »(١٢٨) بكسر الحاء وقرأ نافع وأبو عمرو « نَحْسَاتٍ » بسكون الحاء ، وكان أبُوعمرو فيما ذكرلنا عنه يحتج لتسكينه الحاء بقوله « يَومُ نَحْسٍ مُستَمرٍ » (١٢٩) وأن الحاء فيه ساكنة .

والصواب من القول في ذلك أن يقال إنهما قراءتان مشهورتان .. وذلك أن تحريك الحاء وتسكينها لغتان معروفتان ، يقال : هذا يومٌ نَحْسٌ ، ويومٌ نَحِسٌ ، بكسر الحاء وسكونها ، قالالفراء : أنشدني بعض العرب :

أبلغ جُذاماً ولَخْماً أنَّ أخوتهم طيّاً وبهراءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ

وأما من السكون فقول اللهِ « يومِ نَحْسٍ » ومنه قول الراجز :

يومينِ غَيمينِ ويوماً شَمْسا نجمينِ بالسعدِ ونجماً نَحْسَا

فمن كان لغته « يومِ نَحْسٍ » قال : فيأيامٍ نَحْسَاتٍ » ومن كانَ لغته « يَومِ نَحِسٍ » قال « في أيامٍ نَحِسَاتٍ » (١٣٠) .

وقال : اختلفت القراء فيقراءة قوله « ويَعْلَمُ الذينَ يُجادلونَ في آياتنا مالَهمُ مِنْ مَحيصٍ » (١٣١) فقرأته عامة قراء المدينة برفع « يَعلمُ » على الاستئناف ، كما قال في سورة براءة « ويتوبُ اللهُ عَلى مَنْ يَشاءُ »(١٣٢)

(١٢٧) جامع البيان ١٠/١٠

(١٢٨) فصلت : ١٦ .

(١٢٩) القمر : ١٩ .

(١٣٠) جامع البيان ١٠٣/٢٤ .

(١٣١) الشورى : ٣٥ .

(١٣٢) التوبة : ١٥

(١٣٣) آل عمران : ١٤٢ .

وقرأته قراء الكوفة والبصرة « ويَعلمَ الذين » نصباً ، كما قال في سورة آل عمران « ويَعْلَمَ الصابرين » (١٣٣) على الصرف وكما قال النابغة :

فان يَهلِكْ أبو قابوس يَهلك ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ
ونمسكَ بعدَهُ بذَناب عَيسٍ أجب الظهرِ ليس لَهُ سَنامُ

والصواب من القول أنهما قراءتان مشهورتان ولغتان معروفتان ... (١٣٤)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « وما نَراكَ أتَّبَعكَ إلاّ الذينَ هُم أَراذلنا باديَ الرأي » (١٣٥) فقرأته عامة أهل المدينة والعراق « باديَ الرأي » بغير همزالبادي ، وبهمز الرأي ، بمعنى : ظاهر الرأي من قولهم : بدا الشيء يبدو إذا ظهر ، كما قال الراجز :

أضحى لخالي شَبَهي بادى بَدَى وصارَ للقملِ لساني ويَدَى

أي : بادى بَدى ، بغير همز ، وقال الآخر :

وقد علتني ذُرأَةٌ بادي بَدَيّ

وقرأ بعض أهل البصرة « باديء الرأي » مهموز أيضاً بمعنى : مبتدأ الرأي من قولهم : بدأت بهذا الأمر ، إذا ابتدأت به غيره .

وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندنا قراءة مَن قرأ « باديَ » بغير همز البادي وبهمز الرأي . . . » (١٣٦)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله «وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون » (١٣٧) فقرأته عامة قراء الكوفة وبعض المدنيين « وحورٍ عينٍ » بالخفض اتباعاً لاعرابها اعراب ماقبلها من الفاكهة واللحم ، وإن كان ذلك مما لايطاف به ، ولكن لما كان معروفاً معناه المراد ، اتبع الآخر الأول في الاعراب ، كما قال الراعي النميري :

إذا ما الغانياتُ برزن يوماً وزججنَ الحواجبَ والعيونا

---

(١٣٤) جامع البيان ٣٥/٢٥ .
(١٣٥) هـود : ٢٧ .
(١٣٦) جامع البيان ٢٧/١٢
(١٣٧) الواقعة : ٢٢

فالعيون تكحل ولا تزجج إلاّ الحواجب، فردها في الاعراب على الحواجب لمعرفة السامع معنى ذلك، وكما قال الشاعر :

تسمعُ للأحشاءِ منه لَغَطا ولليدين جُسأةً وبَدَدا

والجُسأة : غلظ في اليد وهي لاتسمع، وقرأ بعض قراء المدينة ومكة والكوفة وبعض أهل البصرة بالرفع « وحورٌ عينٌ » على الابتداء، وقالوا : الحور العين لايطاف بهن فيجوز العطف بهن في الاعراب على اعراب فاكهة ولحم، ولكنه مرفوع بمعنى : وعندهم حورٌ عينٌ أَو « لهم حورٌ عينٌ » والصواب أن يقال إنهما قراءتان معروفتان . . . » (١٣٨).

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « وغَلَّقتِ الأبوابَ وقالت هَيْتَ لك » (١٣٩) فقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء والتاء، بمعنى : هَلُم لَكَ، وأدنِ، وتقرّب، وكما قال الشاعر لعلي بن أبي طالب :

أبلغ أميرَ المؤمنين أخا العـراق إذا أتيتـا

إنّ العراقَ وأهلَـهُ عَنُقٌ إليك فهَيْتَ هَيْتَا

يعنى : تعال وأقرب، وقرأ جماعة من المتقدمين : وقالت « هِئتُ لَكَ » بكسر الهاء وضم التاء والهمز، بمعنى : تهيأت لَكَ . . . . وقرأ عامة قراء المدينة « هِيْتَ لك » بكسر الهاء وتسكين الياء وفتح التاء، وقرأ بعض المكيين « هَيْتُ لك » بفتح الهاء، وتسكين الياء وضم التاء، وقرأ بعض البصريين وهو عبدالله بن أبي اسحاق « هَيْتِ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء، وقد أنشد بعض الرواة لطرفة بن العبد في « هَيتُ » بفتح الهاء وضم التاء، وذلك :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قالَ داعٍ من العَشيرةِ هَيْتُ

وأَولى القراءات في ذلك قراءة من قرأه « هَيْتَ لَكَ » بفتح الهاء والتاء وتكسين الياء، لأنها اللغة المعروفة في العرب دون غيرها، وأنها فيما ذكر

(١٣٨) جامع البيان ١٧٦/٢٧ .

(١٣٩) يوسف : ٢٣ .

قراءة رسول الله « ص » . . . (١٤٠)

وقال : اختلفت القراء في قراءة قوله « لِسانُ الذي يُلْحِدُونَ إليهِ أعجمي » (١٤١) فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة « لسانُ الذي يُلْحِدونَ إليه » بضم الياء من ألحد يُلحد إلحاداً ، بمعنى : يعترضون ويعدلون إليهِ . ويعرّجون إليهِ من قول الشاعر : وهو أبو نخيلة حميد بن مالك الأرقط :

قَدني من نَصرِ الجنيبين قَدي ‏ ‏ ‏ لَيْسَ أميري بالشحيحِ الملحدِ

وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة « لسانُ الذي يَلْحدونَ إليه » بفتح الياء ، يعني : يميلون إليه ، من لَحِدَ فلان الى هذا الأمر يَلْحَدُ لَحْداً والُحوداً ، وهما عندي لغتان بمعنى واحد . . . (١٤٢)

وبعد هذا العرض المقتضب لمنهجه ومصادره إذا ماقيس بحجم الكتاب الذي يضم ثلاثين جزءاً ، كل جزء يحتوي على أكثر من ثلاثمائة صفحة يبدو أن هذا العالم قد جمع من العلوم مالم يشاركه فيه أحد من أهل عصرهِ حافظاً لكتاب الله عارفاً بالقراءات بصيراً بالمعاني وبأشعار العرب وكلامها صاحب رأي في القراءات وبلغات العرب يحترم أئمة السلف وما أخذ عنهم ، ولا يجيز في القرآن أن يقرأ بكل ماجاز في العربية ؛ لأن القراءة عنده إنما هي ما قرأت به الأئمة الماضية وجاء به السلف .



(١٤٠) جامع البيان ١٧٨/١٢ ‏ ‏ ‏ (١٤١) النمل : ١٠٣ .

(١٤٢) جامع البيان ١٧٩/١٤ . وانظر على سبيل المثال : ١٤٠/٢٥ ، ٢٦١/٧ ، و ١٢/١٣ و ١٢/٢٧ . و ٧٥/١٢ ، ٣٢/٣ ، و ١٥٨/١٢ . ١/٢٢ ، و ٨١/١٤ ، ٢٩٤/٧ و ١٥٣/١٣ ، ١٢٣/١٢ ، ١٣١/١٤ .

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب

الدكتورة ناجية عبدالله ابراهيم
كلية الآداب – جامعة بغداد

ان المطّلع على الدراسات التي تُعْنَى بتاريخ العرب في العصر الوسيط ، يجد إهمالاً بيّناً للمناطق التي تقع خارج المدن ، في الوقت الذي يظهر فيه عناية بدراسات المدن ، بالرغم مماللأولى من اهمية تجلّت في اضطلاعها بصنع تاريخ البلدان وتحديد قدراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعلّ القصور في مثل هذه الدراسات يرجع الى فقر المكتبتين العربية والأجنبية على حد سواء ، بالمصادر التي تضع من هذه المناطق موضوعاً لدراستها من جهة ، وتناثر ما كتب عنها في ثنايا هذه المصادر ، إلى حد يتطلب الكشف عن الحقيقة من خلالها جهداً ليس باليسير ، ووقتاً غير قصير ، من جهة أخرى .

لذا حاولت هذه الدراسة أن تدلو بدلوها في دراسة هذا الموضوع ، وأن تتناول جانباً ضيّقاً منه ، إذْ قصرت جهدها على محاولة تحديد المفهومين الاصطلاحيين لكل من « الريف » و « السواد » عند العرب ، منطلقةً بادئ بَدْءٍ مما تعارف عليه العرب لكل منهما في اللغة ، آخذة بنظر الاعتبار المرحلة التاريخية والرُّقعة الجغرافية لكل منهما .

الريف لغة واصطلاحا :

إن الريف في اللغة العربية كلمة تتضمن معنى الخِصْب في تركيب

حروفها ، وهي الراء والياء والفاء [1] . إلاّ أن ابن سِيدَه يرى أن كلمة الريف اسم ، مصدره الإرافة [2] . وفي هذا يُقال : أرأفتِ الأرض إرافةً وريفاً . وهي تماثل في هذا كلمة «إخْصاب » حين يقول العرب : أخصبت إخصاباً وخِصباً . فهما سواء في الوزن والمعنى . وقد اشتقت في العربية منها الصفة والفعل فقالوا : « أرض ريفة » وهي من الريف أيضاً . و « رافت الماشية » ، أي : رعت الرّيف [3] .

أما استعمالات الريف الاصطلاحية ، فقد اختلفت تبعاًلاستعمالها فيحالة الإفراد أو الجمع . فحين قُصد بها الخِصب والسّعَة في المآكل [4] ، كانت مفرداً ، لأن الخِصب والسّعَة تخصّان موضعاً معيناً ، على عكس الحال حين قُصد بها معنى « ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها » . فهذه مواضع متعددة يسكنها الناس . وبهذا المعنى جُمعت على « أرياف » و « رُيوف »[5] . ويتصل بهذا ما جاء في حديث العُرَنيّين : « كُنا أهلَ ضَرْع ، ولم نكن أهل ريف » [6] .والمراد أنا من أهل البادية ولسنا من أهل المدن [7] . وكأن المفسّر

---

(١) ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم : لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ١٢٨/٩ .

(٢) ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس : مقاييس اللغة ، مصر ، ١٩٧٠ ، ٤٦٨/٢ (نقلا عن ابن سيده) .

(٣) ن . م : ٤٦٨/٢ .

(٤) البكري ، عبدالله بن عبدالعريز الأندلسي ؛ معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ٩١٤/٣ : لسان العرب ، ١٢٨/٩ .

(٥) لسان العرب . ١٢٨/٩ .

(٦) ابن حنبل ؛ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني : المسند ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ١٦٣/٣ و ١٧٠ ، والبخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل : الجامع الصحيح ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ١١٩/٣ و ٥٨/٤-٥٩ ، والنسائي ، أبو عبدالرحمن احمد بن شعيب : السنن ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٣٠ م ، م ١ ج١/١٥٩ .
وقد لوحظ أن مصطلح « الريف » ورد لاول مرة في كتب الحديث النبوي الشريف ، بصيغ متعددة نحو « ريف ، أرياف ... الخ » أنظر إضافة الى المصادر السابقة : مسلم بن =

أراد من الريف المُدُنَ ، ليؤكد اعتماد الريف حياة الاستقرار كما سنلاحظ ، لأن أهل البادية هنا يُراد بهم أهل الإبِل من العرب ، ولأن أغلب سكان الجزيرة العربية كانوا من البدو الرُّحّل [٨] .

السَّواد لغة واصطلاحا :

السّواد خلاف البياض في اللون ، واشتقاقه في اللغة أصل واحد هو السين والواو والدال . يُقال: سَوِدَ ، وسادَ ، وأسْوَدّ اسْوِداداً ،واسْوادّ اسْوِيداداً أسود ، والجمع سُودٌ وسُودانٌ[٩] .

والسّواد أيضاً : سواد العراق [١٠] الذي افتتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . سُمي بذلك لسواد أرَضِيهِ بالزروع والأشجار ، أي لخضرتها ، لأن الخضرة عند العرب تُقارب السواد [١١] ، ولأن العراق تاخم جزيرة العرب التي لا زرعٍ فيها ولا شجر [١٢] .وكان العرب إذا خرجوا من

= الحجاج القشيري النيسابوري : الصحيح ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ، ١١٧/٤ و ١٢٥/٥ ، وأبا داوود سليمان بن الأشعث السجستاني : السنن ، ط١ ، مصر ، ١٩٥٢ م ، ٣٤٥/٢ و ٤٧٢ . ولم يرد المصطلح في أية صيغة في القرآن الكريم . ويبدو أنه لم يستعمل جميع الألفاظ ، مع أن المصطلح كان سابقاً لظهور الاسلام ، والذي ورد فيه هو مصطلح « القرية » وقد جاءت فيه بصيغ متعددة نحو « قريتكم » ، القرية ، القريتين ... الخ » .
أنظر : عبدالباقي ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ، ص ٥٤٣–٥٤٤ . (٧) لسان العرب ، ١٢٨/٩ .

(٨) للاطلاع انظر: زيدان، جرجي:تاريخ التمدن الاسلامي، ط:، دار الهلال،١٩٥٦م ، ١٥/٤–١٦ .

(٩) لسان العرب ، ٢٢٤/٣ .

(١٠) سواد العراق هنا يراد به اقليم بابل القديمة ، وهو القسم الجنوبي من بلاد مابين النهرين – دجلة والفرات – الذي امتاز بأرضه الرسوبية الخصبة التي تسقيها أنهار الري . وقد اتسع مدلول « السواد » فيما بعد حتى صار هو والعراق لفظين مترادفين في الغالب . انظر : عبدالله أمين محمود : الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية من الفتح العربي الى القرن الرابع الهجري ، مجلة الدأرة ، ج/٣ ، السنة ٧ ، ١٩٨٢ ، ص ٢٩٢ .

(١١) لسان العرب ، ٢٢٤/٣ .

(١٢) يستثنى من ذلك اليمن ، وهي من جزيرة العرب أيضاً ، وكذلك الحجاز وعسير ومناطق اخرى سنشير اليها لاحقاً .

أرضهم الى العراق ، ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار . والخضرة إذا ما اشتدت وتكاثفت ، بانت سواداً ، ولهذا يخلطون في التسمية بين الخضرة والسواد . وهذا ما دفع الشاعر الأسود الفضل بن العباس أن يقول [13] :

وأنا الأخْضَرُ من يَعْرِفُني أخْضَرُ الجِلْدةِ مِن نَسْلِ العَرَبْ

فسمى نفسه « أخضرَ» من هذا المعنى . ولذلك أيضاً سمى العرب خضرة العراق سواداً ، لتأثرهم بلونها الأخضر ، مثلما تأثروا ببقية الألوان الاخرى ، وأطلقوا عليها تسميات مماثلة ، كلصُفرة التي استعملوها للصحراء ، والزرقة التي استعملوها للأنهار [14] .

وإذْ كانت الأرض السوداء ، منسوبة الى كثرة نخيلها وأشجارها الخضراء اللون ، سميت الأرض ذات الخضرة « الروضة » أيضاً ، لكنها لا تعنى السواد بمفهومه الواسع هذا ، لأن الروضة تعني كذلك « البستان الحسن » [15] وهي تشمل المساحة الصغيرة من الأرض ، أو الموضع يجتمع إليه الماء فيكثر نبته . ولذلك لا يُقال في موضع الشجر روضة .

الأسس الطبيعية والبشرية التي استَمَدَّ منها مصطلحا « الرّيف » و « السواد » مضمونيهما

إن وجود الماء سمة أساسية لوجود الريف . فحيثما تكن المياه يكن الخصب وحيثما تكن الأنهار ، تكن القرى والمزارع ، وبذلك يتكون الريف . واذا

(١٣) ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله : المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٩ ، ص ٥ : الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٠ م ، ص ٧٢ ، الخطيب ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي : تاريخ بغداد ، ط١ ، مصر ، ١٩٣١ م ، ٢٤/١ ، السمعاني ، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور : الأنساب ، ط١ ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ، ١٩٦٣ م ، ٢٨٤/٣–٢٨٥ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٢٢٥/٣ .

(١٤) المقدسي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٢ ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ م ، ص ٩ .

(١٥) لسان العرب ، ١٦٢/٧ .

كانت سمة الخصب في الريف تدل على الازدهار والعمران ، كما تدل على الجودة والحياة النشطة ، والاستمرارية في الانتاج ، فان هذه الأمور لا يمكن ان تتوافر الا في الأرض ذات التربة الجيدة ، والمياه الكثيرة ، والمناخ الحسن . وهي عناصر أساسية لقيام الزراعة وازدهارها ،وهي قوام الحياة في الريف وغاية استمراريتها . قال القُطامِيّ (١٦) :

من المَشْتَوِينَ القِدّ مِمّا تَراهُمُ
جياعاً ورِيفُ النّاسِ ليس بناضبِ

بيد أن هذه الأمور هي أيضاً لا يمكن تحقيقها بمَعزِل عن الإنسان ونشاطه المستمر . ومن هنا فان العنصر البشري عامل مُهمّ في الريف ، وكانت الزراعة عامل استقرار له . مما يعيـــد الى الاذهان اقتران مفهوم الريف بالفلاحين (١٧) . وربما يعود سبب هذا الاقتران الى سمات الخصب والزرع في الريف ، إذ لا يمكن أن تتطور الا بوجود الفلاح. لذلك تميز هؤلاء الناس الذين يقطنون الريف عن غيرهم من أبناء المجتمع ، وأصبح أهل الفَلْح ، هم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى في الأرياف (١٨) .

من جانب آخر لوحظ أن الغرس للأشجار هو أيضاً يُفيد الاستقرار ،لأنه يكتسب حالة ثبوت للقرى ، ويجعل الريفي ألصق بمكانه من غيره من أصحاب الأرَضين ، بسبب علاقته ببستانه واتّصاله بمغروساته (١٩) .وبذلك تفقد الحياة

(١٦) القطامي ، عمير بن شييم بن عمرو : الديوان ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦٠ م ، ص ٤٨ .
(١٧) وكان يسمى « الأكار » أيضاً أو الزراع . وماتزال كلمة «الفلاحة » مستعملة في الوقت الحاضر بصورة واسعة خاصة في شمال أفريقية، وفي كلتا اللغتين الرسمية والشعبية . ففي المغرب مثلا تسمى وزارة الزراعة « وزارة الفلاحة » . أنظر :
The Encyclopaedia of Islam, New Edition, London, Brill, 1965, V. 11, P: 899.
(١٨) عبدالفتاح ، فتحي : القرية المصرية دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٣ ، ص ١٧٩
(١٩) من هنا يكون تجمع البساتين نواة لتكوين القرى . وتقرب القرى يؤدي الى تكون البلدة وهكذا يتم التطور . للاطلاع على تفاصيل اخرى أنظر : العزاوي : عشائر العراق ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ٣/٢٨٦-٢٨٧ .

في الأرياف غالب صفات البادية . وهذا هو مجال اختلاف الحياة في الريف عنها في البادية التي قوامها الارتحال والانتقال والرعي وانتجاع الكـَلأ والماء . وهي حياة مقفرة قاسية ، بعكس الريف حيث الخصب في الأرض ، والبساطة في العيش ، والاستمتاع بالخيرات ، والإخلاد الى الراحة ، والعمران في الحياة . وقد ميزتها العرب قديما بقولها : « بَرٌّ مقفر ، وريف مُقمر » [٢٠] .

إن هذا الأمر يدفعنا إلى تأكيد حقيقتين مهمتين : أولاهما حقيقة الاستقرار لدى سكان الأرياف حيث العمل في الزراعة ، وهي قوام الحياة هناك ، والحقيقة الثانية اختلافهم عن أهل البادية حيث الرعي وانتجاع الكـَلأ والماء ، وهي سمة مميزة لسكان البادية أينما وجدوا . رُوي أن عَـمْرو بن أحمر الباهليّ شكا عمال الصدقة في زمن عبد الملك بن مروان فقال مؤكداً [٢١] :

إن نحن ُإلاّ أُناس أهلُ سائمة [٢٢] ما إنْ لنا دُونَها حَرثٌ ولا غَرَرُ

أضف الى ذلك أن الريف تضمن معنى آخر من معاني الخصب ، ألا وهو المناخ . فالهواء الطلق المعتدل هو سمة الأرض الريفية التي تبعث البهجة والسرور الى النفس . ولعـّل هذا يُفسـّر سبب لجوء الإنسان الى الريف ، بين الحين والآخر ، للاستقرار فيه ، والاستمتاع بهوائه ، وبطبيعته الخلابة ، طلباً للنزهة والإخلاد الى الراحة . ومن المفيد أن نورد هنا شعر ابن لنكك يصف هواء البصرة وعيش سكانها في حالتين من المناخ وأثر ذلك فيهم ، قال[٢٣] :

(٢٠) القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٣ ، ٤٢٦/١١ .

(٢١) شعر عمرو بن احمر الباهلي ، جمعه الدكتور حسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ص ١٠٧ .

(٢٢) السائمة : الابل الراعية . والغرر : واحدتها غرة وهو العبد .

(٢٣) الحموي : معجم البلدان ، م ٦٤٧/١–٦٤٨ ، القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٣١٠ . وابن لنكك هو محمد بن محمد بن جعفر البصري المتوفى نحو سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م . انظر : الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ٢٣٤/٧ .

نَحنُ بالبَصْرةِ في لَوْ ... نٍ من العَيشِ ظَريفِ
نحنُ ما هبّتْ شمَالٌ ... بينَ جنّاتٍ وريفِ
فإذا هبّتْ جَنوبٌ ... فكأنّا في كَنيفِ

فريح الشمال هنا تبعث إلى البصرة البهجة والسرور والراحة فتجعل فيها الحياة طيبة حسنة ، وريح الجنوب عكس ذلك ، تبعث الى أهلها الانزعاج والرائحة الكريهة .

وهذا الذي تقدم يدفع الباحث الى الاعتقاد بأن موسم الريف يزداد خيراً، وينحسر خصبه بحسب فصول السنة . ولما كان الريف يكثر عادة في فصل الصيف ، كان فصل الصيف فصل الخيرات ، وانتعاش الحياة الطبيعية ،وكثرة نعيمها . ففيه تنضج الثمار ، ويطيب عيش الناس ، ويكثر الريف ، وتزدهر الحياة بطيباتها للانسان والحيوان على حدّ سواء . وقد أشار القزويني الى هذا المعنى بقوله : « وأما الصيف ، فهو وقت نزول الشمس ... تقوى أكثر النبات ، والحيوان ،وأدركت الثمار ،وجفّت الحبوب ، وقلّت الأنداء، وأضاءت الدنيا، وسمنت البهائم ، واشتدت قوة وكثر الريف ، وانتشرت الحيوانات على وجه الأرض، لعموم الخير...وطاب عيش أهل الزمان ...و نقصت الأنهار ،ونضبت المياه ...ويبس العشب، وأدرك الحصاد ، ودرّت الأخْلاف ، واتّسع للناس القوت ،وللطير الحبّ،وللبهائم العلف ،وتكامل زخرف الأرض.وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة ، بالغة كاملة ، كثيرة العُشّاق ، ذات جمال ورعوبة ، فلا يزال الأمر كذلك إلى ان تبلغ الشمس آخر السنبلة فحينئذ انتهى الصيف وأقبل الخريف »(٢٤) .

فالريف إذن : أرض فيها زرع وشجر وخصب ، وموقعها حيث يكون

---

(٢٤) القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، نشر فردينند فيستنفلد ، ١٨٤٨ ، ص ٨٥-٨٦ .

الخضر والمياه [٢٥] . يُقال : تَريّف القوم ، وأريفوا ، وتَرَيّفُوا اي صاروا الى الريف وحضروا القرى ومَعِين الماء . ومن العرب من يستعمل اللفظ بصيغة أخرى فيقول : راف البدوي يريف ، وهو أيضاً بمعنى أتى الرِيّف ، ومنه قول ابن بَرِي [٢٦] :

جوّاب بَيداءٍ بها غَرُوفُ   لا يأكلُ البَقْلَ ولا يَرِيفُ
ولا يُرى في بيتهِ القَليفُ [٢٧]

أما (رواف) فمن : رافَ البدويّ ، أي : سكن الريف . وفيه قال ابن مُقبِل [٢٨] :

فَلَبّدَهُ مَرُّ القِطار ورَخّهُ   نِعاجُ رُوافٍ قبلَ أنْ يتشدّدا

على أن هذا لايعني أن الريف هو الحَضَر ، بل هو جزء منه ، وهو كذلك حالة متقدمة عن البادية ، لأن البداوة أقرب ما تكون الى الفطرة الطبيعية [٢٩] . ولعلّ تفسير ابن منظور لكلمة « الحضر » خير توضيح لهذا الأمر ، فهو يقول « والحاضرُ والحَضْرةُ والحاضِرةُ : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف » [٣٠] . ثم يعلل ابن منظور سبب تسميتها بذلك فيقول : «سُميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار الاسلامية ، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار» [٣١] .

وهذ يؤكد ، في وضوح أن العمران والاستقرار يمثلان أهم مقومات

(٢٥) الحضر : خلاف البدو . والحاضر خلاف البادي . وفي الحديث : لايبع حاضر لباد . الحاضر : المقيم في المدن والقرى ، والبادي : المقيم في البادية . والبادية : هي الأرض الخالية من البناء والعمران . لسان العرب ، ١٩٧/٤ .

(٢٦) لسان العرب ، ١٢٨/٩-١٢٩ و ٢٩١ .

(٢٧) غروف : أي كثير الأخذ للماء . والقليف : جلال التمر واحدها قليفة وقيل هو التمر البحري يتقلف عنه قشره . لسان العرب ٢٦٣/٩ ، ٢٩١ .

(٢٨) الحموي : معجم البلدان ، ٨٢٧/٢ . [لجنة المجلة : رواف في لسان العرب بفتح أوله وغير مهموز من : راف يريف ريفاً ، وليس من رؤف] .

(٢٩) زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ١٤/٤ .

(٣٠) لسان العرب ، ١٩٧/٤ .

(٣١) ن . م .

سكان الحضر ، وبهما يختلفان عن سكان البدو . وبذلك يتأيد ما قرره ابن خلدون من أن « الحضر هم أهل الديار و البلدان »[٣٢] يكون صائباً ومتفقاً كلّ الاتفاق مع ما ذهب اليه ابن منظور .

الاّ أن هذ لا ينفي كون أهل الريف هم أصلاً من البادية ، وأن ظروف التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي جعلتهم ينزعون إلى الاستقرار والارتباط بالأرض ، تاركين حياة الارتحال والانتقال التي اعتادوها سابقاً . وبمرور الزمن فقدوا الكثير من خصائصهم . ومن هنا يكون ما جاء به ابن خلدون من أن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما [٣٣] ، أمراً طبيعياً في التطور الاجتماعي ، ومصداقاً لقولنا إن الريف يُمثل حلقة وسيطة بين البداوة والحضر .

كان اهتمام العرب بالارض وتمييزهم لطبيعتها الجغرافية في الموقع ، كبيراً . وكان ذلك الاهتمام من الدقة بمكان ، بحيث حُدّدت مفاهيمها بحسب المصر الإسلامي الواحد ، مما يجعلنا نظن وجود حقيقة تؤكد سمات معينة لتحديد منطقة الريف ، وفيما عداها لا يصحُّ أن يكون كذلك . وقد عبّر عنه الجغرافيون بتسميات عديدة ، فقالوا في « العِذْي» : عِذْيُ الكَلأِ والنبات ، هو ما بَعُدَ عن الرِيف ، وأنبته ماءُ السماء [٣٤] ، أي : ما يكون زرعه من الطبيعة لا يسقيه الاّ المطر ، كالأعشاب والحشائش ونحوها . وقالوا في القُرى الصغار التي تدنو في مكانها من المِصر « المذّارع » . ومذّارع البصرة : نواحيها [٣٥] .

---

(٣٢) ابن خلدون : التاريخ ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٢١١/١ .

(٣٣) ابن خلدون : التاريخ ، ٢١٤/١ ، العزاوي : عشائر العراق ، ٢٧٩/٣ .

(٣٤) الحموي : معجم البلدان ، م ٦٢٤/٣ ، لسان العرب ، ٤٣/١٥ وفيهما أيضاً : أن العذي كالعذاة ، وهي الارض الطيبة التربة الكريمة المنبت التي ليست بسبخة ، ولا تكون ذات خامة ولا وباء وفيها قال ذو الرمة .

بأرض هجان الترب وسمية الثرى　　　عذاة نأت عنها الملوحة والبحر

(٣٥) الحموي : معجم البلدان ، ٤٦٩/٤ . ابن عبدالحق ، صفي الدين عبدالمؤمن : مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق ت . ك . جوينبول ، ليدن ، بريل (غير مؤرخة) ٦٧/٣ .

أما بين الرّيف والبدو ، فسمّوه « العذار»[٣٦] كالعُذَيْب ونحوها[٣٧] .

بل إن التمييز في هذا الجانب امتدّ أبعد من هذا ليضع مفاهيم معينة تُميز أرض العرب نفسها ، بعضها عن بعض ، بتسميات دقيقة . ف « المَشارِف » من أرض العرب على ريف العراق مثلاً أطلقوا عليه اسم « الطفّ »[٣٨] ، وطَفُّ الفرات شاطئه . وسُميّ موضع الفصل بين الأرضين من الحدود والمعالم بـ «التخوم »[٣٩] أو « البيون » ، وتُسمى الحد أيضاً ، لئلا يختلط أحدهما بالآخر[٤٠] . والحد بين الشيئين يُعنى به « المِصر»[٤١] كذلك .

التطبيق الاصطلاحي لمفهومي « الريف » و « السواد » في العراق

لا أذهب في دراستي لمفهوم مصطلح « الريف » في العراق الى وجود مفهوم آخر يذهب مذهباً مناقضاً لما أوردته فيما تقدم من البحث . فما أبغيه هنا هو عرض مفهوم هذا المصطلح في العراق قصراً وإبرازاً للجانب التطبيقي لهذا المصطلح في منطقة بعينها من مناطق الوطن العربي كحالة « عينة » لما هو شائع في أنحائه الأخرى . وتأكيداً لهذه الحقيقة يمكن ان أتناول بشيء من الإيجاز مفهوم الريف في أجزاء أخرى من الوطن العربي .

ان ما تقدم عرضه في هذا البحث يدفعني الى القول إن الريف تضمن معنى

(٣٦) الحموي : معجم البلدان ، ٦٢٤/٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٤٢/٢ .
(٣٧) العذيب : تصغير العذب ، وهو الماء الطيب ، وهو ماء بين القادسية والمغيثة . وقيل : هو واد لبني تميم . والعذيب كذلك حد السواد « سواد العراق » من جهة الغرب . الحموي : معجم البلدان ، ٦٢٦/٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٠٣/٢ .
(٣٨) الحموي : معجم البلدان ٥٣٩/٣ و ٥٣٦/٤ ، ٥٣٨ ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ٢٠٥/٢ .
(٣٩) مفردها «تخم» بمعنى منتهى كل قرية أو أرض . يقال هذه الأرض تتاخم أرض كذا ، أي تحادها . لسان العرب ، ٦٤/١٢ .
(٤٠) ن . م : م ١٤٠/٣ .
(٤١) ابن فارس : مقاييس اللغة ، ٣٣٠/٥ ، الحموي : معجم البلدان ، ٤٢/١ ، لسان العرب، ١٧٦/٥ .

من معاني السواد ، وهو الخضرة ، وكلاهما بسبب الخصب . ولما كان الريف هو موضع الشجر والزرع ، فهو جزء من السواد . قال الشاعر (٤٢) :

إليكَ جَاوزْنَ سَوادِ الرّيفِ في هَبَواتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ
مُخطّماتٍ بحبالِ الليّفِ

وفي القبائل العربيةالتي تحارب بعض أبنائها ، قُبَيْلَ الإسلام وتفرقوا في البلاد،قال البكري أيضاً: .. « حتى قدموا عليهم البحرين،فأقاموا بها... ثم ظعنوا منها الى السواد:سواد العراق ، يطلبون الريف والمتسع والمعاش» (٤٣) .

لقد أنعمت الطبيعة على أرض العرب بخصائص الريف الطيبة ، فجعلت من وادي الرافدَين : دجلة والفرات ، أرض الرسوب الخصبة ، فكان فيه « ريف العراق » (٤٤) ، وفي وادي النيل ، حيث تمتد الأرَضون الخصبةعلى ضفتي النيل ،أن يكون فيه « ريف مصر » (٤٥) ، الى جانب بلاد اليمن ومشارف أرض الشام (٤٦) ، وقسم من بلاد مرّاكش في المغرب (٤٧) . وهي

(٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ٢٤٥/٢ .
(٤٣) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ق١ م٧٤٥/٢ ، البكري : معجم ماستعجم ، ٥٢/١ ، الحموي : معجم البلدان ، ٣٧٧/٢ .
(٤٤) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٧٤٤/٢ ، ٧٤٥ ، ٧٤٧ . الحموي : معجم البلدان ، ٦٩٣/١ و م١٦٤/٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥٣٩ . ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٠٥/٢ . الحميري ، محمد بن أبي عبدالله : الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، ١٩٧ ، ص ٦١١ . القلقشندي : صبح الأعشى ، ١٤٠/٢ .
(٤٥) الحموي : معجم البلدان ، ٨٨١/١ ، ٩٠٥ ، ٩٠٧ ، ٩١٢ و ٥٥٠/٣ و ٦٧٢/٤ . وكان ريف مصر وجهين : الوجه القبلي وهو المعروف بالصعيد ، والوجه البحري وهو الشمالي المخصوص عندهم في القديم باسم الريف . القلقشندي : صبح الأعشى ، ٣٨٢/٣ و ٤٢٦/١١ .
(٤٦) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٧٤٥/٢ ، الحموي : معجم البلدان ، ٣٧٧/٢–٣٧٨ .
(٤٧) البستاني ، فؤاد أفرام : دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٧ ، ١٢٠/٩ .
ومن الطريف ان نذكر ان كلمة « الريف » كانت تطلق في المغرب العربي وكذلك في الأندلس ، على الأرضين التي تحف بالبحر . وهي – أي كلمة الريف – أيضاً اسم علم للمنطقة الجبلية الممتدة في شمال المغرب الأقصى . أنظر : العبادي، أحمد مختار : الحياة =

مناطق تتمتع عموماً بمناخ إقليمي حار صيفاً ، ومعتدل شتاءً (٤٨) . فكان الريف فيها عامراً ومميزاً لأرضها الزراعية ، وكانت الزراعة حرفة لغالب سكانها يعتاشون منها ، وجُلّ اعتمادهم عليها . بل نستطيع القول إن الواحات التي في شبه الجزيرة العربية ، والبساتين والحقول المحيطة بالطائف والمدينة ، هي من الريف أيضاً . فان سكان البَحْرَين وعُمان وهَجَر وغالب بلاد نجد ، كان معظم ارتزاقهم من حراثة الأرض وغرس الأشجار خصوصاً أشجار النخيل . وهو ما يُعبر عنه بالفلاحة كما تقدم . وكانت أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات أكثر نبات العالم وشجر الدنيا (٤٩) .

من هنا فلا غرابة أن يكون الريف بشكل عام ، وريف العراق بشكل خاص ، أوطان جذب لاستقرار القبائل العربية التّنُوخيّة وغيرها التي نزحت من الجزيرة العربية ، قُبيل ظهور الاسلام بسنوات طويلة (٥٠) . ويتضح هذا الأمر في صورة جلية عقب الفتوحات العربية الإسلامية التي انطلقت من الجزيرة العربية الى البلاد المجاورة ، واهتمام القادة المسلمين في اختيار ما يُناسب العرب من البلاد لأجل استقرارهم فيها ، والعيش في ظلالها بما ينسجم وطبيعتهم الإنسانية . جاء في كتاب وجهه الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه الى القائد سعد بن أبي وقاص « ان العرب لا يصلحها من البلدان ، إلاّ ما أصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً ، وعليك بالريف »(٥١) . وبالرغم من أن ظهور الاسلام كان في مكة المكرمة ، في « وادٍ غير ذي

= الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، م ١١ ع ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٨ الحاشية .

(٤٨) الصياد ، محمد محمود : في الجغرافية الاقليمية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٧٩ .

(٤٩) الألوسي ، محمود شكري : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، ط٣ ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مصر ، ٤١٧/٣ .

(٥٠) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٢/٧٤٥-٧٤٦ ، الحموي : معجم البلدان ، ٣٧٧/٢ — ٣٧٩ العزاوي : عشائر العراق ، ٩٥/١-٩٦ .

(٥١) الحموي : معجم البلدان ، ٣٢٣/٤ .

زرع »[٥٢]، كان ظهوره يُمثل تحولاً جديداً في حياةالعرب والإنسان العربي. فقد انتقل الكثير من العرب من حياة البداوة ، المعتمدة على الرعي والتنقل ، إلى حياة الاستقرار ، والاهتمام بالزراعة ، والعمل في الميدان الزراعي ، ومن ثم الارتباط بالأرض ، والانتماء اليها فيما بعد . وقد تجلّى ذلك في العهود التاريخية المتعاقبة لظهور الإسلام ، ولا سيما في عهد الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، و في العهدين : الراشديّ والأُمَويّ [٥٣] .

كان « سواد العراق » [٥٤] جزءاً من السواد العربي ، كما كان « سواد مصر » [٥٥] كذلك ، إلاّ أن استقرار العرب المسلمين في الأمصار الاسلامية وبناء المدن العربية ، كان سبيلاً إلى تطور مفهوم السواد ، بحيث صار يُلحق بالمدن التي يحيط بها داخل المصر الإسلامي الواحد ، ويسمى باسمها أيضاً .

---

(٥٢) سورة ابراهيم ، الآية (٣٧) ك .

(٥٣) للاطلاع انظر : الأعظمي ، عواد مجيد : الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام والخلافة الاموية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص.ن ١٠ و ١٧–١٨ ومابعدها .

(٥٤) عن هذا المصطلح أنظر : البيروني ، محمد بن أحمد : الآثار الباقية عن القرون الخالية ليبزك ، ١٩٢٣ ، ص ٥٩ ، ٢٠٦ ، ٣١٨ . الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ ، البكري : معجم ما استعجم ، جـ١/١٩٧ ، الأدريسي ، محمد بن محمد : تحقيق الجزيرة والعراق من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٣ ، م ٢٣/٢٣ . السمعاني ، عبدالكريم بن محمد : الانساب (ط حجرية) ليدن بريل ، ١٩١٢ ، P : 588 A ، الحموي : معجم البلدان ، م٢/١١٦ و٣٥٦ و٣٨٤ و م ٤/١٨١ و ٢٥٧ و ٧٨٠ ، ابن الأثير ، عز الدين الجزري : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ ، م ١١/٣٩٤ و ٣٩٥ واللباب في تهذيب الانساب ، ط١ الافست ، بغداد (غير مؤرخة) جـ١/٥٧ وجـ٢/١٥١ و جـ٣/٣٧٩ ، القزويني : آثار البلاد ، ص٤٤٩ .

(٥٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٣ ، الغساني ، اسماعيل بن العباس ؛ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم (اطروحة ماجستير) جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨–١٠٩ .

(٥٦) انظر : الحموي : معجم البلدان ، م١/٤٨٩ ، ابن الأثير : الكامل ، م ١١/٣٢٣ ، ابن الدبيثي ، ذيل تاريخ مدينة السلامبغداد ، مخطوطة مصورة عن مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس ، محفوظة بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ، جامعةبغداد ، الرقم=

فكان هناك « سواد واسط »[٥٦] مثلاً و « سواد الكوفة »[٥٧] و « سواد البصرة »[٥٨] وغيرها. وصار السواد في معانيه الأخرى يُراد به القرى والمزارع المحيطة بالمدينة. قال ابن منظور ؛ « والسّواد : ما حوالي الكوفة من القرى والرساتيق »[٥٩] وقال أيضاً « وسواد الكوفة والبصرة : قراهما »[٦٠].

والقرى هي السواد، وأهل السواد أو السوادية هم سكان القرى في الريف، خاصة عند أهل العراق[٦١]. وهنا يجدر بنا أنْ نذكر أنّ هذا المصطلح لم يكن استعماله واحداً في الأرياف العربية كافةً، وانما كان يختلف من اقليم الى آخر تبعاً للّهجة العامية التي كانت سائدة عند سكان كل اقليم. فأهل السواد

= (١٢٤٠) جـ١/ ق (٢٩٥ أ) والرقم (١٢٤٢) م ٢ق٢/ق (٧٠ أ).

(٥٧) انظر : ابن حوقل : صورة الأرض، ط٢، ليدن، بريل ١٩٣٨–١٩٣٩، ق١ / ٢٤٣ الادريسي : نزهة المشتاق، وروض الفرج وأنيس المهج، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٣، م ٢٢/٢٣، ٦٤ ابن جبير : الرحلة، بيروت، ١٩٦٤، ص ١٨٩، الحموي : معجم البلدان، م ١٦٤/٣، ١٧٥ والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً، ط كوتنكين، ١٨٤٦، ص ١٥٨ و ٤٠٣، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع، ٢٤٠/١ و ٥٠١ و ٧٦/٢، ٣٩٤ و ١٤٣/٣ و ٢١٩ و ٢٦٠ و ٢٦٢ و ٢٦٤، أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل ابن الملك : تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠، ص ٢٩٦، الحميري: الروض المعطار، ص ٣٣٢.

(٥٨) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٤١٣، الحموي : معجم البلدان، ١٧٥/٣، ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام، جـ١/ق (٢٩٥ أ)، الحميري : الروض المعطار ص ٣٣٢

(٥٩) لسان العرب، ٢٢٥/٣. والرساتيق : مفردها رستاق وقيل رزداق : فارسي معرب، معناه السواد والقرى. قال الشاعر ابن ميادة :

تقول خود ذات طرف براق هلا   اشتريت حنطـة بالرستاق

سمراء مما درس ابن مخراق

أدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٠٨، ص ٧١، ابن منظور : لسان العرب، م ١١٦/١٠. ويعرب الرستاق ايضاً بأنه وحدة زراعية تطلق على الصقع الذي يشتمل على القرى والمزارع. أنظر : أحمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٨، هامش ص ١١.

(٦٠) لسان العرب، ٢٢٥/٣.

(٦١) ابن طيفور أحمد بن طاهر الكاتب : بغداد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٥.=

أو السوادية ، كما أشرنا ، كانت مستعملة في العراق للدلالة على سكان الريف هناك ، كما كانت لفظة « قرياتي » مستعملة في سُورِيَةَ في الدلالة نفسها (٦٢) الا أن القرى كانت تسمى أيضاً « الفلاليج » (٦٣) ، يقال مثلاً : فلاليج السواد ، ويراد بها قراها (٦٤) . مثلما كان يُقال لقُرى الشام : كُفُور الشام (٦٥) ، ولأعراض المدينة : قرى المدينة (٦٦) .

ولما كانت القرية هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة ، وهي جزء منه كذلك ، ولكون السواد الذي يكتنف المدينة ، أية مدينة كانت ، يعني الأرض الزراعية المحيطة بها ، ويعني القرى أيضاً (٦٧) — كان مجموع قرى المدينة الواقعة في سوادها يُمثل في منطوقها النظري والعملي ريف المدينة نفسها. أن مجموع ريف المدن داخل الإقليم الواحد ، يُمثل ريف الإقليم كله .

مثال ذلك أن « ريف واسط » و « ريف الكوفة » و « ريف البصرة » و

= الازدي ، أبو المطهر محمد بن أحمد : حكاية أبي القاسم البغدادي ، ط الأفست عن طبعة كرل وفتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ م ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير : الكامل ، ١٤٦/١١ ، ٢١٣ ، سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الهند ، ١٩٥١ ، جـ٨ ق١٧٦/١ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٧٨/٢ .

(٦٢) يوهان فك : العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د . عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٩٧ .

(٦٣) واحدتها الفلوجة ، وهي الأرض المصلحة للزرع . لسان العرب ، ٣٤٦/٢ .

(٦٤) الحموي : معجم البلدان ، ٩١٥/٣-٩١٦ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٣٦٠/٢ .

(٦٥) يسمي أهل الشام القرية بـ « الكفر » وهي ليست عربية . وحسبها ابن دريد سريانية معربة . انظر ـ الجواليقي ، موهوب بن أحمد : المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، ط الاوفست ، طهران ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨٦ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٩٩ . وقال الأزهري : الكفور : القرى النائية عن الأمصار ومجتمع أهل العلم . انظر : لسان العرب ، م ١٥٠/٥ .

(٦٦) البكري : معجم ماستعجم ، ١٢٢٨/٤ . يقال : أخصب ذلك العرض وأخصبت أعراض المدينة ، وهي قراها التي في أوديتها . ابن منظور : لسان العرب ، ١٧٣/٧ .

(٦٧) لسترانج ، كي ، : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، =

« ريف بغداد » وغيرها ، تُمثل « ريف العراق » ، أو ما اصطلح عليه تاريخياً بـ « أرياف العراق » [٦٨] . مثلما كان « سواد البصرة » و « سواد الكوفة » و « سواد سامراء » و « سواد بغداد » وغيرها تُعد أجزاء في « سواد العراق » وهو جمع لها كذلك .

والشيء عينه يُقال في « سواد مكة »[٦٩] في الجزيرة العربية و « سواد طرابلس » [٧٠] في بلاد الشام و « سواد إشبيلية » [٧١] في بلاد الأَنْدَلُس ، فهي أجزاء من السواد العربي ، ومجموعها يُكون الريف العربي .

الخلاصة

ونخلص مما تقدم عرضه الى أن « الريف » على اختلاف معانيه اللغوية يرتبط بالزراعة ، ويجعل مفهوم مصطلح « السواد » وثيق الصلة بها بقدر درجة صلته بخضرة الزرع والشجر التي يدل عليها في معناه .

لقد ارتبط مصطلح « الريف » بمناطق معينة تسودها خصائص طبيعية وبشرية معينة أضفت عليها صفة الخضرة مما يتصف به الزرع . ولا غرو فلابد لقيام الزراعة من عوامل طبيعية وبشرية معينة ، كالتربة والمناخ وخصائص السكان الذين تتطلب ممارستهم الزراعة انصرافهم إليها ، وما يرتبط بكل هذا من شكل معين للاستيطان يتخذ عادة شكل قرى .

= بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ٤١ . وانظر أيضاً للكاتبة : ريف بغداد ، دراسة تاريخية لتنظيماته الادارية واحواله الاقتصادية فيما بين ٥٧٥–٦٦٥ هـ ، (وهي أطروحة دكتوراه من جامعة بغداد ، ١٩٨١ ستنشر قريباً باذن الله) ، ص ٣٣ .

(٦٨) البكري : معجم ماستعجم ، ٩١٤/٣ وكتابنا ريف بغداد ، ص ٣٣ .

(٦٩) ناصر خسرو ، أبو معين الدين ناصر : الرحلة ، ترجمة د . يحيى الخشاب ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ١٢٤ .

(٧٠) ناصر خسرو : الرحلة ، ص ٤٨ .

(٧١) المنذري ، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي : التكملة لوفيات النقلة ، النجف ، ١٩٧١ ، ٨٤/٤ .

وفي ضوء ما تقدم يمكن فهم تطور التطبيق الاصطلاحي لمفهومي « الريف » و « السواد » في الوطن العربي . حيث تضمن مصطلح « الريف » معنى من معاني « السواد » وهو الخضرة . لذا نجد الريف حيث وفرة المياه وخصب الأرض التي أتاحت استقرار القبائل العربية النازحة من الجزيرة العربية

وقد رافق تطور بناء المدن العربية، تطور في مصطلح« السواد » إذْ صار العرب يُلحقونه بالمدن التي يحيط بها ، وصاروا يُعرّفون سكان القرى في الريف بـ « أهل السواد » أو « السوادية » . ويصح هذا بشكل أخص على العراق . وعند هذا المصطلح « السواد » الذي أصبح يضم الأرض الزراعية وما عليها من قرى ، ظهر التطابق بينه وبين مصطلح « الريف » . فصار تطابق في استعمال مصطلح « ريف المدينة » مع مصطلح « سواد المدينة » . كما صار تطابق في استعمال مصطلح « ريف الاقليم » الذي هو مجموع أرياف مُدنه مع « سواد الأقليم » الذي هو مجموع سواد مُدنه .

وبعبارة أخرى إن مصطلحي « الريف » و « السواد » اللذين ما كانا يخرجان عن دلالتهما اللغوية ، أصبح لهما مضمونان اصطلاحيان متطابقان . اذ يُشير كل منهما إلى مواضع خاصة يتوافر فيها نشاط اقتصادي معين وهو الزراعة ، ويظهر الاستيطان فيهما على شكل قُرى. وقد اقترن ذلك بتطور المــدن التي أصبح لكل منهما ريفها الذي لا يخرج عن كونه سوادها .

* * *

التورية
وخلو القرآن الكريم منها

الدكتور محمد جابر فياض

كلية الآداب / جامعة بغداد

المقدمة

ترجع بذرة موضوع البحث الى أكثر من عشر سنوات خلت . إذ تألفت لجنة من مدرسي العربية للثانويات ، ومفتشي الاختصاص ، لدراسة كتاب البلاغة لهذه المرحلة ، وتقديم توصياتها بشأنه . وكنتُ واحداً من أعضائها فقرأت في المقدمة – ولم تكن للمؤلفين الفاضلين – عبارة والقرآن الكريم طافح بالمحسنات البديعية كالسجع والجناس والتورية ... فاستغربت أن يكون في القرآن الكريم الذي أنزله الله تبياناً لكل شيء إيهام متعمد مقصود . وهو ماستقر في ذهني عن التورية مذ كنتُ طالباً في الثانوية .

فما ان اجتمعت اللجنة حتى أبديت لها وجهة نظري في امتلاء القرآن بالتوريات مع مابين طبيعتيهما وأغراضهما من تباين واختلاف .

فاقتنعت اللجنة بخلو القرآن الكريم منها . وقد سرني اقتناعها لكونها كانت تضم غير قليل من إخواني الذين لهم في نفسي ما لهم من مكانة ، ولانهم – كانوا بحق – من أبرز مدرسي العربية ومفتشيها ، ولأني ما كنت قد عدت – فيما ذهبت اليه – الى أي من مراجع البلاغة ، قديمها أو حديثها ، وإنما استنتجته من الصورة المرتسمة في ذهني عنهما .

وفي الاجتماع الثاني استوقف الأخ الفاضل مؤلف الكتاب اللجنة ، لمناقشة ماكنا قد فرغنا منه ، وأبرز لنا نصوصاً لبلاغيين مشهورين ، منهم السكاكي والقزويني وغيرهما نصوا فيها صراحة على وجود التورية في القرآن .

ومثلوا لها بآيات ، منها قوله تعالى : « الرَّحْمنُ على العَرشِ استَوَى » (٥ طه ٢٠) وقوله « والسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ ، وَإِنّا لَمُوسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) وقول السكاكي : إن أكثر متشابهات القرآن من الايهام الذي سمّي التورية به .

واستحضرت الصور البلاغية – بعد أن أذهلتني المفاجأة للحظات– وناقشت ماذهب اليه هؤلاء البلاغيون . وانتهيت الى أن هذه الآيات ان هي الا استعارات لاغير .

وبعد أخذ ورد ، ونقاش طال شيئاً ما ، اقتنع الاخوة أعضاء اللجنة بما انتهيت اليه ، وطلبوا مني أن أكتب بحثاً في التورية وخلو القرآن الكريم منها فوعدتهم بكتابته ، غير أني شغلت بجهود علمية أخرى . ثم شغلتني رسالة الدكتوراه عن كل ماسواها . ولم ييسر الله لتلك البذرة أن تنمو وتكتمل قبل الآن ، فأحمده سبحانه وتعالى أن مكنني من الوفاء بوعدي لاخواني الاعزاء ، الذين كان لهم فضل إغرائي ببحث هذا الموضوع .

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت فيه ، وإلا فعذري أنّ هذا مبلغ علمي وقصارى جهدي . ولا يكلف اللهُ نفساً إلا وسعها . ولغيري أن يكمل ماقد يراه فيه من نقص ، ويصلح ماقد يراني أخطأت فيه . وإني لأذن صاغية لأية ملاحظة . والمؤمن مرآة أخيه . وفوقَ كل ذي علمٍ عليم .



التورية لغة

الواو والراء والحرف الناقص تدل على الستر والاخفــاء ، كما تدل على الإظهار والإبراز . ففي المعنى الأول ، قال أبو عمرو : التورية الستر ، يقال منه وَرَّيْتُ الخَبَرَ أُوَرِّيه تَوْرِيَةً : اذا سترته واظهرت غيره (١)

وفي الحديث أنَّ رسول الله — صلى اللهُ عليه وسلم — كان إذا أراد سفراً ورّى بغيرهِ (٢) وذهب الخليل الى أن الوَرَى : الأنام الذين على وجه الأرض في الوقت ، ليس من مضى ، ولا من يتناسل بعدهم ، فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم (٣) .

وقال أبو زيد : الوَرِيُّ الضَّيفُ . . . وسمي وَرِيّاً لأنَّ بيته يواريه (٤) ويقال فلان وَرِيُّ فلانٍ : جاره الذي تواريه بيوته وتستره (٥) .

وواريْتُ الشيءَ ، ووَرَيْتُه بمعنى واحد . ففي التنزيل العزيز

« ماووريَ عنهما » (٢٠ الاعراف ٧) أي : سُتِرَ . وقرِئَ « وُرِّيَ عنهما » بمعناه (٦) وتوارى هو : استتر . قال تعالى : « يتَوارى من القَومِ مِنْ سُوءِ مابُشِّرَ بهِ » (٥٩ النحل ١٦) .(٧) .

ويقال : الوراء وَلَدُ الوَلَد ، أرادوا بذلك تفسير قوله تعالى : « ومِنْ وَراءِ إسحقَ يَعْقُوب » (٧١ هود ١١) (٨)

وذهب أبو عُبيد الى أن وَرَّيْتُ الخَبَرَ أُورِّيه تَوْرِيَةً —إذاسترته وأظهرت غيره — مأخوذ من وراء الانسان ، فقال :

« ولا أراه مأخوذاً الإ من وراء الانسان ، لأنه إذا قال : وَرَّيْتُه ، فكأنهُ

---

(١) تهذيب اللغة — ورى

(٢) لسان العرب — المادة ذاتها ، وخرجه السيوطي في الجامع الصغير — ١٠١/٢ ورمز له بعلامة الصحيح .

(٣) مفردات الراغب الاصفهاني — المادة ذاتها

(٤) تهذيب اللغة — المادة ذاتها

(٥) المرجع نفسه — المادة ذاتها

(٦) اللسان — المادة ذاتها

(٧) مقاييس اللغة — المادة ذاتها

(٨) المرجع نفسه — المادة ذاتها

، إنما جعله وراءَهُ حيث لايظهر » (٩) .

وذهب كراع الى أنه ليس من لفظ وراء، لأن لام وراء همزة.(١٠)وغير خاف أن أبا عُبيد لم يرد الاشتقاق اللفظي للتورية ، وانما أراد المعنى ولذلك قال : « اذا قال وَريته ، فكأنه إنما جعله وراءه حيث لا يظهر » . وهذا الذي ذهب اليه منسجم مع مايقتضيه المنطق اللغوي الحديث ، من أنَّ المعنويات البعيدة ، مأخوذة من أصول حِسيّةٍ قريبة فقول كراع لا يدفع ماذهب اليهأبوعبيد مادام الاشتقاق اللفظيغيرمراد.ولو أراده أبو عبيد لما أبعد لأن لام وراء غير بعيدة عن الألف المقصورة المنقلبـــة عن الياء . اذ يَطّرِدُ إبدال الهمزة ياء في مثل (رئم — ريم ، بئر — بير ، سائل — سايل) .

وفي اللغة مايناظر (ورى — وراء) مثل (هوى — هواء ، روى — رواء ، سما — سماء) وليس من المصادفة تقارب معانيها والفاظها، وان تباينت ووضعت في مواد لغوية مختلفة .

ومهما يكن من شيء فان ماذهب اليه كراع لايُغَيِّر من دلالة المادة اللغوية على الستر والاخفاء .

واذا جاء الوري بمعنى الستر والاخفاء ، فقد جاء بمعنى الاظهار والابراز أيضاً ، قال ابن الاعرابي:اذا أخرج الزند النار قيل : وَرَى الزندُ يَري ، وأنا أَوْرَيْتُهُ إيراءً (١١) . وقال أبو الهيثم : وَرَت النارُ تَرِي وَرْياً ورِيَةً ، مثل : وعَتْ تَعِي وَعْياً وَعِيَةً . وَوَرَيْتُهُ أريه وَرْياً وَرِيَةً . وأوريت النار أوريها إيراءً (١٢) .

وقال أبو زيد : أريت النار تأرية ، ونميتها تنمية ، وذكيتها تذكيةً : اذا رفعتها (١٣) .

(٩) صحاح اللغة — المادة ذاتها
(١٠) اللسان — المادة ذاتها
(١١) الصحاح —المادة ذاتها
(١٢) التهذيب — المادة ذاتها
(١٣) المرجع نفسه — المادة ذاتها

ومن المجاز قولهم : ورت بك زنادي ، ووريت . واستوريت فلاناً رأياً : سألته أن يوريه لي . كما يقال : استضيئ برأيه . وسمع أنهم قالوا : أورنيه بمعنى أرنيه ، وهو من الوري ، أي : أبرزه لي (١٤) . ومسلك وارٍ : رفيع جداً (١٥) .

وقولهم وراءك : خلفك وقدامك . ويؤيده قوله تعالى : « وكان وراءهم ملك » (٧٩ الكهف ١٨) أي أمامهم (١٦) .

ومن هـــذا يتضح أن المادة اللغوية الواو والراء والألف المقصورة وما اشتق منها تدل على الستر والاخفاء ، كما تدل على الابراز والإظهار كذلك ، وعليهما مجتمعين في وقت واحد ، في كل ماجاء منها دالاً على الستر والاخفاء لأن مايستر ويحجب يتطاب ساتراً يستره ، وحاجباً يحجبُه .

فالساتر ظاهر بارز ، والمستورخفي كامن. وقد تجلى هذا في أكثر مفردات المادة اللغوية ، والتورية منها خاصة .

ومن هنا كانت التورية إخفاء شيء باظهار غيره كما أجمع اللغويون .

التورية اصطلاحا (بلاغة)

يبدو أن تنبه البلاغيين للتورية ، والتفاتهم اليها ، واهتمامهم بها ، ووضعهم حداً لها ، كان قد تأخر — غير قليل — عن التفاتهم الى غير واحد من الوان البديع الاخرى لفظية ومعنوية ، كالجناس والطباق وغيرهما .

ولعل اسامة بن منقذ — ٥٨٤ هـ يمكن أن يعد من أوائل من أوصل الينا حد التورية بقوله « اعلم أن التورية : هي أن تكون الكلمة بمعنيين ، فتريد أحدهما ، فتوري بالآخر » (١٧) .

وآثر السكاكي — ٦٢٦ هـ تسميتها بالايهام فقال :

(ومنه الايهام : وهو أن يكون للفظ استعمالان : قريب وبعيد ، فيذكر

---

(١٤) اساس البلاغة — المادة ذاتها
(١٥) القاموس المحيط — المادة ذاتها
(١٦) المصباح المنير — المادة ذاتها
(١٧) البديع في نقد الشعر — ٦٠

لايهام القريب – في الحال – الى أن يظهر أن المراد البعيد) (١٨) .

ويبدو أن عنايته بايضاح طبيعة الايهام أكثر من عنايته بصياغة الحد . وقد وفق فيما أراده من إيضاح .

وكأن القزويني – ٧٣٩ ﻫ قد أحسّ بما في حدّ السكاكي من إطالة تضيق بها الحدود ، فذهب الى القول : (التورية – وتسمى الايهام أيضاً – وهي : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما) (١٩) .

وكان من الطبيعي أن يكرر أصحاب الشروح والحواشي لتلخيصه ، وايضاحه قوله في مؤلفاتهم كبهاء الدين السبكي – ٧٧٣ ﻫ ، وسعد الدين التفتازاني ٧٩١ ﻫ ، وأبي يعقوب المغربي – ١١٢٠ ﻫ . والدسوقي (٢٠) .

أما ابن قيم الجوزية – ٧٥١ ﻫ فقد تحدث عن التورية بما لا ينطبق عليها قائلاً : (التورية : وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر . وهو في القرآن كثير ، من ذلك قوله تعالى : «حَتّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِي رُسُلُ الله ِ،اللهُ أَعلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه » (١٢٤ الانعام ٦) (٢١) .

وليس هذا من التورية في شيء ، لا من قريب ولا من بعيد . والخطأ – كما يبدو لي – جاء من تحريف النساخ للترديد إلى التورية . لأن ماذكره هو حد الترديد لا التورية . (٢٢) وقد تنبه السيوطي ٩١١ ﻫ الى هذا ونبه إليه من غير أن يذكر صاحب الحد (٢٣) .

أما ابن أبي الاصبع – ٦٥٤ ﻫ فقد حدها بقوله :

---

(١٨) مفتاح العلوم – ٢٢٦

(١٩) التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠ ، والايضاح – ٣٥٣/٢

(٢٠) شروح التلخيص – ٣٣٢/٤–٣٣٣

(٢١) الفوائد – ١٣٦

(٢٢) انظر بديع القرآن – ٩٦ ، الخزانة – ١٦٤

(٢٣) عقود الجمان – ١١٨

(التورية ـ وتسمى التوجيه ـ وهي : أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، ويستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر . ومراده ماأهمله ، لا مااستعمله) (٢٤) ولو استعمل المتكلم أحد احتمالي الكلمة ، وأهمل الآخر ، لما كان له أن يريد ماأهمله بعد إهماله . ولو أراده لما عرف عنه ، لافي الحال ولا في الاستقبال : خلافاً لما عليه التوريات من معرفة ماأراده أصحابها بها . ان لم تكن تلك المعرفة في الحال ففي الاستقبال . وان لم تتهيأ المعرفة لهذا ، تهيأت لذاك .

وقال شهاب الدين الحلبي ـ ٧٢٥ هـ : (الايهام ـ ويقال له التورية والتخييل ـ وهو : أن تذكر الفاظ لها معانٍ قريبة وبعيدة . فاذا سمعها الانسان سبق الى فهمه القريب ، ومراد المتكلم البعيد) (٢٥) .

وهذا الذي ذكره الحلبي هو مانقله العلوي ـ ٧٤٩ هـ عن المطرزي ـ ٦١٦ هـ ونسبه إليه في باب التخييل ، على أنه واحد من تعاريف التخييل الثلاثة (٢٦)

وقال صفي الدين الحلي ـ ٧٥١ هـ : (هي أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين : قريب وبعيد ، فيذكر لفظاً يوهم القريب ، الى أن يجيء بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد) (٢٧) .

ولا أرى مايلزم الموري بأن يأتي بلفظ يوهم القريب ، غير لفظ التورية ذاته ، كما لاأرى مايلزمه بأن يأتي بقرينة ، تظهر أن مراده البعيد . فقد تكون القرينة حالاً لا مقالاً ، كما هو الشأن في التوريات المجردة . فما سميت بهذا ، إلا لتجردها من كل مايشير الى أيّ من معنييها : القريب والبعيد .

وانتهى ابن حجة الحموي ـ ٨٣٧ هـ الى أن (التورية ـ ويقال لها الايهام والتوجيه والتخيير ـ وهي في الاصطلاح :

أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان ، أو حقيقة ومجاز . أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة . والآخر بعيد ، ودلالة اللفظ

---

(٢٤) تحرير التحبير ـ ٢٦٨ ، بديع القرآن ـ ١٠٢
(٢٥) حسن التوسل ـ ٢٤٩
(٢٦) الطراز ـ ٣/٤ـ٥
(٢٧) الخزانة ـ ٢٤٣

عليه خَفِيّة ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويُوَرّي عنـه بالمعنى القريب . فيوهم السامع – أول وهلة – أنه يريد القريب ، وليس كذلك .

ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً) (٢٨).

ومع ماجاء عليه هذا القول من اسهاب صلح معه أن يكون شرحاً للتورية ، لا حَدّاً لها ، فقد ركن اليه الذين جاءوا بعده – أو أكثرهم – كالسيوطي ، وابن معصوم (٢٩) وغيرهما .

كما آثره المحدثون من البلاغيين – أو أكثرهم – في كتبهم البلاغية التدريسية (٣٠) ، لوضوحه في أذهان الدارسين أكثر من غيره ، وإلا فان ماحدّها به السكاكي أولى من هذا الذي انتهت إليه ، وأقرب الى طبيعة الحدود ، وماتكون عليه من إيجاز .

طبيعة التورية ودواعيها واهميتها

بعد الذي وقفنا عليه من معنى التورية لغة واصطلاحاً يمكن الانتهاء الى انها ليست ايهاماً فحسب ، وانما هي ايهام متعمد مقصود . فهي قائمة على الخداع والتضليل .

واذا كانت التورية كذلك فما هي اهميتها في الحياة اليومية ؟ وما الدواعي التي تدعو اليها ، والحياة الانسانية الفاضلة قائمة على الصدق والصراحة لا على الغش والخداع والتضليل ؟ ولماذا عني بها الفضلاء من الناس ، وعدوها من الفنون البلاغية ، وتولوا شرحها وايضاحها ، والتمثيل لها ، وتدريسها في المساجد والمدارس كأيّ من فنون البلاغة الاخرى ؟ بل ان منهم من فضلها على كثير

(٢٨) الخزانة – ٢٣٩

(٢٩) عقود الجمان – ١١٥ ، أنوار الربيع – ٥/٥

(٣٠) علوم البلاغة – المراغي – ٣٣٨–٣٣٩ ، جواهر البلاغة – الهاشمي – ٣٦٢–٣٦٣ ، فنون بلاغية – الدكتور أحمد مطلوب – ٢٩٣– البلاغة العربية – له أيضاً – ٢٩٨–٢٩٩ ، البلاغة – له مع الدكتور عمر حامد ملا حويش ، وعبدالرضا صادق – ٤٦ ، البلاغة والتطبيق – له مع الدكتور حسن البصير – ٤٢٧ .

غيرها ، وعُني بها أكثر من سواها .

الحق ان التورية — مهما قيل عما فيها من إيهام وتضليل أو يقال — ليست كذباً ولا قريبة من الكذب .

واذا عرفنا أن من الكذب ذاته مايدخل الجنة ، ومن الصدق مايدخل النار كصدق الأسير لآسره ، وكذبه عليه . وأن الحياة لاتجري على وتيرة واحدة . بل تتخللها مواقف ، لكل منها مايتطلبه ويقتضيه ، استطعنا أن ندرك دور التورية ، ونقدرها حق قدرها .

فالتورية — كما اسلفت — ليست كذباً ولا قريبة من الكذب . كما انها ليست صدقاً صريحاً ظاهراً . وانما هي صدق مقنع ، على من رغب فيه أن يزيل القناع عنه . وكونه مقنعاً لايُغَيِّرُ من طبيعته شيئاً .

ويمكن أن نتبين هذا كله في التوريات الأصيلة المحضة .

فهذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد سئل في خروجه الى بدر : ممن القوم ؟ فما كان له أن يكشف سِرّه وسِرَّ أصحابه ، فيصل خبرهم الى عدوهم . وحاشاه — صلوات الله وسلامه عليه — أن يكذب ، حتى في مثل هذا الموقف . وهو الصادق الأمين قبل بعثته ، فيكف به بعدها ؟ والذي يزيد الموقف حراجةً ، أن خير البشر لايعرض عن سؤال سائل ، وليس في سؤال الرجل مايلاذ معه بالصمت ، فما المخرج ؟ ؟ والى أيّ من الفنون البلاغية يعمد ؟ ؟

لقد عمد — صلى الله عليه وسلم — الى التورية دون غيرها ، قائلاً على الفور :

(من ماء) . فانصرف ذهن الرجل الى أنه ذكر له قبيلته ، وشغل عنهم باستحضار القبائل العربية التي يعهدها ، وتولى وهو يردد : من ماء — من ماء ! (٣١) .

(٣١) المثل السائر — ٧٩ ، وأكثر الكتب البلاغية بعده ان لم تكن كلها في الحديث عن التورية .

وذهب بعض من تحدثوا عن هذه التورية الى أن الرجل تهيأ له أنهم من العراق لانتشار هذا الاسم فيه (٣٢) .

ومهما يكن من شيء ، فأنّى للرجل أن يعرف – في تلك اللحظة – أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أراد الماء الحقيقي ، أصل كل الأحياء ؟ ؟ فالرسول – صلى الله عليه وسلم أخبر السائل بالحقيقة . فالمقال مقال حق وصدق ، ولكن المقام أو الحال حجب المقال عن ذهن السامع .

ومثل هذا قول أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – في الهجرة الى المدينة . فقد سُئل عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهل ينتظر منه أن يصرح للسائل باسمه، ويكشف له عن حقيقته في هذا الموقف الخطير ؟ ؟ وهل يلجأ مثله الى الأخبار بغير الحقيقة، ويتخلص من هذا الحرج كما يتخلص السذج من الناس ، المتهاونون بالحق والحقيقة ، وهو على ماهو عليه – رضي الله عنه – من الفطنة، وحضور البديهة، وسمو الخلق ؟ ؟ ؟ طبعاً لا فلقد استعان بحضور بديهته ، وأجاب السائل على الفور بقوله : (هادٍ يهديني الطريق) أو السبيل (٣٣) ، فانصرف ذهن السائل الى أنه – صلى الله عليه وسلم – واحد من ذوي الخبرة بالطرق والمسالك . وكانت الاستعانة بهم شائعة معروفة .

أما أبو بكر – رضي الله عنه – فقد أخبره بالحقيقة ، صادقاً كل الصدق . إذ كان صلى الله عليه وسلم – هاديه وغيره من المسلمين الى الاسلام .

فهذان مثلان قديمان ، أصيلان كل الأصالة ، يوضحان طبيعة التورية ويكشفان لنا أن في الحياة مايكشف وما يستر ، ويصرَّح به ولا يصرَّح ، ويبرزان جمال التورية ، وجلالة قدرها ، وعلو مكانتها ، إذا جاءت عفواً ، واستجابة لداع من دواعيها . وما أكثر هذه الدواعي مادامت هناك رغبة ورهبة ، وهناك مايعلن ، ، وما لا يعلن لسبب أو لآخر . ولكن يظل الايهام

(٣٢) البديع في ضوء الدراسات القرآنية – ١١٠ عن الوسيلة الأدبية ولم أجد هذا فيها .
(٣٣) صحيح البخاري – ٧٩/٥

إيهاماً ، لاتقوم الحياة به ، وإن تطلبته في مواقف كثيرة مختلفة .

ومن هنا كانت التوريات المحضة الموفقة الناجحة قليلة نادرة . فما كل من تعرض له مثل هذه المواقف يمكنه أن يورّي مثل هاتين التوريتين واشباهها

ولقد أشار غير واحد من البلاغيين الى قلتها في المطبوع من أدبنا العربي لا المصنوع منه،فقال ضياء الدين ابن الاثير – ٦٣٧ هـ : (المسلك الى مثل هذه المعاني ، وتصحيح المقصد فيها عسرجداً . لاجرم ان الاجادة فيها قليلة)(٣٤) واضاف قائلاً : (وأما القسم الآخر – وهو النقيض – فانه أقل استعمالاً من القسم الذي قبله ، لانه لايتهيأ استعماله كثيراً) (٣٥) .

وقال ابن أبي الاصبع معقباً على تورية عمر بن أبي ربيعة : (وهذه أحسن تورية وقعت لمتقـــدم ، على قلتها في اشعار المتقدمين) (٣٦) .

وقال الصفدي – ٧٦٤ هـ : (ومن البديـع ماهو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو نوع التورية والاستخدام ، فانه نوع تقف الافهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام .

نوعٌ يَشقُّ على الغبِيِ وُجُودُهُ ... منْ أيِّ بابٍ جاءَ يَغْدُو مُقفَلا

لايفرع ضبتَهُ فارع ، ولا يقرع بابه قارع ، إلاّ من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب ، وتجري ريحها رخاء حيث أصاب) (٣٧) .

وقال الحموي : (لان هذا النوع – أعني التورية – ماتنبه لمحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعر ، وأعيان الكتّاب . ولعمري إنهم بذلوا الطاقةفي حسن سلوك الأدب، الى ان دخلوا إليه من باب ، فان التورية من أغلى فنون الأدب ، واعلاها رتبة . وسحرها ينفث في القلوب ، ويفتح لها أبواب عطف ومحبة . ماأبرز شمسها من غيوم النقد إلا كُلّ ضامر مهزول ، ولا أحرَزَ قصبات سبقها – من المتأخرين – غير الفحول) (٣٨) .

---

(٣٤) المثل السائر – ٣/٨٠
(٣٥) المرجع نفسه – ٣/٨٢
(٣٦) تحرير التحبير – ٢٦٨-٢٦٩
(٣٧) الخزانة – ٢٣٩-٢٤٠
(٣٨) المرجع نفسه – ٢٣٩

وقال أيضاً : (وكانت خواطر المتقدمين عن نظم التورية بمعزل ، وأفكارهم – مع صحتها – ماخيّمت عليها بمنزل . لكنها ربما وقعت لهم عفواً ، من غير قصد لأنهم – على كل حال – ولاة هذا الشأن ، وأدلة هذا الركب) (٣٩) .

وأضاف قائلاً : (قلت : ولهذا وقع الاجماع على أن المتأخرين هم الذين سموا الى أفق التورية ، واطلعوا شموسها ، ومازحوا بها أهل الذوق السليم ، لما أداروا كؤوسها) (٤٠) .

والذي يبدو لي أن عسر الاتيان بها ، والاجادة فيها ، إنما يرجع الى قلة دواعيها ، فضلاً عما تقتضيه التورية ، وتتطلبه من تمكن ، وحضور بديهة . وزاد في عسرها إصرار المتأخرين على الاتيان بها ، والإجادة فيها من غير ماداعٍ يدعوهم إليها ، ومناسبة تقضي بايرادها ، خلافاً لما كان عليه المتقدمون.

ولهذا جاءت توريات الأقدمين قليلة غير أنها في غاية الروعة والجمال .

وجاءت توريات المتأخرين كثيرة ، وأكثر من كثيرة ، ولكنها فجّة ، غير مستساغة ، وقلّ منها ماجاء مستساغاً مقبولاً . وما ذلك إلا لاصطناعها اصطناعاً ، وتكلفها تكلفاً ، فخلعوا بهذا عنها ، رداء جمالها وبهائها (فلولا مالحق بها من تعملٍ وإسراف لظلّت فناً جميلاً يستعين به الأدباء في كل زمان) (٤١) ولكن صنيع المتأخرين بها أدى الى الزهد فيها ، والعزوف عنها بدلاً من الاقبال عليها ، فأضر بها هؤلاء المتأخرون، فيما ظنوا أنهم أحسنوا به اليها . ومن الباحثين المحدثين من ذهب الى أنهم لم يضروا بها فحسب وإنما أضروا بالبديع كله (٤٢) ومنهم من عدّ صنيعهم بها سمة من سمات الانحطاط الأدبي (٤٣) :

ومهما يكن من شيٌ فالتورية شيٌ وصنيعهم شيٌ آخر . فالداء لا يقلل

(٣٩) الخزانة – ٢٤٠ (٤٠) المرجع نفسه – ٢٤١

(٤١) فنون بلاغية – ٢٩٨ ، البلاغة العربية – ٣٠٠

(٤٢) التورية فن أصيل – الدكتور عمر حامد ملا حويش – ٥١

(٤٣) الصور البديعية – الدكتور حفني محمد شرف ٢٩٢/٢

من قيمته وأهميته خطأ من أخطأ في الانتفاع به .

اصالة التورية وقدمها

لقد أظهرت تورية الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وتورية أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – عراقة التورية في أدبنا العربي ، وأصالتها فيه ، ويكفيها – في هذا – استخدامهما لها .

ولم يذهب أحد – من القدامى أو المحدثين – إلى أنهما ابتدعاها ابتداعاً، ولم يسبق لعربي أن استخدمها قبلهما . وليس لأحد أن يذهب الى هذا ، مع ماعرف عن الجاهليين من لَسَنٍ وفصاحة وبلاغة أشار اليها القرآن الكريم في أكثر من موضع فيه ، حتى انه جعلها من سماتهم المميزة لهم في قوله تعالى « ولَتَعْرِفَنَّهُم في لَحْنِ القَوْلِ » (٣٠ محمد ٤٧) .

كما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صور لنا بيانهم أجمل تصوير بقوله : « إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرا » (٤٤) .

وغير خاف أنَّ ماوصل إلينا عنهم،إنْ هو إلاّ أقل من القليل مما كان لهم . ومع ذلك ففيه مافيه من لحون،وألغاز وحكم وأمثال وأقوال مأثورة وأجوبة مسكتة،وغيرها من جوامع كلمهم في منثورهم ومنظومهم وغير خاف – كذلك – أنَّ دواعي التورية ومواقفها ليست وقفاً على عصر من العصور ، ولا على قوم دون غيرهم . فالحيـاة هي الحيـاة ، والناس هم الناس ، لهم فيها مايظهرون وما لا يظهرون . فوجود التورية في العصر الجاهلي هو المقبول المعقول ، وخلوّه منها غير معقول ولا مقبول ، وإنْ لم يصل الينا شيء من نصوصها . ولكنَّ المتعصبين لها،لم يكفهم هذا على ما يبدو – ولم يقنعهم ماجاء منها على لسان رسول – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه – وخليفته رضي الله عنه – ولاماجاء في

---

(٤٤) صحيح البخاري – ٢٥/٧ . وانظر تخريجه في الأمثال في الحديث النبوي – الدكتور محمد جابر فياض – ٤٨٤/٢ .

الحديث من انه صلى الله عليه وسلم (كان إذا أراد سفراً ورَّى بِغَيْرِه)(٤٥) وعزَّ عليهم ألاّ يكون لها نصوص جاهلية تمكنهم من أن يثبتوا بالأدلة النّصيّة — إن جاز التعبير — ماهو ثابت بالأدلة العقلية المنطقية . فراحوا يلتمسون لها الشواهد في التراث الجاهلي علّهم يجدون لها نصيباً فيه ، وإذا بهم يقفون على قول النابغة للذبياني :

خَيْلٌ صِيامٌ ، وخَيْلٌ غَيْرُ صائِمَةٍ
تَحْتَ العَجاجِ ، وَأُخْرَى تَعلُكُ اللجما (٤٦)

وذهبوا الى ان للصيام — فيه — معنيين،أحدهما : القيام وهو البعيد (المراد) . والآخر : الامساك عن الطعام والشراب ، وهو القريب (غير المراد) . وأن الشاعر ورّى بالقريب عن البعيد ، وجاء بما يلائم المعنى القريب — (غير المراد) — بما يلائمه — بعده — ليصرف به الأذهان الى القريب،عن البعيد المراد إمعاناً في الايهام،وترشيحاً للتورية . وهو قوله (تعلك اللُجُما) فالتورية عندهم من التوريات المرشحة (٤٧) .

ولم يسالوا أنفسهم إن كان النابغة قد تعمد هذا الايهام أولا ؟

وإن كان قد تعمده فعلاً،فما الذي دعاه اليه ودفعه ؟؟ . وماهي المناسبة التي قيل فيها ، والسياق الذي جاء عليه ؟ ؟

ومهما يكن من شيء فالبيت من أبيات الشاعر المفردة ، إذ لم يصل الينا في مورده فضلاً عن المقطوعة أو القصيدة التي هو أحد أبياتها . ومع ذلك فأنه لاينصرف الى غير وصف الخيل ، والخيل — فيه — ليست في مرابطها ، ولا على معالفها،ولا في طراد للاغارة . فهي في موضع واحد ذكره الشاعر صراحة بقوله (تحت العجاج) : عجاج المعركة واقفة ، ومتحركة ، ومحتدمة غيظاً تعرك أو تعلك من غيظها اللجما .

(٤٥) الجامع الصغير — ١٠١/٢ . خرجه السيوطي عن الدارمي ورمز له بعلامة الصحيح وفيه (غزواً) مكان (سفراً) .

(٤٦) ديوانه بتحقيق البستاني — ١٣٠

(٤٧) الخزانة — ٢٤٠

هذه هي الصورة التي يطالعنا بها البيت ، فمن أين يجيء الامساك عن الطعام والشراب ؟ فهل صور البيت الخيول على معالفها كيما يمكن أن ينصرف الذهن الى أن منها الطاعمة ومنها الممتنعة عن الطعام ومنها ماتعلك يلجمها ، فلا هي طاعمة ، ولا ممتنعة ؟ وهب أنّ هناك من يمكن أن ينصرف ذهنه الى هذا أفلا يستوقفه قول الشاعر (تحت العجاج) فيسائل نفسه عن هذا العجاج الذي حشد الشاعر كل هذه الانواع من الخيول تحته ؟ وهب أنه وهم،وتهيأ له أن الشاعر قال هذا في يوم مغبر،فمن ذا يمكن أن يذهب إلى أن النابغة الذبياني، لم يرد به غير الاشارة إلى خيل طاعمة ، وخيل غير طاعمة في هذا اليوم المغبر ، وأخرى تعلك اللُّجُما ؟؟

والذي له أبسط معرفة بالخيول والحياة العربية يعرف أنّ الخيول لاتُلْجم على معالفها ولا في مرابطها ، وإنما تلجم عند الشروع بركوبها . فما هو الحال الذي دعا الى مثل هذا المقال ، إنْ لم يكن تجمع كل هذه الهيئات والأحوال للخيول في موضع واحد ووقت واحد . هو وقت المعركة ومكانها ؟ ؟ وإذا كان الأمر كذلك،فلا مكان للطعام لافي بيت الشاعر،ولا في أذهان سامعيه وقارئيه .

هذا اذا سلمنا بما ذهبوا اليه من أن للصيام معنيين : القيام والامساك عن الطعام . فكيف يكون الأمر وليس للصيام غير معنى واحد : وهو الامساك عن كل شيء . وقد استشهد اللغويون على هذا ببيت النابغة ذاته ، فقال ابو عبيدة : « يقال لكل ممسك عن طعام أو شراب ، أو كلام ، أو عن اعراض الناس وعيبهم : صائم . قال النابغة الذبياني :

خَيْـلٌ صِيـامٌ ، وخَيْـلٌ غَيْرُ صائِمَةٍ
تَحْتَ العَجاجِ ، وَخَيْـلٌ تَعْلُكُ اللُّجُما) (٤٨)

وقال الراغب الأصفهاني : « الصوم في الاصل ــ الامساك عن الفعل

---

(٤٨) مجاز القرآن – ٦/٢

مَطعما كان أو كلاماً ، أو مشياً . لذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف صائم . قال الشاعر :

خيل صيام وأخرى غير صائمة

وقيل للريح الراكدة صومٌ ، ولاستواء النهار صوم ، لوقوف الشمس في كبد السماء . .) (٤٩) وقال الفيومي : « صام يصوم صوماً وصياماً ، قيل : هو مطلق الامساك في اللغة ثم استعمل في الشرع في إمساك مخصوص) (٥٠) .

فكيف يكون الامساك المخصوص الذي خصه الشرع هو المعنى القريب المتبادر الى الذهن في بيت النابغة الذبياني الجاهلي ؟ ؟ ؟

لهذا كله فالبيت أبعد مايكون عن التورية أو الأيهام المتعمد المقصود (٥١) أما الشاهد الآخر فهو قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

مُشَعْشَعَةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ماالماءُ خالَطَها سَخِينا

إذ رأوا أن (سخينا) يمكن أن تكون من السخونة أو من السخاء (٥٢) .

وقد ذكر له شارحوه المعنيين فقال ابن الأنباري :

(اذا ما الماء خالطها سخينا ، قال أبو عمرو . معناه : إذا خالطها الماء وشربناها كنا أسخياء ، أي : ازداد سخاؤنا على ماكان عليه قبل شربناها .

وقال غيره : اذا ما الماء خالطها سخينا ، معناه : انها تمزج بالماء الحار. يقال : ماء سخين ، إذا كان مسخنا) (٥٣)

وقال الزوزني : (ومنهم من جعل سخينا — معناه : الحار من سخن يسخن سخونة . ومنهم من جعله فعلاً : من سخى — يسخى سخاءً . . .

يقول : اسقنيها ممزوجة بالماء ، كأنها من شدة حمرتها — بعد امتزاجها

(٤٩) المفردات — صوم .
(٥٠) المصباح المنير — المادة ذاتها
(٥١) وانظر الصور البديعية — ٢/٢٨٠ فقد استبعد الدكتور حفني محمد شرف ان يكون في البيت تورية .
(٥٢) الخزانة — ٢٤٠ ، والكتب البلاغية التي أخذت الشاهد عنها
(٥٣) شرح القصائد السبع — ٣٧٢ .

بالماء – ألقي فيها نَور هذا النبت الأحمر . وإذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا ، جدنا بعقائل أموالنا ، وسمحنا بذخائر أعلاقنا .

هذا إذا جعلنا سخينا فعلاً . وإذا جعلناه صفة كان المعنى :

كأنها حال امتزاجها بالماء – وكون الماء حاراً – نَور هذا النبت) (٥٤) .
فلماذا لايأخذه أنصار التورية على أنه واحد من شواهدها القديمة ؟ ؟
وفاتهم أنّ (سخينا) الفعل غير (سخيناً) الاسم ، وأن (سخينا) الفعل ليست لفظاً مفرداً ، وإنما هي جملة تامة بفعلها وفاعلها ،وأن التورية في الألفاظ المفردة ، لافي الجمل ، وأنها لفظ له معنيان ... إلى آخر ماحدّوها به .
وَهَبْ أنّ جملة (سخنيا) لفظ مفرد واحد وهو الاسم ، وأعرضنا عن الفعل وفاعله وكونهما جملة ، وأن لهذا اللفظ المفرد المعنيين اللذين اشاروا اليهما فهل كل الألفاظ المشتركة تورويات ؟ ؟ وهم أنفسهم كانوا قد نَصّوا صراحة على أنه لايصح أن يُعَدّ كل لفظ مشترك تورية ،إلاّ إذا كان المعنيان معروفين مشهورين ، إلا أن أحدهما أعرف من الآخر وأشهر (٥٥) .
وفاتهم كذلك أنْ يسألوا أنفسهم عن الايهام الذي أراد ابن كلثوم أن يوقع سامعيه به عن عمد وقصد . وعن الداعي الذي دعاه الى أن يتعمد إيقاعهم فيه ، مع أنّ المعلقة في الفخر ، أراد بها أن تعرف مكانته وقومه .
الحق أنّ ابن كاثوم لم يتعمد الايهام، وليس في بيته هذا مايوهم،لاعن قصد منه، ولا عن غير قصد . فقد استْهَلّ معلقته بالخمرة، وَوَصْفها ووصْف تأثيرها ، في المورد المؤلف من أربعة أبيات جاء البيت الثاني منه .
فقال :

أَلا هُبّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا ولا تُبقِي خُمورَ الأنْدَرينا
مُشَعْشَعةً كأنّ الحُصّ فيها إذا ماالماءُ خالَطَها سَخِينا

(٥٤) شرح المعلقات السبع – ٩٨
(٥٥) الخزانة – ٣٥٤–٣٥٥ ، عقود الجمان – ١١٨

تَجُورُ بِذِي اللُّبانَةِ عَنْ هَواهُ   إذا ماذاقَها حتّى يَلِينا
تَرى اللّحزَ الشّحيحَ إذا أُمِرَّتْ   عَلَيْهِ لِمالِهِ فيها مُهِينا

فلم ينتقل منها الى غيرها ، ولم يتجاوزها ، لا للحديث عن نفسه وقومه ، ولا عن غيره وسياق البيت نفسه لاينصرف الى الجود والسخاء . لأن (سخينا) لاتصلح من حيث المعنى أنْ تكون جواباً للشرط في قوله (إذا ماالماء خالطها سخينا) لأنهم لايسخون لمجرد مخالطتها الماء . ولذلك ذهب القائلون بهذا الى ذكر مالم يذكره الشاعر فقالوا : إذا خالطها الماء وشربناها وسكرنا ، جُدْنا بعقائل . . . الخ فالسخاء نتيجة انتشائهم بها ، بعد خلطها وشربها ، وتمكنها من أن تفعل فيهم فعلها .

وَهَبْ أنَّ الشاعر طوى ذكر هذا كله ، فهل يرفع من شأنه أنه وقومهم انما يسخون بعد سكرهم وانتشائهم ، وكأنهم لايسخون قبل ذلك ، وهو مايوجبه القول ويفضي اليه من باب المخالفة ومفهومها ، كما يقول الأصوليون ورجال القانون .

وَلِنَدَعْ هذا جانباً ، ولنسأل عما يكون له من فضل في سخائه بعد شربها مع أنّه هو القائل في المورد ذاته .

تَرَى اللّحزَ الشّحيحَ إذا أُمِرَّتْ   عَلَيهِ لِمالِهِ فيها مُهِينا

فاذا كانت هذه ــ الخمرة تحمل اللّحْزَ الشحيح على إهانة مالِهِ فيها، بمجرد أن تَمَرّ عليه فأنىّ له أن يفخر بسخائه ، بعد خلطها وشربها والانتشاء بها ؟ ؟

فالبيت ــ كما أسلفت ــ في الخمرة ــ وخلطها بالماء وأثر هذا المزج أو الخلط بها فلا تشعشع إلا بعد خلطها . والشعشعة التي ذكرها هنا ليست من مجرد المزج ، أي لم يُرد بها أنها خمرة مزجت بالماء فحسب ، وإنما أراد أنها تلألأت بهذا المزج ، آخذاً هذا من شعشعة الشمس : إذا أشرقت ونشرت

أشعتها (٥٦) . وهذا لايكون للخمرة قبل مزجها ولذلك قال الزوزني (اسقنيها ممزوجة بالماء كأنها من شدة حمرتها – بعد امتزاجها بالماء – أُلقي فيها نَوْر هذا النّبت الأحمر) (٥٧) .

ولهذا فلم يفخر ابن كلثوم بسخائه في هذا البيت ، وليس له أن يفخر بسخائه فيه وإنْ أراده .

وإذا كان ماذهبت إليه صحيحاً، فالشاهدان ليسا من التورية في شيء(٥٨) ونفي التورية عنهما لاينفي قدمها وأصالتها التي تحدثت عنها .

اسماؤها وأنسب هذه الاسماء لها

لقد سميت بالتورية والايهام والتوجيه والتخييل . ودرجها بعضهم في المغالطات المعنوية .

أولاً : التورية :– وهو ابرز اسمائها ، فقد اقتصر عليه دون غيره من اسمائها ابن منقذ ، وابن قيم الجوزية . وقدمه على غيره من اسمائها ، ابن أبي الاصبع وصفي الدين الحلي ، وابن حجة الحموي ، والسيوطي ، وابن معصوم ، والخطيب القزويني وأصحاب الشروح لتلخيصه . وقد آثروه على غيره من اسمائها لقربه من مطابقة المسمى،فقال الحموي : (والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى ، لانها مصدر ورّيت الخبر تورية : اذا سترته وأظهرت غيره ، كأن المتكلم يجعله وراء ظهره حيث لايظهر) (٥٩) وتابعه في هذا السيوطي وابن معصوم وغيرهما ممن جاءوا بعده .

(٥٦) القاموس المحيط – مادة (شع)
(٥٧) شرح المعلقات السبع – ٩٨ .
(٥٨) الصور البديعية – ٢/٢٨٠ حيث استبعد الدكتور حفني محمد شرف كونهما من التورية لبعد خواطر الشاعرين عنها .
(٥٩) الخزانة – ٢٣٩

وقد أصابوا في هذا،إذ المعنى الاصطلاحي للتورية لايكاد يختلف — في جوهره—عن معناها اللغوي ، ولهذا رأينا المعاصرين والمحدثين من البلاغيين يعنونها به . وهم — بعد هذا — بين مقتصر عليه ومقدم له (٦٠) .

ثانياً : الايهام : ولم يقتصر على تسميتها به غير السكاكي — فيما أعلم — وقدمه شهاب الدين الحلبي على غيره من اسمائها وتابعهُ في هذا النويري — ٧٣٣ هـ (٦١) . وإلا فهو ردف التورية ، في الكتب التي ذكرتهما معاً .

ولقد أشار البلاغيون الى أنها لم تُسَمَّ به إلا لما فيها من إيهام،فقال الحموي (. . فيتوهم السامع — أول وهلة — انه يريد القريب وليس كذلك . ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاماً) (٦٢) وقد أصابوا في هذا ، كما أصابوا في سابقه .

فالتورية إيهام في دافعها ، واسلوبها وغرضها . ولكن تظل أخص منه بمسماها وأكثر منه مطابقة ، للذي بين المعنيين الاصطلاحي واللغوي من وثيق الصلة .

ثالثاً : التوجيه : ولم يقتصر على تسميتها به أيٌّ ممن تحدثوا عنها . وقد جاء تالياً للتورية عند ابن أبي الأصبع وحده ، وتالياً لها وللايهام بعدها عند الحموي والسيوطي وابن معصوم .

ويبدو لي أنها سميت به لما وقع من تصحيف (الايهام بالياء المثناة الى (الابهام) — بالباء المفردة ، ردف التوجيه ، فما أن أطلق الابهام عليها حتى تبعه ردفه التوجيه : وإلا فالتوجيه ، أو الابهام شيء والتورية شيء آخر . وقد أفرد له الذين أطلقوه على التورية أنفسهم باباً خاصاً به في كتبهم . وما فطنوا الى أنهم أطلقوا مصطلحاً واحداً على لونين من الوان البديع بينهما مابينهما

(٦٠) الوسيلة الأدبية — ١٢١/١ ، البلاغة العربية في فنونها — الدكتور محمد علي سلطاني — ٢٩ وبقية الكتب البلاغية الحديثة .

(٦١) حسن التوسل — ٢٤٩ ، نهاية الأرب — ١٣١/٧

(٦٢) الخزانة — ٢٣٩ .

من تباين واختلاف . وهم حين أطلقوه عليها لم يُعَلِّلوا سبب إطلاقه عليها ، على غرار مافعلوا في التورية والايهام . لذا فاني لاأرى مايدعو إلى عده اسماً من اسمائها ، وحشره مع ما لا يشاكله .

رابعاً : التخييل : ولم أجد من اقتصر على تسميتها به . ولم يلحقه بأسمائها – فيما أعلم – غير شهاب الدين الحلبي حيث قال :

(الايهام ، ويقال له التورية والتخييل : وهو أن تذكر الفاظاً لها معانٍ قريبة وبعيدة . فاذا سمعها الانسان سبق الى فهمه القريب ، ومراد المتكلم البعيد) (٦٣) ومثل بتورية عمر بن أبي ربيعة – أيها المنكح الثريا سهيلا .. الخ

والحلبي – على ماأظن – أخذ قول المطرزي – في التخييل – وصرفه الى التورية وهماً منه . وفي قول المطرزي مايعين على هذا الوهم في ذكره القريب والبعيد – اما وهم الحلبي فلأنّه لم يفطن الى أن كل الذين تحدثوا عن التورية كانوا قد تحدثوا عنها على أنها لفظ (مفرد) وليست (ألفاظاً) مجموعة لكل منها معنى قريب وآخر بعيد كما أن العلوي كان قد نقل هذا الذي ذكره الحلبي عن المطرزي لا عن الحلبي ، وأورده على أنه واحد من تعاريف التخييل الثلاثة التي أوردها . وآثر التعريفين الآخرين عليه . بل لَمَحَّ إلى نقده قائلاً (إنَّ قول المطرزي ليس على جهة التحديد ، وإنما هو وارد على جهة شرح أحكامه وضبطها) (٦٤) ولم يشر – كالحلبي – في كل ماتحدث به الى التورية لا من قريب ولا من بعيد ، ولا مثل بأمثلتها .

ومهما يكن من شيء ، فلم يتابع الحلبي في الحاق التخييل بأسماء التورية غير النويري والحموي والسيوطي وابن معصوم . وكل هؤلاء كانوا قد جاءوا به آخر اسمائها .

(٦٣) حسن التوسل – ٢٤٩

(٦٤) الطراز – ٣/٥

ولم يعلل أي منهم تسميتها به . ولم يلتفت أي منهم الىأن التخييل ليس من الوان البديع ،وأنه مأخوذ من (الخيال) : الصورة ، وأنه يقابل (الحقيقة) أو الواقع . وأن اللغويين كانوا قد نبهوا الى هذا فضلاً عن البلاغيين . ويكفينا في هذا قول الراغب الاصفهاني (الخيال : أصله الصورة المجردة ، كالصورة المتصورة في المنام ، وفي المرآة ، وفي القلب بعيد غيبوبة المرئي . ثم تستعمل في صورة كل أمر متصور . وفي كل شخص دقيق يجري مجرى الخيال .

والتخييل : تصوير خيال الشيْ في النفس . والتخيّل : تصور ذلك ...) (٦٥) . وهو كذلك عند البلاغيين ، فهذا شيخ البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني . يقسم المعاني الى قسمين قائلاً : (ويجب أن نتكلم أولاً على المعاني . وهي تنقسم –أولاً– الى قسمين : عقلي وتخييلي وكل واحد منهما يتنوع .)(٦٦) ويضيف قائلاً : (وأما القسم التخييلي : فهو الذي لايمكن أن يقال : إنه صدق ، وإن ماأثبتهُ ثابت ، ومانفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لايكاد يحصر إلا تقريباً . .) (٦٧) .

وينتهي الى القول : (وجملة الحديث أن الذي أريدهُ بالتخييل – ههنا – مايثبت فيه الشاعر أمراً ، هو غير ثابت أصلاً ، ويدعي دعوى لا طريق الى تحصيلها او يقول قولاً يخدع به نفسهُ ، ويريها ما لا ترى)(٦٨) ويطيل الحديث عن التخييل في التمثيل وغيره ، وتابعه في كون التخييل تمثيلاً وتصويراً منتزعاً من الخيال كل الذين جاءوا بعده ، وإن لم يكن الجرجاني أول متحدث عن الخيال والتخييل . وقد انتهى البلاغيون الى تعريفه بما نقله ابن الزملكاني بقوله (هو تصوير حقيقة الشيء ،حتى يتوهم أنه ذو صورة تشاهد، وأنه مما يظهر للعيان، كقوله تعالى (والارضُ جميعاً قبضتهُ يومَ القيامة ، والسماوات مطوياتٌ بيمينه) (٦٧ الزمر ٣٩) (٦٩) فأين تكون التورية من هذا التصوير

(٦٥) المفردات – مادة (خيل)
(٦٦–٦٨) على التوالي – اسرار البلاغة – ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ،وانظر التخييل فيها ٢٤١–٢٧٣

وكيف يكون التخييل اسماً لها ؟ ؟

خامساً : المغالطة المعنوية : انفرد ابن الأثير في درج التورية بالمغالطات المعنوية قائلاً (المغالطات المعنوية : وهذا النوع من أحلى ماستعمل في الكلام ، وألطفه لما فيه من التورية،وحقيقته أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض . والنقيض أحسن موقعاً ، والطف مأخذاً) (٧٠) وجاء بأمثلة التورية ، فكأن التورية – عنده – شيء من المغالطات وليست هي المغالطات ذاتها ، فليس لنا أن نذهب الى أنه سماها به .

وبعد هذا كله لنا أن ننتهي الى أن التورية انسب هذه الاسماء وأولاها بالاقتصار عليه . واذا كان لابد من الاشارة الى غيره من اسمائها فالايهام . وما سواهما فحري بنا أن نعرض عنه ، ولا نلتفت اليه .

أنواعها

عبثاً يحاول من أراد أن يقف على أنواع التورية قبل القرن الثامن الهجري . فان الذين ذكروا التورية – قبل هذا – لم يحاولوا تفريعها وتقسيمها .

وقد لانبعد اذا قلنا إن الخطيب القزويني يمكن أن يعد من أوائل من ذكر نوعيها : المجردة والمرشحة قائلاً : (. . وهي ضربان : مجردة ومرشحة . أما المجردة : فهي التي لاتجامع شيئاً مما يلائم المورّى به أعني القريب . . . . وأما المرشحة : فهي التي قرن بها ما يلائم المورّى به ، إما قبلها ، وإما بعدها . .) (٧١) .

وكان من الطبيعي أن يتابعه في هذا كل الذين كان كتابه قطب الرحى لمؤلفاتهم ، وإن كانوا قد ناقشوه فيما مثل به لكل من النوعين مناقشات مستفيضة صائبة .

---

(٦٩) التبيان – ١٧٨

(٧٠) المثل السائر ٧٦/٣ .

(٧١) الايضاح – ٣٥٣/٢ ، وانظر التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠

واذا كان الذين ذكروا التورية قبله قد أغفلوا – عن قصد أو غير قصد – ذكر انواعها فان أكثر من واحد من البلاغيين عامة والمعنيين بالبديع خاصة – ممن جاءوا بعده – كانوا قد أغفلوا ذكرها كذلك . فعاب الحموي عليهم إغفالهم قائلاً :

(. . فان الشيخ صفي الدين الحلي لم يذكر في شرح بديعيته نوعاً من أنواع التورية ، ولا قسماً من اقسامها . بل ذكر حد التورية الذي أجمع الناس عليه . .. ومن أين يعرف الطالب من هذا الحد : التورية المجردة ، والتورية المرشحة وقسميها ، والمبينة وقسميها ، والمهيأة وأقسامها ؟ وكذلك فعل العلامة زكي الدين بن أبي الاصبع لم يذكر في كتابه المسمى تحرير التحبير نوعاً من أنواعها ، ولا قسماً من أقسامها . مع أن كتابهُ ماوضع في هذا الفن لـه نظير . . . وأما صاحب التلخيص فانه قال : . . . .

وهي ضربان : مجردة ومرشحة ، ولم يزد على هذا القدر شيئاً) (٧٢) .

وذهب السيوطي الى أبعد من هذا في لوم القزويني ورميه بالتقصير فقال : (. . هذا ماذكره صاحب التلخيص . ولعمري لقد قصر في شأن التورية ، وما أنصفها ، حيث أخَلَّ بذكر أقسامها . وهي اعظم أنواع هـذا الفن وأجَلُّه) (٧٣) فكان من الطبيعي أن يتابع الحموي فيما ذهب اليه من ذكره لأقسامها وفروعها كما تابعهما ابن معصوم وأكثر المتحدثين عنها بعدهم .

وهم جميعاً كانوا قد أخذوا ماذكره القزويني وأوضحهُ ومثل به لكل من النوعين اللذين ذكرهما ، وهما : المجردة والمرشحة .

أما المبينة : فهي – عندهم – التي تجامع ملائماً للمعنى البعيد – المورّى عنه – إما قبلها ، وإما بعدها .

وأما المهيأة : فهي التي تفتقر الى ذكر لفظ يلائم المعنى البعيد – أيضاً –

---

(٧٢) الخزانة – ٢٤٣ .
(٧٣) عقود الجمان – ١١٥

تتهيأ به التورية لاحتمال المعنيين ، إما قبلها وإما بعدها ، وإلا لم تتهيأ التورية . أو تكون التورية بلفظين ، لولا كل منهما لم تتهيأ التورية في الآخر . فهي بهذا ثلاثة أنواع (٧٤) وتهيأ لهم أنهم قد أحسنوا صنعاً ، وتلافوا نقصاً ، ورفعوا قدر التورية ، وأبرزوا أهميتها بكثرة ماذكروه من انواعها وفروعها. وكأن أهميتها لا تتجلى إلا بكثرة أنواعها وأقسامها .

ولو أن ذكر فروعها وأقسامها بالأهمية التي تصوروها لما أغفلهُ الذين سبقوا القزويني وعاصروه وغير واحد ممن جاءوا بعده كابن أبي الاصبع وصفي الدين الحلي مع أنهما علمان في البديع خاصة .

وفاتهم أن القزويني الذي لاموه كان قد أصاب فيما ذكره من أنواعها وما أغفلهُ . فالقريب من معنيي التورية لايكون قريباً ،مالم يكن هناك مايقرِّبهُ من حال أو مقال . فالمجردة أغنى فيها الحال عن المقال في تقريب غير المراد . والمرشحة لم يسعفها الحال – في تقريب غير المراد – فأسعفها المقال كيما يتم الايهام .

فملاءمة المعنى القريب (غير المراد) لها مايبررها خدمة للايهام المطلوب . أما المبينة والمهيأة فهما مجانبان لطبيعة التورية أو الايهام،لما يتقدمهما أو يتأخر عنهما مما يلائم المعنى البعيد (المراد) . اذ كيف يريد المتكلم إخفاء معنى من المعاني ، وصرف ذهن السامع عنه ، ويتولى ستره واخفاءه بمعنى آخر لايريده ويأتي بعد هذا كله بما يلائم هذا الذي أراد اخفاءهُ ، ويقود إليه ، ويكشف مكمنهُ ؟

والغريب أن هؤلاء الذين تعصبوا لهذه الأنواع من التورية وفروعها لم يصنفوا ماأوردوه منها في كتبهم بحسب أنواعها وفروعها ، مع كثرة ما أوردوه لها من أمثلة وشواهد لاتكاد تحصى لكثرتها . فقد ملأ الحموي

---

(٧٤) الخزانة – ٣٥١–٣٥٥ ، والكتب التي تحدثت عن انواع التورية بعدها .

بأمثلتها مايزيد على مائة وعشرين صفحة من صفحات كتابه (٧٥) .

والأغرب من هذا أنهم يرون المجردة ــ وحدها ــ التورية المحضة دون غيرها ، فقد نص ابن أبي الاصبع على هذا بقوله :

(. . . إن من التورية ما لايحتاج الى ترشيح ، وهي التورية المحضة)(٧٦)

فالتورية الحقة أو المحضة : هي التي لاتحتاج الى ترشيح فضلاً عن التهيئة والتبيين . فهي وحدها التورية الطبيعية ، التي تأتي استجابة لداعيها عفو الخاطر ، وتواتي ذوي الفطنة والبديهة اليقظة . كتورية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد تجردت مما يلائم أياً من المعنيين : القريب والبعيد .

ويمكن أن تليها التورية المرشحة : وهي التي لايعول فيها على الحال وحده ،بل يستعان فيها بلفظ آخر غير لفظ التورية لضمان الايهام وصرف ذهن السامع ، الى المعنى القريب غير المراد لكونه مما يلائمه . كتورية أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ في قوله :

(هاد يهديني الطريق أو السبيل) . فالتورية في هادٍ والطريق أكثر ملاءمة للقريب غير المراد فأسهم مع الحال التي كانا فيها في إيهام السامع .

غير أن البلاغيين عمدوا الى ماينازعون فيه من أمثلة هذا النوع كقول يحيى بن منصور الذهلي ، وهو شاعر اسلامي من شعراء الحماسة :

فَلَمّا نأت عَنّا العَشِيرَةُ كلها
أَنَخْنا فَحالَفْنا السُّيُوفَ عَلى الدَّهْرِ
فَما أَسْلَمَتْنا عِنْدَ يَومٍ كَرِيهَةٍ
وَلا نَحْنُ أَغْضَيْنا الجُفُونَ عَلى وِتْرِ (٧٧)

فقال الحموي : (الشاهد في الجفون . فانها تحتمل جفون العين ، وهذا

(٧٥) الخزانة ــ ٢٣٩-٣٥٥ (٧٦) تحرير التحبير ــ ٢٧١
(٧٧) ديوان الحماسة ــ تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح ــ ١٠٢

هو المعنى القريب المورى به . وقد تقدم لازم من لوازمه على جهة الترشيح ، وهو الاغضاء لانه من لوازم العين . وتحتمل أن تكون جفون السيوف ، أي : أغمادها . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم) (٧٨) ولا أدري كيف يصرف الجفون الى الأغماد بعد الذي نص عليه من أن الاغضاء من لوازم العين وليس من لوازم الغمد ؟ ؟ فالاغضاء تقريب جفني العين ، ولا يقترب جفنا الغمد من بعضهما استُلّ أو أغمد . كما أن الاغضاء على الشيء كناية تمثيلية عن السكوت ، كتكنيتهم عن الحيرة والتردد بقولهم أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى . وقد اشتهرت هذه الكناية حتى صارت تعنيه لغة ، ففي القاموس المحيط : أغضى على الشيء : سكت (٧٩) .

أما المبينة : فقد مثلوا لها بما ينازعون فيه أيضاً . بل بما تنازعوا فيه هم قبل غيرهم كقول البحتري :

وَوَراءَ تَسْدِيَةِ الوِشاحِ مَلِيّةٌ
بِالحُسْنِ تَمْلُحُ في القُلُوبِ وتَعْذُبُ(٨٠)

فقال الحموي : (الشاهد هنا في تملح . فانه يحتمل أن يكون من الملوحة ، التي هي ضد العذوبة . وهذا هو المعنى القريب ، المورى به . ويحتمل أن يكون من الملاحة التي هي عبارة عن الحسن . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد تقدم من لوازمه على جهة التبيين (ملية بالحسن) قلت : هذا الشاهد الذي استشهدوا به من نظم البحتري فيه نظر) (٨١) .

وعندي أن هذا البيت أبعد مايكون عن التورية . فتملح لايمكن صرفها

---

(٧٨) الخزانة – ٣٥٢ (٧٩) مادة (غضي)

(٨٠) ديوانه – تحقيق الصيرفي – ٧٢/١ ، وقد حرف فيه (الوشاح) الى (الوشاة)

(٨١) الخزانة – ٣٥٣

الى الملوحة بحال ، فالبيت في الغزل ، ومن أبيات الغزل الجميلة ، فما علاقة الملوحة به ؟ ؟

وأين يكون مكان هذه الملوحة من القلوب ؟ ؟

أما قول الشاعر

أَرى ذَنَبَ السِّرْحانِ في الأفُقِ ساطِعاً
فَهَلْ مُمْكِنٌ أَنَّ الغَزالَةَ تَطْلَع ؟

فقد قال فيه الحموي : (الشاهد هنا في موضعين ، أحدهما : ذنب السرحان . فانه يحتمل أول ضوء الفجر . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد بينهُ بذكر لازمهِ بعده بقوله : ساطعاً .

ويحتمل ذنب الحيوان المعروف . وهذا هو المعنى القريب المورى به) (٨٢) . وأعرض عن ذكر الموضع الثاني الذي أشار اليه . ولا اشك في أنه يريد به الغزالة .

والغريب أن الشاعر يذكر السطوع صراحة، ويصرف به الأذهان الى أن مراده بذنب السرحان الفجر لاذنب الحيوان المعروف، ومع ذلك نصر على أنه يحتمل هذا وهذا . وذنب السرحان من غير ماذكر للسطوع وغيره كناية تمثيلية عن الفجر .

وقد ورد في الحديث الشريف تمثيل الفجر به (٨٣) . فتمثيل الفجر بذنب السرحان شائع معروف منذ ذلك الحين ان لم يكن قبله .

وبعد هذا]وذاك[فذنب السرحان لفظان وليسا لفظاً واحداً . والتورية لفظ له معنيان . . الخ . وكل هذا لم يحل بينهم وبين حملهما على التورية

وكذلك قول ابن سناء الملك:

---

(٨٢) الخزانة ٣٥٣

(٨٣) النهاية في غريب الحديث — ٣٥٨/٢ .

أما وَالله لَولا خَوفُ سُخْطِكْ
لَهانَ عَلَيَّ ما أَلْقَى بِرَهْطِكْ
مَلَكْتِ الخافِقَيْنِ فَتِهْتِ عُجْباً
ولَيسَ هُما سِوَى قَلْبِي وقُرْطِكْ (٨٤)

فقال الحموي (الشاهد هنا في الخافقين فانه يحتمل أن يريد قلبه وقرط محبوبه وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . وهو مراد الناظم . وقد بينه بالنص عليه فانه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط .

ويحتمل أن يريد ملك المشرق والمغرب . وهذا هو المعنى القريب المورى به) (٨٥) أليس من أعجب العجب أن يقول (ويحتمل) بعد كل الذي قاله هو لاغيره (. . . وهو مراد الناظم . وقد بينه بالنص عليه فانه صرح بعد الخافقين بذكر القلب والقرط) فما الذي يمكنني أن أقوله أكثر من هذا الذي قاله . أين اذاً الايهام فضلاً عن تقصده وتعمده ؟ ؟ اذا كان الشاعر قد بينَ المراد وصرح به ونص عليه ؟ ؟

الست محقاً فيما ذهبت اليه من أن هذا النوع ليس من التورية في شيء لمجانبته الايهام ؟

أما المهيأة فيكفينا أن نقف على أشهر مامثلوا به لها أو لقسم من أقسامها وهو قول عمر بن أبي ربيعة :

أَيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلاً
عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيانِ
هي شامِيَّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ
وَسُهَيْلٌ إذا اسْتَقَلَّ يَمانِي (٨٦)

(٨٤) لاوجود لهما في ديوانه – طبعة حيدر آباد ١٩٥٨ .
(٨٥) الخزانة – ٣٥٣ (٨٦) المرجع نفسه – ٣٥٤

إذ قال الحموي : (الشاهد في البيت الأول في الثريا وسهيل . فان الثريا يحتمل أن يكون أراد بها بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية الاصغر . وهذا هو المعنى البعيد المورى به عنه ، وهو المراد . والقريب ثريا السماء . وهذا هو المعنى القريب ، المورى به . وسهيل يحتمل أيضاً سهيل بن عوف . وقيل : كان رجلاً مشهوراً من اليمن . وهذا هو المعنى البعيد المورى عنه . ويحتمل النجم المعروف بسهيل . وهذا هو المعنى القريب المورى به . ولولا ذكر الثريا التي هي النجم ، لم ينتبه السامع لسهيل . وكل واحد منهما صالح للتورية) (٨٧) .

وما سألوا أنفسهم لماذا يوري عمر بن أبي ربيعة عن الثريا بعد كل الذي قاله فيها صراحة كقوله المشهور شهرة الأمثال

مَنْ رَسُولي إلى الثُّرَيا فانّي ضِقْتُ ذَرْعاً بهَجْرِها وَالكتابِ

وغيره ؟ ويقولون بالتورية في الثريا بعد أن عرفوها وذكروا اسمها واسم ابيها وجدها وجد جدها . ويقولون بالتورية ويتناسون قوله (أيها المنكح)

وعلى أية حال فاني لاأدري كيف جاءوا بمثل هذه الشواهد وأين كانوا عما حَدَّوا به التورية ؟ ؟ وماهو مفهومها لديهم ؟ ؟ . والذي أطمئن اليه أنَّ أيّاً من هذين النوعين ليس من التورية في شيء لا من قريب ولا من بعيد . فهما مجانبان لما فيها من إيهام متعمد مقصود .

القائلون بوجودها في القرآن الكريم وأقوالهم

يمكن أن يعد السكاكي من أوائل من نص صراحة على وجودها في القرآن الكريم ، ان لم يكن أولهم . فقال بعد أن حد الايهام ومثل له ببيت شعري أوضح مافيه من إيهام :

(. . . وقوله سبحانه (الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى) (٥ طه ٢٠) .

---

(٨٧) ديوانه – ٥٠٣

وقوله : « والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ ،والسّموات مَطْوِيّاتٌ بيَمينهِ » (٦٧ الزمر ٣٩) .

وأكثر المتشابهات من هذا القبيل .) (٨٨) .

وقال ابن أبي الاصبع بعد أن ذكر حد التورية :

(. . ومنها قوله تعالى : « قالُوا تَاللهِ إنّكَ لَفي ضَلالكَ القَديم » (٩٥ يوسف ١٢) فانظر الى كون الضلال ــ ههنا ــ يحتمل الحب ، وضد الهدى . وكيف استعمله أولاد يعقوب ــ عليه السلام ــ ضد الهدى ، فوروا به عن الحب ، ليعلم أن المراد ماأهماوا ، لا مااستعملوا .

ومن ذلك ــ أيضاً ــ قوله تعالى : « فَاليَومَ نُنَجّيكَ ببَدَنِكَ لَتَكُونَ لمِنْ خَلْفَكَ آيَةً » (٩٢ يونس ١٠) . على رأي من رأى أن البدن ــ ههنا ــ الدرع . فان البدن يطلق على الجسم ، وعلى الدرع . وهو ــ بهذ التفسير ــ في الظاهر قد استعمله بمعنى الجسم ، وأهمل معنى الدرع . ومراده ما أهمل، لا ما استعمل . فان نجاة فرعون ــ أي خروجه من البحر بعد الغرق ــ بدرعه أعجب آيةً من خروجه مجرداً .

ومن التورية اللطيفة ، قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، حيث قال : « وَلَئِنْ أتَيْتَ الّذينَ أُوتُوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ، ماتَبِعوا قِبْلَتَكَ . وما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَما بَعْضُهُم بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ » (١٤٥ البقرة ٢) . ولما كان الخطاب لموسى ــ عليه السلام ــ من جانب الطور الغربي ، وتوجهت اليهود اليه . وتوجهت النصارى الى الشرق . وكانت قبلة المسلمين وسطاً بين القبلتين ، قال سبحانه وتعالى « وكَذلِكَ جَعَلْناكُم أُمّةً وَسَطاً » (١٤٣ البقرة ٢) ، أي : خياراً . وظاهر اللفظ يوهم التوسط لاحتمالها المعنيين .

---

(٨٨) المفتاح – ٢٢٦

ولما كان المراد – والله أعلم – أحد المعنيين الذي هو الخيار ، دون الآخر ، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب . والله أعلم) (٨٩) . مع أنه كان قد اقتصر في تحرير التحبير على الآية الأولى فقط ، فقال (واذا وصلت الى ماوقع من التورية في الكتاب العزيز ، وصلت الى الغاية القصوى ، وهي قوله تعالى « قالوا تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ » (٩٠)

وقال القزويني : (–. .. أما المجردة : فهي التي لاتجامع شيئاً مما يلائم المورّى به أعني المعنى القريب ، كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥ طه ٢٠) .

وأما المرشحة : فهي التي قرن بها مايلائم المورى به ، إما قبلها كقوله تعالى : « وَالسَّماء بَنَيْناها بأيْدٍ ، وإنّا لَمُوسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) .. وقال السكاكي أكثر متشابهات القرآن من التورية) (٩١) .

ونقل الحموي عن الزمخشري – ٥٣٨ ﻫ أنه قال :

(ولا نرى باباً في البيان أدق ، ولا الطف من هذا الباب . ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام نبيه – صلى الله عليه وسلم – وكلام صحابته – رضي الله عنهم أجميعن – فمن ذلك قوله تعالى : « الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى) » (٥ طه ٢٠) لأن الاستواء على معنيين : احدهما الاستقرار في المكان ، وهو المعنى القريب المورّى به ، الذي هو غير مقصود ، لأن الحق – تعالى وتقدس – مُنزه عن ذلك . والثاني : الاستيلاء والملك ، وهو المعنى البعيد المقصود ، الذي ورى عنه بالقريب المذكور . انتهى) (٩٢) .

كما أخذ الحموي ماقاله القزويني في المجردة والمرشحة ، ومامثل به لهما من القرآن الكريم من غير أن ينسب ماأخذه لصاحبه (٩٣) .

---

(٨٩) بديع القرآن – ١٠٢–١٠٣ (٩٠) تحرير التحبير – ٢٧٠
(٩١) الايضاح – ٢/٣٥٣ ، وانظر التلخيص – ٣٥٩–٣٦٠
(٩٢) الخزانة – ٢٤٠ (٩٣) المرجع نفسه – ٣٥١–٣٥٢

وأخذ السيوطي مانقلهُ الحموي عن الزمخشري ، غير أنه عزا القول للزمخشري مباشرة، وغَيّرَ فيه عبارة (من هذا الباب) الى لفظ (التورية) (٩٤)

وأخذ ابن معصوم ماعزاه السيوطي للزمخشري فنسبه اليه مباشرة، والحق أن الزمخشري لم يتحدث عن التورية . وإنما تحدث عن التمثيل التخييلي أو التخييل (٩٥) فقال : (ولا ترى باباً في علم البيان أدق ، ولا أرق ، ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن ، وسائر الكتب السماوية ، وكلام الانبياء منه فان أكثره أو أغلبهُ تخييلات) (٩٦) .

فأين هذا مما نقلوهُ عنهُ ؟ ؟

خلو القرآن الكريم منها

لم أجد من نص صراحةً على خلو القرآن الكريم من التورية ، فضلاً عن تعليل خلوه منها ، والبرهنة عليه ، مع كثرة الذين واجهتهم النصوص القائلة بوجودها فيه . فمر الباحثون بتلك النصوص ، أو مرت بهم وكأنها من البديهيات المسلم بها ، حتى أولئك الذين ناقشوا – في الآيات التي أُوردت أمثلة لهـــا – مناقشات مستفيضة ، انتهت بهم الى أنها ليست من أمثلة التورية وشواهدها .

واستطيع أن أقرر باطمئنان كامل خلو القرآن الكريم منها خلواً تاماً . ولا أريد بهذا تقليل شأنها ، والحط من قيمتها – بعد الذي أبرزته من أمثلتها الاصيلة وأوضحته من ضرورتها في كثير من المواقف ، وكونها السبيل التي لاسبيل غيرها ، يمكن الالتجاء إليها في تلك المواقف . وأنها دليل تمكن صاحبها من اللغة وعركه لاساليب التعبير فيها ، وخبرته بفنون بلاغتها وفصاحتها . وأنها – بعد هذا كله – علامة ذكائه ، وبارقة فطنته ، وحضور

(٩٤) عقود الجمان – ١١٥
(٩٥) أنوار الربيع – ٥/٥
(٩٦) الكشاف – ٣/٣٣

بديهيته ، وبراعة تصرفه ، في مواجهة المواقف الحرجة بما تقتضيه وتتطلبه ، وإنما أريد أن أوضح أنها — مع هـــذا الذي قلته فيها وقاله الآخرون قبلي — تختلف في طبيعتها عن طبيعة القرآن الكريم إختلافاً ظاهراً ، وتجانبه مجانبة لاسبيل الى التوفيق بينهما. وأن هذا الذي قيل في أهميتها ، لايغير من طبيعتها القائمة على الغش ، والخداع والتضليل والايهام المتعمد المقصود . وهو ماتؤيدني فيه دلالتها اللغوية والاصطلاحية والأمثلة الخاصة بها، الخالصة لها، لا التي الحقت بها قسراً ، عن قصد أو غير قصد . فضلاً عن اسميها اللذين عرفت بهما : التورية والايهام .

فاذا كانت هذه هي التورية ، وهذه طبيعتها فهل بالقرآن الكريم حاجة اليها ؟ ؟

ولا أراني بحاجة الى إيضاح طبيعة القرآن الكريم وما يرمي إليه ، فهو كتاب الله المنزل لهداية العباد ، وإخراجهم من الظلمات الى النور :
قال تعالى : « كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إلَيْكَ ، لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ » (١ ابراهيم ١٤) فهو كتاب هداية وإرشاد وتوجيه ، وقد سماه سبحانه وتعالى نوراً لهدايته ، فقال تعالى : « ياأَيُّها النّاسُ ، قَدْ جاءَكُم بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُم ، وَأَنْزَلْنا إلَيْكُم نُوراً مُبِيناً » (١٧٤ النساء ٤) .
وقال تعالى في بيانه وهدايته وَعِظَته :
« هذا بَيانٌ لِلنّاسِ ،وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلمُتَّقِينَ » (١٣٨ آل عمران ٣)
وقال عزَّ من قائل : « وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ » (٨٩ النحل ١٦) .

والآيات الكريمة في هذه المعاني أكثر من كثيرة ، يمكن الرجوع اليها بسهولة ويسر (٩٧) فهذه هي طبيعة القرآن الكريم ، والغرض منه . وقد اهتدى به المسلمون منذ نزوله الى الآن . وسيظلون — ان شاء الله — يهتدون بهديه ،

(٩٧) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن — (بين) ، (نور) ، (هدى)

ويقتبسون من نوره مابقى مسلم منهم الى يوم تقوم الساعة . فكيف يمكن أن تقتحم التورية – وهي على ماهي عليه من إيهام متعمد مقصود – رحاب هذا الكتاب ؟ ؟ ؟

وكون القرآن عربياً جارياً على أساليب العرب ، وطرائقها في التعبير ، وسبلها في تزيين كلامها وتحسينه ، لايوجب أن تكون فيه كل تلك الألوان التي استخدموها ماوافقه منها ، وما لم يوافقهُ .

وكونه – كما قيل فيه – حَمّالَ أوجُهٍ ، أو له ظهر وبطن ، وغير ذلك مما يشير الى اختلاف مستويات الناس في فهمه وإدراكه ، لايعني أنه توريات وانما يعني : أنه نص أدبي رفيع ، ثري معطاء ، لاينضب معينه باغتراف المغترفين منه . واختلاف الناس في فهمه راجع الى خصبه وثرائه من جهة ، وأختلافهم في قابلياتهم وقدراتهم ، وتباين مداركهم من جهة أخرى .

وقد مثله الله سبحانه وتعالى بالماء المنزل من السماء وقد توزعته الأودية كل بقدره (٩٨) . فقال تعالى : « أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها . . . » (١٧ الرعد ١٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي وَمَثَلُ مابَعَثَنِي اللهُ به من الهُدَى وَالعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصابَ الأرضَ ، فَكانَتْ مِنها طائِفةٌ قَبِلَتْ الماءَ فأَنْبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثيرَ . وَكانَتْ مِنها أَجادِبُ أَمْسَكَتْ الماءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النّاسَ ، فَشَرِبُوا وَرَعَوا وسقوا . وأَصابَ طائِفَةً أُخرى مِنها الماءُ وهي قِيعانٌ لاتُمْسِكُ ماءً ، ولا تُنْبِتُ كَلأً .

فذلكَ مَثَلُ مَنْ فقه في دينِ الله ، وتَفَقَّهَ بما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وعَلَّمْ . وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأساً ، وَلم يَقْبَلْ هُدَى

(٩٨) الأمثال في القرآن الكريم – الدكتور محمد جابر فياض – ١٦٨

اللهِ الّذي أرْسِلْتُ بِهِ » (٩٩) .

وهذان المثلان للقرآن كله ، محكمه ومتشابهه . فالآيات المتشابهات ليست توريات ، ولا شبيهة بالتوريات ، لا من قريب ولا من بعيد .

فالله سبحانه وتعالى لم يرد بها إيهام عباده كما هو الحال في النوريات (فما أنزل الله تعالى من آية – كما قال الحسن البصري – إلا وهو يحب أن يُعْلَم فيم أنزلت ، وماذا عنى بها) (١٠٠) .

واذا لم يرد الله إيهام عباده – وحاشا لله أن يريده – فمحال أن يقع الايهام في كلامه بغير إرادته . وهذا وحده كاف لنفي التورية أو الإيهام عن القرآن الكريم نفياً قاطعاً . ويؤيده أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – واصحابه وتابعيهم – رضوان الله تعالى عليهم – كانوا قد قرأوا القرآن الكريم ، وتدارسوه وفسروه ، فما أشكل عليهم شيء منه ، ولا توقف مفسر منهم عن تفسير آية من آياته .

وما أن أخذ المسلمون نصيبهم من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، ونظروا الى ذات الله – سبحانه وتعالى – وصفاته وأفعاله ، وما أخبر به من أمور الغيب بمنظار هذه العلوم ، مبتعدين عن سلامة الفطرة وصفائها ، حتى اشتد الخلاف في الآيات المتشابهات . ومع هذا لم يقل أحد بأنها توريات حتى أولئك الذين أوّلوا ظاهر الفاظها .

كما لم يذهب أي من المفسرين الى شيء من هذا ، مع كثرة كتب التفسير وتنوعها واختلافها باختلاف مؤلفيها ومذاهبهم ، ولا يعقل أن تكون الآيات المتشابهات توريات ولا يشير عالم من كل علماء الأمة في كل تلك الأجيال التي تعاقبت منذ نزول القرآن الى القرن السابع الى هذا أو ينبه إليه ، ويغفل

(٩٩) صحيح البخاري – ٣٠/١ ، صحيح مسلم ١٧٨٧/٤ ، وانظر بقية تخريجه في أمثال الحديث النبوي الشريف ٦٩٣/٢

(١٠٠) الاكليل في المتشابه والتأويل – ابن تيمية – ١٨

كل أولئك العلماء أو يتغافلون ، ويتنبه لهذا السكاكي أو غيره من معاصريه .

ولو كانت الآيات المتشابهات توريات لها معان ظاهرة غير مرادة وخفية هي المرادة لما تفرق المسلمون فيها الى أكثر من فرقتين : ظاهرية ضالة ، وباطنية مهتدية . أما وقد تفرق المسلمون فيها الى فرق عديدة وتعلقت الهداية بتنزيه الخالق جلَّ شأنُه عن التشبيه والتعطيل ، لا بظاهر المعنى ، ولا بخفيّه ، فليست هذه الآيات من التوريات في شيْ .

فمن أهل الظاهر من اهتدى للتنزيه بتجنبه التشبيه والتجسيم فما حالَ الظاهرُ بينهم وبين الهداية. ومنهم من انتهى به الظاهر الى التشبيه والتجسيم فضل وأضل. ومن المؤوِّلين من اهتدى للتنزيه أيضاً لتجنبه التعطيل ، فما حال التأويل بينهم وبين الهداية . ومنهم من انتهى به التأويل الى التعطيل فضل وأضل وهكذا نجد أن التنزيه هو المراد من ظاهر معنى اللفظ أو خَفيِّه .

وبعد هذا كله فان الآيات التي مَثّلُوا بها للتورية يمكن أن تكون حكماً في وجودها أو عدمه .

ولنقف على ماقاله المفسرون فيها .

أولاً : قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥ طه ٢٠) .

قال الطبري : (يقول تعالى ذكره : الرحمن على عرشه ارتفع وعلا . وقد بينا الاستواء بشواهده فيما مضى . وذكرنا اختلاف المختلفين فيه ، فأغنى عن إعادته في هذا الموضع) (١٠١) .

وقال في الموضع الذي أشار اليه بقوله المتقدم :

(قال أبو جعفر : الاستواء في كلام العرب منصرف على وجوه : منها انتهاء شباب الرجل وقوته ، فيقال – اذا صار الرجل كذلك – قد استوى الرجل .

---

(١٠١) جامع البيان – ١٠٤/١٦

ومنها استقامة ماكان فيه من اود في الأمور والاسباب . يقال منه : استوى لفلان أمره ، إذا استقام له بعد اود . . . .

ومنه الاقبال على الشيء بالفعل ، كما يقال : استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه ، بعد الاحسان اليه .

ومنها الاحتياز والاستيلاء ، كقولهم : استوى فلان على المملكة : بمعنى احتوى عليها وحازها .

ومنها العلو والارتفاع ، كقول القائل : استوى فلان على سريره ، يعني به : علوه عليه .

وأولى المعاني بقوله جل ثناؤه (ثُمَّ استَوَىَ الى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ) علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع سموات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله : « ثُمَّ استَوَىَ إلى السَّماءِ » الذي هو بمعنى العلو والارتفاع ، هرباً — عند نفسه — من أن يلزمه — بزعمه — إذا تأوله بمعناه المفهوم — كذلك — أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها ، الى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر . ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله (استوى) : أقبل . أفكان مدبراً عن السماء فأقبل اليها ؟ . فان زعم أن ذلك ليس باقبال فِعْلٍ ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك ، فقل : علا عليها علو مُلْك وسلطان ، لاعُلُوّ انتقال وزوال . ثم لن يقول في شيء من ذلك قولاً ، إلا لزم في الآخر مثله .

واولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه ، لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولاً — لعقول أهل الحق فيه — مخالفاً . فيما بيّنا منه مايشرف بذي الفهم على مافيه له الكفاية إن شاء الله) (١٠٢) .

(١٠٢) جامع البيان — ١/١٥٠

فأين الظاهر غير المراد ؟ وأين الخفي المراد ؟ أعني أين الايهام المتعمد المقصود والطبري أورد كل معاني الاستواء ودلالاته إيراد بصير ، واختار اختيار خبير ، وجادل مجادلة قدير . ولذا أوردت قوله بأكماله .

واذا كان الطبري يمثل وجهة نظر معنية فهذا ابن عربي يمثل وجهة نظر أخرى يقول : (ومن الآيات المتشابهة آيات الاستواء ، والأحاديث الواردة فيه . ومرجعها عند المحققين الى الآيات المحكمات . وأول ماينبغي تقديمه معنى الاستواء لغةً .

. . . وبعد أن أورد المعاني اللغوية وتفاسير الصحابة والتابعين الموافقة لها قال : وقد ثبت عن الامام مالك — رحمه الله — أنه سئل : كيف استوى ؟ ؟ فقال : كيف غير معقول . والاستواء غير مجهول . والايمان به واجب . والسؤال عنه بدعة .

فقوله : كيف غير معقول ، أي كيف من صفات الحوادث . وكل ماكان من صفات الحوادث ، فاثباته في صفات الله تعالى ينافي مايقتضيه العقل ، فيجزم بنفيه عن الله سبحانه .

قوله : والاستواء غير مجهول : أي أنه معلوم المعنى عند أهل اللغة . والايمان به على الوجه اللائق به تعالى — واجب ، لانه من الايمان بالله وبكتبه

والسؤال عنه بدعة : أي حادث ، لان الصحابة ، — رضي الله عنهم — كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة ، فلم يحتاجوا للسؤال عنه . فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم ، ولا له نور كنورهم يهديه لصفات ربه ، شرع يسأل عن ذلك ، فكان سؤاله سبباً في اشتباهه على الناس ، وزيغهم عن المراد . . .) (١٠٣) .

وأما الزمخشري فقد ذهب الى القول :

(لما كان الاستواء على العرش — وهو سرير المُلك — مما يردف المُلك

---

(١٠٣) رد المتشابه الى المحكم — ٧١-٧٤ .

جعلوه كنايةً عن الملك ، فقالوا : استوى فلان على العرش : يريدون مَلَكَ ، وان لم يقعد على السرير البتة . وقالوه — أيضاً — لشهرته في ذلك المعنى ، ومساواته مَلَكَ في مُؤدّاه وان كان أشرح وأبسط ، وأدلَّ على صورة الأمر .

ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة : بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لافرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى ان لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد ، قيل فيه : يده مبسوطة لمساواته عندهم قولهم : هو جواد .

ومنه قول الله عز وجل : « قالَتْ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » أي هو بخيل . « بَلْ يَدَاهُ مَبْسوطتانِ » أي هو جواد . من غير تصور يَدٍ ، ولا غلٍّ ، ولا بسطٍ .

والتفسير بالنعمة ، والتمحل للتثنية من ضيق العطن . والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام) (١٠٤) .

فالزمخشري العالم المفسر البلاغي المعتزلي لم يذهب بالآية الكريمة الى أكثر من كونها (كناية) ذكرها بصريح لفظها ، وعللها بأن الاستواء على العرش مما يردف المُلك . وأنهم قالوه لشهرته في ذلك المعنى ، ومساواته مَلَكَ في مؤداه . وسخر ممن صرف لفظ — (اليد) في الآية الأخرى — الى النعمة . أي سخر ممن ذهب بها مذهب التورية ، ونعته بضيق العطن ، والمسافرة عن البيان مسيرة اعوام .

هذا ماقاله الزمخشري في هذه الآية وهو الذي قال فيه الحموي في باب التورية (وقال الزمخشري وهو حجة في هذا العلم) وهو كذلك فعلاً .

ثانياً : قوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضتهُ يوم القيامة والسمواتُ

(١٠٤) الكشاف — ٢٣٨/٢

مطويّاتٌ بيمينه » (٦٧ الزمر ٣٩) .

ويغنينا فيها قول الزمخشري نفسه :

(. . . « وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ » وقرئ بالتشديد ، على معنى : وما عظموه كنه تعظيمه) .

ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه — على طريقة التخييل — فقال : « والأرضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَومَ القِيامَةِ ، والسّمٰواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِه » .

والغرض من هذا الكلام — إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه — تصوير عظمته ، والتوقيف على جلاله لاغير . من غير ذهاب بالقبضة ، وباليمين الى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز .

وكذلك حكم مايروى : أن جبريل — عليه السلام — جاء الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : ياأبا القاسم : إن الله يمسك السموات يوم القيامة على اصبع ، والأرضين على اصبع ، والجبال على اصبع ، والشجر على أصبع ، والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، ثم يَهُزُّهُنَّ فيقول : أنا الملك (١٠٥) فضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تعجباً مما قال . ثم قرأ تصديقاً له (وما قدروا اللهَ حق قدره) الآية

وإنما ضحك أفصح العرب — صلى الله عليه وسلم — وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلاّ مايفهمه علماء البيان ، من غير تصور إمساك ، ولا إصبع ، ولا هزّ ، ولا شيء من ذلك . ولكنّ فهمه وقع — أول شيء وآخره — على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة . وان الافعال العظام — التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ، ولا تكتنفها الأوهام ، هينة عليه هواناً لايُوصِل السامع الى الوقوف عليه إلا اجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من

(١٠٥) رد المتشابه الى المحكم — ٣٢-٣٣ (وفي صحيح البخاري وغيره — جاء حبرمن اليهود .)

التخييل .

ولا ترى باباً في علم البيان أدق ، ولا أرق ، ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ، وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية ، وكلام الأنبياء منه . فان أكثرهُ أو أغلبهُ تخييلات .

وقد زَلّت فيها الأقدام قديماً . وما أُتيَ الزّالّون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة عِلماً ، لو قدروه حق قدره ، لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة اليه ، وعيال عليه . اذ لايحل عُقَدَها المؤربة ، ولا يَفُكُّ قيودها المكربة إلاّ هو . وكم من آية من آيات التنزيل ، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم ، وسيم الخسف بالتأويلات الغثّةِ ، والوجوه الرثّةِ ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلاً منــه من دبير) (١٠٦) . فأين التورية ؟ ؟ والحديث من أوله الى آخره عن البيان ومافيه من تخييل ، أو تمثيــل تخييلي وتصوير . فكيف انقلب الى حديث عن التورية من علم البديع عند الحموي والسيوطي وابن معصوم، ولماذا عمد بعضهم الى الاقتطاع والتغيير والتبديل فيه كيما ينصرف إليها ، ويستشهدون به على أنه إشادة بهــا — مع ما هم عليه من العــلم والفضل — وما هو فيها ؟ ؟ ولكن من قديم قيــل : آفة الرأي الهوى . وإلا فهم أعلم من غيرهم بمراد الزمخشري في حديثه هذا .

ثالثاً : قوله تعالى : « والسّماءَ بَنَيناها بأيْدٍ ، وإنا لَموسِعُونَ » (٤٧ الذاريات ٥٠) ولقد فُسِّر لفظ (الأيْدً) بالقوة وهو المعنى الذي وضع له اللفظ لغة . فلا تكنية ولا توريةَ ولا تخييلَ .

قال الطبري : (. . يقول تعالى ذكره : والسماء رفعناها سقفاً (بقوة)

---

(١٠٦) الكشاف — ٣/٣٣-٣٤

وبنحو الذي قلنا – في ذلك – قال أهل التأويل . ذكرمن قال ذلك . (١٠٧) فنقـــل عن الصحابة والتابعين وتابعيهم – رضي الله تعـــالى عنهم أجمعين – منهم ابن عباس ، ومجاهد وقتادة وغيرهم وجاء بما نقله عنهم بأسانيده .

ولم يذهب الزمخشري الى غير ماذهبوا اليه حيث قال :

(. . . (بأيدٍ) : بقوة . والأيد ، والآد : القوة . وقد آد يئيد ، وهو أيّد . (وإنا لموسعون) : لقادرون ، من الوسع : وهي الطاقة . والموسع : القوي على الانفاق . وعن الحسن : لموسعون الرزق بالمطر . وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة) (١٠٨) فاللفظ بمعناه اللغوي ، أو على ماوضع له لغة . قال أبو عبيدة :

« والسماءَ بَنَيْناها بأيْدٍ » أي بقوة) (١٠٩) فأين التورية ؟ ؟ ؟

ولذلك فقد انبرى شرّاح التلخيص للقزويني والسكاكي فيما ذهبا اليه في هذه الآية وآية الاستواء على العرش وذهبوا الى أن الأيد بمعنى القوة لاتورية فيها وأن الاستواء تمثيل أو كناية تمثيلية (١١٠) وهو ماذهب اليه الزمخشري فيهما قبلهم ويكفينا في هذا قول أبي يعقوب المغربي لشمول قوله للآيتين معاً :

(فكانت التورية ، مبنيء على ما أشتهر بين أهل الظاهر من المفسرين، الذين يقتصرون على مايبدو ، لم يظهر لهم – هنا – للأيد وللاستواء إلاّ المعنى البعيد .

أما عند من يوسم بالتحقيق، ممن يمارس مقتضى تراكيب البيان ، فالكلام تمثيل على سبيل الكناية أو الاستعارة . وهو ان مجموع (بنيناها بأيدٍ) نقل عن أصله على طريق التشبيه . وأصله وضع لبنة ومايشبهها على أخرى بقوة الأيدي ، الى الايجاد بالقوة ، لان النفس بالمحسوس أعرف .

(١٠٧) جامع البيان – ٦/٢٧
(١٠٨) الكشاف – ١٣٥/٣
(١٠٩) مجاز القرآن – ٤٦/١
(١١٠) شروح التلخيص – ٣٢٣/٤-٣٢٦

أو على طريق الكناية ، بناء على أن التمثيل يجري فيها . فعبر بمجموع اللفظ التركيبي عن معنى الايجــاد بغاية القوة . وفي كليهما دلالة وتوقيف على عظمة قدرته ، وكنه جلاله الذي يمكن أن يدرك . وهو الكُنْهُ الاجمالي المشتمل على أنه في النهاية في نفس الأمر .

فلا يتمحل لمفرد من مفردات هذا التركيب حقيقة ولا مجاز ، لما تقدم أن لفظ التمثيل ينقل الى المعنى كما هو في المنقول عنه . ان كان حقيقة في أصله يبقى كذلك . وإن كان مجازاً فكذلك . فكأن البناء بالأيدي جعل — هنا — مرادفاً لنهاية القوة في البناء ، ونهاية العظمة في تركيب الشيء.وكذا (على العَرْشِ اسْتَوَى) يجعل تمثيلاً بالتشبيه أو بالكناية للدلالة على ملكه كل شيء . كأنْ جُعل مرادفاً للملك من غير أن يتمحل حقيقة أو مجاز لمفرد من المفردات . بل التجوز باعتبار التركيب .) (١١١)

وأخذ بعض المعاصرين من البلاغيين بما ذهب اليه الزمخشري وشراح التلخيص في الاستواء . فقال أحمد مصطفى المراغي :

(والتحقيق ان ذلك استعارة تمثيلية ، بأن شبهت الهيئة الحاصلة من تصرف المولى في الممكنات بالايجاد والاعدام ، بالهيئة الحاصلة من استقرار الملك على عرشه بجامع أن كلاً ينبئ عن الملك التام . واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية . وقال السكاكي أكثر متشابهات القرآن تورية) (١١٢) .

ونقل عبدالمتعال الصعيدي ماقيل في نفي التورية عن الاستواء والأيد فقال : (هذا ظاهر في حمل (أيد) على الافراد ، فيكون مصدر — آد أيداً — بمعنى اشتد . ولكنه على هذا لايكون من التورية ، لانه لايحتمل إلاّ هذا المعنى ، وإنما يكون من التورية اذا جعلت (أيد) جمع يد . وحينئذٍ تفسر بالقوى : جمع قوة .

(١١١) مواهب الفتاح — ٤/٣٢٤-٣٢٦ (١١٢) علوم البلاغة — ٣٣٩

وقيل : إن ذلك لاتورية فيه . وانما هو استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة إيجاد الله السماء بقدرته ، بهيئة البناء الذي هو وضع لبنة على أخرى باليد .

وكذلك قيل في الآية السابقة) (١١٣) .

ونقل الدكتورأحمد مطلوب تفسير الزمخشري لآية الاستواء أيضاً (١١٤) واذا كانت هذه الآيات ليست بتوريات مع كونها من أشهر الآيات المتشابهات فإنَّ ماستشهد ابن أبي الأصبع لها من آيات أبعد ماتكون عنها . لكونها جميعاً من الآيات المحكمات . ولم يتابعه في الاستشهاد بها متابع . وهو نفسه لم يورد في تحرير التحبير غير واحدة منها ، وهو حين أوردها في بديع القرآن لم يظهر اقتناعهُ بغير ماأورده في التحرير .

ومهما يكن من شيء فانَّ (الضلال) فيما حكاه القرآن الكريم من قول أولاد يعقوب لأبيهم : (تَاللهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالكَ القَدِيم) (٩٥ يوسف ١٢) لم ينصرف الى غير ما وضع له من الخطأ ، ومجانبة الصواب .

قال الطبري (يقول تعالى ذكره : قال الذين قال لهم يعقوب — من ولده — أني لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تفندون — تالله أيُّها الرجل إنكَ من حب يوسف وذكرهِ لفي خطئكَ القديم لاتنساه ولا تتسلى عنه . وبنحوالذي قلنا قال أهل التأويل . . .) (١١٥) .

وقال الزمخشري : (. . لفي ذهابك عن الصواب قدماً في افراط حبك ليوسف ولهجك بذكره ، ورجائك للقائه . وكان عندهم أنه قد مات)(١١٦).فأين المعنيان؟ وأيها الظاهر غيرالمراد، والخفي المراد ؟ وأين الايهام المتعمدالمقصود ؟

أما صرفه للبدن عن الجسم أو الجسد الى الدرع في قوله تعالى في فرعون : « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » (٩٢يونس ١٠).

(١١٣) بغية الايضاح – عبدالمتعال الصعيدي – ٣٠/٤
(١١٤) فنون بلاغية – ٢٩٤
(١١٥) جامع البيان – ٤٠/١٣
(١١٦) الكشاف – ١٢٥

لكون نجاة فرعون بدرعه أعظم آية من نجاته عارياً . كما ذهب . فقد فاته إن الآية ليست بنجاته بدرعه أو غيره مما لاصلة له بالحياة والموت . وانما الآية والعظة والعبرة ، فيما آل اليه أمره بعد الذي كان عليه من طغيان وجبروت وتعال ادّعى معه الربوبية لنفسه . فاذا به جثة هامدة ، لاحراك بها ، ولاحول لها ولا قوة . فظهور جسده مثال شاخص لقدرة الله تعالى ، أكثر من ابتلاع الأمواج له . ففي الحديث النبوي الشريف : « لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعايَنَةِ » (١١٧). وليستيقن من شك في غرقه .

فذكر البدن إنما أريد به الجثة كيلا تنصرف النجاة – قبله – الى نجاته من الغرق حياً شأن كثير ممن ينجون أحياء .

قال الطبري : (. . عن ابن عباس ، قوله « فاليومَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً » يقول : انجى الله فرعون لبني اسرائيل من البحر ، فنظروا اليه بعدما غرق . فان قال قائل : ما وجه قوله ببدنك ؟ وهل يجوز أن ينجيه بغير بدنه ، فيحتاج الكلام الى أن يقال فيه ببدنك ؟ – قيل : كان جائزاً أن ينجيه بهيئته حياً كما دخل البحر . فاما كان جائزاً ذلك ، قيل : فاليوم ننجيك ببدنك ، ليعلم أنه ينجيه بالبدن بغير روح ، ولكن ميتاً) (١١٨) .

وأما ماذهب اليه في قوله تعالى : « وكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداء على النّاسِ ، وَيكونَ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهِيداً » (١٤٣ البقرة ٢) .

من أن الوسط قد يراد به توسط قبلة المسلمين بين قبلتي اليهود والنصارى وقد يراد به الخيار والعدل . فان ذكر الأمة يحول دون صرف الوسط الى القبلة وجهتها فضلاً عما جاء بعده من قوله تعالى تعليلاً لجعلهم وسطاً .

---

(١١٧) الأمثال في الحديث النبوي – ٦٤٧/٢ والحديث صحيح

(١١٨) جامع البيان – ١١٤/١١

(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) . فالوسط العدل والخيار الذين يؤخذ بشهادتهم والى هذا ذهب المفسرون . وذكر الوسط لأن (خير الأمور أوساطها) (١١٩) فلا وجه للايهام فيه ولا لافتراض الجهة .

الخلاصة

بعد الذي وقفنا عليه من معنى التورية لغة واصطلاحاً ، والاسماء التي أطلقت عليها ، والانواع التي ذكرت لها ، وطبيعتها ، والدواعي التي تدعو اليها . وقدمها في أدبنا العربي ، وأصالتها فيه . وماقيل عن وجودها في القرآن الكريم ، وخلوه منها . يمكن الانتهاء الى أنها – لغة – إخفاء الشيء بأظهار غيره . ومعناها الاصطلاحي لايكاد يختلف – في جوهره – عن معناها اللغوي فهي : لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، يخفي المتكلم المعنى البعيد الذي يريده بالقريب الذي لايريده . ولهذا فالتورية أنسب أسمائها . وأكثرها مطابقة لها . والايهام – بالياء المثناة – ردفها ، لما فيها من تمويه وتضليل .

أما الابهام – بالباء – الموحدة – أو التوجيه ، فليس منها في شيء ، ولا يصح إطلاق أي من اللفظين عليها بعد أن استقلا بلون بديعي آخر له خصائصه ومميزاته . وكذلك التخييل لأخذه من الخيال ، بمعنى : ظل الشيء وصورته . فهو تصوير وتمثيل منتزع من الخيال ، لاصلة له بالتورية من قريب أو بعيد . وكذا ماحُرِّفَ إليه التخييل من تخيير ، في عدد من الكتب البلاغية .

واذا كانت التورية خير اسمائها ، فانّ المجردة منها خير أنواعها وأقواها ، لاستغنائها – في الايهام – بالحال عن المقال ، ولذلك سميت مجردة ونعتت بأنها وحدها التورية المحضة . وتليها المرشحة : وهي التي لايطمئن المُوري

(١١٩) الأمثال في الحديث النبوي – ٢/٥٢٥ أخرجه البيهقي وابن سلام وابن الأثير وغيرهم .

فيها الى الحال وحده للوصول للايهام ، فيعمد الى لفظ غير لفظ التورية يقوي به الحال لضمان الايهام المطلوب .

أما النوعان الآخران – المبينة والمهيأة – فليسا من الايهام المتعمد المقصود لما فيهما مما يلائم المعنى البعيد المراد إخفاؤه .

وكون التورية إيهاماً متعمداً مقصوداً ، لايقلل من شأنها ، ولا يضعف من مكانتها فالحياة تتطلبها وتقتضيها بمثل ماتتطلب به الصراحة والوضوح . فلكلٍ مواقفه ، ومناسباته التي لايصلح فيها غيره .

ولكن مهما كان للتورية من أهمية فليس للقرآن الكريم بها حاجة ، لأنهُ كتاب هداية وإرشاد وتوجيه ، وليس كتاب إيهام وتضليل .



شعرُ البَبغاء

تحقيـــق

هِـــلال ناجي

الببغاء من المهد الى اللحد :

نصيبين تضطجع على اعالي نهر الهرماس وبين يديها يمتد سهل رائع الخضرة، تنسرب اليها المياه من جبل بالوسا فتزدهر بساتينها وتتألق حقولها ، ثم تفضي مياهها الفضية الى آلاف البرك والنافورات التي تحلي دورها وقصورها .

كانت تلك المياه وهي تبعث الحياة في السهل والصحراء، تحمل شوق الجبل المتدفقة منه الى نصيبين الغانية المضطجعة على اعالي نهر الهرماس بقلب ديار ربيعة.

وكانت البساتين الكثيفة تحيط بنصيبين احاطة السوار بالمعصم والزنار بالخصر والمهد بالمولود (١) .

وعلى رأس جبل مطلّ على نصيبين وديار ربيعة ، كان يشمخ دير عُرف « بعُمر الزعفران » لكثرة زعفرانه الفائق ، تتصل به جنان نَضرة تزدان باشجار البندق والفستق واللوز والزيتون. وقد انماز هذا الدير ببنائه العجيب ورهبانه الكثار (٢)

في احضان تلك الطبيعة الفاتنة الساجية ، وفي العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ولد شاعرنا الببغاء .

واذا كانت المصادر لم تحفظ لنا تاريخ مولده ، فبين ايدينا نص يساعد على ان نفترض لها تاريخا تقريبياً .

---

(١) انظر صورة الارض لابن حوقل ص ١٩١ – ١٩٤ ومسالك الممالك للاصطخري ص٧٣ واحسن التقاسيم للمقدسي ص ١٤٠ .

(٢) مسالك الابصار ١/٣٠٥ .

ففي القصة التي اوردها الثعالبي عن أبي الفرج الببغاء حين تأخر بدمشق عن سيف الدولة مكرها ، وقد سار عنها في بعض وقائعه ، ثم ما كان من أمر شاعرنا في دير مرّان اشارة الى أن سنّه آنذاك عشرون سنة (٣) . فاذا افترضنا ان ذلك كان في السنوات الاولى من حكم سيف الدولة ٣٣٣ ـ ٣٣٥هـ ، فيكون مولد شاعرنا عام ٣١٣ ـ ٣١٥ هـ .

غير ان هذا الافتراض يظل قلقاً ، فنحن لا نعرف التاريخ الذي جرت فيه هذه القصة على وجه الدقة .

والببغاء هو ابو الفرج عبدالواحد بن نصر بن محمدبن عبدالله بن عمر بن الحارث بن المطلب بن عبدالله بن عبدالعزيز بن المطلب بن عبدالله بن المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم الحُنْطبي المخزومي النصيبي (٤) فهو عربي صلبية . واختلفوا في سبب تلقيبه بالببغاء .

قيل انما لقّب بالببغاء لِلثْغةٍ فيه (٥) وقيل بل لفصاحته (٦). وقيل لفصاحته أو للثغة في لسانه (٧) .

واختلفوا في ضبط اللقب ، قيل البَبّغاء بباءين موحدتين الاولى مفتوحة والثانية مشددة وبعدها غين منقوطة . ووجد بخط ابن جني بفاءين. ويقال فيه البَبْغاء بموحدتين الثانية ساكنة والمشهور فيه الاول (٨) .

والنصيبي والنصيبيني نسبة الى نصيبين فمن قال: نصيبيٌّ جعله بمنزلة الجمع

---

(٣) يتيمة الدهر ٢٥٣/١ .
(٤) الانساب للسمعاني ٦٥ و١٧٩ وتاريخ بغداد ١١/١١ ووفيات الاعيان ٢٠٢/٣ واللباب في تهذيب الانساب ١١٧/١ .
(٥) يتيمة الدهر ٢٥٢/١ .
(٦) اللباب في تهذيب الانساب ١١٧/١ .
(٧) مخطوطة سير اعلام النبلاء ١٩/١١ ومخطوطة الوافي بالوفيات ٢٨٦/١٥ والعبر ٦٩/٣ ووفيات الاعيان ٢٠٢/٣ .
(٨) الوافي بالوفيات ٢٨٦/١٥ . ووفيات الاعيان ٢٠٢/٣ واللباب ١١٧/١ .

ثم ردّه الى واحده ونسب اليه . ومن قال : نصيبينيٌّ اجراه مجرى ما لا ينصرف والزمه الطريقة الواحدة (٩) .

ولسنا نعرف شيئاً ذا بال عن نشأته الاولى ، ولكن المصادر حفظت لنا ان النامي احمد بن محمد المصيصي الدارمي وهو من اصحاب الامالي ، كان من شيوخه وانه روى عنه (١٠) . كما انه روى عن كثيرين منهم : ابو امية الهشامي وابو طالب الجعفري (١١) .

وقد روى عن شاعرنا كثيرون منهم : ابو غالب محمد بن احمد بن بشران وابو نصر احمد بن عبدالله(١٢) والمحسن بن علي التنوخي صاحب النشوار في مواضع كثيرة منه وابو نصر احمد بن علي الثابتي(١٣) والقاضي ابو القاسم علي بن المحسن التنوخي (١٤) . وسواهم .

كان شاعرنا في شبابه يهوى التطرح في الديارات ، فهو في سعيه للبقاع الجميلة الموحية والمتنزهات الخلابة ، يقصد بعض الاديرة في صحبة من يأنس به ، حاملاً نُقله وزوادته مختاراً من رهبانه من يتوسم فيه رقة الطبع وسجاحة الخلق ، على ما جرت به العادة في غشيان الاديرة ، والتطرف بمعاشرة أهلها بين اقداح تدور وغناء يبعث الانس والسرور ، وأحاديث هي أشهى من النقل. ولقد كانت أيام لهوه في تلك الديارات مبعث وحي ومصدر الهام شاعري. وقد خلفت لنا الايام قصيدتين من وحي ايامه في الاديرة . احداهما كتبها وهو في العشرين من عمره جرت له في دير مرّان قرب دمشق (١٥) .

والاخرى من وحي ايام له في « عمر الزعفران » المطل على نصيبين (١٦) .

التحق الببغاء بخدمة سيف الدولة وهو دون العشرين . وكان يرافقه في بعض

(٩) معجم البلدان ٧٨٧/٤ .
(١٠) وفيات الاعيان ١٢٥/١ .
(١١) الفرج بعد الشدة ٩٥/١ و ٩٨ .
(١٢) المنتظم ٢٤١/٧ - ٢٤٢ .
(١٣) الانساب الورقة ٦٥
(١٤) الانساب ٦٥ وتاريخ بغداد ١١/١١ .
(١٥) يتيمة الدهر ٢٥٨/١ - ٢٥٩ .
(١٦) الوافي ٢٨٦/١٥ (المخطوط) .

وقائعه . وكان سيف الدولة على ما هو معروف فارساً أديباً ذواقة مُـمَدَّحا جواداً . وفي ظل التمزق السياسي الذي عاشته الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري حتى استحال الخليفة رمزاً دينيـــاً فحسب . كان ظهور مثل هذا الامير الفارس على الثغور الشمالية للوطن العربي الإسلامي ، واندفاعه الى مصاولة الروم والاغارة عليهم وغزوهم نحواً من اربعين غزوة ، اقول : كان ذلك مدعاة لانضمام عدد من شعراء الامة العربية البارزين الى بلاطه في حلب اعجاباً بفروسيته وطلباً لجدواه وفي مقدمتهم المتنبي شاعر العربية الاكبر والنامي والسري الرفاء والخالديان والببغاء والزاهي والناشئ الاصغر وســـواهم . فمدحوه بقصائد كثيرة بلغ المنتقى منها مما اختاره ابو محمد عبدالله بن محمد الفياض الكاتب وابو الحسن علي بن محمد الشمشاطي عشرة آلاف بيت (١٧) . حتى قيل : انه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ــ بعد الخلفاء ــ ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر (١٨) . هذا بخلاف من كان في بلاطه من النحاة واللغويين كابن خالويه وابن جني .

ولقد كان الببغاء معتزاً بهذه الصلة حريصاً على دوامها وهكذا نجد شعره يؤرخ لكثير من وقائع سيف الدولة مسجلا مآثره وبطولاته وايامه . لكن الامر الجدير بالملاحظة ان صاحبنا كان بسبب حسه القومي المرهف يقف مواقف نبيلة من القبائل العربية التي تمردت على سيف الدولة . فهو يؤثر أن يستثير في اميره صفات الحلم والعفو حفاظاً على ابناء قومه العرب فيقول في وقعة كانت لسيف الدولة مع بني كلاب :

أعدها الى عادات عفوك محسنا
كما عوّدتها قبلُ آباؤك الشمُّ
فان ضاق عنها العذر عندك في الذي
جنته ، فما ضاق التفضل والحلم

(١٧) يتيمة الدهر ٢٨/١ (١٨) اليتيمة ٢٧/١ .

وهو موقف يأتلف مع مرقف المتنبي من الوقعة ذاتها إذ قال من قصيدة شهيرة :

وكيف يتم بأسك في اناس تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفـق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب

وبسبب من سماحة خلقه لم تعرف له خصومة مع شاعر من شعراء البلاط الحمداني طوال حياة سيف الدولة ، ورغم طول مدته في هذا البلاط .

بل نراه يوفق بين المتناقضات بشكل يدل على رجاحة عقله ورصانته .

فرغم الصراع الذي كان دائراً بين أبي العشائر وابي فراس وابن خالويه من جهة وبين المتنبي من جهة اخرى ، نجد الببغاء على صلة طيبة بهما معاً .

فالببغاء يُسَرّ كثيراً حين افلح سيف الدولة في افتداء ابي فراس من أسره سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، فقال من قصيدته في الفداء :

وضمنت نفس أبي فراس للعلا اذ منه اصبحت النفوس براءَ
ما كان الاّ البدر طال سراره ثم انجلى وقد استتمّ بهاءَ

ليس هذا فحسب ، بل هو قد شارك أبا فراس في نخل ديوانه الكبير قبيل موته قال ابو الفرج الببغاء : واقفني على نفيه ، لانّه عرضه عليّ . فكل ما استضعفناه نفاه ، وما اجتمعنا على استجادته اقرّه ، وحرّره في نسخة تداولها الناس (١٩).

فهذه المشاركة في انتقاء اشعار ديوان ابي فراس ، تكشف عن الصلة الحميمة التي شدّت الشاعرين الى بعضهما .

ويشفّ خبر آخر عن الصلة الوثيقة التي جمعت بين شاعرنا والمتنبي ، حكى ابو الفرج الببغاء قال : « كان ابو الطيب يأنس بي ، ويشكو من سيف الدولة ويأمنني على غيبته له ، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء » (٢٠)

وكانت صلته بالنامي صلة التلميذ باستاذه ، فقد كان ممن روى عنه كما اسلفنا .

(١٩) نشوار المحاضرة ٢٢٥/١ . (٢٠) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص ٩٢ .

واذا استثنينا خلافاً عارضاً بينه وبين الخالدي – ولا ندري ايهما – كان سبباً في بيتين عرض بهما فيه (٢١) وهو خلاف لم نجد له صدى في ديوان الخالديين ، فلعله خلاف سُوِّي سريعاً . اقول اذا استثنينا ذلك ، فان صلة سلام وتوادد ومحبة ربطته بشعراء البلاط الحمداني ، جعلته في منأى عن المكائد وهكذا ظل على صلة طيبة بسيف الدولة حتى وفاته عام ٣٥٦ ﻫ فرثاه وتفجع عليه اصدق التفجع (٢٢) . بل نراه يتمزق من الاعماق إذ مرَّ بمغاني سيف الدولة بعد وفاته فقال :

عجبا لي وقد مررت بابيا ... تك كيف اهتديتُ سبل الطريق
أتراني نسيت عهدك فيها ؟ ... صدقوا ! مـــا لميّتٍ من صديق

كان سيف الدولة يجزل عطاء شعرائه ، حتى وسم الثعالبي هذه الصفة بانها انفجار ينابيع جوده على الشعراء (٢٣) . وانعكس ذلك على شاعرنا ، فاقتنى فاخر الثياب والرياش ، وملك العبيد والغلمان .

وتماكه العبيد ، دلالة يساره دونما شك .

وقد حفظت المصادر أسماء ثلاثة منهم ، اولهم : ابو الحسين المستهام الحلبي كان غلاماً له وللمتنبي وكان شاعراً وقد اورد له الثعالبي في تتمة اليتيمة اشعارا (٢٤) وثانيهم : ابن لبيب وقد روى عنه خبراً وشعراً (٢٥) .
وثالثهم : الحسين بن نبت وقد روى عنه صاحب نشوار المحاضرة (٢٦) .

★ ★ ★

جرت الحال رخاء بالببغاء في ظل سيف الدولة ، مرة واحدة دهمته علة بحلب الزمته الفراش ثلاث سنين متواليات ويئس الاطباء من برئه ، ويحدثنا هو

---

(٢١) انظر القطعة رقم ٦٩ .
(٢٢) انظر القطعتين ١١٣ و ٧٠ .
(٢٣) يتيمة الدهر ٣٢/١ .
(٢٤) تتمة اليتيمة ١١/١ .
(٢٥) يتيمة الدهر ٣٢/١ .
(٢٦) نشوار المحاضرة ٣٤/٥ .

عن هذه العلة الخطيرة فيقول (٢٧) . اعتللت بحلب علة خف منها بدني كله فكنت كالخشبة لا اقدر ان اتحرك ، ونحل جسمي وتقلبت في اغلال متصلة متضادة وانا من هذا ملقى خلف فراش ثلاث سنين متواليات وآيس الاطباء من برئي ، وقطعوا مداواتي وكان لي صديق يعرف بأبي الفرج بن دارم من أهل بلدي يعني نصيبين مقيم بحلب يلازم عيادتي وكان لفرط اغتمامه بي وان الأطباء أيسوا مني يظهر لي حزناً يؤلم قلبي ويؤيسني من نفسي ويجاوز ذلك الى التصريح لي باليأس وتوطيني . ثم تعـــدى هذا الى أن صار لا يملك دمعته اذا خاطبني ، فضعفت عن تحمل ذلك ، وتضاعفت به علتي وخارت معه قوتي فاعتقدت ان اقول لغلامي أن يترصده فاذا جاء ليدخل علي قال له عني اني لا استحسن حجابه ، وان علتي قد تضاعفت بما أشاهده واسمع من خطابه ، ويسأله أن ينقطع عني أو يقطع مخاطبتي بما فيه إياسي ، وقررت عزمي عــلى ذلك في ليلـــة من الليالي ولم أخاطب به غلامي .

فلما كان في صبيحة تلك الليلة باكرني ابن أبي دارم فحين وقعت عيني عليه تثاقلت به خوفاً من أن يسلك معي مذهبه ، وهممت أن افتتح مخاطبته بما كنت عزمت على مراسلته به ، فسبقني بأن قال لي : قد جئتك مبشرا ، فقلت : بماذا ؟ قال : رأيت البارحة كأني بالرقة والناس يهرعون الى زيارة قبور الشهداء فقال ابو الفرج : وهم ممن قتلوا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصفين منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وحملوا الى ظاهر الرقة فدفنوا بها والحال في ذلك مشهور والقبور الى الآن مغشية معمورة ، فقال ابن أبي دارم : ورأيت كأن أكثر الناس مطيفون بقبة فسألت عنها ، فقيل لي : قبر عمار بن ياسر . فقصدتها واطلعت فيها فاذا القبر مكشوف وفيه رجل شيخ جالس بثياب بيض وفي رأسه ضربات بينة دامية ، وعلى لحيته دم والناس يقولون : هذا عمار بن

(٢٧) الفرج بعد الشدة ١/١٩٠ - ١٩١ .

يامر . وكأني سلمت عليه والناس يسألونه فيجيبهم . فلحقتني حيرة ولم أدر عمّا أسأله . فقلت يا سيدي : لعلك عارف بأبي الفرج عبدالواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغاء . قال : انا عارف به . قلت : أتعرف ما به من الجهد والبلاء بالعلة الطويلة ؟ فقال : نعم . فلت : أفيعيش ويبرأ أم لا ؟ فقال : يعيش ويبرأ ، ولكن انت لك ابن الحذر عليه من علة تلحقه قريباً واستيقظت . قال : وأخذ يهنيني بالعافية ويقول : قد سرني لك ما جرى ، ولكن قد أوحشني في أمرا بني فأسأل الله الكفاية . قال ابو الفرج : وكان للرجل ابن عمره نحو الثلاثين سنة وهـو في الحال معافى ، فلما مضت خمسة أيام من الرؤيا حـم الفتى فقويت نفسي في صحة المنام . وما مضت إلا ايام يسيرة حتى مات الفتى وأدبر مرضي . ولم تزل العافية تتزايد الى أن قويت وعاودت الى عادتي بعد مدة قريبة .

★ ★ ★

بعـد وفاة سيف الدولة ، آل الامر لولده سعد الدولة ، وقد اتصل به الببغاء (٢٨) ومدحه . ولكن انقسام الجيوش السيفية بعد وفاته ، وتحكم الغلمان وعلى رأسهم قرغويه وقتلهم أبا فراس خاله ، وضعف الامير الصغير الذي سقطت دولة الحمدانيين في عهده نظرياً بخضوعه للفاطميين تارة وللروم تارة ثانية .

كل هذه العوامل جعلته يبحث عن أمير يلوذ بظله ومكان يستقر فيه فكتب سنة ٣٥٨ هـ رسالة الى عدة الدولة أبي تغلب بن ناصر الدولة الذي كان شاعراً وكانت الموصل مقر امارته يذكر رغبته في قصده والانقطاع اليه ، وقد طرز رسالته هذه بغرر من شعره (٢٩) فورده الجواب بالمبادرة في المسير الى الموصل ، فتوجه اليها ولقي أبا تغلب فاكرمه واقام بحضرته مدة ، الى أن سار عنها الى بغداد سنة ٣٥٩ هـ وجعل يعاود الموصل مرة ، ومدينة السلام اخرى (٣٠) .

ويبدو ان عدم استقراره بالموصل الى جانب ابي تغلب كان مرده الصراع

(٢٨) انظر القطعة رقم ٨٣ .
(٢٩) يتيمة الدهر ١/٢٦٥ – ٢٦٦ .
(٣٠) يتيمة الدهر ١/٢٦٦ .

الشديد بين ابي تغلب واخوته ، وهو صراع دموي انتهى الى انهيار دولتهم على يد البويهيين وتشرد ابي تغلب ثم مقتله عام ٣٦٩ هـ .

كان الببغاء يتردد على الموصل قاعدة ابي تغلب ، وتحفظ المصادر الادبية لنا نصامهما تولى فيه الاجابة باسم ابي تغلب على رسالة عز الدولة بختيار البويهي التي دبّجها ابو اسحاق الصابي بمناسبة زفاف ابنة بختيار لابي تغلب (٣١) .

ان انهيار دولة الحمدانيين في الموصل جعل شـاعرنا يستقر ببغداد نهائياً بعد ان اتيح له التغلغل في اوساطها الادبية وعقد صلات مودة مع أركان الحركة الادبية كأبي اسحاق الصابي ويحيى بن محمد بن فهد الازدي والمحسن بن علي التنوخي وسواهم .

كان الببغاء متعدد الجوانب الادبية ، فهو شاعر مجيد وكاتب مترسل وقاصّ مفتن له كتاب في القصص . وتعدد جوانبه الادبية وسّع من دائرة محبيه وعارفي فضله .

وكانت له قبل استقراره ببغداد مراسلة وتوادد مع الوزير المهلبي الحسن بن محمد الذي وزر لمعز الدولة عام ٣٣٩ هـ وكان كريماً فاضلا اديباً شاعراً كفوا ، دامت وزارته ثلاث عشرة سنة وزيادة ، وكان الببغاء آنذاك يعيش في ظل سيف الدولة . وقد حفظ لنا الثعالبي انموذجاً من هذه الرسائل المطرزة بشعره (٣٢) إلا ان المهلبي توفي عام ٣٥٢ هـ ، وسيف الدولة حي . كذلك فقـد الببغـاء قبل استقراره ببغداد اميراً شاعراً فارساً هو جعفر بن محمد بن ورقاء الشيباني الذي كان من رؤساء العرب والمختصين بسيف الدولة ، وتقلد عدة ولايات ، وكانت بينه وبين شـاعرنا مراسلة ومدائح حفظ الثعالبي بعضها فقـد مات ابن ورقاء عام ٣٥٢ هـ .

وتذكر المصادر عن صلته بابي اسحاق الصابي ان كلا منهما كان

(٣١) يتيمة الدهر ١/٢٧٢ – ٢٧٣ .

(٣٢) انظر اليتيمة ١/٢٦٤ – ٢٦٥ .

يتمنى لقاء صاحبه ، ويكاتبه ويراسله ، فاتفق ان أبا الفرج الببغاء قدم مرة بغداد وابو اسحاق معتقل منذ مدة بعيــدة ، فلم يصبر عنه ، فزاره في محبسه ، ثم انصرف عنه ، ولم يعاوده ، فكتب اليه الصابي قصيدة طريفة فيها آيات من من رقيق التشوق والعتاب فأجابه الببغاء في الحال مع رسوله بابيات من البحر والقافية ذاتها (٣٣) فانتهى الابتداء والجواب الى عضد الدولة ، فاعجب بهما واستظرفهما ، وكان ذلك أحد أسباب إطلاق أبي اسحاق من اعتقاله ، ثم اتصلت بينهما المكاتبة والمودة والتراسل شعراً ونثراً (٣٤) ، حتى كانت وفاة الصابي سنة ٣٨٤ هـ .

وربطت المودة كذلك بينه وبين شاعر ناثر هو يحيى بن محمد بن سليمان بن فهد الازدي الموصلي ، الذي كان والده محمد بن سليمان كاتباً لسيف الدولة من ٣٣٥ ــ ٣٤٢ هـ ، فكان احدهما لا يطيق فراق صاحبه (٣٥) وحدث ان الببغاء توجه من بغداد الى الموصل ، فكتب الازدي اليه يتشوقه (٣٦) :

ظعنتَ فما لأُنسي من ثَواء وبِنْتَ فبان عن قلبي السرور
ولو اني قضيتُ حقوق نفسي تبعتك كيفما جرت الامور
وودّي ليس ينقصه مغيب كما لا يستزيد له حضور
فإنْ تبعد فانك ملءُ صدري وودك جلّ ما تحوي الصدور

فأجابه ابو الفرج بابيات اخوانية بديعة (٣٧) . وتعددت بينهما المراسلات الشعرية والنثرية (٣٨) .

---

(٣٣) اعتقل الصابي سنة ٣٦٧ هـ واطلق سنة ٣٧١ هـ .
(٣٤) يتيمة الدهر ١/٢٦٧ – ٢٧١ .
(٣٥) وجده سليمان من فهد بن أحمد الازدي من سراة الموصل وكان جني والد ابن جني مملوكا روميا من مماليكه .
(٣٦) نشوار المحاضرة ٢/٥٢ .
(٣٧) انظر القطعة ٥٣ .
(٣٨) انظر القطعة ١١٢ .

وكانت صلة الببغاء بالتنوخي صاحب النشوار وثيقة، تشف عنها المرويات الكثيرة التي رواها الاخير عن الاول في كتابيه النشوار والفرج بعد الشدة. وتشف عنها ايضاً المجالس الادبية التي كانت تجمعهما (٣٩) وكان المحسّن بن علي التنوخي شديد الاعجاب بشاعرية الببغاء، فقد قال في معرض انتقائه ابياتاً من قصيدة لابي الفرج «وهي حقيقة بان تورد كلها ولكنني اخترت من شعره، ما يصلح للمكاتبة في الحوادث، أو الامثال، أو معنى لم يسبق اليه، فتركت اكثر محاسن شعره، وحسن نظمه، وبلاغته، وعذوبة كلامه، واكثر احسانه، موكولاً الى من ينظر في ديوانه» (٤٠).

وكانت قد لحقت المحسن التنوخي محنة عظيمة من السلطان فكتب الببغاء اليه رسالة بليغة يتوجع اليه فيها ترسم اصدق صورة عما بينهما من مودة (٤١).

وتمضي الايام ويستوزر سابور بن أردشير سنة ٣٨٠ هـ، ثم يعزل، ثم يعاد الى الوزارة ويعزل منها عدة مرات آخرها سنة ٣٩١ هـ وتحفظ لنا الايام قطعتين قالهما شاعرنا في مدحه يطلب رفده (٤٢).

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة خرج ابو جعفر نائب بهاء الدولة من بغداد لقتال الثائرين من قبائل العرب من عُقيل وبني أسد. فلما سار عن بغداد اختلت الاحوال بها، وعاد أمر العيارين فظهر، واشتدّ الفساد، وقُتلت النفوس، ونُهبت الاموال، وأحرقت المساكن، فبلغ ذلك بهاء الدولة، فسيّر الى العراق لحفظه أبا علي بن أبي جعفر المعروف باستاذ هُرمُز، ولقبه عميد الجيوش، فوصل ابو علي الى بغداد، فمنع المفسدين، فسكنت الفتنة وأمن الناس (٤٣).

(٣٩) انظر القطعة ٤٧ . (٤٠) نشوار المحاضرة ١٠٣/١ .

(٤١) الفرج بعد الشدة ٣٥ - ٣٦ .

(٤٢) انظر القطعتين ٥٤ و ٥٦ وسابور وزير بهاء الدولة البويهي وكان كاتباً ممدحا جوادا اجتمعت حوله طائفة كبيرة من الشعراء من بينها الببغاء والنامي والسلامي والحاتمي وابن بابك والخالع والحمدوني وابن لؤلؤ وسواهم . (٤٣) كامل ابن الاثير ١٧١/٩ .

ويبدو ان المحنة التي تعرضت لها بغداد عام ٣٩٢ هـ قد كوت الببغاء بنارها ، ففرّ عبيده ، وأودت ثيابه ، وبيعت فروشه ، وبات يشكو العسر ، فقال مخاطباً عميد الجيوش بابياته التي اولها :

سألت زماني بمن استغيث　　فقال استغث بعميد الجيوش
نبت بيَ داري وفرّ العبيد　　وأودت ثيابي وبعت فروشي
وكان غذائي نقي الارزّ　　فها أنا مقتنع بالنحشيش

وصار يبدو بوضوح ان الببغاء يعاني محنة اقتصادية خانقة يدل عليها قوله: (٤٤)

أكلٌ وميض بارقةٍ كذوبُ　　أما في الدهر شيءٌ لا يُريبُ ؟
تشابهت الطباعُ فلا دنيءٌ　　يحنُّ الى الثناء ولا حسيب
وشاع البخلُ في الاشياء حتى　　يكاد يشحّ بالريح الهبوب
أبى لي أن اقول الهُجْرَ قدرٌ　　بعيدٌ ان تجاوره العيوب
فكيف اخصّ باسم العيب شيئاً　　واكثر ما نشاهده معيب ؟ !

★ ★ ★

كتب ابو الفرج ابياته الشينيه عام ٣٩٢ هـ ووجهها لعميد الجيوش ، وقبل ذلك بعامين التقى به الامير ابو الفضل عبدالله بن احمد الميكالي عند صدوره من الحج ووصوله بغداد في سنة ٣٩٠ هـ ، فرآه « شيخاً عالي السن، متطاول الأمد، نظيف اللبسة ، بهيَّ الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ، وانه مدح أباه الامير أبا نصر بقصيدة فريدة أجزل عليها صلته » (٤٥) .

وهذا النص يعزز ان العسر والمحنة التي عاناها الببغاء بدأت في عام ٣٩٢هـ بفعل ما صنعه العيارون ببغداد .

---

(٤٤) تاريخ بغداد ١١/١١ واليتيمة ٢٨٢/١ .
(٤٥) يتيمة الدهر ٢٥٢/١ .

ثم لا نظفر بخبر عنه بعد ذلك حتى اختاره الله الى جواره ليلة السبت لثلاث بقين من شعبان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة رحمه الله (٤٦) . وقيل يوم السبت سلخ شعبان سنة ثمان وتسعين وثلثمائة (٤٧) واكتفى ابن الجوزي والسمعاني والذهبي والسيوطي بالقول انه توفي في شعبان من سنة ثمان وتسعين وثلثمائة (٤٨)

واورد ابن العماد الحنبلي روايتي الخطيب البغدادي وابن خلكان (٤٩) واكتفت مصادر اخرى بذكر سنة وفاته فقط دون تحديد اليوم والشهر كالوافي ١٥ – ٢٨٥ وكامل ابن الاثير ٩–٢٠٩ والعبر ٣ – ٦٨ والنجوم الزاهرة ٤–٢١٩ والله العالم .

آثاره :

١– ديوان شعره : ذكره ابن النديم وقال : شعره ثلثمائة ورقة (٥٠) . فاذا عرفنا ان عدة الورقة عشرون بيتاً . كانت عدة ديوانه ستة آلاف بيت .

وذكره مصنفون كثار منهم : ابن الاثير (٥١) والذهبي (٥٢) وحاجي خليفة (٥٣) واسماعيل الباباني (٥٤) . وهو مفقود في زمننا هذا .

وكان المستشرق Wolff قـد نشر سنة ١٨٣٤ شعره الذي في يتيمة الدهر وعلق عليه . وقد عقب عليه المستشرق E. G. Schults بملاحظات تتناول تلك النشرة وذلك سنة ١٨٣٨ (٥٥) .

فمحاولتنا هذه هي المحاولة الاولى في عصرنا هذا ، وقد عولنا فيها على

---

(٤٦) تاريخ بغداد ١٢/١١ .
(٤٧) وفيات الاعيان ٢٠٢/٣ .
(٤٨) الانساب ٦٥ والمنتظم ٢٤٣/٧ واعلام النبلاء ١٩/١١ واللباب ١١٧/١ .
(٤٩) الشذرات ١٥٢/٣ .
(٥٠) الفهرست ص ١٩٥ .
(٥١) الكامل ٢٠٩/٩ .
(٥٢) مخطوطة سير اعلام النبلاء ١٩/١١ .
(٥٣) كشف الظنون ٧٧٣ .
(٥٤) هدية العارفين ٦٣٣/١ .
(٥٥) بروكلمان : الترجمة العربية ٩٩/٢ .

المخطوطات الدفينة بعد استقصاء وافٍ للمطبوع . وهي محاولة تحنّ الى مـن يستدرك عليها فيثريها .

٢ـ كتاب رسائله : اشار ابن النديم الى ان للببغاء رسائل (٥٦) لم يحدد عدة اوراقها . وقد حفظ الثعالبي عدداً منها (٥٧) ولعل « صبح الاعشى » اثرى المظان التي احتجنت عدداً كبيراً من رسائله (٥٨) . وقد تناول الدكتور زكي مبارك هذه الرسائل بالدراسة في كتابه « النثر الفني » (٥٩) .

٣ـ كتاب في القصص : ان موهبة الببغاء في كتابة القصص ، موهبة جديرة بالتقدير والملاحظة . وقد اورد الثعالبي واحدة منها في اليتيمة (٦٠) واورد المحسن التنوخي عدداً منها في كتابه « الفرج بعد الشدة » (٦١) دون ان يذكر اسم الكتاب الذي نقل عنه مكتفياً بالقول : وجدت في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطبي . غير ان هذا الكتاب قد ضاع هو الآخر . ويبدو أن شهرة الببغاء بكتابة القصة كانت من ميزاته المعروفة قديماً فإليها اشار ابو اسحاق الصابي بقوله مخاطباً شاعرنا :

فحوشيتَ يا قسّ الطيور فصاحة ... إذا أُنشد المنظوم أو دُرس القَصَص

مكانته الادبية عند القدامي والمحدثين :

على الرغم من ان الثعالبي يسرف في مدح الشعراء الذين ترجم لهم ، إلاّ ان العبارات التي حلّى بها ترجمة الببغاء رغم السجع الذي التزمه ، تضمنت حقائق عدة . قال عنه : « نجم الآفاق ، وشمّامة الشام والعراق ، وظَرْف الظرف

---

(٥٦) الفهرست ١٩٥ .
(٥٧) انظرها في يتيمة الدهر ٢٥٢/١ – ٢٧٣
(٥٨) صبح الاعشى : الجزء التاسع ص ٢٢–٢٣ – ٣٢ – ٣٤ – ٣٥ – ٤١ – ٤٢ – ٤٤ – ٤٧ – ٥٠ – ٥١ – ٥٢ – ٥٣ – ٥٤ – ٥٥ – ٦١ – ٦٢ – ٦٤ – ٦٥ – ٦٦ – ٧٢ – ٧٣ – ٧٦ – ٧٧ – ٧٩ – ٩٦ – ٩٧ – ٩٨ – ١٢١ – ١٢٢ – ١٢٣ – ١٣٢ – ١٣٣ – ١٤٢ – ١٤٤ – ١٧٠ – ١٧١ – ١٧٢ – ١٨٤ .
(٥٩) النثر الفني ٢٨٤/٢ – ٢٩٥ .
(٦٠) ٢٥٣/١ – ٢٦١ .
(٦١) الفرج بعد الشدة ص ٩٥ – ٩٨ – ١٥٩ – ١٧٦ – ٢٠٧ – ٢٥٢ .

وينبوع اللطف ، واحد أفراد الدهر ، في النظم والنثر ، له كلام بل مُدام ، بل نظام من الياقوت بل حَبّ الغمام ، فنثره مستوف اقسامَ العذوبة ، وشروط الحلاوة والسهولة ، ونظمه كأنه روضة منورة تجمع طيّباً ومنظراً حسناً ، وقد أخرجتُ من شعره ، ما يشهد بالذي أجريت من ذكره » (٦٢) .

ووصفه الخطيب البغدادي بانه « كان شاعراً مجودا ، وكاتباً مترسلا ، مليح الالفاظ ، جيد المعاني ، حسن القول في المديح ، والغزل ، والتشبيه ، والاوصاف وغير ذلك » (٦٣) .

وقال ابن خلكان عن شعر الببغاء : « واكثر شعر ابي الفرج المذكور جيد ومقاصده فيه جميلة (٦٤) واجمل ابن الجوزي رأيه في قوله : « كان أديباً فاضلاً وكاتباً مترسلاً وشاعراً مجيداً لطيفاً (٦٥) وعدّه الصفدي أحد من أجادوا التشبيه .

وقال ابن تغري بردي عنه : « وكان شاعراً مجيداً وكاتباً مترسلاً ، جيد المعاني حسن القول في المدائح » (٦٦) .

وقد مرّ بنا ما وصف به المحسن بن علي التنوخي شعرَ الببغاء .

امّا المحدثون فالدكتور زكي المحاسني ، عدّه من أكابر الشعراء الحمدانيين وممن جمع بين الصناعتين (٦٧) .

ووصفه الدكتور عمر فروخ بانه : « شاعر مكثر فخم الالفاظ متين التركيب يميل الى الصنعة ولا يتكلف ، فتأتي معانيه جياداً وصوره الشعرية جميلة ، ثم هو معجبٌ بالمتنبي يطبع الشعر على غراره احياناً وعلى غرار شعر البحتري . وهو بارع في الوصف والخمر والغزل حسن المديح والرثاء . حتى قال : وابو الفرج الببغاء اديب ناثرٌ جيد الترسل والسرد . . . وكان نثره سهلاً عذباً » (٦٨) .

---

(٦٢) يتيمة الدهر ٢٥٢/١ .
(٦٣) تاريخ بغداد ١١/١١ .
(٦٤) وفيات الاعيان ٢٠٢/٣ .
(٦٥) المنتظم ٢٤١/٧ .
(٦٦) النجوم الزاهرة ٢١٩/٤ .
(٦٧) شعر الحرب عند العرب ص ٢١٨ .
(٦٨) تاريخ الادب العربي ٦١٣/٢ .

وعقد الدكتور زكي مبارك فصلا قصيراً للحديث عن الببغاء فقال انه : كان من اركان الحياة الادبية في زمنه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الادبية . واستنتج من ذلك انه لم يكن مشاغباً وكان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال وان صلاته بالملوك والرؤساء وقفت عند الحدود الضيقة ، حدود السمر والانس حول بساط السلاف . وقال : وإنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص . . بحيث نستطيع أن نقدر انه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء اكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقة والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات ، وأوابد الأهواء .

وفي هذا الذي نقضي به تعليل لصفاء شعره الوجداني ، فقد كان شعر الببغاء يُغَنّى به ، وكان من مُتع السامرين في الشام والعراق (٦٩) .

ثم استشهد ببعض معانيه الدقيقة التي لا يحسنها إلا من يفرغ لامثالها من شعراء الوجدان (٧٠) . ثم انتهى الى القول : ان شعر ابي الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال . . . وهو يبدع احياناً ويروع حتى لنعده في طليعة الشعراء . . . وله أوصاف حية جداً تكاد تنطلق بمعاني الموصوف » (٧١) .

وبعد : فهذه محاولة لتأطير ترجمة الببغاء ، بلمّ اشتاتها وربطها ببعضها في تسلسل زمني ، والاستعانة بشعره في تفسير ما غمض من جوانب حياته ، أردفتها بديوانه الذي بذلت الجهد في جمعه .

واني لارجو ان يكون هذا الديوان حافزاً لذوي الهمم على دراسة شعره دراسة

---

(٦٩) النثر الفني في القرن الرابع ٢/٢٧٥ – ٢٧٦ .
(٧٠) النثر الفني ٢/٢٧٧ .
(٧١) النثر الفني ٢/٢٨١ – ٢٨٢ .

تكشف ملامحه الفنية الاصيلة ، وتضعه في موضعه اللائق به بين شعراء القرن الرابع الهجري . والحمد لله على ما انعم ، وعلى ما سدّد وأرشد وقوّم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

هلال ناجي



[١]

وقال ابو الفرج الببغاء في اليؤيؤ : [رجز]

ويُؤْيؤٍ(١) أوحى من القضاء
مُمتّع الصورة والأعضاء
ذي سُفْعَةٍ (٢) في خدّه سوداء
مُخْبِرَةٍ عن هِمّةٍ بيضاء
ومُقْلةٍ صَفَتْ من الأقذاء
تَشِفُّ عن ياقوتةٍ صفراء
يلعبُ منها في غديرِ ماء
بعيدةِ المطرحِ والانحاء
تخبرُ في الارض عن السّماء
ألطف في الجوّ من الهواء
مُباينًا بالطبعِ لِلْمُكّاء(٣)
تباينَ الغَدْرِ من الوَفاء

التخريج : مخطوطة مباهج الفكر المرقمة ٤١١٦ بمكتبة الفاتح الورقة ٣٠٩ .

(١) صنف من الصقور يمتاز بخفة الجناحين وسرعتهما ، قصير الذنب ، يتعلق بما يفترسه ، ويصيد ما هو أجل منه .

(٢) السفعة : السواد المشرب حمرة .

(٣) المكاء : طائر من القنابر له تصعيد في الجو وهبوط ، ابيض اللون وله صفير حسن .

[٢]

وقال : [الخفيف]

ومُدامٍ كأنها في حشا الدَّ ... نِّ صباحٌ مقارنٌ لمساء
فهْيَ نفسٌ لها من الطين جسمٌ ... لم تُمتَّعْ فيه بطول البقاء
ما توهمْتُ قبلها أن في العا ... لم ناراً تُذْكى بقرع الماء
بُزِلَتْ والضحى عن الليل محجو ... بٌ فلاحَتْ كالشمس في الظلماء
وتلاه الفجرُ المنيرُ فعفنا ... هُ لأنا عن نوره في غَناء
ما استزَدْنا به ضياء على أيـ ... ـسر ما كان عندنا من ضياء
ما زَجَتْ جوهرَ الزجاج فجاءت ... كشُعاعٍ ممازجٍ لهواء
وتَحلَّتْ من الحَباب بدُرٍّ ... يتلاشى باللحظ والإيماء
بينما تكتسي به زَرَدَ البلو ... رِ حتى ترفَضَّ مثلَ الهباء
فكأنا بين الكؤوس بدورٌ ... تتهادى كواكبَ الجوزاء
وكأنَّ المديرَ في الحلَّة البيـ ... ـضاء منها في حُلَّة صفراء
حبَّذا العيشُ حيث تَسْري الأماني ... بين جِدِّ الغنى وهزْل الغناء
حيث سُكْر الشباب أقضى على قلبي وأمضى من نَشْوة الصهباء

التخريج : يتيمة الدهر ٢٧٨/١ .

[٣]

وله في وصف بِركة : [المتقارب]

وقوراء كالفلك المستدير ... تروقُ العيون بلألائها
حبتْها البحارُ بأمواجها ... وسُحْبُ السماء بأنوائها

كأنَّ تـدفّق تيـارهـا ... يـداك تفيض بنعمـائهـا
وجُودُك أغزرُ من جَرْيها ... وخُلْقُك أعـذب من مـائها

التخريج : يتيمة الدهر ٢٨٦/١ .

[٤]

وله من رسالة شكر كتبها الى عُدّة الدولة ابي تغلب بن ناصر الدولة :

[الكامل]

١ــ وأنا الذي عَنّمْت مَنْ طلب الغنى ... كيف الطريقُ الى الغنى برجائِه
٢ــ فظللت مَخْصُوصاً بحمد عُفاتِه ... وغدوتُ ممدوحاً بشكر عطائه
٣ــ وأفَدْتُ قدْماً مُعْجزات فضائلي ... من نُور فطنته ونـار ذكـائه
٤ــ فإذا نطقتُ نطقتُ من الفاظه ... واذا وهبتُ وهبتُ من نَعْمائه

التخريج : يتيمة الدهر ٢٦٧/١ .

والرابع لوخده في شرح المضنون به على غير اهله ص ٢١٥ .

[٥]

كان سيف الدولة أقام الفداء بشاطئ الفرات في رجب سنة خمس وخمسين وثلثمائة ، فانفق عليه خمسمائة الف دينار ، وأخرج كلّ من قدر على إخراجه من أسارى المسلمين من بلد الروم ، واشترى كلّ أسير من ضعاف الناس بثلاثة وثمانين ديناراً وثلث رومية ، فأمّا الجلّة ممن كان أسيراً ، ففادى بهم رؤساء

كانوا عنده أسرى من الروم .

فقال الببغاء يمدحه :

١ــ مـا المـال إلاّ ما أفاد ثنـاءَ ... ما العِزُّ إلاّ ما ثنى الأعـداء
٢ــ شَحَّتْ على الدنيا الملوك وعافَها ... مَنْ لم يُطِعْ في حفظها الأهواء
٣ــ باع الذي يَفْنى بما أبقَى له ... ذِكْراً إذا دَجَتِ الخطوبُ أضاء
٤ــ فليهنِ سيفَ الدولة الشرفُ الذي ... لو كان مرئياً لكان سـمـاء
٥ــ وطهارةُ الخُلُق الذي لو لم يكن ... عَرَضاً من الأعراض كان الماء
٦ــ ورجاحة الحلم الذي لو حَلَّ بال ... هضبات من رَضْوى ثَنَاه هَبـاء
٧ــ بدرٌ تحققت البـدور بأنهـا ... ليستْ وإن كمَلَتْ له أكفاء
٨ــ ألْقَى اليه الدهرُ صَعْبَ قيادِه ... فاستخدم الأيّام فيما شـاء
٩ــ أمُحقِّقَ الآمالِ بالكَرَم الذي ... أحْيا العُفاةَ وبَخّلَ الكُرماءَ
١٠ــ شكرَ الإلهمنِ اهتمامك بالهدى ... ما زاد باهر نوره استـعلاء
١١ــ راعيته وسواك في سِنَةِ الهوى ... ما ذاد عنه كسيفك الأعـداء
١٢ــ وفديتَ من أسر العدوّ معاشراً ... لولاك ما عرفَ الزمان فـداء
١٣ــ كانواعبيد نَداك ثمشَرَيْتَهُم ... فَغَدوا عبيدك نِعْمَةً وشـراء
١٤ــ والأسْرُ احدى الميتتين وطالما ... خلدوا به فأعدتهـم أحْيـاء
١٥ــ وضمِنْتَ نَفْسَ أبي فراسٍ للعلا
إذْ منه أصبحت النفوس بَـراء
١٦ــ ما كان إلاّ البدر طال سرارُهُ
ثم انجلى وقـد استتمَّ بَهـاء
١٧ــ يومٌ غدا فيه سماحُك يعتق الـ
أسراء منـك ويأسر الامـراءَ

١٨ـ خُصَّتْ بنو حمدان منه بنعمة
عَمّتْ بفضلك تَغْلِبَ الغلباءَ

التخريج : القصيدة في تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبدالملك الهمذاني ص ٤٠٤ - ٤٠٥ والابيات ١ و ١٢ - ١٧ في نشوار المحاضرة ٢٨١/١ .

ورواية عجز الاول : إلا ما حمى الاعداء . وهو تحريف بين .

ورواية الحادي عشر في التكملة : لسيفك الاعداء ، وهو تحريف فصوبناه .

رووابة الثامن (فيما استاه) وهو تحريف فصوبناه .

[٦]

وقال من رسالة كتبها الى سيف الدولة :

ان تعلم الايام موضع عبده ... من عزّه ومكانه من رائه
بشواهدِ الخِلَعِ التي يغدو بها ... متطاولاً شرَفاً على نُظرائه
فمن العجائب حبسَ توقيعٍ له ... ومُوَقّعُ التوقيع من شُفَعائه

التخريج : قطعة من نشوار المحاضرة ليست ضمن ما نشره عبود الشالجي في أجزائه الثمانية انظر
Raad XII 1932, P. 191

وانظر نخب تاريخية وادبية لماريوس كانار ص ٣٥٣ .

[٧]

وقال ملغزاً في المروحة :

وذاتِ وصفٍ خُصّ بالثناء
مُشْتَقّةِ الافعالِ والاسماء
من صفةِ الارواحِ والانداء
كأنّما صِيغَتْ مِنَ الهواء

تطرفنا في الصيفِ والشتاء

التخريج : مخطوطة الاعجاز في الاحاجي والالغاز للحظيري الورقة ٣٤ (مصورة في مكتبتي) .

[٨]

قال ابو الفرج الببغاء يصف السنجاب :

١ـ قد لمونا الذكاء في كلّ نابِ ... فوجدناه صنعةَ السنجاب (١)

٢ـ حركاتٌ تأبى السكون وألحا ... ظٌ حِدادٌ كالنارفي الالتهابِ

٣ـ خفّ جداً على النفوس فلو شا ... ء ترامى محاوراً للتصابي

٤ـ واشتهتْ قُربَهُ العيونُ الى أنْ ... خِلْتُه عندها أخاً للشباب

٥ـ لابساً جلدةً إذا لاح خلنا ... هُ بها في مِزَرَّةٍ (٢) من سحاب

٦ـ لو غدا كل ذى ذكاءٍ نطوقاً ... ردّ في ساعة الخطاب جوابي

التخريج : الابيات في مخطوطة مباهج الفكر المرقمة ٤١١٦ – مكتبة الفاتح الورقة ٢٥٥ .

ورواية الاول : صبغة السنجاب .

وهي في نهاية الارب ٢٧٨/٩ .

رواية الاول : صنعة السنجاب ، وقد اثبتناها .

ورواية الثالث : مجاوزاً للتصابي

ورواية الخامس : لابس .

(١) السنجاب : حيوان اكبر من الجرذ حسن الوبر لونه ازرق وبطنه ابيض ومنه ما يكون ظهره احمر . اشتهر بخفة الصعود وله ذنب طويل كثيث الشعر مرفوع . وجلده ثمين تتخذ منه الفـراء .

(٢) المزرة : جبة ذات ازرار .

[٩]

[رجز]

قال ابو الفرج الببغاء يصف العقاب :

مِنْ كُلِّ ذاتِ مِخْلَبٍ ونابِ

من سائرِ الجارحِ والكلابِ
بمُدْرِكٍ في الجدِّ والطِلابِ
أيسرَ ما يُدْرَكُ بالعُقابِ(١)
شريفةُ الصبغةِ والانسابِ
تطيرُ من جناحها في غابِ
وتسترُ الارضَ عن السَّحابِ
وتحجبُ الشمسَ بلا حجابِ
يَظلُّ منها الجوُّ في اغترابِ
مُسْتَوْحشاً للطيرِ كالمرتابِ
ذكيةٌ تنظرُ من شهابِ
ذاتُ جرانٍ (٢) واسعِ الجلبابِ
ومَنكِبٍ ضَخْمٍ أثيثٍ(٣) رابي
ومَنْسِرٍ (٤) مُوَثَّقِ النِّصابِ
وراحتَيْ ليثٍ شرىً غلابِ
نِيطَتْ الى براثنٍ صِلابِ
مُرْهَفَةٍ أمضى من الحرابِ
فكُلَّما حَلَّقَ في الضَّبابِ
لِمُلكِها خاضعةُ الرِّقابِ

التخريج : مخطوطة مباهج الفكر المرقمة ٤١١٦ – الفاتح الورقة ٣٠٣ وهى فى نهاية الارب ١٠ / ١٨٣ – ١٨٤

(١) العقاب : طائر من الجوارح قوي المخالب وله منقار اعقف .
(٢) الجران : باطن العنق وقيل مقدمه .
(٣) الاثيث : الملتف الكثير من النبات والشعر . (٤) المنسر : منقار الجوارح .

[١٠]

وكان ابو اسحاق الصابي قد كتب الى أبي الفرج الببغاء أبياتاً في صفة القبج والخطاطيف ، ثم كتب اليه ارجوزة في صفة الببغاء اولها :

أنعتُها صبيحة مليحَهْ ناطقة باللغة الفصيحَهْ

فأجابه الببغاء بالارجوزة التالية :

١– من منصفي من حكَم الكُتّاب شمس العلوم قمر الآداب ؟
٢– أمسى لاصناف العلوم مُحرزا وسامَ ان يُلحق لمّا برّزا
٣– وهلْ يُجاري السابقَ المقصّرُ أم هل يباري المدركَ المعذرُ ؟
٤– ما زال بي عن غرَض مُعرّضا ولي بما يصدره مستنهضا
٥– فتارةً يعتمد الخطّافا ببدع تستغرق الاوصافا
٦– وتارةً يُعنى بنعت القَبْج من منطق لفضله محتج
٧– يحومُ حول غرَض معلوم ومقصد في شعره مفهوم
٨– حتى تجلّت رغوة الصريح وسالم التلويحُ للتصريح
٩– وصحّ ان الببغاء مقصِده بذكر ما كان قديماً يُورده
١٠– فلم يدَعْ لقائل مقالا فيها ولا لخاطر مجالا
١١– أهْدى لها من كل نعت أحسنه وصاغ من حلْيِ المعاني أزْيَنَهْ
١٢– أحال بالريش الأشيب(١) الأخضر وباحمرار طوْقها والمنسر
١٣– على اختلاط الروض بالشقيق وأخضر الميناء بالعقيق
١٤– تزهى بدوّاج (٢) من الزبرجد ومقلة كسَبَج (٣) في عسجد

(١) الاشيب : المختلط .
(٢) الدواج : لحاف يلبس .
(٣) السبج : خرز ناعم اسود .

١٥- وحُسن منقارٍ أشمَّ قاني ... كأنّما صيغ من المرجان
١٦- صيّرها انفرادها في الحبس ... بنطقها من فُصَحاء الإنس
١٧- تميّزت في الطير بالبيان ... عن كل مخلوق سوى الإنسان
١٨- تحكي الذي تسمعه بلا كَذِبْ ... من غير تغيير لجدّ أو لعب
١٩- غذاؤها أزكى طعام وُجِدا ... لا تشرب الماء ولا تخشى الصّدا
٢٠- ذات شَعى (٤) تحسَبُهُ ياقوتا ... لا ترتضي غير الأرزّ قوتا
٢١- كأنّما الحَبّةُ في منقارها ... حبابة تطفو على عُقارها
٢٢- إقدامُها بباسها الشديدِ ... أسكنَها في قفص الحديد
٢٣- فهي كخَوْدٍ في لباس اخضر ... تأوي الى خركاوة (٥) لم تستر
٢٤- فوضعها المعجز ما لا يُدرك ... ومثلُهُ في غيرها لا يُملك
٢٥- لو لم تكنْ لي لقَباً لم اقتصرْ ... لكن خَشيتُ ان يقال منتصرْ
٢٦- وانما تبعتُ باشتقاقي ... لوصفها حذوَ أبي اسحاق
٢٧- شرّفها وزاد في تشريفها ... بمُلَحٍ أبْدَعَ في تفويفها
٢٨- فكيف أجزي بالثناء المنتخب ... مَنْ صرَفَ المدح الى اسمي واللقبْ

(٤) في الاصل والمصادر : ذات شغا . والشغا : اختلاف نبتة الاسنان بالطول والقصر والدخول والخروج .

ولم اجد لها وجها ، فلعلها : ذات شعى ، وهي خصل الشعر ، التي تكون على رأس البيغاء ولونها قرمزي احمر كلون الياقوت .

(٥) الخركاة : خيمة الامراء وسرادق الملوك والوزراء (انظر الالفاظ الفارسية المعربة - ادي شير ص ٥٤) .

التخريج : القصيدة في مخطوطة مباهج الفكر المرقمة ٤١١٦ - الفاتح . الورقة ٣٢١ . وهي ايضاً في يتيمة الدهر ١/٢٧٠ - ٢٧١ .

رواية صدر الثاني : أضحى لأوصاف الكلام محرزا .

= ورواية الثالث : أم هل يساوي .
ورواية صدر الرابع عشر : من الزمرد .
ورواية التاسع عشر : طعام رغدا .
ورواية الثالث والعشرين : تأوي الى خركاهة .
ورواية الرابع والعشرين : ووصفها المعجز .
ورواية الخامس والعشرين : لم اختصر .
ورواية السادس والعشرين : وانما تنعت باستحقاق لوصفها حذق أبي اسحاق .
ورواية السابع والعشرين : بحكم ابدع .
والابيات ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ في مطالع البدور ٦٧/١ وقد لحقها تصحيف وتحريـف .
الابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٢٠ ، ٢١ في حياة الحيوان الكبرى للدميري ١٠٤/١
ورواية صدر الاول : محكم الكتاب .
ورواية عجز الثالث : أو هل يباري المدرك المغرر .

[١١]

وانشد ابو للفرج الببغاء لنفسه : [الوافر]

١ـ أكُلُّ وَميضِ بارقةٍ كَذوبُ ؟ أما في الدهر شيءٌ لا يُريبُ ؟
٢ـ تشابهت الطباعُ فـلا دنيءٌ يحنّ الى الثناء ولا حسيـب
٣ـ وشاع البخلُ في الاشياء حتى يكاد يشحّ بالريـح الهبـوب
٤ـ [أبي لي أن أقرل الهُجْرَ قَدْرٌ بعيدٌ أن تجاوره العيوب]
٥ـ فكيف أخصّ باسم العيب شيئاً واكثر ما نشاهده معيـبُ ! ؟

التخريج : الابيات ما عدا الرابع في تاريخ بغداد ١١/١١ . والبيتان الاول والرابع في اليتيمة ٢٨٢/١ والاول فقط دون عزو في بهجة المجالس ٤٢٥/١ والاول في نهاية الارب ١٠٦/٣ وفي التمثيل والمحاضرة ١١٧ .

[١٢]

وله في الفَصْد : [الخفيف]

بأبي الغائبُ الذي لم يغبْ عَنّـي فأشكو اليه هَـمَّ المغيـبِ

باشَـرَتـْهُ كفُّ الطبيب ، فلو نلـ ... تُ الأماني قَبّلْتُ كفَّ الطبيب
فَعَلَتْ في ذِراعه ظُبَةُ(١) المبـ ... ضَعِ أفعالَ لحظِـه بالقلـوب
فأسالَتْ دمـاً كأنَّ جفوني ... عَـصْفَرَتـْهُ بدمعها المسكـوب
طابَ جداً فلو به سَمَحَ الدهـ ... ر لأمْسى عطري وأصبح طيبي

التخريج : يتيمة الدهر ١/٢٧٦ .

(١) الظبة : حد المبضع .

(٢) عصفرته : صبغته بالعصفر ولونه اصفر .

[١٣]

وله في وصف معصرة : [مجزوء الوافر]

ومعصرَةٍ أنَخْتُ بهـا ... وقَرْنُ الشمس لـم يغبِ
فخلتُ قزازَها (١) بالـرا ... ح بَعْضَ معادنِ الذهـب
وقد ذَرَفَتْ لفقد الـكرْ ... م فيها أعيُنُ العِنَـبِ
وجاشَـس عُباب واديـها ... بمُنْهَـلٍ ومُنْسَـكب
وياقوتُ العصـير بهـا ... يُلاعـب لؤلؤَ الحبَـبِ
فيا عَجَبـاً لعاصرهـا ... ومـا يُغني بـه عَجَبي
وكيف يعيشُ وَهْوَ يخـو ... ضُ في بحـرٍ من الذهب ؟

التخريج : يتيمة الدهر ١/٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١) هكذا وردت في الاصل ، وفي النفس منها شيْ .

[١٤]

وله في الخمر والقَدَح : [المنسرح]

بالقَفْصِ (١) للقَصْفِ منزلٌ كَثَبُ ... ما للتصابي في غيره أَرَبُ
جادتْ به دِيمَةُ السرور ، وحـ ... ـلَّ اللهوُ فيه ، وعَرَّس الطرب
دارت نجومُ السرور في فَلَكٍ ... منه لـه من فُتُوَّتي قُطُبُ
من كلِّ جسم كأنّـه عَرَضٌ ... يكاد لُطْفاً باللحظ يُنْتَهَبُ
نورٌ وإن لم يَغِب ، ووهمٌ وإن ... صحَّ ، وماءٌ لو كان ينسكب
لا عَيْبَ فيه سوى إذاعته الـ ... سرَّ الذي في حَشاه يحتجب
كأنّما صاغَهُ النفاق فمـا ... يَخْلُصُ صدقٌ منه ولا كذب
فَهْوَ الى لـون ما يجاوره ... على اختلافِ الطباع يَنْتَسِبُ
إذا ادَّعاه اللُّجَيْنُ أكْذَبـه ... بالراح في صَبْغ جسمـه الذهبُ
جلَتْ عروسَ المدام حالية ... فيه علينا الأوتارُ والنخُـبُ
فالراح بدرٌ ، والجامُ هالَتُهُ ، ... والافق كفيّ ، والانجمُ الحَبَبُ
حـال به المـاء عن طبيعتـه ... بالمَزْج حتى خِلْناه يلتهب
ونحنُ في مجلس تُدير به الـ ... خَمرَ علينا الأقداحُ لا العُلَب
يَنْسَى بأوطانه الحنينَ الى الـ ... أوطان مَنْ بالسرور يغتـرب
لولا حفاظي المشهورُ ما أمنت ... من بعد بغداد سلوتي حَلَبُ

التخريج : يتيمة الدهر ٢٧٧/١ .

(١) اسم موضع .

[١٥]

وله من اخرى يصف كتيبة : [الطويل]

وموشيّة بالبيض والزَّغْف (١) والقنا ... مُحبّرة الأعطاف بالضُّمر القُبِّ
بعيدة ما بين الجناحين في السُّرى ... قريبة ما بين الكميّيْن بالضرب
من السالبات الشمسَ ثوبَ ضيائها ... بثوب تولّى نسجَهُ عِثْيَرُ الترب
يعاتبُ نَشْوان القنا صادحُ الظُبا ... إذا التقيا فيها على قلة الشرب
أعادتْ علينا الليل بالنقع في الضحى ... وردّت الينا الصبح في الليل بالشهب
تبلّج عن شمسيْ نزارٍ ويعرُبٍ ... أو تفترُّ عن طَوْدَيْ علاً تغلبَ الغُلْبِ
مزقّرةٍ يقتادُ ثنيَ زمامها ... بصيرٌ بأدواء الكريهة والحرب
أصحُّ اعتزاماً من خؤون على فلا ... وأنفذ حكماً من غرام على صَبِّ

التخريج : يتيمة الدهر ٢٨٤/١ .

(١) الزغف : الدروع الواسعة المحكمة .

[١٦]

وله من رسالة كتبها الى عدة الدولة أبي تغلب بن ناصر الدولة :

[البسيط]

دعوتُهُ فأجابتني مكارمُهُ ... ولو دعوتُ سوى نُعماهُ لم تُجِبِ
وجدتُهُ الغيثَ مشغوفاً بعادنهِ ... والروض يجنى بما في عادة السحب
لو فاتَهُ النسبُ الوضّاح كان له ... من فضله نَسَبٌ يُغني عن النَّسَبِ
إذا دعتْهُ ملوكُ الارض سيّدَها ... طُرّاً ، دعته المعالي سيّدَ العَرَبِ

التخريج : يتيمة الدهر ٢٦٦/١ .

[١٧]

وله من قصيدة في سيف الدولة :

[الطويل]

١- أفادت بك الأيام فرط تجاربٍ كأنّكَ في فَرْق الزمان مشيبُ
٢- وكلّ بعيد قرّب الحينَ نحوه ملا هيبَتك الجُرْدُ الجيادُ قريبُ
٣- تباشــر أقطار البلاد كأنّها رياحٌ لها في الخافقين هبــوب
٤- [تماشي بفتيان كأنّ جسومهم لخفّتها فوق السروج قلوبُ]
٥- وتملأ ما بين الفضائين عِثْيَرَاً مُثاراً بوجه الشمس منـه شحوب
٦- وما يدرك العلياء إلاّ مهذّبٌ يصاب على مقــداره ويصيــب
٧- فلاتصطفالإخوان قبلاختبارهم فما كلّ خِلٍّ تصطفيه نجيب

التخريج : القطعة ما عدا البيت الرابع في نشوار المحاضرة ١/١١٦ والابيات ٢ و ٣ و ٤ في يتيمة الدهر ١/٢٨٥ ورواية الثاني في اليتيمة : الجرد الخفاف .

[١٨]

وقال يعزّي سيف الدولة بابنه أبي المكارم من قصيدة اولها :

سرورنا بك فوق الهمّ بالنُوَبِ فما يُغالبُنا حزنٌ على طَرَبِ
إذا تجاوزت الاقدار عنك فهل من واجب الشكر أن يُرتاعَ من سببِ
حتّام تخـدعنا الدنيا بزخرفها ولا تحصّلنا منــه على أرب
نسرُّ منها بما تجني عــواقبه همّاً ، ونهربُ والآجال في الطلب

التخريج : نشوار المحاضرة ١/٢٨٠ .

[١٩]

ولأبي الفرج الببغاء في وصف كانون نار :

وأحدقنا بأزهــر خــا فقات حوله العَــذَبُ (١)
فما ينفكّ عن سَبَــجٍ يعودُ كأنّــه ذَهَـــبُ

التخريج : معاهد التنصيص ١٦٩/١ .

(١) العذب : اغصان الشجرة والاطراف من كل شيء .

[٢٠]

وقال الببغاء في وصف كانون نار :

والتهبتْ نارُنا فمنظــرهــا يغنيكَ عن كلِّ منظر عجب
إذا رَمَتْ بالشرارِ واضطرمتْ على ذراها مطارفُ اللّهَب
رأيتَ يــاقــوتةً مشبّكــةً تطيرُ منها قُراضةُ الــذهــب

التخريج : معاهد التنصيص ١٦٩/١ وانوار الربيع ٢٦٤/٥ ورواية الاول فيه : والتهبت نارها .

[٢١]

سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة ورد الخبرُ بغزاة سيف الدولة لنواحي مَلَطْية وغنيمته ، فقال الببغاءُ يمدحُه بقصيدة منها :

وَرَدَ الدّمُستق دون منظره خَبَرٌ تضيقُ بشرحــه الكُتُبُ
ناجتْهُ عنك البيضُ من بُعُدٍ نُصْحاً ، وأنفذ جيشَه الرُّعُبُ
ولّى ولو أحببتَ حين نجــا إدراكَهُ لم يُنْجِــه الهَرَبُ

يا كالئَ الإسلامِ يحرُسـه ... من أنْ يُخالِجَ حقّهُ الرِّيَبُ
إن كنت ترضى أن يطيعك ما ... سَجَدُوا له سجدتْ لكَ الصُّلُبُ

التخريج : تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبدالملك الهمذاني ص ٣٩٧ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم.

[٢٢]

وله من رسالة كتبها لسيف الدولة يلتمس رَسْمه من الكسوة :

فإن رأى ــ لا رأى سوءاً ولا بَرِحَ الـ ... إقبـالُ مشتملا أيام دولتـه ــ
أن يقتضي ليَ من إنعامه خِلعاً ... تَنُوبُ عن منطقي في شكر نعمته
إذا تأمّلها الحسـاد لائحـةً ... تيقنـوا أنهـا عنـوان نيّتـه

التخريج : يتيمة الدهر ١/٢٦٤ .

[٢٣]

ومن شعره في دير الزعفران :

١ــ صَفَحتُ لهذا الدهرِ عن سيِّئاتِه ... وعَدَّدْتُ يوم الدير مـن حسناتِه
٢ــ وصَبّحْتُ ديرَ الزعفران بصنجةٍ ... أعاشتْ سرورَ القلب بعد وفاتـه
٣ــ عَمَرْتُ محلَّ اللهوِ بعد دُثوره ... وألّفْتُ شمل الانس بعد شتاته
٤ــ وعاشرتُ من رهبانه كلَّ ما جنٍ ... تجاوز لي عن صومـه وصلاته
٥ــ وأهيفَ فاخرتُ الرياضَ بحُسْنه ... فأذعَنَ صُغْراً وصفُهـا لصفاته
٦ــ جلا الاقحوانَ الغض نوارُ ثغره ... ومال بغصن البان عن حركاتـه
٧ــ وأسكرني بالعذب من خمر ريقه ... وأمتعني بالورد من وجناتـه

٨– ولمّا دجا الليلُ استعاد سنا الضُحى ... براحٍ نأتْ بالليل عن ظُلُماته
٩– نصيبيّة عمريّة كاد كرمُها ... بجوهرها ينهلّ قبل نباتـــه
١٠– ونمّ الينا دَنُّها بضيائها ... فكان كقلبٍ ضاق عن خطراته
١١– فأهدى اليها الورد من صبغ خدّه ... وأيّدها بالفتك من لَحَظاتــه
١٢– وما زال يسقيني ويشرب والمنى ... تبشرني عنه بصدق عـــداتــه
١٣– الى أن تهادى بين نحري ونحره ... صليبٌ يضوع المسك من نفحاته
١٤– وخوّفني منه ، فخلتُ صليبَه ... لشدّة ما يخشاه بعض وُشاتِه

التخريج : مخطوطة الوافي بالوفيات الجزء الخامس عشر الورقة ٢٨٦ « مصورة المكتبة المركزية ببغـــداد » .
والابيات ١ ، ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ في مسالك الابصار في ممالك الامصار ٣٠٦/١ .
ورواية الثاني : وصبحت عمر .... بعد مماته .
ورواية الثامن : فلما دجا .
ورواية الرابع عشر : ما نخشاه .

[٢٤]

وقال ابو الفـــرج الببغاء في الزُمّج :

١ – يا رُبّ سِرْبٍ آمــنٍ لــم يُزْعَجِ
٢ – غادَيْتُــهُ قبــلَ الصبــاح الأبْلَــج
٣ – بِزُمّجٍ (١) أَوْلَقَ (٢) حُوشٍ (٣) أهْوَجِ
٤ – مُضَبّرِ (٤) المَنْكِبِ صُلْب المَنْسِجِ (٥)

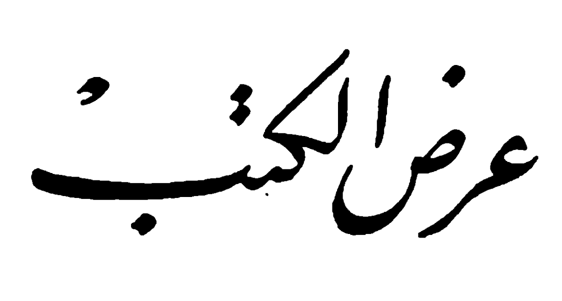
(١) صنف من العقاب يعد من خفاف الجوارح سريع الحركة شديد الوثبة غدار .
(٢) الاولق : السريع .
(٣) الحوش : القوي .
(٤) التضبير : شدة تلزيز العظام واكتناز اللحم .
(٥) منسج الدابة : ما بين عرفها وموضع اللبد .

٥ – ذي قَصَبٍ عَبْلٍ (٦) أصمّ مُدْمَجِ
٦ – وجُؤْجُؤٍ (٧) كالجَوْشَنِ (٨) المُدَرَّجِ
٧ – وعُنُقٍ سامٍ قويمٍ أعوجِ
٨ – ومَنْسِرٍ أقنى فسيح مُسْرَجِ
٩ – مُنْخَرَق المَدْخَل رَحْبِ المَخْرج
١٠– ومُقْلَةٍ تَشِفُّ عن فَيْرُوزَجِ
١١– ناظرةٍ من لَهَبٍ مُؤَجَّجِ
١٢– وهامةٍ كالحجر المُدَمْلَجِ (٩)
١٣– ومِخْلَبٍ كالمِعْوَل المُعَوَّجِ

التخريج : مخطوطة مباهج الفكر ومناهج العبر المرقمة ٤١١٦ – الفاتح الورقة ٣٠٣ .
وهي في نهاية الارب ١٠/١٨٤ – ١٨٥ ورواية الثالث : بزمج ادلق .

(٦) العبل : الضخم الغليظ .
(٧) الجؤجؤ : الصدر .
(٨) الجوشن : الدرع .
(٩) المدملج : المتقن الصياغة ، كما يصاغ الدملج وهو حلي يلبس في المعصم .

(للبحث صلة)


عرض الكتب

التمام

على ما جاء في معجم شعراء لسان العرب من أوهام

الدكتور نوري حمودي القيسي

كلية الآداب — جامعة بغداد

القسم الخامس والأخير

من المعاجيم الكبيرة التي قدمتها العقلية العربية المبدعة في آخر المائة السابعة والعقد الاول من المائة الثامنة معجم لسان العرب لابي الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم بن منظور الافريقي المصري المتوفى سنة ٧١١ للهجرة والذي امتاز بمسألتين اساسيتين بين المعجمات الاخرى هي الاستقصاء والترتيب . وهو عمل كانت له دوافعه وأسبابه التي تتصل بارتباط اللغة بالقرآن والحديث وانتشار الجهل بين الناس بالعربية وافتخارهم بمعرفة اللغات الاجنبية ، وهي أسباب موجبة وعوامل اصيلة في حمل هذا العالم الفاضل على أن يخدم العربية بعمل رائد ، ويجمع اجزاءها ومادتها من خمسة كتب لها مكانتها في الميدان اللغوي وهي تهذيب اللغة للازهري والمحكم لابن سيدة والصحاح للجوهري وحواشي ابن بري والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير . ومن الطبيعي ان يكون هذا السفر الخالد مرجعاً اساسياً لأن صاحبه من المعروفين بمعرفتهم بأسرار العربية وإحاطتهم بعلومها

وقدرتهم على التمييز بين مصادرها ، وهذا ما جعل اللسان من اكثر المعجمات استقصاء للصيغ والمعاني ، وأشملها من حيث الاتساع للمواد المقدمة وايسرها من حيث ترتيب الابواب والفصول واكثرها من حيث الشواهد القرآنية والاحاديث النبوية والشواهد الشعرية والتفسيرات النحوية والصرفية والعناية بالنوادر والمرادف .

وقد حظي هذا المعجم باهتمام الدارسين وعناية الباحثين منذ أمد بعيد واعتُمد مصدراً من مصادر اللغة ، وموسوعة من موسوعات البحث لما اشتمل عليه من معارف ، واستشهد بها من نصوص ، ووقف عليها من نقول . ولا أريد الحديث عن هذا المعجم في هذا الغرض وانما وقفت عليه لعلاقتها بمعجم الشعراء الذين وردوا في هذا المعجم والذي صنعه الدكتور ياسين الأيوبي رسالة دكتوراه بجامعة السوربون والذي قال عنه بانه (ثبت شامل لجميع الشعراء الذين استشهد بشعرهم ابن منظور (١) » .

إن الاهتمام الذي حظي به لسان العرب في النصف الثاني من المائة الرابعة عشرة الهجرية كان اهتماماً واسعاً ، وعناية بالغة لأنه اقترن بجمع الشعر الذي بدأت بوادره تستحوذ على كثير من الدارسين ، والذين وجدوا في هذا السفر العظيم مادة جديدة وشروحاً كثيرة وإشارات واضحة لشعراء كثيرين اهملتهم الأسفار ، وابتعدت عن العناية بهم كتب الأدب ، الى جانب الاهمية الكبيرة التي تعلق على هذا النفر من الشعراء لوقوعهم في دائرة الإستشهاد ، واعتمادهم في التصحيح اللغوي ، والأخذ عنهم في مجال التوثيق . وقد ظلت امنية فهرست هؤلاء الشعراء حلماً يراود هؤلاء الدارسين الذين تضطرهم عملية جمع الشعر الى تقليب اجزائه العشرين اكثر من مرة والرجوع اليه كلما وجدوا انفسهم بحاجة الى توثيق نص أو تصحيح رواية ، أو تأكيد لفظة أو اعتماد شرح . وكنا نسمع منذ

فترة طويلة أن استاذاً فاضلاً من الديار الهندية قد صنع هذا الصنيع وطبعه على الآلة الكاتبة وان مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة تحتفظ بنسخة من هذا المطبوع ، الا أننا على الرغم من مراجعتنا الكثيرة والحاحنا على هـذا الفهرست فقد عجزنا عن العثور عليه ، واخيراً علمنا أن استاذنا الكريم الدكتور خليل نامي يحتفظ بنسخة من هذا العمل فأطلعنا عليها استاذنا الكريم الدكتور حسين نصار وهي محفوظة في مكتبة الدكتور نامي . وعندما علمنا بعمـل الدكتور ياسـين الأيوبي استبشرنا خيراً ، وعقدنا الآمال الكبيرة لهذا المشروع الذي حدثت كثيراً من اخواني وطلابي عن ضرورة القيام به وتحليل الطريقة التي استخدمها ابن منظور ودراسة المعجم دراسة تحليلية ، والوقوف على المنهج الذي احتفظه لنفسه هذا العالم الجليل ، إلا إنني كنتُ أُجابَه بالإعراض لصعوبة العمل ، وأشعر بالعزوف لما يتطلبه من تفرغ ويقتضيه من انصراف .

ان عمل الدكتور ياسين الايوبي عمل يستحق التقدير والاعتزاز لأنه من الاعمال التي سيذكر فيها اسمه كلما رجع باحث الى اللسان ، كما انه يشكل بداية جديدة لاعمال كثيرة تشبه هذا العمل من حيث التناول أو الأهتمام ، لأن كثيراً من امهات كتبنا بحاجة الى فهرسة امثال نهاية الأرب ونهج البلاغة وخزانة الأدب وتاج العروس وكتب التفاسير وبعض كتب الأدب وغيرها ، وهي كتب لها اهميتها في الدراسات المعاصرة . وبقدر ما حقق هذا العمل للدكتور الأيوبي من مآثر فانه جعله في موقع يتعرض من خلاله لتصحيحات العاملين في هذا المعجم ، والملازمين له ، لانهم سيقفون على مسائل — ربما تجاوزها الباحث سهواً — وهذا وحده سيترك الشك في النفوس عند الاعتماد ، ويدفع هذا البعض الى التريّث في قبول الاشارات التي وقف عليها أو أشار اليها أو حدّد موادها . وهما عمليتان اساسيتان في هذا المجال ولعل الملاحظة التي اوردهـا الباحث في هامش رقم (١) من الصفحة العاشرة والذي اشار فيه الى اخطـاء

الطباعة وفقدان بطاقات بعض الشعراء وغير ذلك .

واذا قُدِّر لي ان اقف على بعض هذه الملاحظات فلا يعني ذلك انني سأبتعد عن الكتاب في حالة حاجتي اليه ، وانما سيظل هذا العمل واقعاً في الاعمال الكبيرة التي قُدّمت للمحققين والدارسين لاستقصاء البيت المفرد ، والخبر الضائع ، والحياة المغمورة .

ومن اجل ان تكون تعقيباتي واضحة حاولت أن أبدأ مع الباحث واباشر بذكر الصفحات وما وقفت عليه من استدراكات ، والله اسأل أن يوفق الجميع ما دامت خدمة هذه الأمة العظيمة هي الهدف . وما دام الحرص على لغتها الشريفة هو الدافع .

* **فرعان بن الاعرف :**

اخل صاحب المعجم ببيت أورده صاحب اللسان في [نزل] .

* **فروة بن مُسيك المرادي :**

لم يحدد صاحب معجم الشعراء عدد الابيات في كل مادة فجعل الافعال متساوية في عدد ابيات الاستشهاد وعند رجوعنا الى الاصول وجدنا عدد الابيات في [طبب] ثلاثة وفي [رجا] بيتين ، وبيتاً في كل من [عدا] و [نسا] .

* **الفزاري :**

أخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان بيتاً في [خصص]

* **ابن فسوة :**

أخل صاحب المعجم ببيتين وردا في [حور] و [خرع] وفي [نظر] بيتان ولم يشر أليهما صاحب المعجم وانما اكتفى بالاشارة الى الفعل دون ذكر عدد الابيات .

* **الفضل بن الربيع :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر وأورد له صاحب اللسان بيتاً في [هلل] .

* **اللهيبي :**

اخلّ صاحب المعجم بشطر ورد في [سجل] وبيت في [ولي].

* **ابو محمد الفقعسي (عبد الله بن ربعي) :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر بيت في كل من [عوض] و [قبض] و[صفق] و[هقم] و[صوى] واخل بذكر ثلاثة اشطار في [جمم] وببيتين في [وصم] .

٢- أخلّ صاحب المعجم بذكر شطر في [قلا] و [جحشم] و[أبض] و [سوط] و [فوض] و [غنض] .

٣- أخلّ بذكر اربعة ابيات وشطر في [طبع] .

٤- وهم صاحب المعجم في عدد الابيات .

أ- فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطارفي [جرض] و [نضض] و[فلق] و[سدم] و [وشم] و[حنن] و [بيي] و [جلا] .

ب- وذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [عرد] و[نجر] .

جـ- وذكر بيتاً بدلاً من بيتين وشطر في [ذرأ] و [قلع] و [هزع]

د- وذكر بيتين بدلاً من بيتين وشطر في [عرض] .

هـ- واشار الى وجود بيت في [ضبر] و [هجم] و [وزم] وعند مراجعة موضع الشاهد لم نجد شاهداً .

و- وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [زمم] .

ز- وذكر بيتاً بدلاً من بيت وشطر في [أجن] .

• **الفند الزماني :**

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات أوردها صاحب اللسان في [فوق] و [وره] و [فقا] واخل بذكر ستة أبيات في [دفنس] .

٢- وهم صاحب المعجم فذكر وجود شاهد في [خطلب] والصحيح هي [خطب] ولم نجد في [ثبا] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

• **قارب بن سالم المُريّ :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [طول] و [قطن] .

• **القتّال العامري :**

فصل صاحب المعجم بين القتال العامري والكلابي وجعل لكل واحد

فيهما باباً وشواهد منفصلة ولكنه عند ذكره للقتال العامري قال: هو نفسه القتال الكلابي ولا أعلم السبب في التجزئة وقد حاولنا اثبات الوهم ووفق الصيغة التي وزع بموجبها هذين الشاعرين .فقد اخل صاحب المعجم عند ذكره للقتال العامري بشاهدين أوردهما صاحب اللسان في[بحثر] و[مصل].

اما في استشهاده للقتال الكلابي فقد اخل بذكر شطر في [صمعر] ووهم في عدد الابيات فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [غرض] و [لحن] و [قضى] ولم نجد في [زرا] شاهداً كما ذكر الباحث ولكن وجدنا في [ذرا] بيتين ولعله من وهم الطباعة . وذكر في [نقل] بيتاً بدلاً من شطر .

* **القحيف العقيلي :**

لم نجد في [مهل] و [جشم] شواهد شعرية كما اشار صاحب المعجم

* **قرط بن التوأم اليشكري :**

اخل صاحب المعجم بذكر شطر في [عفق] .

* **قُريط :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان بيتين في [عنق] .

* **قسّ بن ساعدة :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان بيتاً في كل من [محل] و [يَهل] وشطراً في كل من [عبب] و [طرر] .

* **القشيري :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي اورد له صاحب اللسان بيتاً في [سلف] وبيتين في [شبا] .

* **قُصي :**

أخلّ صاحب المعجم بذكر بيت في [أمم] ووهم في عدد الابيات التي اشار اليها فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [سلل] و [أمه] .

* **ابن القطاع :**

ذكر صاحب المعجم شاعراً بهذا الأسم وعند رجوعنا الى مادة [حلق] التي اثبتها في موضع الشاهد وجدنا بيتاً غفلاً من اسم الشاعر حيث ورد النص على الوجه الآتي « قال الاصمعي وذكر بيت شعر . . . وبعده قال ابن بري . هذا البيت رواه ابن القطاع وذكر رواية اخرى ارواية البيت :

* **القطامي :**

أخل صاحب المعجم بذكر بيت في كل من [نفخ] و[حيز] و[ودع] و[قوف] و[عنق] و [قرزم] و[حبا] و [كرى]وبيتين في [قدم]. وشطرين في [وجح] و [جور] .

ويبدو أن وهم الطباعة قد تسرب الى بعض مواضع الشواهد فجاء في[عير] بدلاً من [عبر] و[سحم] بدلاً من[سجم] و[ضخم] بدلاً من[ضجم] [و]غبر [بدلاً من [غير]في شطر. ولم يُشر الى عدد الابيات في[غمر] وهي ستة ابياتٍ ، وفي [هرر] و [تا] بيتان في حين ذكر صاحب المعجم بيتاً واحداً . وفي [تيز] و [عرش] ثلاثة ابيات بدلا من بيت . وفي [جوز] و[خشف] و [عذم] اشطارُ وايست ابياتاً كما ذكر الباحث . وفي [منن] بيت وشطر بدلاً من بيتين .

* **القطران السعدي :**

اخل صاحب المعجم بذكر بيتين أوردهما صاحب اللسان في[قطر] و[خصل].

* **قطرب :**

ذكر صاحب المعجم انه راوية وليس شاعراً وقال : وقد سُجّل وعرّف به سهواً . ولكنه ذكر مواضع الشواهد . والمعروف أن قطرباً هذا من الرواة . وان الابيات التي اشار اليها الباحث قدمت بعبارة وانشد قطرب وكان الأولى أن يحذف من المعجم . لأن الباحث الكريم التفت الى ذلك ولكن عزّ عليه حذفها فأدرجت ضمن الشواهد .

* **قعنب بن ام صاحب :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت في كل من [هيع] و [دجن] و [ضنن] و[دجا] وبيتين في [أذن] .

٢ـ وهم في [شور] و [وزن] فذكر بيتاً بدلاً من بيتين وفي [عسن] ذكر بيتاً بدلاً من شطر .

* **القفار (خالد بن عامر) :**

اخل صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [سفع] .

* **ابو قلابة الهذلي :**

اخل صاحب المعجم بذكر بيتين في [ابن] و [مني] .

* **القلاّخ بن حبابة :**

قال صاحب المعجم : بيتان فقدت بطاقته . والصحيح بيت ورد في [بوب]

* **القُلاّخ السعدي :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر بيت ورد في كل من[قسم] و[وعل] و [غدن] و [جلا] .

٢ـ اخل بذكر ثلاثة اشطار في كل من [درهم] و [ضمن] و [وخف] ونسب شاهداً في [بوب] الى القلاّخ السعدي وهو منسوب الى ابن حُبابة .

٣- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [أصص] و [سمق] و [غوق] و [درن] وذكر بيتين بدلاً من ثلاثة اشطار في [زاق] وبيتاً بدلاً من شطر في [كحل] و [نعل] و [جون] و [مكن] و [كظا] وبيتاً بدلاً من بيتين في [قلخ] و [ثعل] وبيتاً بدلاً من خمسة اشطار في [معل] ولم نجد في [فرس] و [وهف] شاهداً كما ذكر الباحث .

* **ابو القمقام الاسدي :**

١- وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من خمسة اشطار في [عكك] .

* **ابن قنان :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [قوب] و [علكم] .

* **ابو الحجناء القناني :**

١- وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [خلق] وذكر بيتاً بدلاً من خمسة في [كرم] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [زعك]

* **ابن قيس :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [رعى] .

* **ابو قيس بن الأسلت :**

١- اخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات وردت في [هجع] و [صدق] و [فكك] و [عمم] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلا من بيتين في [جنأ] و [ودق] .

* **قيس بن الخطيم :**

١- اخل صاحب المعجم بذكر خمسة ابيات وردت في [خرص] و [ريع] و [جلف] و [وكف] و [جبل] . وبذكر شطر ورد في [دمى] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [ذهب] وبيتاً بدلاً من بيتين في[وجب] وبيتاً بدلاً من خمسة ابيات في [نوك] . .

* **قيس بن ذريح :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات وردت في [سرف] و [غيق] و[شمم] و [ظبا] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [فلت] وبيتاً بدلاً من شطر في [سرع] ولم نجد شاهدا في [رنق] كما ذهب صاحب المعجم .

* **قيس بن رفاعة :**

١ـ اخل صاحب المعجم يذكر بيت ورد في [درك] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [حوج] و [قنف] .

ونسب بيت في [عنس] الى ابي قيس بن رفاعة في اللسان ولكن صاحب المعجم نسبه الى قيس بن رفاعة وكان الأولى ان يشار اليه ، أو يفرد له باب .

* **ابو قيس بن رفاعة :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [قوت] و [عنس] .

* **ابن قيس الرقيات :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت في [عقد] :

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [بخت] و [هزز] وذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [أنن] و [شعا] وذكر بيتين بدلاً من بيت وشطر في [كدا] .

* **قيس بن زهير :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات وردت في [عدف]و [دوم] و[زهدم] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [علم] ولم نجد في [دون] شاهداً كما اشار صاحب المعجم ولعله من وهم الطباعة وأصله [دوم] .

* قيس بن عيزارة الهذلي :

١- أخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين أوردهما صاحب اللسان في [هزم] و [قنـا] .

* قيس بن الملوّح :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات اوردها صاحب اللسان في [بنق] و [رنق] و [لقا] .

وبيت الشاهد في [غرب] نسب في اللسان الى أبي حيّة النميري وكان الاولى ان يشار الى هذه النسبة .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من اربعة ابيات في [روع] وبيتاً بدلاً من ثلاثة ا ابيات في [ها] ولم نجد في [نبق] شاهداً ويبدو ان وهم الطباعة كان السبب لأن موطن الشاهد في [بنق] وليس [نبق] .

* قيل بن عمرو بن الهجيم :

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [رحم] .

* ابو كاهل اليشكري :

١- أخلّ صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [شغا] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [رنب] و [تمر] والشاهد في [ركه] منسوب في اللسان الى كاهل ونسبه صاحب المعجم الى ابي كاهل . والاشارة الى الصيغة التي ورد فيها النص واجبة في هذا الموقع .

* كيشة (اخت عمرو بن معد يكرب)

اخل صاحب المعجم بذكر هذه الشاعرة التي اورد لها صاحب اللسان

شاهداً في [عقل] .

• ابو كبير الهذلي :

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر ثمانية ابيات وردت في [ندر] و[بأس] و[طيش] و [وعع] و[نشف] و[سوك] و [هجل] و [غرف] وشطر في[نزا] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [ركح] و[هكر] و[حزز] و[خرف] و[حمم] و[وا] وشطراً بدلاً من شطرين في[فرش] .

٣ـ لم نجد في [عزف] شاهداً كما ذكر الباحث .

• ابو كَنْوة :

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [نعم] و [زوى] .

• كُثيّر بن جابر المحاربي :

١ـ أخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [عدب] و [عذب] وذكر ثلاثة ابيات وشطر في [ذلغ] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيت وشطر في [هلم] و [بنن] وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [خذا] .

• كُثير عزّة :

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة عشر بيتاً وردت في [أثب] و [فيد] و[ريد] و [تعر] و [حسف] و [عقق] و [فرق] و[هوم] و [خفن] و [صدن] و [جبا] و [حلا] و [شلا] . وبذكر بيتين وردا في كل من [قلت] و[نضا] . وبذكر شطرين في[رضب] و [ألت] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [غلب] و [فلذ] و [بهتر] و [كرر] و [غشش] و [نسع] و [بلل] و [ميل] و [ندل] و [دوم]

و[جنن] و [سكن] و[صفا] و[عدا] و [مني] و[وني] . وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [ظهر] و [قعع] و [سغم] وذكر بيتين بدلاً من ثلاثة في [هيم] و[وزن] .

٣ـ لم نجد الشواهد التي اشار اليها صاحب المعجم في [أتب] و[اصب] و [تأر] و[خسف] و[خرق] و [فنق] و [ودق] و[كوم] و [بغي] و[حبا] و[حلا] .

٤ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [سفف] و[عسف] وذكر بيتاً بدلاً من بيت وشطر في [صوب] وذكر بيتين بدلاً من اربعة ابيات في [قصر] وذكر بيتاً بدلاً من ستة ابيات في [لزم] .

• **الكذّاب الحرمازي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي نسب اليه صاحب اللسان ثلاثة اشطار في [سردق] وشطرين في [أسس] .

• **الكروس بن حصن :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي نسب اه صاحب اللسان بيتاً في [برم] .

• **كعب الأمثال :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدٍ أورده صاحب اللسان في [هوا]

• **كعب بن جُعيل :**

١ـ أخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدٍ أورده صاحب اللسان في [سرق]

٢ـ ووهم فذكر بيتاً في [صعد] وهما بيتان . والشاهد في [شرر] متدافع النسبة بين كعب والحصين بن الحمام كما ذكر صاحب اللسان ولم يشر اليه صاحب المعجم .

• **كعب بن زُهير :**

١ـ اخل صاحب المعجم بستة شواهد وردت في [صخد] و [عثر] و

[رجم] و[أتن] و [أرى] و [حيا] و وبثلاثة عشر شطراً وردت في [زرب] و[نكس] و[نصف] و [دمك] و [بغل] و [تبل] و [ثكل] و [حلل] و [كبل] و [ملل] و [تيم] و [أين] .

٢ـ وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً وهي بيتان في [أوب] و[حدب] و [حلل] و [قوم] و [سلا] وذكر بيتين وهي ثلاثة في [عرض] وذكر بيتاً وهي شطرٌ في [أطم] و [نحا] . .

٣ـ ووهم في [صخب] و [رحم] و [حنا] فاعتبرها مواضع لشواهد ولم اجد فيها ابياتاً للشاعر .

* **كعب بن جُعيل :**

١ـ اخل المعجم بذكر شاهد ورد في [سوق]

٢ـ ان بيت الشاهد في]شرر] نسب لكعب وللحصين وكان الأولى يشار الى هذا التدافع بالنسبة وفاءً لاصول النص .

* **كعب بن سعد الغنوي :**

١ـ اخل المعجم بذكر شاهدين أوردهما صاحب اللسان في [يدي] و [تفسير هذا] .

٢ـ وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً وهي بيتان في [جوب] و [حصي] وذكر بيتاً وهي ثلاثة في [حلب] وذكر بيتاً وهي سبعة في [قول] .

٣ـ نسب الشاهد في [علل] الى كعب بن سويد الغنوي ، وكان الأولى أن يشار الى هذه النسبة ويصحح دون ان يترك غفلاً .

٤ـ نسب الشاهد في [علا] لعلي بن عدي الغنوي المعروف بابن العرير ولم يشر اليه الباحث .

* **كعب بن مالك :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بثلاثة ابيات وردت في [سخن] و [سأى]

و [نصا] وبيتين وردا في [منن] .

٢- ووهم فذكر بيتاً في [أخر] و [بله] و [أبى] وذكر بيتاً وهي خمسة في [بكا] . وذكر بيتاً وهو شطر وبيت في [دأل] ولم أجد في [نسا] شاهداً كما اشار صاحب المعجم .

* الكلابي :

١- أخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً واحداً في [مصل] وبيتين في كل من [غرض] و [خون] و [قضى] وشطراً في [ذنب] .

* الكلحبة :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [صرف] و [بقى] وفي [حلف] بيتان نسبا وهماً الى ابن كلحبة وهما له لورودهما منسوبين له في [عرر] .

٢- ووهم فذكر بيتاً في [عرد] وبيتاً في [عرر] وهما بيتان في الشاهدين.

* كليب بن ربيعة التغلبي :

١- وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً في [قبـــر] بدلاً من خمسة اشطار ونسب الشاهد الوارد في [ارك] الى كليب بن ربيعة التغلبي وفي اللسان منسوب لكليب الكلابي .

* المعروف أن هناك اكثر من شاعر عرف بهذا الاسم ، وعلى سبيل المثال هناك الكميت بن زيد الاسدي الذي جئنا على ذكره ، وهناك الكميت بن معروف الاسدي ، والكميت بن ثعلبة الفقعسي ، وقد استشهد لهم صاحب اللسان ويبدو أن صاحب المعجم قد خلط بين الكميت بن معروف الاسدي والكميت بن ثعلبة الفقعسي فجاءت شواهدهما واحدة ولغرض التمييز بينهما وجدت من المناسب أن افرد شواهد كل شاعر حسب ورودها في اللسان .

* **الكميت :**

١- اخل صاحب المعجم بذكر الابيات في المواضع الآتية :

[رحب] و [جهد] و[حرد] و [كوذ] و[بور]و [سمدر] و[جوز] و[بخس] و [وخش] و [غطمط] و [قبط] و [خلق] و [رخل] و [كهكه] و [بقى] و [حظا] و [لتا] و [اوى] و [ذا] .

٢- اخلّ بذكر الاشطار في المواضع الآتية :

[كفأ] و [صيب] و [لغب] و [نضب] و [هيب] و [فلت] و [خلج] و[نتج] و[رمد]و [قعد] و [وحد] و [غمر] و [دمس] و [طفس] و [قعس] و [فئة] و [يدي] و [ذو] .

٣- لم نجد الشواهد التي اشار اليها في المواضع الآتية :

[رهب] و [كلب] و [شمدر] و [خنس] و [وحش] و [غطط] و [رحل] و [كهه] و [خطا] و [فعا] و [ايا] ويبدو ان بعضاً من هذه الأوهام كانت بسبب الطباعة لأن اشكالها تقع ضمن اشكال الافعال التي اخل بذكرها المعجم .

٤- وهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [شيب] و [هزج] و [سلخ] و[نكد] و [جسر] و [عرض] و [ريع] و [خرف] و [رمق] و [رهق] و[بجل] و [جول] و [مهل] و [همم] و [وسم] و [بطن] و[قرن] و[جرى] .

وذكر ثلاثة ابيات بدلاً من بيتين في [علب] و [فوق] وذكـربيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [سمل] وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [اين] وبيتاً بدلاً من شطر في [صعل] و [بوى] و [حفا] و [رأى] و [قضى].

* **الكميت بن ثعلبة الفقعسي :**

في [دور] بيت نسب لزُميل الفزاري وقال ابن بري الشعرللكميت بن

معروف وقال ابن الأعرابي هو للكميت بن ثعلبة الاكبر وعرض اسبب هـذا الشعر ولم أجده عند صاحب المعجم .

وفي [مدر] ثلاثة ابيات للكميت بن ثعلبة وعدّها صاحب المعجم بيتاً واحداً وفي [قزع] اربعة ابيات متدافعة نسبت للكميت بن معروف وقال ابن الاعرابي هي للكميت بن ثعلبة الفقعسي وهي من القطعة المتدافعة في [دور] ولم اجد لها اشارة عند صاحب المعجم .

• **الكميت بن معروف :**

١ اخل صاحب المعجم بذكر شاهدين متدافعين وردا في [دور] و [قشع]

• **الكندية :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذه الشاعرة التي اورد لها صاحب اللسان شاهداً في [نيب] .

• **لبيد بن ربيعة العامري :**

أ ــ أخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات في [ريش] .

ب ــ أخل بذكر بيتين في كل من الشاهدين الآتيين [قردم] و [قسم]

حـ ــ أخل بذكر بيت في تسعة وعشرين موضعاً هي [ظرب] و [حرج] و [نحج] و [غدد] و [فأد] و [نبذ] و [خدر] و [هصر] و [مرط] و [ضرع] و [قرع] و [نصع] و [سوذق] و [غرق] و[دكله] و [خبل] و [دخل] و [غيل] و [فعل] و [قعل] و [مغل]و[حلم] و[قدم] و [قرم] و [خنا] و [رذى] و [صفا] و [هرا] و [ولى] .

د ــ أخلّ بذكر ثلاثة وثلاثين شطراً وردت في الشواهد الآتية :

[خصب] و [سيب] و [شرب] و [شغب] و [حدث] و [خرج] و[دجج] و [شرخ] و [شلخ] و [ظهر] و [فثر] و [هجر] و[رجز]

و [بعض] و [رعع] و [خفف] و [خلف] و [دعق] و [عتق] و [غرق] و [خصل] و [أمم] و [جذم] و [رثم] و [عهن] و [سلم] و[سنم] و [مخن] و [عصم] و [بله] و [كمم] و [مني] و [يدي] وذكر قسيم بيت ورد في [غلق] .

٢– ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [حجج] و [رمح] و [صدح] و [هجد] و [وجَدَ] و [عبقر] و [أنض] و [نعط] و [هبط] و [خضع] و [زرف] و [رزق] و [روق] و [عطل] و [خزم] و [رقم] و [جرى] و [خزا] و [سقي] و [شوا] و [غيا] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [كذب] و [عوج] و [تعر] و[صحم] و [قلم] و [منن] و [جأى] و [كيا] و [نطا] و [إمالا] .

وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [جوب] و [حضر] و [فجر] و [وسق]

وذكر بيتين بدلاً من ثلاثة في [عمر] و [كفر] و [سفف] و [حزم]

وذكر بيتين بدلاً من اربعة في [عذر] و [عطن] .

وذكر بيتين بدلاً من خمسة في]شيع]

وذكربيتين بدلاً من بيت في[فثر] و [سلم] و [عصم] و [مني] و[يدي]

وذكر ثلاثة ابيات بدلاً من اربعة في [قوم] .

وذكر ثلاثة ابيات بدلاً من بيتين في [أيا]

وذكر شطراً بدلاً من شطرين في[جمد] و[رجع] و[عهن] .

٣– لم نجد ابياتاً في المواضع التي اشار اليها صاحب المعجم وهي :

[نجح] و [فعد] و [نضع] و[عزق] و [فتق] و[كلل] و [رزم] و [ردي] و [غوي] .

ولم نجد اشطاراً في المواضع التي اشار اليها وهي :

[شرح] و [شردخ] و [شهر] و [خسل] و [نبذ] .

* **عمر بن لجأ :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان ثلاثة شواهد في [قذذ] و [جلل] و [نجم] وبيتين في [جرر] .

* **لجُيم بن صعب :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدين وردا في [نصت] و [حذم] .

* **اللعين المنقري :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ورد في [لخق]

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [خفق] وبيتاً بدلاً من ثلاثة في [بقى] .

* **لقيط بن زرارة :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة اشطار وردت في [نشل] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [رمس] وبيتاً بدلاً من اربعة اشطار في [دوم] .

* **الورل الطائي :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان بيتين في [بقر] .

* **ليلى الاخيلية :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة شواهد وردت في [نبغ]و [صنا] و [أمم] . والشاهد في [أمم] متدافع النسبة فقد نسب الاعشى . ثم قال صاحب اللسان : ويروى البيت للاخيلية ويقال لحسن الأمّة أي الشطاط .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [هلا] وبيتاً بدلاً من ثلاثة في [بلل] .

* **مالك بن اسماء بن خارجة الفزاري :**

أخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان اربعة شواهد في [لحن] .

* **مالك بن الحارث الهذلي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد اورده صاحب اللسان في [قرأ] .

* **مالك بن خالد الخُناعي :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدٍ أورده صاحب اللسان في [قمح].

٢ـ لم اجد شاهداً في[قنح] كما ذكر صاحب المعجم وكذلك في[سنن]

٣ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [لوح] و [شجن] و [عرس] و[فرنس] .

٤ـ اشار صاحب المعجم الى شاهد في [سنن] وعند مراجعتي اللسان لم اجد الشاهد ولكنني وجدت عبارة « والسنينة : الريح . قال مالك بن خالد الخناعي في السنائن الرياح واجدها سَيْنَنَةٌ والرجاع جمع الرجْع وهو ماء السماء الخ . . [ولم اجد الشاهد وفي هامش النسخة تعليق يقول : قوله قال مالك بن خالد الخ . . سقط الشعر من الأصل بعد قوله الرياح كما هو في التهذيب . . . أقول كان حرياً بالباحث الكريم إن يشير الى هذا في سياق حديثه عن [سنن] لأن الشاهد غير موجودأصلاً وإذا كانت متابعة الباحث حاصلة فيبدو انه اخذه من التهذيب والاشارة اليه واجبة كما هو معروف لتأكيد سقوطه من النسخة الموجودة بين يديه .

* **مالك بن ربيعة العامري :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي ورد ذكره مرتين في [ضبع] و [زلم] وهو يتدافع مع عباس بن مرداس في نسبة بيتين من الابيات .

* **مالك بن الريب :**

١- اخل صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [ريم] .

٢- لم اجد في [وهب] و [كرب] و [ورع] شواهد كما اشار الباحث ويبدو أن خلطاً وقع في النسبة فالشاهد في [كرب] لسعد بن ناشب المازني ، وفي [وهب] للمازني دون ذكر الاسم وفي [ورع] لمالك بن نويرة وهي اسماء تختلط مع اسم الشاعر من جهة ولقبه من جهة أخرى ، وربما كان هذا التشابه السبب في الوهم والله أعلم .

* **مالك بن زُغبة الباهلي :**

في عبارة صاحب المعجم الأولى اشارة الى التردد في صحة نسبةالابيات أو في ضبط ترجيحها . لقوله « بعض الابيات مرجّحة لما لك وقد لا تكون وعند متابعتي لهذه العبارة وقفت على المسائل الآتية :

١- الشاهد في [قمأ] منسوب للباهلي وهناك عشرات الشعراء عرفوا بهذا اللقب .

٢- وفي [هنأ] لم اجد شاهداً وانما وجدت شاهذاً لأعشى باهلة .

٣- وعند متابعتي للمواد وجدت صاحب المعجم اخل بذكر ستة مواضع أورد فيها صاحب اللسان الشواهد الآتية وهي :

[عير] و [غير] و [نور] ر [سرع] و [وزغ] .

ووردت ثلاثة ابيات في [قصر] .

* **مالك بن عوف النضري :**

من الغريب أن يحدد صاحب المعجم ثلاثة مواضع في اللسان لاستشهادات هذا الشاعر وهي [سطح] و [ضطر] و [تلل] :

وعند مراجعتي لموضعي الشاهد الاول والثاني وجدت العبارة الآتية وقال عوف

بن مالك النّظْري وفي حواشي ابن بري مالك بن عوف النظري وفي [ضطر] قال صاحب اللسان وانشد ابو عمرو لعوف بن مالك وذكر الشاهد وبعد شرح البيت قال : وقال ابن بري البيت لمالك بن عوف النظري .

أما في الشاهد الثالث [تالل] فالبيت منسوب الى النضري وهو غير النظري كما ورد نصاً . وهي استشهادات تحتاج الى تحقيق وتوثيق لمعرفة صحة النسبة ووجاهة الاعتماد على مثل هذا التعميم .

* **مالك بن فهم الازدي :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [سدد] تدافعت نسبته بينه وبين معن بن اوس وعقيل بن عُلّفَةَ ولكل واحد من هؤلاء قصة يرويها صاحب اللسان .

* **مالك بن نويرة :**

١ــ وهم صاحب المعجم فنسب بيتاً لمتمم ورد في [قشع] الى مالك .

٢ــ وذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [صرر] و [بقط] و [بول] .

* **ابو مالك بن نويرة :**

اخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [هور].

* **مُبَشّر بن هُذيل الفزاري :**

١ــ اخلّ صاحب المعجم بذكر موضعين استشهد بهما صاحب اللسان ، فقد أورد له في [شرا] ثلاثة اشطار وفي [علا] شطرين .

٢ــ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من اربعة اشطار في [شوه] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [قدا] .

* **المتلمس :**

١ــ اخلّ صاحب المعجم بذكر ستة ابيات أوردها صاحب اللسان في كل من الشواهد الآتية : [حثر] و [طرر] و [كدس] و [عرض] و

[زيل] و [منجنون] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [طين] وذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [عصد] و [عالل] وبيتاً بدلاً من خمسة ابيات في [دوم] .

٣ـ لم أجد في [مجن] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

* **متمم بن نويرة :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة شواهد وردت في [زبع] و [قشع] و [ردي] .

واخل بذكر الاشطار الآتية التي وردت في [فلت] و [قعد] و [كنع] و [لوم] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [عفق] وبيتاً بدلاً من شطر في [بطن] ولم اجد في [نكع] شاهداً كما اشار الباحث .

* **المتنخل الهذلي :**

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر تسعة ابيات وردت في الشواهد الآتية : [درس] و [حيش] و [سقط] و [مسع] و [خذعل] و [سحل] و [سول] و [هيل] و [أنى] .

٢ـ واخل بذكر اربعة اشطار وردت في [فلت] و [قعد] و[كنع] و [لوم]

٣ـ لم اجد ابياتاً في مواضع الشواهد التي اشار اليها صاحب المعجم في [جبر] و [خيش] و [خزعل] وفي اشارته الى وجود شطر في [نكع] .

٤ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [قطر] و [حبل] و [جنن] وذكر بيتين بدلاً من ثلاثة في [حمل] و [غيل] .

٥ـ اشار صاحب المعجم الى ورود شاهد للشاعر في [عرا] وعند رجوعي الى موضعه وجدت البيت متدافع النسبه فذكر وفق الصيغة الآتية :

« ومثله قول الفرزدق وبعد ذكر البيت قال ابن بري هو للمتننخل الهذلي وكان الأولى أن يشار الى هذا التنازع في النسبة

* المثقب العبدي :

١ـ أخلّ صاحب المعجم بذكر ثمانية ابيات وردت في [جلسد] و [جذف] و [دربن] و [دهن] و [دين] و [طين] و [ربا] و [غنا]

٢ـ واخلّ بذكر شطر ورد في [سفن] .

٣ـ في موضعين من مواضع الشواهد بيتان يتدافعان النسبة في [جلسد] و و [بقر] اخلّ الباحث بالشاهد الأول ولم يشر الى التدافع في الشاهد الثاني وكان الأولى ان يشيرمن باب الامانة العلمية في النقل .

٤ـ هناك عدة مواضع ذكرها الباحث اقتصرت فيها نسبة الابيات الى العبدي وهي [مسد] و [علل] و [مهل] و [عمن] والمعروف أن هناك اكثر من شاعر عرف بهذا النسب وان اسباب التوثيق تلزم الباحث بتثبيت وجهة النظر التي ترّجح هذه النسبة الى الشاعر او الاشارة اليها لنقف على وجاهة الترجيح .

٥ـ ووهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [مسد] و [جلل] و [انم] و [زعم] وبيتاً بدلاً من ثلاثة في [دسر] .

* المثّلم بن عمرو التنوخي :

اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت أورده صاحب اللسان في [صمت] .

* ابو المثلم الهذلي :

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر بيت في [رجل] وشطرين في [جبل] و [وكل] .

٢ـ لم اجد شواهد في [رهل] و [عصل] و [جمم] كما اشار صاحب المعجم .

٣- وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [كرم] .

٤- البيت في [بيث] متدافع النسبة ولم يشر اليه الباحث .

* **ابو المثنى بن سعلة الاسدي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي اورد له صاحب اللسان خمسة اشطار في [طرق] .

مجهز السفينة

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [فجل] .

* **ابو محجن الثقفي :**

مجهز السفينة

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد أورده صاحب اللسان في [فنع] .

* **أبو مُحْرز المحاربي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [بذج] و [همج] .

* **ابو محصّة :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان ثلاثة اشطار في [شمشلق] :

* **ابن محكان :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [نحب] :

* **ابو محمد الاسدي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شطرين في [منن] .

* **محمد بن بشير :**

يمكن الرجوع الى كتابي « شعراء امويون » فقد ترجمت له ووقفت عند ظاهرة اختلاط شعره وهو ما وقـع فيه صاحب المعجم فاعتبر محمد بن بشير هو محمد بن يسير والأول خارجي والثاني رياشي ، والخارجي أموي والرياشي عباسي والأول حجازي والثاني مولى (شعراء امويون ٣–١٦٩) .

* **محمد بن حمران (الشويعر الجعفي) :**

١– اخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات وردت في [شعر]
٢– وذكر بيتاً بدلاً من اربعة ابيات في [حمد]
٣– لم أجد في [حرم] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

* **محمد بن ذؤيب العُماني :**

١– أخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ورد في [فمم] وثلاثة اشطار في [قرم] .

* **محمد بن عبدالله الأزدي :**

١– اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ذكره صاحب اللسان في [جندع]

* **محمد بن نمير الثقفي :**

١– اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [نمرق] و [رأى] .

* **المخبل السعدي :**

١– اخل صاحب المعجم بذكر الشواهد المذكورة في[سدف] و[حين] و [قيه] و [وده] و [يقه] و [قعا] . وبذكر شطر في [نقه] .
٢– ووهم وذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [سبب] و[سجر] و [شقر] و[رأس] و [عضض] و [حما] وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [ألا] وذكر بيتاً بدلاً من اربعة ابيات في [رها] وشطراً بدلاً من بيت في [عقم].

٣ـ اشار صاحب المعجم الى شاهد في [عبث] وعند مراجعة اللسان وجدت اشارة ابن بري الى ان البيت لناشرة بن مالك يرد على المخبل السعدي وكان المخبل قد عيّره باللبن وذكر بيتين قبل الشاهد وكان المفروض ان يشار الى هذا التدافع بالنسبة .

* **ابو مختار الكلابي :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان ثلاثة ابيات في [شطر] .

* **مُدرك بن حصين الاسدي :**

١ـ إخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في[ضلع] وبيتين وردا في [رمعل] وبيت في [خنن] . وفي [هلقم] ورد بيت متدافع النسبة . وخمسة اشطار في [صنن] و شطر في [كبن] .

* **المرارون من الشعراء سبعة منهم المرار الفقعسي والمرار العدوي والمرار العجلي والمرار الطائي والمرار الشيباني والمرار الكلبي والمرار الحرشي : وقال صاحب السمط** وقد جمعتهم في كتاب الاحصاء لطبقات الشعراء ، وفي الاشباه والنظائر شاعر آخر هو المرار بن بديل العيشمي.

إن اشتراك اكثر من شاعر في هذا اللقب أوهم صاحب المعجم فتداخلت ابيات المرار العدوي بابيات المرار الفقعسي تنظر ترجمة المرار بن منقذ العدوي في الشواهد [ميح] و[شذر] و [وسط] وهي للاسدي الفقعسي وليست للمرار العدوي . وتداخلت ابيات الفقعسي بابيات ابن منقذ كما وقع في [وأم] .

ان اقتصار لقب المرار على بعض الشواهد التي اوردها صاحب اللسان كانت السبب في هذا التداخل وقد عانيت مشقة صعبة عندما جمعت شعر المرار الفقعسي في تخليص الابيات التي اختلطت في الرواية وأصبح من المتعذر لمن اراد أن يتابع معجم الشعراء ان يفصل بين الاجزاء بشكل دقيق إلا إذا توفرت له اشعار كل

واحد منهما ليطابق ما يراه في اللسان وينتهي الى الوجهة الصحيحة في النسبة ومع هذا فقد استطعت استدراك المواقع التي وجدت فيها ابياتاً وأخلّ بها المعجم وهي [رجع] و[شندف] و [غلق] و[مأن] وشطراً في [ملس] ولم اجد شواهد في [عقل] و [كخم] كما اشار صاحب المعجم ويبدو انه من أوهام الطباعة .

* **مرحب اليهودي :**

أخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [شوك] .

* **مرداس بن حُصين :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدين وردا في [قبل] و [وجه]

* **مرداس الدبيري :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ذكره صاحب اللسان في [مسا] .

* **مرداس بن أذنة :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [عجف] .

* **المرقش الاكبر :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [قدم] وفي [يمن] اربعة ابيات نسبها للمرقش ثم قال وتروى لخزز بن لوذان . وفي [حتم] خمسة ابيات متدافعة النسبة .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [فرط] و [ندى] [وقى] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [عظم] .

* مروان :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي اورد له صاحب اللسان في [شنع] .

* مروان بن الحكم :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي اورد له صاحب اللسان ثلاثة ابيات في [جلس] .

* مزاحم العقيلي :

١ــ أخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد في [حوذ] وشطر في [زفف]

٢ــ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [زغرف] و [عشا] . وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [ترج] وبيتين بدلاً من ثلاثة في [عرف] وبيتاً بدلاً من شطر في [هدم] و [غرف] .

* مُزرّد بن ضرار :

١ــ اخلّ صاحب المعجم بذكر خمسة ابيات وردت في [سحق] و [ثمل] و [ضرزم] و [قسا] و [مأى] وشطر في [محل] وخمسة ابيات في [ريع] .

٢ــ لم اجد في [ربع] شاهداً كما اشار صاحب المعجم .

٣ــ وهم فذكر بيتاً من بيتين في [عكم] .

٤ــ الشاهد الذي ذكره صاحب المعجم في [غلق] متدافع النسبة بين المرار والمزرد وموضوعية البحث تقتضي الاشارة الى مثل هذا التدافع في النسبة .

* ابنة ابي مسافع :

اخلّ صاحب المعجم بذكر خمسة ابيات وردت في [خنا] .

* مساور بن هند العبسي :

١ــ وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [همي]

وبيتاً بدلاً من عشرة اشطار في[ضرزم] . ولم يشر الى تدافع النسبة بين مساورٍ بن هند وابي حبان الفقعسي في [ضمز] وهي سبعة اشطارٍ وايست بيتاً .

* **مسعود بن وكيع :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شطر اورده صاحب اللسان في [نجل]

* **مسكين الدارمي :**

١ـ اخل صاحب المعجم بذكر شاهد أورده صاحب اللسان في[دهن]

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [حرم] .

* **المسيب بن علس :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات وردت في[عود] و [نوق] و [يمن] وشطر في [قهر] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [فتر] و [سحل] .

٣ـ الشاهد المذكور في [فتر] نسب الى المتلمس وقال صاحب اللسان ويروى للاعشى والشاهد المذكور في [شرك] قال صاحب اللسان : قال المسيب أو غيره . وكان المفروض ان تذكر هذه الاشارات في مواضعها .

٤ـ لم اجد شاهداً في [عدد] كما اشار صاحب المعجم ويبدو أن وهم الطباعة كان السبب في هذا لأني وجدت شاهداً في [عود] .

* **المشعث :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [جأل] و [متع] .

* **مُصبح بن منظور الاسدي :**

اخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات أوردها صاحب اللسان في [حبر] .

* **المضرس بن ربعي :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [ثمن] .

٢ـ ابيات الشاهد في [خزز] متدافعة وليست صريحة النسب الى المضرس

* **معاذ الهراء :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شطرين وردا في [هيأ] .

* **معدان بن عبيد :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي اورد له صاحب اللسان شطراً في [قمم] .

* **معد يكرب بن الحارث بن عمرو (المعروف بغلفاء) :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر احد عشر بيتاً أوردها صاحب لاالسان ، ففي [سرر] اربعة ابيات وثلاثة ابيات في كل من [حدس] و [ظرب] وبيت في [كتع] .

* **المعطل الهذلي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكراحد بيتين وردا في[سلل] و[دخن]وشطر في [حشا] .

* **مُعَقّر بن حمار البارقي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [قرف] و [عصا] .

* **معقل بن خويلد الهذلي :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة شواهد وردت في [لفت] و [عرم] و [نجم] وبذكر بيتين وردا في [شرط] .

٢ـ لم اجد في [حين] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم ونسب البيت الذي ورد في [بقر] الى مقبل بن خويلد وليس معقل بن خويلد وكان المفروض أن يشار الى هذا الوهم إذا كان وهماً حقيقياً .

٣- وفي [وقي] شاهد نسب الى ابي معقل الهذلي وهو المعقل بن خويلد من قصيدته البائية المعروفة .

* المعلوط السعدي (المعلوط بن بذل القريعي) :

١- اخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة شواهد وردت في [حذد] و [وأد] و [هجم] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [حظظ] ولم اجد في [فدد] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

* المُعلى بن جمال العبدي :

١- ذكر صاحب المعجم في عدد الابيات [بيتين] وعند مراجعة الشواهد وجدت اربع اشارات وهذا يعني ان عدد الابيات في اقل تقدير اربعة .

٢- الشاهد في [شفق] نسب لاسحاق بن خلف ثم قال : وقيل هو لابن المعلى ولم اجد هذه الاشارة في المعجم . وفي [صوع] قال صاحب اللسان قال اوس بن حجر . وبعد ذكر البيت قال : قال ابن بري البيت للمعلى بن جمال العبدي وهي اختلافات توجب الاشارة والتحقق والتثبت .

* معَن بن أوس المزني :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر خمسة ابيات وردت في [معد] و [كبر] و [شبدع] و [أنن] و [عصا] .

٢- لم اجد في [سدد] شاهداً كما اشار صاحب المعجم ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [وجل] .

* المعني :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شطرين من الرجز في [مثع] .

* مُغَلّس بن لقيط :

أخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ورد في [عظرف] .

* المغيرة بن حبناء :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهد ورد في [طرطب] .

٢- الشاهد الذي اشار اليه صاحب المعجم في [زحر] ليس صريح النسبة أو خالصها الى المغيرة فالذي ذكره صاحب اللسان بعد ذكر البيت هو : وأورد الأزهري هذا البيت مستشهداً به على زَحّار ولم يُعلّله ولم يذكر ما اراد به ونسبه الى بعض كلب وقال : انشد الفراء قال ابن بري البيت للمغيرة بن حبناء يخاطب أخاه صخراً وكنيةُ صخر ابو ليلى وقبله . . .

وهذا يعني ان البيت ورد في اللسان وهو متدافع النسبة .

أما البيت الذي ورد في [ذرأ] فهو منسوب صراحة الى صخر بن حبناء اخ الشاعر المغيرة ولكن صاحب المعجم ادخله في شواهد المغيرة وهو وهم صريح. وذكر بيتاً في [أذي] وهي ثلاثة اشطار .

* ابن مُفرّغ الحميري :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [هزم] و [منجنون] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من اربعة في [عدس] ولم اجد في [قفا] . شاهداً ويبدو أن وهم الطباعة قد لحق والصحيح [فقا] . ولم اجد شواهد في [مجن] و [دمي] وفي [سوا] شطر وليس بيتاً .

* أخت مُقَصِّص الباهلية :

أخلّ صاحب المعجم بذكر هذه الشاعرة التي أورد لها صاحب اللسان شاهداً في [قضب] .

* المفضل النكري :

١- اخلّ صاحب المعجم بذكر خمسة شواهد أوردها صاحب اللسان

في [عكر] و [حنق] و [علق] و [زبى] و [هدى] وبذكر شطر في [بند] و بقسيم بيت في [سحق] .

٢- ألم أجد في [حنف] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم ووجدت في [سير] بيتين بدلاً من بيت .

* مَقّاس العائذي :

أخلّ صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [ولى] . وفصل بين مقاس العائذي ومقاس بن عمرو وهما شاعر واحد . وكان منهج البحث يقتضي أن يشير الى هـذا التداخـل ويكشف عن الأسباب التي تحمله على توحيد الأسمين من خلال دراسة الابيات وتشابه القوافي والوقوف على اصول القصائد وغيرها من الأسباب التي توضح هذا التداخل .

* ابن مقبل :

١- اخل صاحب المعجم بذكر خمسة عشر بيتاً في [عفج] و [هرج] و [أفح] و [زنبر] و [ضرر] و [قطع] و [ترق] و [سرل] و [قول] و [ديم] و [قدم] و [حرن] و [ذقن] و [وهوه] و [حجا] واخل بذكر بيتين في [سجن] .

٢- أخلّ بذكر ستة اشطار في [هرت] و [نقع] و [سنف] و [خوق] و [سخن] و [سدا] .

٣- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [رزأ] و [هرأ] و [بوب] و [رجج] و [عمد] و [يسر] و [رأس] و [طرفس] و [ذوق] و [بين] و [ثرا] و [عنا] وذكر بيتين بدلاً من ثلاثة في [أرب] و [قصر] وذكر بيتين بدلاً من بيت في [حزن] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [عكا] .

٤- لم اجد شواهد شعرية في مواضع اشار اليها صاحب المعجم وهي [كاب] و [هزج] و [زنر] و [رجل] و [شجن] و [هوه] و [هجا]

و [هجا] و [عسا] ولم أجد اشطاراً اشاراليها في [نفــع] و [هوق] .

* المُقْعَد بن عمرو :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً متدافع النسبة في [حلق] .

** ابو مكعب الاسدي :

ذكر صاحب المعجم عبارة « بيت واحد : (؟) » ولم يشر الى موضع الشاهد وعند متابعتي وقفت عليه في [عرج] . ووجدت في بور . قال ابو مكعت الاسدي واسمه مُنقذ بن خنيس وقد ذكر أن ابن الصاغاني قال ابو معكت اسمه الحرث بن عمرو قال وقيل هو لمنقذ بن خنيس وذكر البيت .

* ابو الملثم (صخر) :

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شطراً في [قفر] .

* مُلحة الجرمي :

أخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات في [قرد] . وهي متدافعة بينه وبين عدي بن الرقاع .

وفي [زرر] نسب الشاهد الى عدي بن الرقاع والى ملحة الجرمي ولم يشر الى هذا الاختلاف في النسبة صاحب المعجم وكذلك في [عجم] . تدافعت نسبة الشاهد بين ابن ميادة وملحة ولم نجد لهذا الاختلاف اشارة عند الباحث .

* الملقطي :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [كظم] .

* مُليح الهُذلي :

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات في [سدف] و [محن]

و [نوى] وشطر في [زرف] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [حتم] وبيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [مرع] وبيتاً بدلاً من شطر في [توج] و [دلج] .

• **المزق العبدي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات وردت في [نسف] و [طرق] و [وكن] ووهم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [مزق] .

• **مُنازل بن فُرعان :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [جعد] .

• **المنخل اليشكري :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [عكب] .

• **منظور بن مرثد الاسدي**

يبدو ان اسم هذا الشاعر ورد بصيغ مختلفة فهو يأتي منظور بن حبة الاسدي ومنظور بن مرثد الاسدي ومنظور بن مرثد الفقعسي ومنظور بن حبة ومنظور الاسدي وصاحب المعجم أفرد لضربين من هذه الاسماء هما منظور بن حبة ومنظور بن حبة الاسدي ولكنه عندما تحدث عن منظور بن مرثد الاسدي أدخل شواهد قدمت باسمَ منظور بن حبة مع شواهد هذا الشاعر كما وقع في [شمج] .

ان هذا الخلط الواضح كان يوجب على الباحث أن يعرض لهذه الظاهرة ويقف عندها ويشير الى هذه الاختلافات ويوحد الشواهد ليقدم لنا ايضاحاً او تفسيراً أو توحيداً لهذه الشواهد . ومع هذا فقد اخل في موضعين هما [أدب] و [نتم] .

وقد وجدت تحريفاً آخر في اسمين وردا في اللسان هما ابو منصور الاسدي الذي أورد له صاحب اللسان شاهدين في [عكس] و [دأض] . ومنصور بن مرثد الاسدي الذي اخلّ بذكره صاحب المعجم وأورد له صاحب اللسان شاهداً

في [عصر] واعتقد أنهما صيغة أخرى من صيغ التحريف التي لحقت بشاعرنا منظور الاسدي وهي محاولة كان الباحث الكريم صاحب المعجم أولى بتحقيقها والوصول الى نتيجة تكشف عن هذا اللبس الغريب الذي لحق بهذا الشاعر والله أعلم

* **منفوسة بنت زيد الفوارس :**

قال صاحب المعجم بعد ذكر اسم الشاعرة (زوجـة قيس بن عاصم والاشعار مشتركة بينها وبين زوجها) . وعند مراجعتي مواضع الشواهد وجدتها مشتركة والعبارات المكررة هي قال قيس بن عاصم المنقري واخذ صبياً من أمه يُرقصه وامه منفوسة بنت زيد الفوارس والصبي هو حكيم ابنه وقال صاحب اللسان في [هلف] . بعد أن روى البيتين المكررين قال ابن بري : المرأة التي ذكر هي منفوسة بنت زيد الفوارس قال والشعر لزوجها قيس بن عاصم وللشاعرة ثلاثة أشطر غير هذه الابيات وفي [عمل] قال صاحب اللسان وعَمَلٌ اسم رجل قالت امرأة ترقص ولدها وذكر بيتاً ثم قال : قال ابن بري : قـال ابو زيد الذي رقّصه هو أبوه وهو قيس بن عاصم واسم الولد حكيم واسم أمه منفوسة بنت زيد الخيل واما الذي قالته أمه فهو وذكر الثلاثة اشطار .

من هذا العرض يتضح لنا أن الاجماع على البيتين المكررين هما لقيس بن عاصم والاشطار لمنفوسة بنت زيد الخيل . وكان بالامكان ان يفرد لمنفوسة حقل ولقيس بن عاصم حقل ويذكر فيهما ما ينسب لكل واحد كما جرت العادة في بقية الاسماء .

* **منقذ بن خُنيس :**

هو الشاعر ابو مكعت أو مكعب الذي وضع صاحب المعجم علامة استفهام بعد اسمه ولم يذكر له شواهد . يراجع في الفصل الخامس من هذه المقالة .

* **ابو المنيع الثعلبي :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً

في [اصفعد] .

* ابو مهراس :

أخل صاحب المعجم بذكر بيت ذكره صاحب اللسان في [فرعل] .

* المُهلهل بن ربيعة :

١- أخل صاحب المعجم بذكر بيت ذكره صاحب اللسان في [قد] وبيت متدافع النسبة بين عبيد والمهلهل في [كدش]

٢- ووهم فذكر بيتين بدلاً من ثلاثة في [ذنب] وبيتاً بدلاً من بيتين في [أبن] .

* ابو المهوش الاسدي :

١- أخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة أبيات أوردها صاحب اللسان في [لقم] وهي متدافعة النسبة بينه وبين يزيد بن عمرو بن الصعق .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [اصف] و [خصا] و [عجا] .

* مؤرج :

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شطراً في [حمم] وشاهداً في [نَهى] .

* ميّة بنت ضرار الضبية :

وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من اربعة في [أشر] وبيتاً بدلاً من خمسة في [زهف] .

* الميدان الفقعسي :

أخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان بيتاً متدافع النسبة بينه وبين الكميت بن معروف في [دلم] .

• ابن ميّادة :

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات أوردها صاحب اللسان في [برد] و [خرط] و [نصف] و [ضون] وبيتين في [بهر] . وفي [عمد] بيتان متدافعا النسبة بينه وبين ابن مقيل .

٢ـ لم أجد شاهداً في [نجح] و [نصر] كما أشار صاحب المعجم

٣ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [نجح] و [نفح] و [عذر] وبيتاً بدلاً من ثلاثة في [هشم] . وبيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [جلذ] و [رفل] .

• النابغة الجعدي :

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر سبعة عشر بيتاً أوردها صاحب اللسان في [قفز] و [شمس] و [حمض] و [ذعع] و [حلق] و [ملق] و [نهق] و [جدل] و [جول] و [حمل] و [حول] و [دجل] و [رجل] و [رحل] و [رمل] و [برا] و [صبا] .

وبذكر بيتين في كل من الشواهد الآتية [حصص] و [أول] و[حجل] و [رفل]وبذكر ثلاثة أبيات في[خلل] وبذكر اربعة اشطار في[سهب] . و [أول] و [قحم] و [عنن] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [رحب] و [نقب] و [مرح] و [ولد] و [دعر] و [أوس] و [نعش] و [قطط] و [وقف] و [صلل] و [عقل] و[قبل] و [هيل] و[رفن] و [مرن] و[أتي] وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [طرب] و [شرب] و [كأس] و [عنن] .

وذكر ثلاثة ابيات بدلاً من اربعة في [شعب] و [عرى] .

وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [رسن] و [ضأن] و [سخا] و [عنا]

وذكر بيتين بدلاً من بيت في [فرش] .

٣- لم أجد شواهد في المواضع التي اشار اليها وهي [قفز] و[هصص] و[حمد] و [ضعع] و [مهق] .

* النابغة الذبياني :

١- أخل صاحب المعجم بذكر تسعة عشر بيتاً وردت في [حرث] و[رمث] و[سبد] و[مرذ] و[برر] و[حرر] و[أنس] و[حوش] و[نبغ] و[قذف] و [قوق] و [جذم] و [حمم] و [زعم] و [سلم] و [بين] و [دثن] و [أضا] و [ها] وأخل بذكر تسعة وعشرين شطراً وردت في [وضأ] و [جرب] و [ذبب] و [عثلب] و [عصب] و [نصب] و [بعد] و [جسد] و [خضد] و [صفد] و [عمد] و [قرمد] و [سفسر] و [طير] و [قرر] و [نذر] و [رسس] و [فرش] و [قعع] و [سرا] و [فدى] و [قعا] و [نأى] و [خشف] و [صدق] و [أول] و [أمم] و [لمم] و [ثفا] .

وأخل بذكر شطرين في [زعم] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [وطأ] و [أشب] و [مرر] و [نذر] و [رقش] و [جفف] و [حرم] و [سوم] و [سكن] و [ضمن] و [أخا] و [ثني] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [قتد] و [ضمر] و [حول] و [سحل] و [عقل] و [أضم] و [عجم] و [دلا] و [رقا] و [عيا] و [فني] و [ولي] .

وذكر بيتاً بدلاً من خمسة في [طور] و [كتم] وذكر بيتين بدلاً من بيت في [عقد] و [شرع] و [فدي] و [قعا] و [قبس] .

وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [مشي] .

١ـ لم أجد شواهد من الابيات في المواضع التي ذكرها صاحب المعجم وهي :

[خرث] و [ذبح] و [خرر] و [طير] و [جوش] و [نحط] و [هدف] و [زول] و [وكل] و [غدا] .

ولم اجد شواهد من الاشعار في المواضيع التي ذكرها وهي :

[جمح] و [قرد] و [مرر] و [قرش] و [نتع] و [خسف] و و [زعن] .

* **ناشرة بن مالك .**

أخل صاحب المعجم بذكر بيت أورده صاحب اللسان في [عبث] بعد أن قال واما قول السعدي وذكر البيت ، ثم قال : قال ابن بري هذا البيت لناشرة بن مالك يرد على المخبل السعدي وكان المخبل قد عيره باللبن . وهو البيت الذي اشار اليه صاحب المعجم في [خصف] .

* **امرأة ابن ناعصة :**

أخل صاحب المعجم بذكر هذه الشاعرة التي اورد لها صاحب اللسان خمسة اشطار في [حذل] ترثي فيها زوجها .

* **نافع بن لقيط الاسدي :**

أخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة شواهد أوردها صاحب اللسان في [هيأ] و [نعج] و [سفا] .

* **نبهان :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان بيتاً في [حلبس] وبيتين في [رطس] .

* **نجاد الخيبري :**

١ـ اخل المعجم بذكر ثلاثة اشطار وردت في [هقر] وخمسة اشطار

في [عملط] وشطرين في [فططط] .

٢ـ لم أجد شواهد في [فيأ] و [نعج] كما ذكر صاحب المعجم .

٣ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [عكك] .

- **النجاشي :**

اخل صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان خمسة ابيات في [دبج] و [جشش] و [صرف] و [عيف] و [هزم] .

- **ابو النجم العجلي :**

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر شطرين في كل من الشواهد الآتية :

[كتب]و[حذر]و[خفر]و [دهر]و [حرش]و [عطط]و[صمع] و [رغل] و [قصمل] و [مغل] و [هذرم] و [يمن] و [دره] و و [جدا] و [تا] واخلّ بذكر شطر في [أجأ] و [بذأ] و [خشب] و[عشب] و [عصب] و [عنكب] و [كبب] و [كثب] و [بهت] و [ردح]و [صرح]و [فصد]و [ترمز]و[رجز]و[فرع]و [أنف] و [عفق] و [حجل] و [شول] و [دحم] و [عجرم] و [عرهم] و [عمم]و [قذم]و [لمم]و [جنن]و [فلن]و [صوا]و [روى] .

٢ـ ووهم فذكر شطرين بدلاً من ثلاثة اشطار في [نفخ] و [عود] و[ظهر] و [قعس] و [خطط] و [شطط] و [نصع] و [خرف] و [بقل] و [صعفق] و [جزل] و [عتل] و [طمم] و [فلن] وذكر شطرين بدلاً من اربعة في[قرر] و[أرض] و [عمثل] و [ما] . وذكر شطرين بدلاً من خمسة في [قنزع] . و [ويه] وذكر شطرين بدلاً من شطر في [زهم]و [جرا]و[حقا]و[حيا]و [خوا]و[سقى]و[شفي] و [وحي] .

٣ـ لم اجد شواهد في المواضع التي اشار اليها صاحب المعجم في هفف و [نوم] و [حدا] .

• ابو نخيلة السعدي :

١ـ أخلّ صاحب المعجم بذكر بيت في [رعف] وشطرين في كل من [فستق] و [بقل] و [قسا] و [مضى] وثلاثة اشطار في [رثا] وشطر في كل من [خيت] و [نمى] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [نكث] و [نشر] و [عنقش] و [زحلف] و [حنك] و [علجم] و [بدا] . وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [غرا] و [قذى] . وبيتاً بدلاً من خمسة اشطار في [نشر] .

٣ـ لم اجد في [رفع] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

• نصيب الاسود :

١ـ أخلّ صاحب المعجم بذكر بيت في كل من [بنق] و [زمـم] وفي [هدل] بيت متدافع النسبة بين نصيب وابي وجزة ، وفي [نزا] ثلاثة ابيات متدافعة بينه وبين بشار .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [أمس] و [غنا] . وبيتاً بدلاً من اربعة في [نفر] .

• نصير :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شطراً في [رأى] .

• النضري :

اخلّ صاحب المعجم بذكر هذا الشاعر الذي أورد له صاحب اللسان شاهداً في [تلل] .

* نضلة بن خالد الاسدي :

أورد صاحب اللسان ذكر هذا الشاعر في [عدا] وهو يستشهد ببيت شعر لم ينسب وبعدها قال : قال ابن بري : هذا البيت يروى لزُرارة بن سُبيع الاسدي وقيل هو لنضلة بن خالد الأسدي ثم قال : وقال ابن السيرافي هو لدودان بن سعد الاسدي ولم أجد اشارة لاسم هذا الشاعر عند صاحب المعجم .

* النظار الفقعسي الاسدي :

* النظّار بن هاشم الاسدي :

أفرد صاحب المعجم لكل واحد منهما حقلاً فأفرد للأول موضعين وللثاني موضعاً ولو رجع الباحث الكريم لهذين الشاعرين لوجدهما شاعراً واحداً فبني فقعس من بني أسد وقد مرّ كثير من الشعراء الذين كانت اسماؤهم ترد مشفوعة بالاسدي تارة وبالفقعسي تارة أخرى . واذا رجعنا الى الشواهد الثلاثة التي وردت وجدنا الشاهد المنسوب في[صيت]والمنسوب للنظار الفقعسي هو:

قال النظّار الفقعسي :

كأنني فوقَ أقبٍّ سَهوَق   جأبٍ اذا عَشّر صَاتِ الأرنانْ

واذا رجعنا الى الشاهد المفرد المذكور في [عقد] والذي أفرده الباحث ونسبه الى النظار بن هاشم الاسدي وجدناه .

صاحَ بهم على اعتقادِ زمان   مُعْتَقَدٌ قَطّاعُ بين الأقران

وهما ينتسبان الى قصيدة واحدة . وكان الأولى بالباحث وهو يهيء أو يجمع هذه الشواهد أن يقف عند هذه الملاحظات التي توفر على الباحثين مثل هذا التشتت وتؤكد سلامة البحث وجدّية المتابعة .

* النعمان بن عدي :

أخل صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [جسق] . وفي [ندم] بيتان قال عنهماصاحباللسان قال النعمان بننضلة العدوي ثم قال : ويقال للنعمان بن

عدي وكان عمر استعملهم على ميسان [وذكر البيتين] .

* نَفر (جد الطرماح) :

أخل صاحب المعجم بذكر بيت ورد في [بهش] .

* نقّادة الاسدي :

أخل صاحب المعجم بذكر ثلاثة اشطار في [ضيط] وشطر ين في [علط] وشطرين في [لقط] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة اشطار في [بجج] و [فرط] ولم أجد في [لغط] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

* النمر بن تولب :

١- أخل صاحب المعجم بذكر ستة ابيات وردت في [قاب] و [مشر] و [حلف] و [نهق] و [جمم] و [سسم] . وفي [جوخ] وجدت بيتاً قال عنه صاحب اللسان وعجز هذا البيت استشهد به الجوهري وتممه ابن بري ونسبه الى النمر بن تولب . وفي [كيس] نسب بيتان الى ضمرة بن ضمرة بن جابر قطن وقال صاحب اللسان : وذكر ابن دريد ان هذا للنمر ابن تولب في بني سعد وهم أخواله . وأخل بذكر شطر في كل من [عول] و [حكم] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [روح] و [كيس] و [دقر] و [درر] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [جحن] .

٣- لم أجد شواهد للشاعر في [حشش] و [خلف] و [حمم] و [سمم] كما ذكر صاحب المعجم .

* نهار بن توسعة :

البيت الذي اشار اليه صاحب المعجم في [ظنن] متدافع النسبة فقد نسبه صاحب اللسان لعبدالرحمن بن حسان وبعد رواية البت قال :

ونسب ابن بري هذا البيت لنهار بن توسعة . وكان عليه أن يشير الى هذا الاختلاف في النسبة .

• **نهشل بن حري :**

١- أخل صاحب المعجم بذكر بيت أورده صاحب اللسان في [دحح]

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [نأش] . ولم أجد في [ضحح] شاهداً كما ذكر صاحب المعجم .

• **في اللسان علمان احدهما نَهيك الفزاري ، ونُهيكة الفزاري :**

أورد صاحب اللسان للاول شاهداً في [حسب] وللثاني شاهداً في [جعع] ويبدو ان صاحب المعجم جمعهما تحت اسم واحد علماً بأن الشاهدين لايلتقيان في القافية وكان الأولى أفرادهما أو الاشارة الى هذا الاختلاف الذي ثبته صاحب اللسان .

• **نهيك بن قعنب :**

في موضع الشاهد [دجن] الذي ذكره صاحب اللسان لم أجد شاعراً هذا الاسم ولكن الذي وجدته هو قال ابن أم قعنب وهو ليس نهيكاً .

• **هانيء بن توبة الشيباني (الشويعر الحنفي) :**

أخل صاحب المعجم بذكر بيت أورده صاحب اللسان في [شعر]

• **هبيرة بن عمرو النهدي :**

أخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [شمم] .

• **الهجيمي :**

أخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [غسا] ونسب له ولابي سدزة الاسدي شاهداً في [يقن] .

• **الهدار :**

هُدبة بن الخشرم :

١- أخل صاحب المعجم بثلاثة ابيات وردت في [وجب] و [نزع] و [قرزل] .

٢- ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [بلتع] و [ورق] وذكر بيتاً بدلاً من ثلاثة في [قدر] وبيتاً بدلاً من عشرة اشطار في [فغم] اما الشاهد الذي ورد في [حور] فقد قال صاحب اللسان : قال هُدبة ونسبه ابن سيدة لابن أحمر وكان الأجدر بالأخ الباحث ان يشير الى هذا الاختلاف بالنسبة كما ورد في اللسان .

• **الهذلي :**

أورد صاحب اللسان مائتين وستة ابيات شعرية منسوبة الى (الهذلي) مجردة ولابد ان تكون هذه الكمية الشعرية التي استشهد بها (ابن منظور) في مائتين وستة مواضع لها وزنها في التدليل والاستشهاد ولابد أن تأخذ رسالة الدكتور الايوبي هذا بنظر الاعتبار فتنسب هذه الابيات الى اصحابها من خلال المقابلة والمطابقة .

لأن المعروف ان هذا اللقب يُقصد به احد الهذايين الذين تعارف على ذكرهم اكتفاء باللقب وعند ها تزاد هذه الكمية لتضع هذا الشاعر في الموضع المناسب في سلسلة شعراء الاستشهاد .

إن اغفال هذا العدد من الابيات قد أضاع مادة شعرية أخرى يمكن الاستفادة منها .

• **هذيل الاشجعي (من شعراء الحجازيين)**

أخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان بيتين في [بيض]

* ابن هرمة :

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر شاهدين وردا في [مأج] و [شبا]

٢ـ لم أجد شواهد في [معج] و [سبا] كما أشار الباحث الكريم

٣ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [هدأ] و [طير] و [ولغ] و [نصف] و [خلق] و [بين] وذكر بيتاً بدلاً من شطر في [خيل] وبيتين بدلاً من بيت وشطر في [طفل] .

٤ـ قال صاحب اللسان بعد أن أورد البيتين في [ولغ] قال ابن بري هو ابن هرمة ونسبه الجوهري لأبي زبيد الطائي . ولم يشر الباحث الكريم الى هذا الاختلاف في النسبة .

٥ـ أخل بذكر شطرين وردا في [زعب] و [خوت] .

* هُمام بن مُرّة :

أخل صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان اربعة ابيات تدافعت نسبتها بينه وبين عبدالله بن همام السلولي في [رهن] .

* هميان بن قحافة السعدي :

١ـ أخل صاحب المعجم بذكر خمسة اشطار في [سمهج] وثلاثة اشطار في [خلنج] و [جمل] وشطرين في [توج] و [رجج] و [سبج] و [نشج] و [شبرم] وشطر في [حضلج] و [صهج] و [وثج] و [كردس] و [سحبل] و [حنا] .

٢ـ ووهم فذكر شطرين بدلاً من شطر في [صهب] و [أول حرف الجيم وذكر شطرين بدلاً من ثلاثة اشطار في [نخخ] و [حمض] [بيض] و [عضيه] و [ثمم] وشطرين بدلاً من اربعة في [ضمج] .

* هند بنت النعمان بن بشير :
قال عنها صاحب اللسان وكانت شاعرة .
اخلَّ صاحب المعجم بذكر بيت اورده صاحب اللسان في [سلل] .
* ابو الهندي (عبدالمؤمن بن عبدالقدوس)
١ـ اخل صاحب المعجم بذكر اربعة شواهد شعرية أوردها صاحب اللسان في [كسس] و [بهط] و [قدم] و [مكن] .
* هَنيّ بن احمر الكناني :
ثَبّت صاحب المعجم اسم هذا الشاعر وقال (٥ ابيات ؟ ؟)
ويبدو أن الأصول التي جمع فيها رسالته قد فُقدت . وقد عرفت هذه الاشارة دون أن يذكر الباحث الكريم هذه الحقيقة . وأود أن أشير الى موضع الشاهد الذي وردت فيه الابيات وهي ستة وليست خمسة في [حيس] .
وقال صاحب اللسان : وقيل هو لزُرافة الباهلي :
* هَوبر الحارثي :
اخلَّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [مها] و [هبا] .
* هَوْذَة بن عَوْف العامري :
اخلَّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [شكر] .
* ابو الهيثم :
اخلَّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهدين في [صدد] و [سمر] وفي [ظفر] ثلاثة اشطار
* ابو الهيثم الثعلبي :
اخلَّ صاحب المعجم بذكر شاهد في [مسح] .
* ابو وجزة السعدي :
اخلَّ صاحب المعجم بذكر ستة أبيات وردت في [قزح] و [أفــق]

و [مسك] و [صلل] و [رغم] و [يسم] . وبذكر شطرين في ورد [ورب] و [غلث] .

٢– ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [جنب] و [عهل] و [رعم] وبيتاً بدلاً من بيتين في [هدج] و [عذر] و [شوك] و [مكن] وبيتاً بدلاً من ثلاثة ابيات في [ليت] و [هزز] .

٣– لم اجد شواهد في [قرح] و [عفف] كما ذكر صاحب المعجم .

• **ابن وداعة الهذلي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [خضض].

• **ودّاك بن ثُميل :**

اخلّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [تبع] .

• **ابو الورد الجعدي :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر شاهدٍ ورد في [زرم] .

• **ورقة بن نُوفل :**

اخلّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً متدافع النسبة في [جمد] فقد روى بيتاً منسوباً لأمية بن ابي الصلت . وبعده قال : ونسب ابن الاثير عجز هذا البيت لورقة بن نوفل . وذكر له شطرا في [جدع].

• **وضاح اليمن :**

اخلّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات ورد بيتان في [وسى] وبيت في [لمم] .

• **وعاس :**

اخلّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شطراً في [شكب].

• وعلة الجرمي :

وهم صاحب المعجم فذكر ستة ابيات وأشار الى سبعة مواضع لشواهد الشاعر في اللسان وهو أمر غير مقبول .

وأخلَّ بذكر شاهدين أوردهما صاحب اللسان في [برص] و [قوع]

• الوقاف :

اخلَّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان شاهداً في [وحش] متدافع النسبة ، ، وذكر الوقاف العقيلي ولم أجد هذا الشاهد في عداد شواهده .

• الوليد بن عقبة :

اخلَّ صاحب المعجم بذكر ثلاثة ابيات وردت في اللسان في [دمشق] و [سدم] و [عنا] .

• ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي :

اخلَّ صاحب المعجم بذكره وأورد له صاحب اللسان سبعة ابيات في [عجه]

يزيد بن الحكم الثقفي :

١ـ أخلَّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [سوا] و [هوا] .

٢ـ ووهم فذكر بيتاً بدلاً من شطر في [صدق] و [نفق] .

• يزيد بن الحكم الثقفي :

١ـ اخلَّ صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات وردت في اللسان ، ور منها بيتان في [سندس] وبيت في كل من [عدا] و [هدي] .

• يزيد بن الخذّاق العبدي :

اخل صاحب المعجم بذكر اربعة ابيات وردت في االسان ورد منها بيتان في [سندس] وبيت في كل من [عدا] و (هدى)

• يزيد بن عمرو بن الصعق :

١ـ وهم صاحب المعجم فذكر بيتاً بدلاً من بيتين في [فرش] و [لقم]

٢ـ قال صاحب اللسان في [لفف] بعد أن ذكر بيتين قال ابن بري : يقال ان هذين البيتين لابي المُهوِّس الاسدي ويقال انهما ليزيد بن عمرو بن الصعق قال وهو الصحيح قال : وقال أوس بن غاماء يرد على ابن الصعق . . وكان الأولى بالباحث الكريم ان يشير وهو يقف عند هذا الشاهد الى أوجه الاختلاف التي وردت في اللسان وينهي الى صحة نسبتهما الى الشاعر استناداً الى صحة نسبتهما الى الشاعر استناداً الى وجاهة الرأي الذي ذكره صاحب اللسان :

٣ـ اخلّ صاحب اللسان بذكر بيتين وردا في [صقل] .

* **يزيد بن معاوية :**

١ـ اخلّ صاحب المعجم بذكر بيتين وردا في [بيع] .

٢ـ الاشارة التي اوردها صاحب اللسان في [بيع] جاءت غُفلاً من الاختلاف الذي ذكر في اللسان بعد ايراد البيت حيث قال : قال ابن بري هو للأحوص أو يزيد بن معاوية او عبدالرحمن بن حسّان . ولم تكن نسبة البيت خالصة الى يزيد كما وردت في المعجم وكان الأولى أن يشار الى هذا التدافع بالنسبة حرصاً على أصول النص كما ورد .



الفهرس

البحـوث

الصفحة

الدكتور صالح احمد العلي

نقل كتب العلوم الى العربية ٣

اللواء الركن محمود شيت خطاب

ارمينية ، قبل الفتح الاسلامي وفي أيامه ٤٥

الدكتور كامل حسن البصير

من مشكلات اللغة الكردية وادبها ٩٦

ميخائيل عواد

اعضاء الانسان المصطنعة عند العرب ١١٤

الدكتور يوسف حبي

ايوب الأبرش الرهاوي ١٢٤

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

السلوك الطبي للاطباء العرب والمسلمين ١٤٣

الدكتور عبدالحسين الفتلي

ابو جعفر الطبري ومنهجه في القراءات ١٧٥

الدكتورة ناجية عبدالله ابراهيم

المفهوم اللغوي والاصطلاحي للريف والسواد عند العرب ٢١٥

الدكتور محمد جابر فياض

التورية ، وخلو القرآن الكريم منها ٢٣٢

هلال ناجي (تحقيق)

شعر الببغـاء ٢٨٠

عرض الكتب

الدكتور نوري حمودي القيسي

التمام ، على ماجاء في معجم شعراء لسان العرب من أوهام ٣١٦

مجلــة
المجمع العلمـي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد

(تدفع قيمـة الاشتراك سلفاً)

تطلب المجلة من المجمع ومن الدار الوطنية للتوزيع ـ بغـداد

• • •

توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- **البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .**
- **البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .**

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٨٣

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٤٠٠٠ / ١٩٨٣م

JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY

VOLUME 34

Part (2)

PUBLISHED BY

THE IRAQ ACADEMY

BAGHDAD

1983